



ديوان معروف الرصافي

معروف الرصافي

ديوان معروف الرّصافي

تأليف
معروف الرّصافي

مراجعة
مصطفى الغلايني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٩٧٥ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩١٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١٩	الجزء الأول
٢١	الكونيات
٢٣	في مشهد الكائنات
٢٧	العالم شعر
٣٥	تجاه اللانهاية
٣٧	من أين وإلى أين؟
٤١	نحن على منطاد
٤٧	كلمة معتبر
٥١	ألكني يا ضياء
٥٥	الأرض
٦١	الاجتماعيات
٦٣	نحن والماضي
٦٧	معترك الحياة
٧١	أم اليتيم
٧٧	السجن في بغداد
٨٣	الدهر والحقيقة
٨٧	في سبيل حرية الفكر
٨٩	إلى أبناء المدارس

٩٣	المطلّقة
٩٩	اليتيم في العيد
١٠٥	سياسة لا حماسة
١٠٧	إلى الشبان
١١١	الدهر
١١٥	إلى أبناء الوطن
١١٩	في المعهد العلمي
١٢١	في منتدى التهذيب
١٢٥	في رحلة
١٢٧	الفنون الجميلة
١٢٩	الحياة الاجتماعية والتعاون
١٣١	في سبيل الوطنية
١٣٣	في المدرسة: دار التفيض
١٣٥	المدارس ونهجها
١٣٧	العلم والإجازة فيه
١٤١	العلم
١٤٥	دار الأيتام أو مدرسة شنلّر في القدس
١٤٧	الفقر والسقام
١٥٧	تنبيه النيام
١٦١	سوء المنقلب
١٦٧	العادات
١٧١	بعد الدستور
١٧٥	إيقاظ الرقود
١٨١	الصديق المضاع
١٨٥	بعد البين
١٨٩	يقولون
١٩١	في سبيل الوطن
١٩٥	بين تونس وبغداد

١٩٧	في حفلة شوقي
١٩٩	الأمة العربية: ماضيها وبقاها
٢٠١	في إيلياء
٢٠٣	تجاه الريحاني
٢٠٥	بني الأرض
٢٠٩	الحمد للمعلم
٢١١	عرس مصر
٢١٣	من مضحكات الدهر
٢١٥	الشارع الكبير ببغداد
٢١٧	على الخوان
٢١٩	تحية سركيس
٢٢١	إلى البلاغ
٢٢٣	في حفلة الزهاوي
٢٢٥	إلى صاحبة الحياة الجديدة
٢٢٧	إلى المتعلم
٢٢٩	اليتيم المخدوع
٢٣١	ميت الأحياء وحي الأموات
٢٣٣	نحن في بغداد
٢٣٥	رقية الصريع
٢٣٩	مثنيات شعرية
٢٤٣	إلى المتقاعدين من ضباط الجيش
٢٤٥	دار تربية الطفل
٢٤٧	خزانة الأوقاف
٢٤٩	التعصب الوطني للأدب
٢٥١	عتاب وولاء
٢٥٥	مناجاة وشكوى
٢٥٧	في حفلة الميلاد النبوي
٢٦١	إلى العمال

٢٦٣

الفلسفيات

٢٦٥

خواطر شاعر

٢٦٩

وجه ابن آدم

٢٧١

ما وراء القبر

٢٧٣

لو

٢٧٥

حقيقتي السلبية

٢٧٧

حياة الوري

٢٧٩

حبذا النوم

٢٨١

بين الروح والجسد

٢٨٣

من نواميس الحياة

٢٨٥

الوصفيات

٢٨٧

أنا والشعر

٢٩١

الغروب

٢٩٥

ليلة في ملهى

٢٩٩

في القطار

٣٠٣

الأرملة المرضعة

٣٠٧

عهد الصبا أو نهر الحياة

٣١١

السفر في التومبيل

٣١٥

من ويلات الحرب

٣١٩

على جسر مود

٣٢١

على البسفور

٣٢٣

إلى غرة آل سعدون

٣٢٥

الوسام وفخامة رئيس الوزراء

٣٢٧

نحن

٣٢٩

في ملعب كرة القدم

٣٣١

الإحسان

٣٣٣

الجرائد وما كانت عليه في الآستانة

٣٣٥

وقفة في الروض

المحتويات

٣٣٧	ما رأيت في بك أوغلي
٣٤١	السد في بغداد
٣٤٥	الساعة
٣٤٧	ذكرى لبنان
٣٥١	لبنان
٣٥٣	في مكتبة الأوقاف
٣٥٥	آل الجميل
٣٥٧	البلبل والورد
٣٥٩	أغرودة العنديل
٣٦١	الصيف
٣٦٣	الشتاء
٣٦٥	التلغراف أو الأسلاك البرقية
٣٦٧	بيروت والتباريس
٣٦٩	في المستشفى الملكي
٣٧١	إلى عبد اللطيف باشا المنديل
٣٧٣	يا دار قسطنطين
٣٧٥	فلكس فارس
٣٧٧	مليكة غناء العرب
٣٧٩	إلى جميع الغواني
٣٨١	قصر البحر
٣٨٣	محاسن الطبيعة
٣٨٧	ليلة في دمشق
٣٨٩	حول البسفور
٣٩١	تأثير التربية
٣٩٣	يقظة الشرق
٣٩٥	إلى القزويني
٣٩٧	إلى حماة الأطفال
٣٩٩	شاعر البشر

٤٠٣	ذكرى المآثر التيمورية
٤٠٥	أبو الطيب المتنبي
٤٠٩	إلى الجواهري
٤١٣	الثناء المخلد
٤١٥	الرصافي يقرّظ كتاباً للزهاوي
٤١٧	الأقول المشرق
٤١٩	وقال هذه الأبيات مترجماً
٤٢١	إلى طه الراوي
٤٢٣	إلى البطل عبد الكريم الريفى
٤٢٥	بداعة لا خلاعة
٤٢٧	في دار النقيب
٤٢٩	الحق المغتصب
٤٣١	تحت تصوير النائب
٤٣٣	إلى عبد الكريم العلاف
٤٣٥	الحريقيات
٤٣٧	وقفة عند شراغان
٤٤١	أم الطفل في مشهد الحريق
٤٤٥	ثالثة الأثافي
٤٤٩	الجزء الثاني
٤٥١	المراثي
٤٥٣	وا صديقه!
٤٥٥	في الملكوت الأعلى
٤٥٩	وا محمداه!
٤٦١	وا شيخاه!
٤٦٣	في موقف الأسى
٤٦٧	ذكرى الرجال من حياة الأمم

المحتويات

٤٦٩	ذكرى الشيخ الخالسي
٤٧٣	على ضريح النائب
٤٧٧	دموع الصداقة
٤٧٩	هلم نبك
٤٨١	دمعة على صديق
٤٨٣	ميتة البطل الأكبر
٤٨٩	ذكرى فتى السعدون
٤٩٣	ابن جبران
٤٩٥	جير ضومط
٤٩٧	أبو الملوك
٤٩٩	الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية
٥٠١	غريق دجلة
٥٠٣	شهداء الطيران
٥٠٥	إلى أمين نخلة
٥٠٧	في يوم أبي غازي
٥١١	ذكرى الكاظمي
٥١٣	رثاء شوقي شاعر مصر الأكبر
٥١٥	نسائيات
٥١٧	المرأة في الشرق
٥١٩	نساؤنا
٥٢١	حرية الزواج عندنا
٥٢٣	المرأة المسلمة
٥٢٥	التربية والأمهات
٥٢٩	المهجور أو مشهد الحسد في الحزن
٥٣١	إلى الحجابيين
٥٣٣	هوان المرأة عندنا
٥٣٥	التاريخيات

٥٣٧	ضلال التاريخ
٥٤١	جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي
٥٤٩	الحرب في البحر أو وقعة توشима بين الروس واليابان
٥٥٣	هولاكو والمستعصم
٥٥٧	أبو دلامة والمستقبل
٥٦١	أطلال العلم أو المدرسة النظامية في بغداد
٥٦٣	في سلانيك
٥٦٧	وقفه عند يلدز
٥٧١	تموز الحرية
٥٧٣	المجلس العمومي
٥٧٥	يوم العروس
٥٧٧	السياسيات
٥٧٩	إلى الأمة العربية
٥٨٣	شكوى إلى الدستور
٥٨٥	في معرض السيف
٥٨٩	ما هكذا
٥٩٣	في ليلة نابغة
٥٩٧	إلى السلطنة
٥٩٩	الوطن والأحزاب
٦٠١	عند سياحة السلطان
٦٠٣	الحق والقوة
٦٠٥	صبح الأمانى
٦٠٩	نواح دجلة
٦١١	بعد براح الشام
٦١٥	تجاه الريحاني
٦١٩	بعد النزوح
٦٢٣	إلى هرير صموئيل
٦٢٥	مظاهر التعصب في عصر المدنية

٦٢٧	ولسون بين القول والفعل
٦٣١	يا محب الشرق
٦٣٥	إلى بطل الشرق الأكبر
٦٣٧	تجاه الريحاني
٦٤١	في المدرسة الحربية
٦٤٣	العِلْمُ والعَلَمُ
٦٤٥	السجايا فوق العلم وفوق العالم
٦٤٩	الحرية في سياسة المستعمرين
٦٥١	غادة الانتداب
٦٥٣	الفيل والحمل
٦٥٥	دمشق تندب أهلها
٦٥٧	معترك الأهواء
٦٥٩	نفثة مصدور
٦٦١	إخفار الذمم أو عبد العزيز شاويش
٦٦٣	ياسين باشا
٦٦٥	كيف نحن في العراق؟
٦٦٧	في طريقي إلى حلب
٦٦٩	حكومة الانتداب
٦٧٣	الوزارة المذنبية
٦٧٥	يوم الفلوجة
٦٧٧	الإنكليز في سياستهم الاستعمارية
٦٧٩	بين الانتداب والاستقلال
٦٨١	بني وطني
٦٨٣	يوم سنغافورة
٦٨٧	نحن والحالة العالمية
٦٩١	الحربيات
٦٩٣	إلى الحرب
٦٩٩	في طرابلس

٧٠٣	أدرنة
٧٠٧	الجيش بقائده أو هزيمة «لولا برغاز»
٧٠٩	الوطن والجهاد
٧١٣	رؤياي الصادقة
٧١٧	أنشودة الحرب
٧٢١	الشيطان والطلّيان
٧٢٣	المقطّعات
٧٢٥	قصر الحمرا
٧٢٧	يا ضاربًا بالكمّان
٧٢٩	يا دهر
٧٣١	الحقائق الملقنة
٧٣٣	الخطوة الأولى
٧٣٥	وجه نعيم
٧٣٧	المغربي
٧٣٩	صفا لك
٧٤١	إليك عادل
٧٤٣	الكتاب
٧٤٥	من هذا؟
٧٤٧	من مطبخ الدستور
٧٤٩	الوزارة عندنا
٧٥١	عبد اللطيف باشا المنديل
٧٥٣	إلى السباعي
٧٥٥	عفو بعد نفي
٧٥٧	التراموي في الأستانة سنة ١٩٠٩
٧٥٩	لقيتها في الطريق
٧٦١	الدين والوطن
٧٦٣	الحياة والأداة
٧٦٥	يا أيها المفتي

المحتويات

٧٦٧	في معرض الشكر
٧٦٩	عند لعبة البيلارد
٧٧١	السينما الوطني
٧٧٣	عند نشر المعاهدة
٧٧٥	وزراء المعارف عندنا
٧٧٧	قيصر معلوف
٧٧٩	إلى أمين كاملة
٧٨١	إلى عبد الوهاب النائب
٧٨٣	إلى أولي الأمر
٧٨٥	المصور البارع
٧٨٧	الأغنياء والفقراء
٧٨٩	الجهل فضاح
٧٩١	حمام الوزارة
٧٩٣	رخص المناصب
٧٩٥	الناس والملوك
٧٩٧	منزلة المعلم في المجتمع الإنساني
٧٩٩	أم سري
٨٠١	الحزب الحر العراقي
٨٠٣	قال ذو الحزب
٨٠٥	المسلم المصلح
٨٠٧	نجل عبد اللطيف
٨٠٩	عبد الوهاب النائب
٨١١	إلى أمير الكمنجة
٨١٣	إلى محمد الرضا
٨١٥	فخامة الرئيس ووسام الرافدين
٨١٧	في بيروت
٨١٩	نهاده قرّة الأعين
٨٢١	ذات الشعر الأبيض

٨٢٣	رقة قولي
٨٢٥	جو بيروت
٨٢٧	على مقابر الشهداء
٨٢٩	منيرة
٨٣١	يطلب جلنار
٨٣٣	اسمعي لي كلاما
٨٣٥	وقال في عود انكسر
٨٣٧	ضاق الخناق
٨٣٩	وصف البدر عند الإفرنج
٨٤١	إلى أم كلثوم
٨٤٣	أيتها الكعاب
٨٤٥	الشيخ المرائي
٨٤٧	جاهل متكبر
٨٤٩	الطفل الملتحي
٨٥١	فاسقٌ مُراءٍ أو جاهل يدعي العلم
٨٥٣	الأرض
٨٥٥	أيها المشنوق
٨٥٧	بين اليأس والرجاء
٨٥٩	جواب عن كتاب
٨٦١	الغنيُّ غنيُّ النفس
٨٦٣	الشوق
٨٦٥	شكر على صنيع
٨٦٧	لمن الديار؟
٨٦٩	ليالي الأنس
٨٧١	الشمس
٨٧٣	رئيس الدائنية
٨٧٥	راقم وما أدراك ما راقم!
٨٧٧	نقش على الماء

٨٧٩	هوة الموت
٨٨١	رقت بوصف جمالك ...
٨٨٣	قامت تميس
٨٨٥	المكتب
٨٨٧	أقبلت في غلائل
٨٨٩	كل امرئ وصديقه
٨٩١	النفس الأمارة
٨٩٣	الأنس في غير موقعه كدر
٨٩٥	الدمع والنار
٨٩٧	البصرة
٨٩٩	الحر في أغسطس
٩٠١	البرد في كانون
٩٠٣	معلقة وقد قالها ارتجالاً
٩٠٥	قد يطفح اللؤم
٩٠٧	اللؤم يهجو بعضهم
٩٠٩	تجنب
٩١١	في المسرح
٩١٣	شكر ووداع
٩١٥	إلى إيناس الوزير
٩١٧	في مأدبة آل لطف الله
٩١٩	في مأدبة عبد الرحمن عزام بحلولان
٩٢١	في مأدبة نظلة الحكيم
٩٢٣	الكرخي ومن كذب في منعه
٩٢٥	من خواطر الماضي
٩٢٧	صورة
٩٢٩	عصاي الفتية
٩٣١	النشيد الوطني
٩٣٣	إلى عبد الستار القرغولي

٩٣٥	دمعة على قبر الزهاوي
٩٣٧	في مدرسة الإمام الأعظم
٩٣٩	شكر ومديح
٩٤١	القدوم المبارك
٩٤٣	إلى حسين النائب
٩٤٥	إلى الدكتور زكي مبارك
٩٤٧	تخليد العظماء
٩٤٩	بين الرصافي والشيخ الراوي
٩٥١	إلى الشيخ قاسم القيسي
٩٥٣	تقريظ كتاب القيسي
٩٥٥	الرصافي يحيي وفد مصر الشقيقة

الجزء الأول

الكونيات

في مشهد الكائنات

جمالك يا وجه الفضاء عجيب

جمالُك يا وجهَ الفضاء عجيبُ
وعينُك في أم النجوم كبيرة
وما زلتَ تغضيها فنخطئ قصدنا
فيحمرُّ منها في الغدِية مَطْلَعُ
ويخلفها البدر المنير حفيْدُها
وليلُ كأن البدر فيه مَليحة
سريتُ به والبحرُ رهوٌ بجانبِي
فشاهدت فيه الحسنَ أزهرَ مشرقًا
وصدرك يَأبى الانتهاءَ رحيبُ
تضيء على أن الضياء لهيبُ^١
وتفتحها براقَةٌ فنصيبُ^٢
ويصفرُّ منها في العشيِّ مَغِيبُ
وعنها إذا جَنَّ الظلام ينوبُ^٣
أغازلها والنَّيِّراتُ رقيب
وردنُ النسيم الغضُّ فيه رطيبُ^٤
له في العُلا وجهٌ أغرُّ مهيب

^١ لما أثبت للفضاء وجهًا وصدرا في البيت الأول، ناسب أن يعبر عن الشمس التي في الفضاء بقوله: وعينك،

العين لفظ مشترك بين الشمس والبالصرة. أم النجوم: المجرة، و«على» في البيت للمصاحبة بمعنى مع.

^٢ يقال: أغضى الرجل عينه: أي طبق جفنيها، والضمير من تغضيها عائد إلى العين التي هي بمعنى الشمس في البيت المتقدم، وأراد بإغضائها إخفاءها عند الغروب.

^٣ الحفيد: ولد الولد، وجعل البدر حفيدًا للشمس؛ لأنه منفصل عن الأرض المنفصلة عن الشمس، فهو منها بمنزلة ولد الولد.

^٤ سريت به: أي فيه. رهو: أي ساكن.

ورحْتُ وأهلُ الحيِّ في قبضة الكرى وفي الليل صمْتُ بالسكون مشوبٌ^٥
فكنتُ كأنِّي أسمع الصمتَ ساريًا له بين أحشاءِ الفضاءِ دبيبٌ^٦
ولو أنَّ صمْتُ الليل لم يكْ مطربًا لما هزَّ أعطافَ النسيم هبوب

* * *

ألا إنَّ وجه البحر بالنُّور ضاحكٌ طليق وثغر الماء فيه شنيبٌ^٧
ترقرق منسابًا به الماء والسنا فلم أدِرْ أيُّ اللامعين يسيبٌ^٨
وللبدر نورٌ يمنح البحرَ رونقًا فيبدو كأن الماء فيه ضريبٌ^٩
إذا جمَّش البحرَ النسيم تهللت أساريـرُ فيها للضياء وثوبٌ^{١٠}
وقفتُ ولألاءِ المنى يستخفني فتطرب نفسي والكريم طروب

* * *

أرددُ بين البدر والبحر ناظري فيصعد طرفي مرةً ويصوب
تأمّلت في حسن العوالم موهنًا فجاش بصدري الشعرُ وهو نسيبٌ^{١١}

^٥ معنى أنهم في قبضة الكرى: هو أن النوم قد استولى عليهم؛ أي: هم نائمون، وأراد بالصمت عدم الصوت، وبالسكون عدم الحركة، ومعنى كون الصمت مشوبًا — أي: مخلوطًا بالسكون — أنه ليس هناك صوت ولا حركة.

^٦ أراد بقوله: أسمع الصمت؛ أي أدركه بواسطة السمع، وذلك أن المرء إذا أصاخ في الليل فلم يسمع صوتًا ولا حركة، أدرك أن في الليل صمتًا، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الصمت ليس بعدم محض، وإنما هو عدم الصوت أو الكلام، فبهذا تبين لك معنى قوله: أسمع الصمت.

^٧ يقال: ثغر شنيب، أي: فيه شنب، وهو ماء ورقة في الأسنان.

^٨ ترقرق: أي جرى جريًا سهلًا. ومنسابًا: أي متدافعًا في جريه. والسنا: النور. يسيب: يجري ذاهبًا كل مذهب.

^٩ يمنح: يعطي. ورونقًا: أي حسنًا وإشراقًا. والضريب: الجليد والصقيع.

^{١٠} التجميش: الملاعبة، يقال: جمش الجارية إذا لاعبها وداعبها بالقرص ونحوه. وتهللت: تلالأت. والأساريـر: الخطوط التي تكون في جبهة الإنسان، شبه خطوط الأمواج الصغيرة بخطوط الوجه؛ أي بالأساريـر، وقال: إنها تتلألأ بسبب ملاعبة النسيم للبحر، فتلوح أشعة النور متواثبة بين تلك الأساريـر.

^{١١} الموهن: وقت الوهن من الليل، ويكون نحو نصف الليل، وهو في البيت منصوب على الظرفية. وجاش: بمعنى هاج. والنسيب: هو الشعر الرقيق في النساء.

كأنني وعلويّ العوالم عاشق
فقام له مُستشرفاً ويمينه
ولما رأيت الكون في الأصل واحداً
ألا إن بطناً واحداً أنتج الورى
وإنّ فضاء شاسعاً قد تضاربت
وإن اختلاف آدميين سيرةً
وأعجب ما في الكائنات ابن آدم
يذمم فعل السوء وهو حليفه
أطلّ من الأعلى عليه حبيب
تشدّ ضلوعاً تحتهنّ وجيب^{١٢}
عجبت؛ لأنّ الخلق فيه ضروب
كثيرين في أخلاقهم لرغيب^{١٣}
بأبعاده أيدي القوى لرهيب
وهم قد تساوا صورة لعجيب
فما غيره في الكائنات مُريب
ويحمد قول الصدق وهو كذوب

* * *

رأيت الورى كلّاً يراقب غيره
ومن أجل هذا قد ترى كلّ فاعل
فكم حمل في مجمع القوم يتقى
ولو باح كل بالذي هو كاتم
وليس يجد المرء إلا تكلفاً
ويجتنب المرء العيوب؛ لأنها
رياء قديم في الورى شقيت به
ورُبّة أخلاق يراها خبيثة
وجلم الفتى عند الضعيف فضيلة
فكلّ عليه من سواه رقيب
إلى الناس في كلّ الفاعل يُنيب^{١٤}
به ثعلب عند الخلاء وذيب^{١٥}
لما كان في هذا الأنام أديب
وذاك لأنّ الطبع فيه لعوب
لدى عائبه لا لديه عيوب
قبائل منهم جمّة وشعوب
أناس وعند الآخرين تطيب
ولكنّه عند القويّ معيب

* * *

^{١٢} مستشرفاً: أي منتصباً رافعاً بصره باسطاً كفه فوق حاجبيه كالمستظلّ، وكذلك يفعل الناظر إذا نظر

إلى شيء مرتفع أو بعيد. والوجيب: خفقان القلب واضطرابه.

^{١٣} رغيب: أي واسع، يقال: هو رغيب البطن؛ أي واسع الجوف.

^{١٤} ينيب: يرجع، أي لما كان كل من الناس رقيباً على غيره مترصداً لسواه، صار كل واحد منهم ينيب في أفعاله إلى الناس؛ ليدفع عنه بذلك سوء ظنهم به، ومن هنا نشأ فيهم الرياء والتمويه، كما فسر ذلك في البيت الذي يليه.

^{١٥} الباء في قوله: يتقى به: للسببية أو للتجريد؛ مثلها في قولك: لقيت بزيد أسداً.

وقد يفتري المالُ الفضائل للورى
وللفقر بين الناس وجهٌ تبيّنتُ
لقد أحجم المثرى فسمّوه حازماً
وإن يتواضع معدم فهو صاغر
وذو العُدم ثرثار بكثير كلامه
وللناس عادات كثير تقودهم
وهنَّ إذا ما يأكلون أكيْلهم
أَبَوْا أن يَحيدوا ضِلَّةً عن طريقها
هي الداء أعيا الأولين فهل له
وليس لهم ممّا افتراه نصيب^{١٦}
به حسنات المرء وهي ذنوب
وأحجم ذو فقر فقيل: هيوب
وإن يتواضع ذو الغنى فنجيب
وذو الوجد منطيق به ولبيب
فكل امرئ منهم لهنّ جنيب
وهنَّ إذا ما يشربون شريب
وإن مسَّهم من أجلهنّ لغوب
على عُقمه في الآخرين طبيب؟

^{١٦} يفتري المال الفضائل: أي يخلقها، فكأنه جعل فضائل الأغنياء كذباً محضاً تفتريه أموالهم. ومعنى قوله: «وليس له مما افتراه نصيب» أنهم براء من هذا الافتراء؛ إذ ليس لهم نصيب من الفضائل.

العالم شعر

وما المرء إلا بيت شعر

قرأتُ وما غير الطبيعة من سِفْرِ
أرى غُررَ الأشعار تبدو نضيدةً
وما حادثات الدهر إلا قصائد
وما المرء إلا بيتُ شعرٍ عروضه
تنظمننا الأيام شعراً وإنما
فمنّا طويل مُسهب بحر عمره
وهذا مديح صيغ من أطيّب الثنا
صحائفٌ تحوي كل فن من الشعر^١
على صفحات الكون سطرًا على سطر^٢
يفوه بها للسامعين فم الدهر
مصائبٌ لكنْ ضَرْبُهُ حُفْرَةُ القبرِ^٣
تردُّ المنايا ما نظَّمن إلى النثر^٤
ومنا قصير البحر مختصر العمر^٥
وذاك هجاء صيغ من مَنْطق هُجر^٦

* * *

^١ السفر: الكتاب.

^٢ نضيدة: منسقة.

^٣ العروض في علم الشعر: الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت. والضرب: الجزء الأخير من الشطر الثاني، ومعنى البيت أن الإنسان أوله للمصائب وآخره للموت.

^٤ النثر: التفريق.

^٥ مسهب: طويل.

^٦ الهجر: القبيح من الكلام.

وربَّ نيامٍ في المقابر زرتهم
وقفت على الأجداث وقفة عاشق
فما سال فيض الدمع حتى قرنته
أسْكَانَ بطنِ الأرض هلاً ذكرتمْ
رضيتم بأكفانِ البلى حُللاً لكم
وقد كنتمْ تؤذي الحشايا جنوبيكمْ
ألا يا قبوراً زرتها غيرَ عارف
لقد حار فكري في ذويك وإنَّه
فقلت، وللأجداث كُفي مشيرة:

بمنهلٍ دمع لا يُنهنه بالزجر^٧
على الدار يدعو دارس الطلل القفر^٨
إلى زفرات قد تصاعدن من صدري
عهوداً مضت منكم وأنتم على الظهر؟
وكنتم أولي الديباج والحللِ الحمر
فكيف رقدتم والجنوب على العفر؟^٩
بها ساكنَ الصحراء من ساكن القصر!^{١٠}
ليحتار في مثوى ذويك أولو الفكر^{١١}
ألا إن هذا الشعرَ من أفجع الشعر!^{١٢}

* * *

وليلٍ غدافيّ الجناحينِ بئُّه
وأقلع من سَفنِ الخيال مَراسياً
أرى القبة الزرقاء فوقي كأنها
ولولا خروق في الدجى من نجومه

أسامر في ظلماته واقَعَ النسر^{١٣}
فتجري من الظلماء في لُججِ خُضر^{١٤}
رُواقٍ من الديباج رُصّع بالدر^{١٥}
قبضت على الظلماء بالأئمل العشر^{١٦}

^٧ أنهل الدمع: سال. لا ينهته: لا يكف.

^٨ الأجداث: القبور. درس المكان: امحى. والطلل: ما بقي من آثار الديار.

^٩ الحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشو. العفر: التراب.

^{١٠} الصحراء: الأرض الفضاء لا شيء فيها.

^{١١} المثوى: المقام.

^{١٢} أفجع: أوجع.

^{١٣} غدافي الجناحين: أسودهما، نسبة إلى الغداف وهو الغراب. النسر: اسم لنجمين، يقال له: النسر الواقع، والآخر يقال له: النسر الطائر، وفي البيت تورية لا تخفى.

^{١٤} لجج: جمع لجة، وهي في الأصل معظم الماء. خضر: سود، يقال: أخضر بمعنى أسود، والخضرة والسواد يستعمل كل منهما مكان الآخر.

^{١٥} القبة الزرقاء: السماء. الرواق: سقف في مقدم البيت، أو هو الخيمة.

^{١٦} الدجى: الليل. وأراد بالأئمل: الأصابع؛ وهي في الأصل رءوسها.

خليلي ما أبهى وأبهج في الرؤى
إذا ما نجومُ الغرب ليلاً تغوّرت
تجوّلت من حسن الكواكب في الدجى
إلى أن رأيت الليلَ ولّت جنوده
فيا لك من ليلٍ قرأت بوجهه
فقلت، وطرفي شاخص لنجومه:

نجومًا بأجواز الدجى لم تزل تسري!^{١٧}
بدت أنجم في الشرق أخرى على الإثر!^{١٨}
وقبح ظلام الليل في العرف والنكر!^{١٩}
على الدُهم يقفوا إثرها الصبح بالشُّقر!^{٢٠}
نظيم البها في نثر أنجمه الزُهر!
ألا إن هذا الشعر من أحسن الشعر!

* * *

ويوم به استيقظت من هجعة الكرى
فأطربني والديك مُشجٍ صياحه
ومما ازدهى نفسي وزاد ارتياحها
فقمّت وقام الناس كلُّ لشأنه
وقد طلعت شمس النهار كأنها

وقد قدّ درع الليل صمصامةُ الفجر!^{٢١}
ترنمُ عصفور يزقزق في وكر!^{٢٢}
هيوّب نسيمٍ سَجَسَجٍ طيّب النَشْرِ!^{٢٣}
كأنّا حجيّجُ البيت في ساعة النفر!^{٢٤}
ملكٌ من الأضواء في عسكرٍ مَجْر!^{٢٥}

^{١٧} الرؤى: المنظر. أجواز الدجى: أوساط الليل.

^{١٨} تغوّرت: غابت.

^{١٩} تجولت: كذا بالجمع؛ كما في الأصل، ولم أجد هذه الصيغة في مادة «جال»، ولو روي بالحاء المهملة لكان أحسن وأوفى بالمراد.

^{٢٠} الدهم: جمع أدهم؛ وهو الأسود من الخيل. يقفوا إثرها: يتبعها. الشقر: جمع أشقر، والشقرة في الخيل: حمرة صافية يحمر معها العرف والذنب. وأراد بالدهم: الظلمات، وبالشقر: أشعة الشمس مجازًا.

^{٢١} الهجعة: من الهجوع، وهو النوم. الكرى: النعاس. قد: شق. والمراد بدرع الليل: ظلمته. الصمصامة: السيف، والمراد بصمصامة الفجر: شعاعه.

^{٢٢} مشج: مطرب.

^{٢٣} ازدهى نفسي: استفرّها. ريح سجسج: لينة الهواء معتدلة. النَشْر: الرائحة.

^{٢٤} الحجيّج: الحجاج. والمراد بالبيت: البيت الحرام في مكة. النفر: مصدر نفر الحجيّج إذا اندفعوا من منى إلى مكة.

^{٢٥} المجر: الجيش العظيم.

بدأت من وراء الأفق ترفل للعللا
 غدت ترسل الأنوار حتى كأنها
 إلى أن جلت في نورها رونق الضحى
 وأهدت حياة في الشعاع جديدة
 فقلت، مشيراً نحوها بحفاوة:
 رويداً رويداً في غلائلها الحمر^{٢٦}
 تسيل على وجه الثرى ذائب التبر^{٢٧}
 صقيلاً وفي بحر الفضاء غدت تجري^{٢٨}
 إلى حيوان الأرض والنبت والزهر
 ألا إن هذا الشعر من أبداع الشعر!^{٢٩}

* * *

وببيضة خدرٍ إن دعت نازح الهوى
 من اللآء يملكن القلوب بكلمة
 تهادت تريني البدر محذقة بها
 فله ما قد هجن لي من صباية
 تصافح إحداهن في المشي تربها
 مررن وقد أقصرت خطوي تأدباً
 فطأطأن للتسليم منهن أرؤساً
 فألقيت كفي فوق صدري مُسلمًا
 وأرسلت قلبي خلفهن مُشيّعًا
 أجاب ألا لبئك يا بيضة الخدر^{٣٠}
 ويحيين ميت الوجد بالنظر الشزر^{٣١}
 أوانس إحداق الكواكب بالبدر^{٣٢}
 ألقت بها طي الضلوع على الجمر!^{٣٣}
 فنحز إلى نحرٍ وخصر إلى خصر^{٣٤}
 وأجمعت أمري في محافظة الصبر
 عليها أكاليل صفرن من الشعر
 وأطرقت نحو الأرض منحني الظهر
 فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدري

^{٢٦} ترفل: تجر ذيلها وتتبختر. غلائلها: أراد بها ثيابها، مفردها غلالة، وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع.

^{٢٧} الثرى: الأرض والتراب الندي.

^{٢٨} رونق الضحى: إشراقه وحسنه. صقيلاً: مجلواً.

^{٢٩} الحفاوة: التلطف والمبالغة بالإكرام.

^{٣٠} أراد بببيضة الخدر: الجارية الحسنة؛ لأنها مكنونة في خدرها. نازح الهوى: نائيه وذاهبه.

^{٣١} اللآء: اللاتي. الوجد: الحب. النظر الشزر: هو نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين، أو النظر يمين وشمال، وهذا التفسير أقرب لمعنى البيت.

^{٣٢} أحدق بالشيء: أحاط به.

^{٣٣} هجن: هيجن. الطي: مصدر طوى.

^{٣٤} يقال: هذا ترب فلان، وهذه ترب فلانة: إذا كانت على سنّها، وأكثر ما يستعمل في المؤنث. النحر: موضع القلادة من العنق.

وقلت، وكفّي نحوهن مشيرة: ألا إن هذا الشعر من أجمل شعر!

* * *

ومائدة نسج الدّمقس غطاؤها
رقي من أعاليها الفنغراف منبراً
وفي وسط النادي سراج منور
فراح بإذن العلم يُنطق مقولاً
فطوراً خطيباً يحزن القلب وغطه
يفوه فصيحاً باللّغا وهو أبكم
أمين أبى التدليس في القول حاكياً
تراه إذا لقنته القول حافظاً
فيا لك من صنع به كل عاقل
فقلت، وقد تمت شقاشق هدره
بمجلس شبان هم أنجم العصر^{٣٥}
محاطاً بأصحاب غطارفة غر^{٣٦}
فتحسبه بدرًا وهم هالة البدر^{٣٧}
عرفنا به أن البيان من السحر
وطورًا يسرّ السمع بالعزف والزمير^{٣٨}
ويُسمع ألحان الغنا وهو ذو وقر^{٣٩}
فتسمعه يروي الحديث كما يجري^{٤٠}
تمر الليالي وهو منه على ذكر^{٤١}
أقرّ لأديسون بالفضل والفخر!^{٤٢}
ألا إن هذا الشعر من أعجب الشعر!^{٤٣}

* * *

وأصيد مأثور المكارم في الورى
يريك إذا يلقاك وجه فتى حرّ^{٤٤}

^{٣٥} الدّمقس: الديباج والحريز الأبيض.

^{٣٦} الغطارفة: السادة.

^{٣٧} الهالة: دارة القمر، كالطفاوة لدارة الشمس.

^{٣٨} العزف: الضرب بالمعازف؛ وهي آلات الطرب.

^{٣٩} اللغا: اللغات؛ وهي جمع لغة. الوقر: الصمم؛ وهو ذهاب السمع.

^{٤٠} التدليس في الحديث: هو أن لا يذكر المحدث في حديثه من سمعه منه، ويذكر من هو أعلى ممن حدثه؛ لوهم أنه سمعه منه، والمدلس لا يُقبل حديثه.

^{٤١} الذكر بضم الذا: التذكر.

^{٤٢} أديسون: هو مخترع الصدى؛ «الفنغراف».

^{٤٣} تمت شقاشق هدره: سكت، والشقشقة في الأصل: لهة البعير، وقيل: شيء كالرئة يخرج من فيه إذا حاج، ويقال للفصيح: هدرت شقشقته.

^{٤٤} الأصيد: الرجل الذي لا يلتفت من زهوه وخيلائه.

يروح ويغدو في طيالسة الغنى
تخوّنه ريب الزمان فأولعت
فأصبح في طُرق التصعلك حائرًا
كأن لم يَرُح في موكب العز راكبًا
ولم تزدحم صيدُ الرجال ببابه
فظل كئيبَ النفس ينظر للغنى
إلى أن قضى في علة العُدم نَحْبه
فرُحْتُ ولم يُحَقَل بتشجيع نعشه
وقلت، وأيدي الناس تحثو ترابه:

ويقضي حقوق المجد من ماله الوفّر^{٤٥}
بإخلاقها ديباجتيه يدُ الفقر^{٤٦}
يحول من الإملاق في سمل طمر^{٤٧}
عتاق المذاكي مالك النهي والأمر^{٤٨}
ولم يَغْمُر العافين بالنائل الغمر^{٤٩}
بعين مُقلّ كان في عيشة المثري^{٥٠}
فجَهَّزهُ من مالهم طالبو الأجر^{٥١}
أشيّعه في حامله إلى القبر
ألا إن هذا الشعر من أفجع الشعر!^{٥٢}

* * *

ونائحة تبكي الغداة وحيدها
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكم
فويل له من حاكم صُبَّ قلبه
من الروم أما وجهه فمشوّه

بشجو وقد نالته ظلمًا يدُ القهر^{٥٣}
عليه قضى بطلًا بها وهو لا يدري^{٥٤}
من الجور مطبوعًا على قالب الغدر
وقاح وأما قلبه فمن الصخر^{٥٥}

^{٤٥} طيالسة: جمع طيلسان، وهو نوع من الثياب يلبسه الخواص. الوفّر: الكثير.
^{٤٦} أولع به بالبناء للمجهول: علق به شديدًا. الإخلاق: مصدر أخلق الثوب: أبلاه. ديباجتيه: خديه. ومعنى البيت: خانه الزمان، وعلقت به يد الفقر، فوضعت من شرفه، وذلت خديه بعد أن كانتا مصعرتين.
^{٤٧} التصعلك: الافتقار. الإملاق: الفقر. سمل طمر: بال.

^{٤٨} المذاكي: الخيل التي تمّت سنّها وكملت قوتها.
^{٤٩} صيد: جمع أصيد وقد تقدم معناه. يغمر: يبالغ في الإحسان. العافين: الفقراء. النائل الغمر: العطاء الكثير.

^{٥٠} المقل: ضيق ذات اليد. والمثري: الغني.

^{٥١} العدم: الفقر.

^{٥٢} تحثو ترابه: تصبه.

^{٥٣} الشجو: الحزن.

^{٥٤} عزاه: نسبه.

^{٥٥} وقاح بفتح الواو: ذو وقاحة، يطلق على الذكر والمؤنث.

أُضِرَّ بعَفِّ الذيل حتى أَمْضَه
تَخَطَّفَه في مِخْلَبِ الجور غِيلَةً
تنوء به الأقياد إن رام نهضة
تناديه والسجانُ يُكْثِرُ زَجْرَهَا
بُنَيَّ أَظُنَّ السَّجْنَ مَسَّكَ ضُرُّهُ
بُنَيَّ اسْتَعْنُ بالصبر ما أنت جانيًا
فَجِئْتُ أَعْاطِيهَا العزاء وأدمعي
وقلت، وقد جاشت غوارب عَبرتي:

ولم يلتفت منه إلى واضح الغدر^{٥٦}
فَزَجَّ به من مَظْلَمِ السَّجْنِ في القعر^{٥٧}
فيشكو الأذى والدمع من عينه يجري^{٥٨}
عجوزُ له من خلف عالية الجُدر^{٥٩}
بُنَيَّ بِنَفْسِي حَلَّ ما بك من ضرٍّ!
وهل يخذل الله البريء من الوزر؟!^{٦٠}
كأدمعها تنهلُّ مني على النحر
ألا إن هذا الشعر من أقتل الشعر!^{٦١}

^{٥٦} عف: عفيف.

^{٥٧} المِخْلَب: هو في الأصل ظفر كل سبع من الماشي والطيائر. غيلة: يقال: قتله غيلة: أي خدعه فذهب به إلى موضع فقتله. زج به: طرحه.

^{٥٨} تنوء به: تثقله. الأقياد: جمع قيد.

^{٥٩} الجدر: جمع جدار.

^{٦٠} الوزر: الذنب.

^{٦١} جاشت: فاضت. غوارب الماء: أعالي موجه. العبرة: الدموع.

تجاه اللانهاية

أبعدَ الدهر في الفضاء مكرَّه
إنَّ أمَّ النجوم بنتُ زمان
في فضاء لو سافر البرق فيه
ولو الشمسُ ضُوعفت ألف ضعف
ولو الفكر غاص فيه مُغِذًّا
سعة تحسب المجرة فيها
يقف الفكر دونها مُكوِّدًا
لو أضفنا إلى الفضاء فضاء
إن تكن هذه المجرة نهرًا
أو تكن أرضنا من الشمس جزءًا
إن تُسائل عنا فنحن هباء
صادفتنا أشعةٌ من حياةٍ
كل مَنْ جاوز الأشعة منا
فعلام الحقود يضرر حقدًا

عالقًا في مكرَّه بالمجرة
لم تزل حادثاته مستمرة
ألف قرنٍ لما أتى مُستقرَّه
لم تكن في أثيره غير ذرَّه
لم يكن بالغًا يد الدهر قعره
حلقةً ألقيت بصحراء قفره
مقشعرًا وتأخذ العقل حيرَه
مثله لم نزد ولا قيدَ شعره
مستفيضًا فشُمُسنا منه قطره
فهو سقطٌ من جمرة مستحرَّه
ذُرٌّ من صنعة القوى بمذرَّه
فظهرنا وهل لأول مره
فهو هاوٍ في ظلمة مكفهره
وعلام الجهول يظهر كبره؟

من أين وإلى أين؟

من أين من أين يا ابتدائي	ثم إلى أين يا انتهائي؟
أمن فناءٍ إلى وجودٍ	ومن وجودٍ إلى فناءٍ؟
أم من وجودٍ له اختفاءٌ	إلى وجودٍ بلا اختفاءٍ؟
خرجت من ظلمةٍ لأخرى	فما أمامي وما ورائي؟
ما زلت من حيرةٍ بأمرٍ	معانق اليأس والرجاء
إنَّ طريق النجاةِ وعزٌّ	يكبو به الطُّرفُ ذو النجاء ^١
يا قوم هل في الزمانِ نطسٌ	يهدي إلى ناجعِ الدواء؟ ^٢
لأَيِّ أمرٍ ذِه الليالي	تأتي وتمضي على الولاء؟ ^٣
فتطلُعُ الشمس في صباح	وتغرب الشمس في مساء
أرى ضياءً يروق عيني	ولست أدري كنه الضياء ^٤

^١ الطرف: الكريم من الخيل. النجاء: الإسراع والسبق.

^٢ النطس: الطبيب الحاذق.

^٣ ذه: اسم إشارة بمعنى هذه. على الولاء: متتابعة دون فاصل.

^٤ كنهه: حقيقته، والشرط الثاني من البيت فيه استعمال فاعلن على وزن مفعولن، وقد درج على ذلك بعض الشعراء في مخلع البسيط، غير أن علماء الفن لم يذكروا ذلك؛ وفي هذه القصيدة عدة أبيات كذلك.

وما اهتزاز الأثير إلا^٥ علالة نذرة الجلاء^٥
نحن على رغم ما علمنا نعيش في غيبه العماء^٦
نشرب ماء الظنون عباً فلم نعد منه بارتواء^٧
تأتي علينا مشاهدات نروح منهنّ في مرأ^٨
وكم نرى فضل فاعلات من القوى وهي في الخفاء^٩
يا ويلة الحسن إنه عن حقيقة الأمر في غطاء!
فإن أجزاء كل جسم مبتعدات بلا التقاء
وفي دُقاق الجماد عرّك^{١٠} يتهم الحسّ بالخطاء^{١٠}

* * *

يا قوة الجذب أطلقيني من ثقله أوجبت عنائي
لولاك لولاك يا شكالي لطرت كالنور في الفضاء^{١١}
أنت عماد السماء لكن خفيت عن عين كل راء
ربطت كل النجوم فيها بعضاً ببعض ربطاً اعتناء
فدُرنَ في الجوّ جارياتٍ كأنها السنّ فوق ماء
نحن بني الأرض قد علمنا بأننا من بني السماء
لو كنت في المشتري لبانت أرضي سماءً بلا اعتراء^{١٢}

^٥ الأثير في اصطلاح العلم: شيء أطف من الهواء، مملوء به الفضاء. العلالة: هي ما يتعلل به ويتهلّى. نذرة الجلاء: قليلة الوضوح. يقولون: إن الضياء حاصل من اهتزاز الأثير والشاعر يقول: إن قولهم هذا قليل الوضوح، فهم يتلهون بهذا التفسير؛ لأنهم لم يدركوا الحقيقة.

^٦ الغيبه: الظلمة.

^٧ عب الماء عباً: شربه بلا تنفس.

^٨ المرأ: الخلاف والجدل.

^٩ القوى: جمع قوة؛ وأراد بها القوى الطبيعية.

^{١٠} أراد بدقاق الجماد: ذراته، وذرات كل شيء — على ما حققه العلم — في حراك مستمر، مع أن الحس في الظاهر يدركها ساكنة، وهذا معنى قوله: يتهم الحس بالخطاء.

^{١١} الشكال: الوثاق يقيد به.

^{١٢} المشتري: أحد النجوم السيارة.

من أين وإلى أين؟

فليس فوق وليس تحت
وإنما نحن فوق نجم
فليت شعري أي ارتقاء
وأنت يا كهرباء سرُّ
عجائب الكون وهي شتَّى
أضأت إن شئت كل داجٍ
فأنت للكائنات روح
وكم تقاضاك فيلسوف
فقال والقول منه ظن:
ولا اعتلاءً لذي اعتلاء
نحيا محاطين بالهواء
للروح يبقى أي ارتقاء!
بدا وما زال في غشاء^{١٣}
فيك انطوت أيما انطواء^{١٤}
لنا وأدريت كل ناء^{١٥}
إن كانت الروح للبقاء
حقيقة صعبة الأداء!^{١٦}
ما الكون إلا بالكهرباء

* * *

وليلة بثُّها أنادي
أخذ منهم بالتَّداني
فأنثني باكيًا بشعري
وربما كَرَّ بعدَ وهنٍ
فأرجع القهقري أغني
أقول، والنسرُ فوق رأسي
يا أيها الأنجم الزواهي
أما كفاك السنا جمالاً
يا أنجم النعش فاصدقيني
نجومها أبعد النداء
فكرًا ويأخذن بالتَّنائي
ويطرب الليل من بكائي
فكري فألفي بعض الشفاء^{١٧}
وما سوى الشعر من غناء
وطالع النجم في إزائي:^{١٨}
لَّه ما فيك من بهاء!
حتى تجللت بالسَّناء؟^{١٩}
أما ذو النعش بانطفاء؟^{٢٠}

^{١٣} غشاء: غطاء.

^{١٤} شتَّى: متفرقة.

^{١٥} داج: مظلم. أدريت: قربت. ناء: بعيد.

^{١٦} تقاضاك: طلبك.

^{١٧} الوهن: الضعف.

^{١٨} النسر: اسم كوكب. النجم: الثريا. إزائي: مقابلي.

^{١٩} السنا: الضوء. السناء: الرفعة.

^{٢٠} أنجم النعش: هي الأنجم التي تسمى ببينات نعش. ذو النعش: هو الميت.

إني إذا كنت في حدادٍ إليك أهدي حسن العزاء
وأنت يا نسر من كلال وقعت أم طلبّة الغذاء؟^{٢١}
أخوك هل طائر لوكرٍ أم قاصد منتهى الفضاء؟^{٢٢}
كأنّ أمّ النجوم سيفٌ سلّ على الليل ذو مضاء^{٢٣}
رُصّع متّناه بالدراري فراق في الحسن والرّواء^{٢٤}
كأنّ نجم السّها أديبٌ في أرض بغداد ذو ثواء^{٢٥}
كأنّ خط الشهاب مُدلٍ لأسفل البئر بالرّشاء^{٢٦}
كأنما أنجم الثريا في شكلها الباهر الضياء
قُفّازُ كفّ به فصوصٌ من حجر الماس ذي الصفاء^{٢٧}
برئت للموت من حياة ما نُكّبت مهيع الشقاء^{٢٨}
لم يكفها أنها احتياج حتى غدت حوصّة البلاء
يا أيّها المترف المهنّا يمرح في ثوب كبرياء^{٢٩}
مهلاً أبا الكبر بعض كبرٍ ألسن تقنّى بعض الحياء؟
أنت ابن فقر إلى أمورٍ بهنّ يُدعى بابن الثراء^{٣٠}

^{٢١} أراد بالنسر: الواقع، وهو اسم نجم. الكلال: التعب.

^{٢٢} أخوك: خطاب النسر الواقع، وأخوه هو النجم المعروف بالنسر الطائر.

^{٢٣} ذو مضاء: حاد قاطع.

^{٢٤} متناه: جانباه. الرّواء: حسن المنظر.

^{٢٥} السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته. الثّواء: الإقامة.

^{٢٦} مدلٍ: مَنْ أدلى الدلو أو الحبل إذا أرسله في البئر. الرشاء: الحبل.

^{٢٧} القفاز: لباس اليد، وهما قفازان. الفصوص: جمع فص، بفتح الفاء وضمّها وكسرهما، وهو يركب في الخاتم من المعادن كاللياقوت والماس ونحوها.

^{٢٨} نكبت: مجهول نكبه الطريق، بمعنى نحاه وأبعده عنها. المهيع: الطريق.

^{٢٩} المترف: المنعم.

^{٣٠} الثراء: الغنى.

نحن على منطاد

نحن من أرضنا على منطادٍ جائلٍ في شواسع الأبعاد^١
طائرٍ في الفضاء عرضاً وطولاً بجناح من القوى غير بادٍ^٢
أيها الأرض سرت سيرك مثنى ذا نتاجين في زمان أحادٍ^٣
فتقلّبت في نهارٍ وليلٍ ذا مُضِلٌّ وذاك للناس هادٍ
في بلاد يكون سيرك تأويـ بًا على أنه سُرى في بلادٍ^٤
فيك دفع وفيك يا أرض جذب لك ذا سائق وذا لك حادي^٥
فلكُ دائر على الشمس طوراً في اقتراب وتارة في ابتعاد

^١ المنطاد: هو ما يطار به في الفضاء، وهو ما يسمونه «البالون». جائل: اسم فاعل من الجولان. الشواسع: البعيدة، من شسع المكان بمعنى بعد. الأبعاد: جمع بعد.

^٢ غير باد: غير ظاهر.

^٣ إنما كان سير الأرض مثنى؛ لأن لها في الزمان الواحد دورتين، تنتجان نتاجين: دورة ينتج عنها اختلاف الليل والنهار، وهذه تتمها بأربع وعشرين ساعة، ودورة ينتج عنها اختلاف الفصول، وهذه تتمها في سنة كاملة.

^٤ التأويب: السير جميع النهار. السرى: السير في الليل. يقول: أيها الأرض إن سيرك النهاري في بلاد هو في الوقت نفسه سير ليلي في بلاد أخرى؛ وذلك لأن الكرة يكون نصفها مضيئاً وهو ما يقابل نور الشمس، والنصف الآخر يكون مظلماً وهو ما لا يقابلها، وبمقدار ما تنير الشمس من الأرض ترسل الظلام على قسم آخر.

^٥ حادي: من حدا الناقة إذا غنى لها لتجود في السير.

ليت شعري وما حصلت من الآ
لبقاء تُقْلُنَا الأرض في تَسـ
نحن في عالم تَقْصَف فيه
شأننا العجز فيه نوجد أنى
ضاع جَذر الحياة عنا فخلنا
شغلتننا الدنيا بلهو ولعب
ضلَّ مَنْ رام راحة في حياةٍ
إنما هذه الحياة جروح
كلُّ أسيرٍ يهون إن أطلقت أر
لا تلمني إذا جَزعت فإني
طال عُتْبِي على عِدات الليالي
كدَّرت عيشي الحوادث حتى
صاح ما دلَّ في الأمور على الأشـ
فاعتبر بالسفيه تُمس حليمًا
واللبيب الذي تعلَّم إتيا
أيها الغِرُّ لا تغرُّك دنيا
خفَّ من غاص في الغرور كما في

راء إلا على خلاف السداد
ييارها أم تقلُّنا لنفاد؟^٦
عارض النائبات بالإرعاد^٧
قذفتنا يد الخطوب الشداد
أنها كالأصم في الأعداد^٨
فغفلنا والموت بالمرصاد
ونحن منها في معرك وجلاد^٩
أُثْخنتنا والموت مثل الضماد^{١٠}
واحنا الموثقات بالأجساد
ما ملكت الخيار في إيجادي
مثلما طال مَطْلُها بمرادي^{١١}
لا أرى الصفو غير وقت الرقاد^{١٢}
كال إلا تفحص الأضداد
وتعرَّف بالغي طرُق الرشاد
نَ المعالي من خِسة الأوغاد^{١٣}
ك بكون مصيره لفساد
لجة الماء خفَّ ثقلُ الجماد^{١٤}

^٦ تقلنا: تحملنا.

^٧ العارض في الأصل: السحاب الذي يعترض في الأفق. النائبات: المصائب.

^٨ خلنا: ظننا. الأصم في اصطلاح الحسابين: هو العدد الذي لا يؤخذ جذره، بمعنى أنه لا يكون حاصلًا من ضربه بنفسه كالخمسة والثلاثة والأحد عشر وغيرها، معنى البيت: أننا جهلنا أصل الحياة، فظنناها لا أصل لها، كالعدد الأصم الذي لا جذر له.

^٩ الجلال: مصدر جالدوا، بمعنى تضاربوا بالسيوف.

^{١٠} أُثْخنتنا: أوهنتنا وأضعفتنا. الضماد: العصابة التي يربط بها موضع الجروح.

^{١١} عِدات: جمع عدة بمعنى الوعد.

^{١٢} الرقاد: بمعنى النوم.

^{١٣} الأوغاد: جمع وغد، وهو اللثيم.

^{١٤} خف: من خفة العقل.

يا خليلي والخليل الموسي
خاب قوم أتوا وغى العيش عُزلاً
قد جفتنا الدنيا فهلاً اعتصمنا
لو عقلنا لما اختشى قط محسو
فمتاع الحياة أحقر من أن
أنا والله لا أريد بأن أو
إن لي إن سمعت أنه محزو
إن نفسي عن همها ذات شغل
لا أحب النسيم إلا إذا هب

منكما من يقوم في إسعادي^{١٥}
من سلاحي تعاون واتحاد^{١٦}
من جفاء الدنيا بحبل وداد؟
دون وقع الأداة من حُساد
يستفزُّ القلوب بالأحقاد
قع شرّاً ولو على من يعادي
ن أنيناً مُرجعاً في فؤادي
بهموم العباد، كلّ العباد
على كل حاضر أو باد

* * *

أيها الناس إن ذا العصر عصر الـ
عصر حكم البخار والكهربائيـ
بُنيت فيه للعلوم المباني
فاض فيض العلوم بالرغم ممّن
إنّ للعلم في الممالك سيراً
أطلع الغربُ شمسهُ فحبا الشر
إن للعلم دولة خضعت دو
ما استفاد الفتى وإن ملك الأر
لا تُسابق في حلبة العزّ ذا العلـ
إن أموات أمة العلم أحيـ
وكأينّ في الناس من ذي خمول

علم والجدّ في العُلا والجهاد
ة و«الماكنات» والمُنطاد
وأقيمت للبحث فيها النوادي
ضربوا دونهن بالأسداد^{١٧}
مثل سير الضياء في الأبعاد
ق اقتباساً من نورها الوقاد
ن علاها عوالم الأضداد
ض بأعلى من علمه المستفاد
م فما للهجين شأو الجواد^{١٨}
ء حياة الأرواح والأجساد
صار بالعلم كعبة القصاد!

^{١٥} الموسي: المعين.

^{١٦} وغى العيش: شدته، والوغى في الأصل: أصوات المحاربين في الحرب. عزلاً: جمع أعزل، وهو الذي لا سلاح معه.

^{١٧} الأسداد: جمع أسد.

^{١٨} الهجين من الخيل: هو الذي ولدته برذونة من حصان عربي.

* * *

رَبِّ يَوْمٍ وَرَدَتْ دَجَلَةً فِيهِ
حَيْثُ يَنْصَبُ فِي سَكُونٍ عَمِيقٍ
وَهَبُوبِ النَّسِيمِ يَكْتُبُ فِي الْمَا
يَمْحِي بَعْضَهَا وَيُظْهِرُ بَعْضُ
وَتَتَنُّ الْمِيَاهُ لِي بِخَرِيرٍ
قَمْتُ فِي وَجْهَهَا أَرْدَدَ طَرْفِي
وَأَقْفًا تَحْتَ سَرَحَةٍ نَاحٍ فِيهَا
مَنْشَدًا فِي النِّوَاحِ شَعْرًا غَرِيزِيَّ
جَاوَبْتَهُ أَفْنَانُهَا بِأَنْبِيْنٍ
أَيُّهَا الطَّائِرُ الْمَرْجُّعُ فَوْقَ الْـ
بَيْنِ مَاءٍ جَارٍ وَلَحْنٍ شَجِيٍّ
يَا مِيَاهًا جَرْتَ بِدَجَلَةٍ تَجْتَا
إِنْ نَفْسِي إِلَى الْحَقِيقَةِ عَطَشَى
كُنْتُ تَجْرِينَ وَالرُّصَافَةُ وَالْكَرْ
أَيُّهَا الْمَاءُ أَيْنَ تَجْرِي ضَيَاعًا
فَمَتَى تَفْطِنُ النُّفُوسَ فِيحْيَا
لَوْ زَرَعْنَا بِكَ الْبَقَاعَ حَبُوبًا
أَفِيدْرِي خَلِيجَ فَارَسَ مَاذَا

مُورِدًا خَالِيًا عَنِ الْوُرْدِ
مَأْوَاهَا لَأَثْمًا ضَفَافِ الْوَادِي
ءِ سَطُورًا مُهْتَزَّةً فِي أَطْرَادٍ
فَهِيَ تَنْسَابُ بَيْنَ خَافٍ وَبَادٍ^{١٩}
كَأَنْبِيْنٍ السَّقِيمِ لِلْعُودِ^{٢٠}
سَاكِنًا وَالضَّمِيرِ مَنْيَ يَنَادِي
طَائِرٌ فَوْقَ غَصْنِهَا الْمِيَادِ^{٢١}
لَا حَزِينًا كَأَنَّهُ إِنْشَادِي
مَنْ حَفِيفِ الْأُورَاقِ وَالْأَعْوَادِ^{٢٢}
غُصْنُ هَلْ أَنْتَ نَائِحٌ أَمْ شَادٍ!
مَنْكَ يَا طَائِرُ اسْتَطَارَ فَوَادِي
زَ مَرُورًا بِجَانِبِي بَغْدَادٍ
أَفْتَشْفِينُ غُلَّةً مِنْ صَادٍ؟^{٢٣}
خَ خَلَاءُ مِنْ رَائِحٍ أَوْ غَادٍ
وَحَوَالِيكَ قَاحِلَاتِ الْبَوَادِي؟^{٢٤}
بَكَ سَقِيًّا مَوَاتِ هَذَا الْبِلَادِ؟
لَحْصَدْنَا النُّضَارَ يَوْمَ الْحَصَادِ^{٢٥}
فَمَهْ مِنْكَ بِالْعُ بَازِدِرَادٍ!

^{١٩} تنساب: تسرع.

^{٢٠} العواد: الزوار.

^{٢١} السرحة: الشجرة العظيمة. المياد: المتمايل.

^{٢٢} أفنانها: أغصانها. الحفيف: صوت أوراق الشجر.

^{٢٣} الغلة: العطش. الصادي: العطشان.

^{٢٤} أرض قاحلة: لا نبات فيها.

^{٢٥} النضار: الذهب.

أَنْتِ وَاللَّهِ عَسَجْدٌ وَلُجَيْنٌ لَوْ أَتَيْنَا الْأُمُورَ بِاسْتِعْدَادٍ^{٢٦}
فَاجِرٍ يَا مَاءُ إِنْ جَرِيتَ رَوِيدًا بِأُنَاةٍ وَمُهْلَةٍ وَاتِّئَادٍ^{٢٧}
عَلَّانَا نَسْتَفِيْقُ مِنْ رَقْدَةِ الْفَقْدِ رَ فَنَغْنَى بِفِيضِكَ الْمَزْدَادِ
سَلَكْتُكَ السَّمَاءَ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ضَ أَمَدَّتْكَ أَيُّمَا إِمْدَادِ!
فَتَفَجَّرَتْ فِي السَّفُوحِ عَيُونًا نَبَعَتْ مِنْ مَخَازِنِ الْأَطْوَادِ^{٢٨}
وَإِذَا مَا انْتَهَيْتَ فِي جَرِيَانٍ عُدتَ لِلْبَدءِ فِي مُتُونِ الْغَوَادِي^{٢٩}
هَكَذَا دَارَ دَائِرُ الْكُونِ مِنْ حَيْثُ ثَ انْتَهَى عَادَ رَاجِعًا لِلْمَبَادِي

^{٢٦} العسجد: الذهب. اللجين: الفضة.

^{٢٧} الأناة والمهلة والانتاد: ألفاظ مترادفة بمعنى التأني.

^{٢٨} السفوح: جمع سفح، وهو أسفل الجبل. الأطواد: جمع طود، وهو الجبل.

^{٢٩} المتون: جمع متن، وهو جانب الشيء. الغوادي: السحاب الذي يكون فيه المطر، يقول: إن الماء بعدما ينتهي جريانه يرجع كما كان في بادئ الأمر سحابًا بواسطة التبخر ثم ينزل مطرًا، وهكذا قال أبو العلاء:

فيا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيّب؟!
تعود طهورًا إذا ما رجعت إلى الأصل كالمطر الصيب

كلمة معتبر

أقوى مَصِيفُ القوم والمربُعُ
سارت بنا الأرض إلى غاية
ونحن كالماء جرى نابعًا
والعلم قد أنكر منهاجنا
خرقت يا علْمُ رداءً لنا
فَجَعَتْنَا يا علْمُ في أمرنا
لقد طغت حيرة أهل النهى
كم نشرب الظنَّ فلا نرتوي
والناس ويل الناس في غفلة
والكون قد لاح بمرآته
فالدار قفر بعدهم بِلَقْعُ^١
لنا وَلَلأَرْضُ هي المرجعُ
لكنْ علينا خفي المنبعُ
ولم يبنْ أين هو المهيع
كنا ارتديناه فهل ترْقَعُ؟!
أَمُعِيبُ أنت إذا تجزع؟^٢
هل فيك يا علم لها مَرَدَعُ؟^٣
ونأكل الحَدْسُ فلا نشبع!^٤
ترتع والموت بهم يرتع
للعيش وجهٌ شاحب أسْفَعُ^٥

^١ المصيف: مكان الإقامة صيفًا، والمربع: مكانها ربيعًا. الأرض الخالية من السكان.

^٢ مُعِيب: مريض، مشتق من أعتبه بمعنى أعطاه العتبي؛ أي الرضا. نجزع: لم نصبر.

^٣ النهى: العقل.

^٤ الحدس: التخمين والرجح بالغيب.

^٥ شاحب، يقال: شَحَبَ لونه وشَحِبَ، بمعنى تغير من جوع أو سفر أو مرض، وجه أسْفَع شاحب متغير من المشاق.

وإن في البدر لخطباً به
فالعين ما يورث حزناً ترى
والأرض في منقلبٍ بالورى
حتى إذا ما بلغت شوطها
وهكذا الظلمة تتلو الضيا
ونحن في ذاك وفي هذه
ما بين مسعود يميت الدجى
ومسرع يسبقه مبطئ
وشامت يضحك من حادث
لو كان للقسوة عين وقد
والكل في شغبٍ لهم دائم
والماء يمشي وشلاً تارة
والريح تجري وهي ريدانة
وبعضهم تمرع وديانه

في البدر لاحت بقع أربع^٦
والأذن ما يزعجها تسمع
والشمس من مشرقها تطلع
لاحت نجوم في الدجى تلمع^٧
والضوء للظلمة يستتبع^٨
بالنوم واليقظة نستمتع^٩
نوماً ومنكود فلا يهجع^{١٠}
ومبطئ يسبقه مسرع
حل بباكٍ قلبه موجع
رأته كانت عينها تدمع
لم يقلعوا عنه ولن يقلعوا^{١١}
وحوضه آونةً مترع^{١٢}
حيناً وحيناً عاصف ززع^{١٣}
وبعضهم واديه لا يمرع^{١٤}

* * *

قد لا يحسب الإنسان آماله
حتى إذا أكمل حُسابنها

والموت مصغٍ نحوه يسمع
وافاه ما ليس له مدفع

^٦ الخطب: الأمر.

^٧ الشوط: الغاية والنهاية.

^٨ تتلو: تتبع.

^٩ نستمتع: ننتفع زماناً طويلاً.

^{١٠} الدجى: الليل. يهجع: ينام.

^{١١} الشغب: الهياج وإثارة الشرور.

^{١٢} الوشل: الماء القليل. مترع: مלא.

^{١٣} ريدانة: لينة الهبوب. عاصف، ززع: شديدة الهبوب.

^{١٤} تمرع: تخصب.

فخرٌ للجَنبِ صَريْعًا به
 وظل فوق الأرض في حالة
 لا تعمل الأقدام في كَفِّه
 ولم تعد تقطع أسيافه
 فاستلَّ مثل السيف من مُطَرَفٍ
 ولُفَّ في ثوب له واحدٍ
 وأهًا له ثوب البِلَى إنه
 ودُسَّ حيث الأرض أمست له
 حيث البِلَى يرميه حتى إذا
 خالط ترب الأرض جثمانه
 لله دُرُّ الموت من خطَّةٍ
 يخون فيها القولُ منطقَه
 ما أقدر الموت! فَمِنْ هَوْلِهِ
 يا رافع البنيان كما للردى
 ويا طبيب القوم لا تؤذهم

وأَيُّ جنب ما له مصرع؟!
 يزورُ عنها الحسب الأرفعُ^{١٥}
 وكان من قبل بها يصدع^{١٦}
 من بعد ما كان بها يقطع
 طرائق الوشي به تلمع^{١٧}
 ليس له رقم ولا مِيدع^{١٨}
 يبلى مع الجسم ولا ينزع
 ملحودة ضاق بها المضجع^{١٩}
 لم يَبْقَ في قوس البِلَى منزع^{٢٠}
 مطحونة منه بها الأضلع^{٢١}
 فيها استوى ذو العيِّ والمُصْقِع^{٢٢}
 كما تخون البطل الأدرع^{٢٣}
 لم يَنْجُ لا كِسْرَى ولا تُبْع^{٢٤}
 من سُلِّم يدرك ما ترفع
 إنَّ دواء الموت لا يَنْجَع^{٢٥}

^{١٥} يزور: يميل وينحرف.

^{١٦} يصدع: يشق.

^{١٧} المطرف: نوع من الثياب. طرائق الوشي: خطوط التتميق والنقش.

^{١٨} الرقم: الوشي. الميدع: الصوان الذي يسان به الثوب، أي: ليس وشي ولا صوان يسان به؛ لأن الكفن يلبس ولا ينزع كما قال في البيت الثاني.

^{١٩} دس في التراب: أودع فيه. ملحودة: اتخذ لها لحدًا.

^{٢٠} يقال: لم يبقَ في القوس منزع، أي: بلغ الأمر الغاية.

^{٢١} الجثمان: الجسم.

^{٢٢} ذو العي: ذو الحصر، وهو الذي لا يحسن الكلام. المصقع: الفصيح.

^{٢٣} المنطيق: البليغ.

^{٢٤} كسرى: اسم كل ملك كان يحكم الفرس. وتبع: اسم كل ملك كان يحكم اليمن، كقيصر للروم، وخاقان للترك، والنجاشي للحبشة، وفرعون للقبط، والعزيز لمصر.

^{٢٥} لا ينجع: لا يؤثر.

لا بدَّ للمغرور من مَنَدَمٍ	فالعَصُّ تدمى عنده الأصبع
وما عسى تُغني وقد حشرجتُ	ندامةً ليست إذن تنفع ^{٢٦}
يا برقع الخلقة وأها لما	فيك وأها منك يا برقع
قد زاغت الأبصار فيما ترى	إذ فات عنها شرك المودع
وليس في الإمكان عند النهى	أبدع مما خلق المبدع

^{٢٦} حشرجت: الضمير راجع للروح، والحشرجة: الغرغرة عند الموت.

الكني يا ضياء

أجَدِّكَ يا كواكب لا ترينا
كأن العالم العلويَّ سَفَرُ
نحاول منه إعراب المعاني
كواكب في المجرة عائماتُ
سرت زُهرُ النجوم وما دراها
شموس في السماء عَلتْ وجَلَّتْ
سوابح في الفضاء لها شئونُ
وما ارتجفت بجَنح الليل إلا
لعلَّ لها بهذا الجو شأنًا
تلوح على الدجى متلألئات

بيانا منك يُخبرنا اليقيناً؟^١
نطالعهُ ولسنا مفصحين
بتأويل فنرجع مُعْجِميناً^٢
حكّت في بحر فسحتها السفينا^٣
فلاسفة مضت ومنجمونا
فظنونا في حقيقتها الظنونا
ولمّا يعلموا تلك الشئونا
لتضحك فيه مما يزعمونا
سوى ما نحن فيه مُرْجمونا^٤
فتُبْهَج في تلالُها العيونا

^١ أجد: بفتح الجيم وكسرهما، والهمزة للاستفهام، وهذه من الكلمات التي لا تستعمل إلا مضافة، ومعناها: أجد منك هذا العمل، وقيل معناها بفتح الجيم: استخلاف بالجد؛ أي البخت والحظ، وبكسرهما معناها: استخلاف بالجد؛ أي الحقيقة والاجتهاد، والجد الذي هو ضد الهزل.

^٢ الإعراب: الإظهار. معجمين: غير مفصحين.

^٣ المجرة: مجموعة نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوءها كأنه بقعة بيضاء. حكّت: أشبهت، السفين: جمع سفينة.

^٤ مرجمون: قائلون بما لا نعلم.

وَأَتَى يَدْرِكِ الرَّائِي مَدَاهَا وَإِنْ أَلْقَى لَهَا نَظْرًا شَفَوْنَا؟^٥
تَوَدُّ الْغَانِيَاتِ إِذَا رَأَتْهَا لَوْ انْتَضَمَتْ لَهَا عِقْدًا ثَمِينَا
تَقْلُدُهُ عَلَى اللَّبَّاتِ مِنْهَا وَتَطَّرَحُ الدَّمَالِجُ وَالْبُرِينَا^٦

* * *

أَلْكَنِي يَا ضِيَاءُ إِلَى الدَّرَارِي رِسَالَةَ مُسْهِرٍ فِيهَا الْجَفَوْنَا^٧
لَعَلَّكَ رَاجِعٌ مِنْهَا جَوَابًا يَزِيلُ عِمَائَةَ الْمُتَحِيرِينَا
فَقُلْ، إِنِّي تَحَيَّرْتُ فِيكَ فِكْرِي كَذَلِكَ تَحِيرُ الْمُتَفَكِّرُونَا
فِيَا أُمَّ النُّجُومِ وَأَنْتِ أُمُّ أَيُولَدُ فِيكَ كَالْأَرْضِ الْبَنُونَا؟^٨
وَهَلْ فِيكَ الْحَيَاةَ لَهَا وَجُودٌ فَيُمْكِنُ لِلرَّدَى بِكَ أَنْ يَكُونَا؟
وَهَلْ بِكَ مِثْلَ هَذِي الْأَرْضِ أَرْضُ وَفِيهَا مِثْلُنَا مُتَخَالِفُونَا؟
وَهَلْ هُمْ مِثْلُنَا خُلُقًا وَخَلْقًا هُنَاكَ فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَا؟
وَهَلْ هُمْ فِي الدِّيَانَةِ مِنْ خِلَافٍ نَصَارَى أَوْ يَهُودَ وَمُسْلِمُونَا؟
وَهَلْ طَابَتْ حَيَاةُ بَنِيكَ عَيْشًا فَفَوْقَ الْأَرْضِ نَحْنُ مَعَذِبُونَا؟
وَهَلْ حُسِبَتْ بِكَ الْأَيَّامُ حَتَّى تَأَلَّفَ مِنْ تَعَاقِبِهَا السَّنُونَا؟
وَهَلْ بِالْمَوْتِ نَحْنُ إِذَا خَرَجْنَا عَنِ الْأَجْسَادِ نَحْوَكِ مَرْتَقُونَا؟^٩
فَتَبْقَى عِنْدَكَ الْأَرْوَاحُ مَنَا تُصَانُ فَلَا تَرَى جَنَفًا وَهُونًا^{١٠}

^٥ مداها: غابيتها. شفن شفونا: رفع طرفه ناظرًا الشيء كالتعجب أو كالمكاره، فهو شافن وشفون بفتح الشين.

^٦ تقلده: أي تتقلده بمعنى تلبسه كالقلادة. اللبات: جمع لبة وهي النحر، الذي هو موضع القلادة من العنق. الدمالج: جمع دملج، وهو حلي يلبس في المعصم. البرين: نوع من الحلي، وهو جمع برة — بضم الباء وفتح الراء — على غير قياس.

^٧ ألكني يا فلان: أي كن رسولي إليه، وتحمل رسالتي إليه. الدراري: أراد بها النجوم الزواهر.

^٨ أم النجوم: هي المجرة.

^٩ مرتقون: مرتفعون.

^{١٠} تصان: تحفظ. جنفًا: ظلماً.

فأحِبُّ بالمنون إذن وأحِبُّ بها إن كان سُلِّمك المنونا!^{١١}

* * *

أبينني ما وراءك يا دراري
قد اتسع الفضاء لك اتساعاً
وصغَّرك ابتعادك فيه حتى
فهل كان ابتعادك من دلال
خوالد في فضائك أنت؟ أم قد
وقالوا: ما لعدَّتْك انتهاءً
وقالوا: الأرضُ بنتك غيرَ مَينٍ
وقالوا: إن والدك المفدَى
ترصَّدك الأنام وما أتانا
«فهرشل» ما شفى منا غليلاً
و «كبلر» قد هدى أو كاد لما
إلى كم نحن نلبس فيك لبساً
لعلَّ النجم في إحدى الليالي
تقوم له الهواتف قائلات:

فنحن نخاله بعداً شَطونا!^{١٢}
فهل أبعاده بك ينتهينا؟
إليك استشرف المتشَوِّفونا!^{١٣}
علينا أم بعدت لتخدعينا؟
يحلُّ بك الفناء فتذهبيننا؟
فهل صدقوا أو ارتكبوا المجونا؟^{١٤}
فهل أبناءُ بنتك يصدقونا؟^{١٥}
أثيرُ في الفضاء أبى السكونا!^{١٦}
بعلم كيالك المترصدونا!^{١٧}
ولا «غاليل» أنبأنا اليقيننا!^{١٨}
أبانك يا نجوم تجاذبيننا!^{١٩}
ومن جرَّك ندَّرع الظُّنونا!^{٢٠}
سيبعث للورى نوراً مبينا
خذوا عني النهى ودعوا الجنونا

^{١١} يقول: أيتها المجرة، هل نحن نرتفع إليك إذا متنا، فإن كذلك فما أحل الموت إن كان سلماً للوصول إليك!

^{١٢} بئر شطون: بعيدة القعر، وغزوة ونية شطون: بعيدة.

^{١٣} استشرف الشيء: رفع بصره ينظر إليه. تشوف إلى الشيء:طلع إليه.

^{١٤} المجون: إرسال القول أو الفعل من غير مبالاة كالهزل.

^{١٥} المين: الكذب.

^{١٦} الأثير: مادة منتشرة في كل خلاء ألطف من الهواء.

^{١٧} الكيان: الطبيعة.

^{١٨} هرشل وغاليل وكبلر: علماء فلكيون.

^{١٩} أبانك: أظهرتك.

^{٢٠} من جرَّك: من أجلك.

الأرض

خَبِرُ فِي الْأَرْضِ أَوْحَتَهُ السَّمَاءُ لِأُولَى الْعِلْمِ بِرُسْلِ الْفِكْرِ
أَنْ هَذِي الْأَرْضُ كَانَتْ أَوَّلًا مَا تَرَى بَحْرًا بِهَا أَوْ جَبَلًا
أَوْ سَهولًا أَوْ رُبًّا أَوْ سُبُلًا أَوْ رِيَاضًا زَهْرَهَا الْغُضُّ نَمَا¹
من سحاب جادها بالمطرِ
إِنَّمَا كَانَتْ كَتَلُكَ الْأَخْوَاتِ مِنْ نَجُومٍ سَائِرَاتٍ دَائِرَاتٍ
حَوْلَ شَمْسٍ هِيَ إِحْدَى النِّيرَاتِ كَنٌّْ مِنْ قَبْلُ عَلَيْهَا سُدْمَا²
كَتَلَةٌ وَاحِدَةٌ فِي النَّظَرِ
ثُمَّ بَعْدُ انْفَصَلَتْ مِنْ ذَا السَّيِّمِ قِطْعٌ مِنْهَا صَغِيرٌ وَجَسِيمٌ
ضَمَّنَ أَفْلَاكَ بِهَا الدَّوْرَ تُدِيمِ فَاسْتَقَرَّ الْكُلُّ فِيهَا أَنْجَمًا
حَوْلَ غَيْرِ الشَّمْسِ لَمْ يَسْتَدِر³

¹ الغض: الطري.

² السدم: جمع سديم، وهو الضباب؛ أي كانت النجوم التي هي في العالم الشمسي حول الشمس بمنزلة الغيوم.

³ الأرض وأخواتها من النجوم السابحة التي يتألف منهما النظام الشمسي، كانت جميعها مع الشمس كتلة واحدة، انفصلت وصار كل نجم على حدة، مرتبطًا مع أخواته بنظام واحد، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

أولاً «نبتون» منه انفصلا ثم «أورانس» يهدي زُحلاً
ثم للمشتري مريخٌ تلا ثم هذي الأرض فالزهرة ما
بعدها غير أخيها الأشهر^٤
وأخو الزهرة بالشمس اقتدى ولها أقربَ سيار غدا
وهي سارت خلفه طول المدى فأمام الأرض ذان انتظما
خلفها المريخ ثم المشتري
أرضنا كانت لظى مشتعله مُدَّ من الشمس غدت منفصله
لم تزل في دورها منتقلة كتلةً فيها اللهب احتدما
وهي ترمي في الفضا بالشرر
كان فيح النار منها مصعدا وهجاً في الجو عنها مبعدا
حيث لا يمكن أن ينعددا فوقها منه بخارٌ ديماً^٥
هاطلات بالحيا المنهمر^٦
بقيت حيناً وهذا أمرها وهي بالإشعاع يخبو حرّها^٧
وانثنى يبرد من ذا ظهرها فاكتست قشراً يحاكي الأدماء^٨
واستمرت بطنها في سَعر^٩

^٤ نبتون: هو النجم السيار الذي لم يعرف في القديم. أورانس: هو نجم سيار لم يكن معروفاً من قبل، وإنما عرف أخيراً، ويسمى أيضاً هرشيل باسم مكتشفه، وهذه النجوم التي ذكرها بعد أورانس هي السبعة السيارة الأصلية، التي تخطر حول الشمس، ولم يذكر القمر؛ لأنه قد ثبت أنه يدور حول الأرض، وهي تدور حول الشمس.

^٥ أراد بأخيها الأشهر: عطارد، وهو أقرب سيار إلى الأرض، وليس بين الزهرة والأرض سيار سواه.

^٦ الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق، والمراد به هنا المطر مطلقاً.
^٧ الحيا: المطر. المنهمر: السائل؛ أي أن شدة الحرارة المتصاعدة من الأرض كانت تمنع البخار من أن ينعد سحاباً مطراً.

^٨ يخبو: يخمد ويسكن.

^٩ يحاكي: يشابه. الأدم: البشرة وهي ظاهر الجلد.

^{١٠} البطن: مذكر، وتأنيثه لغة، وعليها مشى الشاعر، ويجوز أن يكون الضمير في استمرت عائداً إلى الأرض، فتكون جملة بطنها في سعر، في موضع الحال من الضمير، السعر: الحر، وأراد به الاشتعال والهيجان، والسعر في الأصل بتسكين العين، وضم هنا للضرورة.

ثم قد صار على مر الزمان قشرها يغلظ آناً بعد آن
 بيد أن النار عند الهيجان قد أعادت قشرها منخرماً
 بصدوع مُدهشات البصر^{١١}
 شخصت أطراف هاتيك الصدوع بجبال شمخت منها الفروع
 ولها في العين أشكال تروغ تقذف الأفواه منها حُمماً^{١٢}
 صار منهن ركام الحجر^{١٣}
 حصلت من قذف هاتيك المواد حيث يجمدن جبال ووهاد^{١٤}
 وركاز وصخور وجماد بعضها دَقَّ وبعضُ عظماء^{١٥}
 وهو صلب الجسم صعب المكسر
 وهناك انعقدت فيها الغيوم من بخار كان في الجوَّ يعوم
 ردّه البردُ مياهاً في التخوم فجرى السيل عليها مفعماً^{١٦}
 كل غور فوقها منحدر^{١٧}
 عمّها السيل فغطى حين سأل سطحها مجترفاً منها الرمال
 فطما الماء ولكنّ الجبال شخصت في الماء لَمَّا أن طمّا^{١٨}
 وعلت كالسُّفن فوق الأبحر
 غمر الماء بها ما غمرا ثم خلّى بعضها منحسراً^{١٩}

^{١١} صدوع: شقوق.

^{١٢} تروغ: تخيف. الحمم: جمع حمة، وهي ما تقذفه البراكين عند ثورانها.

^{١٣} الركام: الشيء المتراكم بعضه فوق بعض.

^{١٤} الوهاد: الأماكن المنخفضة.

^{١٥} الركاز: المعدن. دق: صغر.

^{١٦} التخوم: الفواصل بين الأرضين. مفعماً: مائلاً.

^{١٧} الغور: هو ما انحدر من الأرض، متى تسلطت حرارة الشمس على الأرض امتصت رطوبتها فتتصاعد تلك الرطوبة بخاراً في الجو، ومتى بلغ الطبقة الباردة من الهواء يتحلل ويتساقط مطراً، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. الودق: المطر.

^{١٨} طما: ارتفع.

^{١٩} منحسراً: منكشفاً.

محدثاً في السطح منها جزراً أنزل الماء بها ما حطما^{٢٠}
من طُفالٍ وحُتاتٍ المدر^{٢١}
بسيول الماء كم فيها ارتكم^{٢٢} من رمال رسبت فيها أكم^{٢٣}
ولكم خدَّت أخاديدَ وكم قد بَنت من طبقات علما^{٢٤}
نضدت فيه صفيح المرمَرِ
ثم صارت وهي من قبلُ مواتٍ تصلح الأقطار منها للحياة^{٢٥}
فانبرت تُنبِت في البدء النبات ثم أبدت من قواها النسما^{٢٦}
وارتقت فيها لنوع البشر^{٢٧}
فغدت إذ ذاك تزهو بالرياض وبها الأدواح تنمو في الغياض^{٢٨}
ثم ترميها أكفُ الإنقراض بانحطام حيث تمسي فحما
حجرياً بمرور الأعصر
من حطام الخلق في الأرض هضابٌ كوْنَتَهن أكفُ الإنقلاب^{٢٩}

٢٠ الجزر: جمع جزيرة، على غير قياس، والقياس: جزائر.

٢١ الطفال: بفتح الطاء وضمها هو الطين اليابس. الحتات بضم الحاء: وهو ما تناثر من شيء. المدر: التراب المتلبد.

٢٢ ارتكم الشيء: اجتمع مع ازدحام وكثرة. رسب الشيء في الماء: وصل إلى أسفله. أكم: جمع أكمة، وهي التل.

٢٣ خدت: شقت. الأخاديد: جمع أخدود، وهو شق مستطيل في الأرض. العلم: الجبل.

٢٤ الأرض الموات: وهي الخراب، أو التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد. الأقطار: النواحي والجهات، مفردها قطر.

٢٥ النسم جمع نسمة وهي نفس الروح، وأراد بالنسم الأرواح أنفسها.

٢٦ يظهر أن الشاعر يميل إلى مذهب النشوء والارتقاء كما يفهم من هذا المقطع، وقد اضطربت الآراء في أن هذا المذهب يعارض نصوص الدين، وعندي أنه لا يعارضها، ولم يزل علماء الكون في حيرة من تحقيق هذا المذهب.

٢٧ الأدواح: الأشجار العظيمة.

٢٨ الحطام: ما تكسر وتفتت من الأشياء اليابسة، وحطام الخلق: ما تكسر من عظامها وتحطم. الهضاب: جمع هضبة، وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

ما تراب الأرض واللّه ترابٌ إنما ذاك حُطام قدُما
 من جُسوم باليات الكسرِ
 كم على الأرض رُفات بالياتٍ من جُسوم طحنتها الدائرات^{٢٩}
 فاحتفِر في الأرض تلك الطبقات تجد الأنقاض فيها رمما^{٣٠}
 هي للأحياء أو للشجر
 كل وجه الأرض للخلق قبور خفف الوطاء على تلك الصدور
 والعيون النجل منهم والثغور إنما أنت ستفنى مثلما^{٣١}
 قد فَنُوا والموت دامي الظفرِ
 ظَلَّت الأرض على كَرِّ الدهور تُبحر الأجل فيها والبحور^{٣٢}
 فوقها تُجَبَلُ والماء يغور وعلى ذاك استدل الحُكما
 بـجبال السَّمكِ المستحجرِ
 علماء الأرض لم تبرح ترى حيوان البرِّ لَمَّا دَثرا^{٣٣}
 منه في الأبحر أبقي أثرا وكذا في البرِّ ألقى العلمَا
 أثراً من حيوان الأبحرِ
 كل ما في الأرض من قفرٍ وبيدٍ وجبال شَهقت فوق الصعيد^{٣٤}
 عن زُهاءِ الربع منها لا يزيد وسوى ذلك منها انكتما
 تحت ماء البحر لم ينحسرِ
 في صعيد الأبحر المنغمسِ مثلُ ما يوجد فوق اليَبسِ

^{٢٩} الرفات: الحطام وهو مفرد مذكر، أراد به الشاعر معنى الجمع، فجمع صفته وأنثها.

^{٣٠} الأنقاض: الأبنية المتهدمة. الرمم: ما بلي من العظم، مفردا رمة، وأراد بها الشاعر ما هو أعظم.

^{٣١} النجل: العيون الواسعة الحسنه.

^{٣٢} تبحر الأجل: أي تصيرها بحرًا، والأجل: جمع جبل، تجبل: تصير جبلاً — يعرض للأرض بسبب ما في جوفها من القوى والفواعل المختلفة اضطرابات وانقلابات، وقد تسبب هذه الفواعل تغوير الجبال الشاهقة، في غمرها الماء فتصير بحرًا، وقد تسبب ظهور جبال وجزائر في البحر، وقد استدل علماء الكون على ذلك بما شاهدوه من الأسماك المتحجرة في رءوس الجبال ومن آثار الحيوانات البرية في أغوار البحار.

^{٣٣} دثر: بلي وامحى.

^{٣٤} البيد: جمع بيداء، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس. الصعيد: وجه الأرض.

من جبالٍ ناتئَات الأُرُوسَ وَوَهَادٍ تَسْتَزِلُّ القَدَمَا^{٣٥}
وَرُبَّآ مَخْتَلَفَاتِ القَدَرِ^{٣٦}
مَا نَرَى اليَوْمَ مِنَ المَاءِ الحَمِيمِ والْبَرَاكِينِ الَّتِي تَحْكِي الجَحِيمَ^{٣٧}
وَمِنَ الزَّلْزَالِ ذِي الهَوْلِ العَظِيمِ دَلٌّ أَنَّ الأَرْضَ فِيمَا قَدُمَا
ذَاتَ جِرْمٍ ذَائِبٍ مُسْتَعْرِ^{٣٨}
كُلُّ مَا كَانَ بِحَالِ السَّيْلَانِ فَهُوَ يَغْدُو كِرَةً بِالدُّورَانِ
وَكَذَلِكَ الأَرْضُ فِي مَاضِي الزَّمَانِ كَرُوبًا قَدْ عَدَا مَلْتَأَمَا
جِرْمَهَا مِنْ سَيْلَانِ العُنْصَرِ
ثُمَّ إِنَّ الأَرْضَ مِنْ قَبْلِ الجُمُودِ وَلَدَتْ مِنْهَا وَلَيْسَتْ بِالْوُلُودِ^{٣٩}
قَمَرًا دَارَ عَلَيْهَا بِسَعُودِ وَجَلَا فِي اللَّيْلِ عَنْهَا الظُّلَمَا
فَهِيَ بِنْتُ الشَّمْسِ أُمُّ القَمَرِ^{٤٠}

^{٣٥} ناتئات: مرتفعات. تستزل: تزلق.

^{٣٦} ربا: جمع ربوة، وهي المرتفع من الأرض.

^{٣٧} الحميم: الساخن الحار. البراكين: جبال تقذف نارا ودخاناً وماءً ووحلاً ومواد ذائبة، فيبدو منها إذ ذاك مجموع حوادث تظهر فيها النار أعمالها الغريبة، وأسباب تلك الحوادث غير معروفة، وربما بقيت على الدوام إذ لا وسيلة إلى معرفتها، ومفردها بركان، وهو لفظ قد اصطلح عليه، ولفظه العربي فلقان: جمع فلق، بفتح الفاء واللام ومعناه جهنم، ثم استعمل لجبل النار.

^{٣٨} مستعر: ملتهب.

^{٣٩} الولود بفتح الواو: الكثيرة الأولاد، الأرض قبل أن تجمد بعد انفصالها عن الشمس انفصل عنها القمر.

^{٤٠} هي: أي الأرض بنت الشمس؛ لأنها منفصلة عنها وهي أم القمر، لأنه منفصل عنها.

الاجتماعيات

نحن والماضي

عهدتك شاعرَ العرب المُجيدا
فنحن إليك بالأسماع نُصغي
بشعر لا تزال تنوط منه
إذا أنشدته الحسناء تاهت^٢
وأنت إذا قرعت به عبيداً
ولو تستنهض الجُبْناء يوماً
ولو كررتَه للقوم ألفاً
وكم تهتز أعطافُ المعالي
فلو أنشدتنا في الفخر شعراً
تذكرنا الأوائل كيف سادوا
فما لك لا تطارحنا النشيدا^١
فهل لك أن تفيد فنستفيدا
بجيد بدائع الدنيا عقوداً^٢
كأن قرطتها درّاً فريداً^٣
رددت إلى الحرار به العبيداً^٤
به لتقحّموا الهيجا أسودا
لأقسم سامعوه بأن تُعيدا
إذا ما قلت قافيةً شرودا
تذكرنا به العهد البعيدا
وكيف تبوّعوا الشرف المديداً^٥

^١ قوله: «لا تطارحنا النشيد»: أي لا تجاوبنا منشداً، يقال: طارحه الكلام والشعر والغناء إذا ناظره وجاوبه.

^٢ تنوط: تعلق. والجيد: العنق أو مقلده أو مقدمه.

^٣ تاهت: تكبرت. وقرطتها: أي ألْبستها قرطاً، والقرط بالضم: هو الذي يعلق في شحمة الأذن، من درة أو نحوها.

^٤ قرعت: ضربت. والحرار بالفتح: العتق والحرية.

^٥ تبوّعوا الشرف: امتدوا فيه وأدركوا غايته. والشرف المديد: أي الممدود الطويل.

* * *

فقلت له وقد أبدى ارتياحاً	إليّ إذ ارتجلتُ له القصيدا:
أجلُ إنَّ القبائل من معدٍّ	علوا فتسنّموا المجد المجيدا ^٦
وإنَّ لهاشم في الدهر مجداً	بناه لها الذي هشّم الثريدا
ومذ قام ابن عبد الله فيهم	أقام لكل مكرمة عموداً ^٧
وأنهضهم إلى الشرف المعلّى	وكانوا عنه قبلئذٍ قعوداً
فأصبح واريّاً زند المعالي	وقبلاً كان مقدّحه صلّوداً
فهم فتحوا البلاد ودوّخوها	وقادوا في معاركها الجنوداً ^٨
وهم كانوا أشدّ الناس بأساً	وأمنع جانباً وأعمّ جوداً
وأرجحهم لدى الجلى حلوماً	وأصلبهم لدى الغمرات عوداً ^٩
ولكن أيُّها العربيُّ إنني	أراك لغير ما يُجدي مُريدا
وما يُجدي افتخارك بالأوالي	إذا لم تفتخر فخراً جديداً!

* * *

أرى مستقبل الأيام أولى	بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساعٍ	يُرَدّد في غدٍ نظراً سديدا
فوجّه وجهه عزمك نحو آت	ولا تُلَفّت إلى الماضين جيّدا
وهل إن كان حاضرنّا شقيّاً	نسود بكون ماضيّنّا سعيّدا؟
تقدّم أيُّها العربي شوطاً	فإن أمامك العيش الرّغيدا ^{١٠}
وأسّس في بنائك كلّ مجد	طريفٍ واترك المجد التليدا ^{١١}

^٦ أجل: حرف جواب بمعنى نعم. وتسنّموا المجد: أي علوه. ومعد: هو معد بن عدنان أبو العرب.

^٧ ابن عبد الله: يعني محمد بن عبد الله ﷺ.

^٨ دوخوها: أي قهروها واستولوا على أهلها.

^٩ الجلى: الخطب العظيم، والأمر الشديد، وهي مؤنث الأجل.

^{١٠} الشوط: الجري مرة إلى الغاية.

^{١١} المجد الطريف: الحديث المكتسب، والتليد: القديم الموروث.

فشرُّ العالمين ذوو خمول	إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخيرُ الناس ذو حسب قديم	أقام لنفسه حسبًا جديدا
تراه إذا ادَّعى في الناس فخرًا	تُقيم له مكارمهُ الشهودا
فدَعْنِي والفَخَارَ بمجدِ قوم	مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضًا	لهم ورأيننا فعبسْنَ سودا
وقد عهدوا لنا بتراثٍ مُلكٍ	أضعنا في رعايته العهودا ^{١٢}
وعاشوا سادة في كل أرض	وعشنا في مواطننا عبيدا
إذا ما الجهل خيم في بلادٍ	رأيتَ أسودها مُسخت قرودا

^{١٢} قوله: بتراث ملك، التراث: ما يخلفه الرجل لورثته، أي: بتراث هو ملك، فالإضافة بيانية.

معترك الحياة

هو الدهر لم يترك مشنً غواره
يثير غبار الحادثات بكره
وكم عبر مطوية في صروفه!
خليلي إنَّ الأرض غربال قدرة
تميد به كفُّ الزمان تحرُّكا
فيبقى به الأقوى قرينَ ارتقائه
فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها
على سابق من ليله أو نهاره^١
وهل نحن إلا من مُثار غباره!
فهل من مُجِيل فيه طرف اعتباره؟
تجمعت الأحياء بين إيطاره^٢
لمحو ضعيف أو لإثبات فاره^٣
كما يسقط الأوهى رهين اندثاره^٤
قديراً على دفع الأذى والمكاره

* * *

^١ الغوار: كالإغارة، مصدر غاور العدو إذا غار عليهم. ومشن: مصدر ميمي بمعنى الشن، وشن الغارة: تفريقها وصبها من كل جهة. يقول: إن الدهر لا يقعد عن شن الإغارة بحوادثه المتتالية، وهو على جوادين سابقين، هما: الليل والنهار.

^٢ يشير بهذا والذي بعده إلى قانون الاصطفاء الطبيعي، وهو قانون بقاء الأنسب، فهو يعمل عمله في الأرض الدائرة حول الشمس، فيضمحل في أثناء دورانها الضعيف من المخلوقات، ويبقى بها القوي القادر على دفع كل ما يقاوم حياته فيها، فهي في ذلك بمنزلة الغربال، الذي يسقط عند تحريكه كل دقيق صغير، ويبقى فيه ما هو كبير. وإطار الغربال: اللوح المحيط به.

^٣ تميد به: أي تدور به وتتحرك. والفاره: المليح النشيط، والمراد به هنا: ما يقابل الضعيف، وهو القوي.

^٤ الأوهى: الأضعف، وهو مقابل للأقوى في الشطر الأول.

لعمرك ما هذي الحياة بملبس
ولكن لمن أمسى بأيدي وقوة
أرى الشمس تخفي ضوءها كل شارق
وما ذاك إلا أنها في تلهب
فلم يستطع نجمٌ طلوعاً تجاهها
كذاك ضعيف القوم إن كان جاره
وما الليث لولا بأسه في عرينه
ومن غاور الأيام غير مدجج
ومن لم يهن صرف الزمان برحلة
وما شرف الدر الثمين فريده
لمن حيك من عجز نسيج شعاره
يجرُّ على الأيام فضل إزاره^٥
وإن كان ينبو الطرف عن مستناره
يموج بنور ساطع وقد ناره
إذا لم يعد بالليل غب اعتكاره
قويًا يكن شلواً أكيلًا لجاره^٦
بأشرف من ضبّ الفلا في وجاره
فلا يطمعن في مغنم من مغاره^٧
تُهنه صروف الدهر في عُقر داره^٨
إذا هو لم يبرح بطون محاره^٩

* * *

أرى كلّ ذي فقر لدى ذي غنى
ولم يُعطه إلا اليسير وإنما
ويلبس من تذليله العز ضافياً
يشدّ الغنى أزر الفتى في حياته
أجيراً له مستخدماً في عقاره^{١٠}
على كدّه قامت صروح يساره
وينظره شزراً بعين احتقاره
وما الفقر إلا مكسر في فقاره

^٥ بأيدي: أي بقوة، فعطف القوة عليه من قبل عطف التفسير، والباء هنا للمصاحبة، وقوله: يجر على الأيام فضل إزاره: كناية عن القوة والقدرة؛ لأن جر فضل الإزار إنما هو فعل الجابرة والأغنياء، فكأنه يقول لمن أمسى قوياً ذا قدرة وعظمة.

^٦ ضرب في الأبيات المتقدمة مثلاً لتغلب القوي على الضعيف، بما ذكر من الشمس التي لا تستطيع النجوم طلوعاً تجاهها، فلا تطلع إلا إذا غابت الشمس واعتكر الظلام، ثم قال: وكذلك ضعيف القوم إن جاور القوي كان مغلوباً له، والشلو: العضو من اللحم.

^٧ المدجج: اللابس السلاح.

^٨ عُقر الدار: وسطها، أي: من لم يرحل لدفع نوائب الدهر عنه، نابته تلك النوائب وهو في وسط داره.

^٩ المحار: الصدف الذي يكون فيه اللؤلؤ، واحده: محارة.

^{١٠} ينتصر بهذا البيت وما بعده لمذهب الاشتراكية، حيث ذكر منزلة الفقير تجاه الغني، وعيش الثاني من كد الأول.

وليس الغنى إلا غنى العلم إنه
ولا تحسبن العلم في الناس منجياً
وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً
لنور الفتى يجلو ظلام افتقاره^{١١}
إذا نكبت أخلاقهم عن مناره
ولكن تزيغ العين عند انكساره^{١٢}
وإن كان بحرًا زاحراً من بحاره

* * *

سل الفلك الدوار عن حركاته
وهل هو في هذا الفضاء مسافر
وهبنا جهلنا بدأه من تقادم
متى ينجلي ليل الشكوك عن النهى
ألا وزى في زند الزمان فنهتدي
أرى الدهر ليلاً كله غير مبصر
وأهليه ساروا خابطين ظلامه
لعمرك إن الدهر يجري لغاية
وها هو ذا يعدو فيبتدر المدى
لقد فاز من بارى جديده جدّة
وليست حياة الناس إلا تجددًا
وما الناس إلا الماء يحييه جريه
فهل هو فيها دائر باختياره؟
له غاية مقصودة من سفاره؟
فهل يدرك العقل انتهاء مداره؟
وترفع كف العلم مرخى ستاره؟
بسقط ضئيل من سقيط شراره؟
وإن كان في رأد الضحى من نهاره
وإن ركبوا في السير متن بخاره
فإن شئت أن تحيا سعيدًا فجاره
وينهب أعمار الورى في ابتداره
وخاب الذي في جدّه لم يُبارِه
مع الدهر في إيباسه واخضراره
ويرديه مُكثّ دائم في قراره

* * *

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض
فقد طال نوم القوم بين دياره؟

^{١١} يشير بهذه الأبيات إلى أن الغنى الحقيقي هو غنى العلم لا المال، وأن العلم لا يجدي نفعًا إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة.

^{١٢} العلم يشبه بالنور من جهة أنه يجلو ظلام العمى، أي: الجهل، كما أن النور يجلو ظلام الليل، وكذلك يشبه النور من جهة أنه إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يؤدي بصاحبه إلى الزيغ عن الهدى، كما أن النور إذا انكسر شعاعه عند نفوذه في الأجسام الشفافة كالهواء والماء تزوغ عين الرائي، أي: تنحرف بسبب انكساره عن رؤية المرئي كما هو في نفس الأمر، وتحرير المعنى أن العلم إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يكون كالنور المنكسر، الذي يزوغ به البشر عن إدراك حقيقة المرئي كما هي.

ألم تر أنَّ الغرب أَصْلَتْ سَيْفَهُ عليهم وهم لاهون تحت غراره؟!
وبادرهم كالسيل عند انحداره وهم في مهاوي غفلةٍ عن بداره
أما آن للساهين أن يأبهوا له وقد أصبحوا في قبضة من إساره^{١٣}
تراهم جميعًا بين حَيَوَانٍ واجمٍ وآخر يُطري ماضيًا من فخاره^{١٤}

^{١٣} أن يأبهوا له: أي أن يفتنوا له.

^{١٤} واجم: أي ساكت لشدة حزن أو غم.

أم اليتيم

رمت مسمعي ليلاً بأنة مؤلم
وباتت توالي في الظلام أنينها
فيهفو بقلبي صوتها مثلما هفت
إذا بعثت لي أنة عن توجع
تقطع في الليل الأنين كأنها
يهز نياط القلب بالحزن صوتها
تردده والصمت في الليل سائد
كأن نجوم الليل عند ارتجافها
فما خفقان النجم إلا لأجلها
فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم^١
وبت لها مرمى بنهشة أرقم^٢
بقلب فقير القوم رنة درهم^٣
بعثت إليها أنة عن ترحم
تقطع أحشائي بسيف مثلم^٤
إذا اهتز في جوف الظلام المخيم^٥
بلحن ضئيل في الدجنة مبهم^٦
تصيخ إلى ذاك الأنين المجمع^٧
وما الشهب إلا أدمع النجم ترتمي

^١ الضيغم: الأسد.

^٢ الأرقم: أخبث الحيات وأطلبها للناس.

^٣ يهفو: يخفق.

^٤ مثلم: مفل، مكسر الحد.

^٥ النياط: عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين، والنيط في الأصل: ما يعلق عليه أي شيء.

^٦ الدجنة: الظلمة.

^٧ تصيخ: تستمع. جمجم الكلام: أي لم يبينه.

لقد تركتني مُوجِعَ القلبِ ساهراً
أرى فحمة الظلماء عند أنينها
فأصبحت ظمآن الجفون إلى الكرى
وأصبح قلبي وهو كالشعر لم تدعُ
وبيتٍ بكت فيه الحياة نحوسة
به أَلقت الأيام أثقالَ بؤسها
كأنني أرى البنيان فيه مهدماً
ولكن زلزال الخطوب هوى به
دخلت به عند الصباح على التي
فألقيتُ وجهاً خدد الدمع خده
وجسماً نحيفاً أنهكته همومه
لقد جثمت فوق التراب وحولها
تراه وما إن جاوزَ الخمسَ عمره
بكى حولها جوعاً فغذّته بالبكا
وأكبر ما يدعو القلوب إلى الأسى

أخا مَدمع جَارٍ ورأسٍ مُهوّم^٨
فأعجب منها كيف لم تتضرّم!^٩
وإن كنت رِيّان الحشا من تألّمي^{١٠}
له شعراء القوم من متردّم^{١١}
ولاحت بوجه العابس المتجهم^{١٢}
فهاجت به الأحزانُ فاغرة الفم^{١٣}
وما هو بالخاوي ولا المتهدّم
إلى قعر مهواة الشقاء المحسّم
سقاني بكاه في الدجى كأس علقم^{١٤}
ومحمّرّ جفن بالبكا متورّم^{١٥}
فكادت تراه العينُ بعضَ توهم
صغير لها يرنو بعيني ميّتم^{١٦}
يدير لحاظ اليافع المتفهم^{١٧}
وليس البكا إلا تعلّة مُعدم^{١٨}
بكاء يتيمٍ جائعٍ حول أيم^{١٩}

^٨ هوم الرجل تهويماً وتهوم تهوؤاً: أي هزّ رأسه من النعاس.

^٩ تتضرّم: تشتعل.

^{١٠} الكرى: النعاس.

^{١١} المتردّم: المرقع الذي يرقع.

^{١٢} المتجهم: هو الذي يستقبلك بوجه كريه.

^{١٣} فاغرة: فاتحة.

^{١٤} الدجى: الليل. العلقم: الحنظل وكل شيء مر.

^{١٥} خدد: شقق.

^{١٦} يرنو: يديم النظر.

^{١٧} اليافع: الذي ترعرع وناhez البلوغ.

^{١٨} التعلّة: هو الشرب بعد الشراب تباعاً، والمراد هنا: أنه كان يبكي مرة بعد مرة، ليعلل نفسه ويشغلها

بذلك. المعدم: الفقير.

^{١٩} الأيم: التي فقدت زوجها.

* * *

وقفت وقد شاهدت ذلك منهما
وقفت لديها والأسى في عيونها
وساءلتها عنها وعنه فأجهشت
ولما تناهت في البكاء تضاحكت
ولكن دموع العين أثناء ضحكها
فقد جمعت ثغراً من الضحك مُفْعَماً
فتُذْري دموعاً كالجمان تناثرت
فلم أرَ عيناً قبلها سال دموعها
فقلت، وفي قلبي من الوجد رعشة:

لمريم أبكي رحمة وابن مريم
يكلمني عنها ولم تتكلم
بكاءً وقالت: أيها الدمع ترجم^{٢٠}
من اليأس ضحك الهازئ المتهمك
هواطلُ مهما يسجم الضحك تسجم^{٢١}
إلى محجر باكٍ من الدمع مُفْعَم^{٢٢}
وتضحك عن مثل الجمان المنظم^{٢٣}
بكاءً وفيها نظرة المتبسم
أمجنونة؟ يا ربَّ فارحم وسلِّم!

* * *

ومذ عرضت للابن منها التفاتة
فقام إليها خائرَ الجسم فانتنت
وظلت له ترنو بعين تجوده
فقال لها لما رآني واقفاً
سلي ذا الفتى يا أمُّ: أين مضى أبي؟
فقال له، والعين تجري غروبها

أشارت إليه بالمدامع أن قم
عليه فضمته بكف ومعصم^{٢٤}
بفدٍ من الدمع الغزير وتوعم^{٢٥}
أرددُ فيه نظرة المتوسم^{٢٦}
وهل هو يأتينا مساءً بمطعم؟
وأنفاسها يقذفن شُعلة مضرَم^{٢٧}

^{٢٠} أجهشت بالبكاء: أي همت به وتهيات له.

^{٢١} سجم الدمع: سال.

^{٢٢} مُفْعَماً: مملوءاً. المحجر: ما دار بالعين وبدا من البرقع.

^{٢٣} الجمان: اللؤلؤ.

^{٢٤} المعصم: موضع السوار من الساعد.

^{٢٥} الفد: الفرد. التوعم: المولود مع غيره في بطن، من الاثنين فصاعداً.

^{٢٦} المتوسم: المتفرس.

^{٢٧} غروبها: دموعها.

أبوك ترامت فيه سفرة راحلٍ
مشى أرمناً في المعاهد فارتمت
على حينٍ ثارت للنوائب ثورةٌ
فقامت بها بين الديار مذابحٌ
ولولاك لاخترت الحمام تخلصاً
فأنت الذي أخرت أمك مريمًا
أمريم! مهلاً بعض ما تذكريه
أمريم! إن الله لا شك ناقمٌ
أمريم! فيما تحكمن تبصري
فليس بدين كل ما يفعلونه
لئن ملئوا الأرض الفضاء جرائماً
ولكنهم في جنح ليلٍ من العمى
وقد سلخوا تيهاء من أمر دينهم
ولما رأيت اللوم لؤماً تجاهها
وأطرقت نحو الأرض أطلب عفوها

إلى الموت لا يُرجى له يوم مقدم^{٢٨}
به في مهاوي الموت ضربة مسلم
أنت بحزازات إلى الدين تنتمي^{٢٩}
تخوض منها الأرمنيون بالدم
بنفسي من أتعاب عيشٍ مُدَمَّمٍ^{٣٠}
عن الموت أن يوذي بأمك مريم^{٣١}
فإنك ترمين الفؤاد بأسهم
من القوم في قتل النفوس المحرّم
فإن أنت أدركت الحقيقة فاحكمي
ولكنه جهل وسوء تفهم
فهم أجرمو والدين ليس بمجرم
تمشوا بمطموس العلائم مُبَهَمٍ^{٣٢}
فكم مُنجدٍ في المُخزيات ومُنهم^{٣٣}
سكتُ فلم أنبس ولم أتبرم^{٣٤}
ولا أنا بالجاني ولا بالمتيم^{٣٥}

^{٢٨} ترامت به: أبعدته.

^{٢٩} يشير بذلك إلى فتنة أطنة التي ثارت بسبب حمقى الأرمن وجهلاء المسلمين.

^{٣٠} الحمام: الموت.

^{٣١} أردى به: أهلكه.

^{٣٢} جنح الليل: طائفة منه. بمطموس: أي بطريق مطموس. والعلائم: جمع علامة، وهي شيء منصوب

في الطريق يهتدى به.

^{٣٣} التيهاء: الأرض التي يتوه بها الإنسان. المنجد: قاصد النجد، أي: المكان المرتفع، والمنهم: قاصد تهامة

أي: المكان المنخفض.

^{٣٤} لم أنبس: أتكلم. أتبرم: أتضجر.

^{٣٥} الجاني: المجرم. المتيم: الذي تيمه العشق أي: ذلّله وعبدّه.

أم اليتيم

وظَلْتُ لها أبكي بعينٍ قريحة جرت من أماقيها عصارَةُ عَنَدَمٍ^{٣٦}
بكيتُ وما أدري أأبكي تَضَجُّرًا من القوم أم أبكي لِشَقْوَةِ مريم؟!

^{٣٦} الأماقي: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف. العندم: البقم، وهو شجر له ساق أحمر يصبغ بطبيعته.

السجن في بغداد

سكنّا ولم يسكن حراكُ التبذُّرِ
عفا رسمُ مغنى العزِّ منها كما عفت
بلادُ أناخِ الذلِّ فيها بكلِّ كلِّ
معاهدُ عنها ضلُّ سابقِ عزها
أحاطت بها الأرزاء من كل جانبٍ
وحلّق في آفاقها الجورُ بازياً
وينقضُّ أحياناً عليها فتارةً

مواطن فيها اليوم أيمُن من غدٍ^١
«لخولة أطلال ببرقة ثهمد»^٢
على كل مفتول السَّبالينِ أصيدٍ^٣
فهل هو من بعد الضلالة مُهتدٍ؟
إلى أن محتها معهداً بعد معهدٍ
مُطلّاً عليها صائتاً بالتهدُّدِ^٤
يروح وفي بعض الأحايين يغتدي

^١ التبذد: التفرق. أيمُن: أسعد.

^٢ عفا: امحى. الرسم: ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار. المغنى: المنزل الذي أقام به أهله ثم رحلوا. خولة: اسم امرأة. الأطلال: جمع طلل، وهو الباقي من آثار الديار. برقة ثهمد: اسم موضع، استعار الشاعر هذا العجز من صدر مطلع معلقة طرفة بن العبد.

^٣ أناخ بالمكان: أقام به. الكلل: الصدر. السبالين: تثنية سبال، والسبال: جمع سبلة، وهي شعر الشاربين. الأصيد: الذي يرفع رأسه زهواً وعجباً.

^٤ الأرزاء: المصائب.

^٥ البازي: اسم فاعل من بزا عليه بمعنى تناول، وفيه تورية بالبازي، وهو نوع من الطيور الجارحة التي تسمى الصقور. صائتاً: مصوتاً.

فيخطف أشلاءً من القوم حيّة
ويرمي بها في قعر أظلم موحش
هو السجن ما أدراك ما السجن! إنه
بناءً محيطٌ بالنعاسة والشقا
ولم يقدِّ المقتولَ منها ولم يد^٦
به أين تسقطُ جذوة الروح تُخمد^٧
جلاد البلايا في مضيق التجلد
لظلم بريءٍ أو عقوبة معتد

* * *

زر السجن في بغداد زورة راحم
محلُّ به تهفو القلوب من الأسى
مربّع سور قد أحاط بمثله
وقد وصلوا ما بين ثانٍ وثالث
وفي ثالث الأسوار تشجيك ساحة
ومن وسط السور الشمالي تنتهي
هي الساحة النكراء فيها تلاعبت
ثلاثون مترًا في جدار يحيطها
تواصلت الأحزان في جنباتها
تصدّ من جوف المراحيز فوقها
لتشهد للأنكاد أفجع مشهد^٨
فإن زرته فاربط على القلب باليد^٩
محيط بأعلى منه شيد بقرميد^{١٠}
بمعقود سقف بالصخور مُشيد
تمور بتيارٍ من الخسف مُزبد^{١١}
إليها بمسدود الرّجاجين موصد^{١٢}
مخاريق ضيم تخلط الجدّ بالدرد^{١٣}
بسمك زهاء العشر في الجو مصعد
بحيث متى يبلّ الأسى يتجدّد
بخارٍ إذا تمرّز به الريح تفسد

^٦ أشلاء الإنسان: أعضاؤه. لم يقد المقتول: لم يقتل قاتله. لم يد: لم يعط الديّة؛ وهي مال يعطى لولي القتل بدل النفس.

^٧ جذوة الروح: شعلتها.

^٨ الأنكاد: جمع نكد، وهو الرجل المشؤم ذو العسر.

^٩ تهفو: تضطرب.

^{١٠} أي: هو مربع سور، يصف بهذا البيت وما بعده بناء السجن وشكله؛ أي: هو سور مربع أحاط بسور آخر مثله، وهذا أيضًا أحاط بسور ثالث أعلى منه.

^{١١} هو السور الذي تليه ساحة السجن. تشجيك: تحزنك. تمور: تضطرب. الخسف: الإهانة والذل. مزبد: هائج.

^{١٢} الضمير في قوله: إليها يعود إلى الساحة في البيت السابق. الرّجاج: الباب العظيم. موصد: مغلق.

^{١٣} المخاريق: ما يلعب به الصبيان من الخرق المقتولة. الضيم: الذل. الدد: اللهو.

هناك يوّد المرءُ لو قاءَ نفسَه
فقف وسطها وانظر حواليك دائراً
مقابر بالأحياء غصّت لحودها
وقد عميت منها النوافذ والكوى
تظنُّ إذا صدرَ النهار دخلتها
فلو كان للعبّاد فيها إقامةٌ
يزور هبوبُ الريح إلا فناءها
تضيق بها الأنفاس حتى كأنما
وحتى كأن القومَ شُدّت رقابهم
وأطلقها من أسرٍ عيشٍ مُنكِّدٍ^{١٤}
إلى حُجَرٍ قامت على كل مقعد
بخمسة مئيين أنفوس أو بأزيد
فلم تكتحل من ضوء شمس بمروء^{١٥}
كأنك في قطع من الليل أسود
لصلّوا بها ظهراً صلاة التهجد^{١٦}
فلم تحظْ من وصل النسيم بموعد^{١٧}
على كل حيزوم صفائح جلمد^{١٨}
بحبل اختناق محكم القتل مُحصدٍ^{١٩}

* * *

بها كل مخطوم الخُشام مذلّ
يبيت بها والهَمُّ ملءٌ إهابه
يُميت بمكذوب العزاء نهاره
ينوءُ بأعباء الهوان مقيّداً
وتقذفهم تلك القبور بضغطها
فيرجع بعضٌ من حصير ظلاله
متى قيد مجروراً إلى الضيم ينقذ^{٢٠}
بليلة منبول الحشا غير مُقصدٍ^{٢١}
ويحيي الليالي غير نومٍ مُشرّدٍ
ويكفيه أن لو كان غير مُقيدٍ^{٢٢}
عليهم لحرّ الساحة المتوقد
ويجلس فيها جلسة المتعبّد

^{١٤} قاء نفسه: أي أخرج روحه من جسده كالقيء.

^{١٥} الكوى: جمع كوة، وهي شيء في الجدار أشبه بالنافذة إلا أنه لا ينفذ. المروء: الميل الذي يكتحل به.

^{١٦} التهجد: الصلاة في الليل.

^{١٧} الفناء: الوصيد، وهو ساحة أمام البيت.

^{١٨} الحيزوم: وسط الصدر. الصفائح: الحجارة العراض. الجلمد: الصخر.

^{١٩} محصد: محكم القتل.

^{٢٠} الخشام: الأنف العظيم. ومخطوم الأنف: أي جعل من أنفه خطام، والمعنى ظاهر. قيد: سحب.

^{٢١} الإهاب: الجلد. منبول: مصاب بالنبل. والحشا: ما انضمت عليه الضلوع. مقصد: اسم مفعول من

أقصده السهم، أي: أصابه فقتله.

^{٢٢} ينوء بأعباء الهوان: تثقله أحماله.

وليس تقيه الحر إلا تعلّة
وبالثوب بعض يستظل وبعضهم
فمن كان منهم بالحصير مظللاً
تراهم نهار الصيف سفعا كأنهم
وجوه عليها للشحوب ملامح
وقد عمّمهم قيد التعاسة موثقاً
فسيدهم في عيشه مثل خادم
يخوضون في مستنقع من روائح
تدور رءوس القوم من شمّ نُننها
تراهم سُكاري في العذاب وما هم
وتحسبهم دوداً يعيش بحمأة
ألا ربّ حرّ شاهد الحكم جائراً
فقال ولم يجهر ونحن بمنّدي
على أيّ حكم أو لأية حكمة

لنفس خلت من صبرها المتبدد^{٢٣}
بنسج لعاب الشمس في القيظ يرتدي^{٢٤}
يعدّونه ربّ الطرف الممدد^{٢٥}
أثافيّ أصلها الطُهاة بموقد^{٢٦}
«تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد»^{٢٧}
فلم يتميز مطلق عن مقيد
وخادمهم في ذلّه مثل سيّد
خبائث مهما يزدد الحر تزدد
فمن يك منهم عادم الشم يُحسد
سُكاري ولكن من عذاب مشدّد
وما هو من دود بها متولّد^{٢٨}
يقود بنا قود الذلول المعبّد^{٢٩}
به غير مأمون الوشاية ينتدي^{٣٠}
ببغداد ضاع الحق من غير منشد^{٣١}!

^{٢٣} التعلّة: ما يتعلل به؛ أي يتلهى.

^{٢٤} القيظ: شدة الحر. ومعنى قوله: «بنسج لعاب الشمس يرتدي» أنه عاري الجسم لا ثوب له.

^{٢٥} الطرف: بيت يصنع من الأدم؛ أي الجلد، للملوك والرؤساء خاصة.

^{٢٦} سفعا: وجوههم متغيرة موردة. الأثافي: أحجار يوضع عليها القدر، مفردها أثفية. أصلها: أحرقتها.

الطهاة: جمع طاهٍ، وهو الطباخ.

^{٢٧} الشحوب: تغير اللون. الوشم: هو أن تغرز الإبرة في الجلد، ثم تذر عليه مادة خاصة معروفة. هذا

العجز تتمة لصدر بيت طرفة المتقدم.

^{٢٨} الحمأة: الطين الأسود المنتن؛ أي هم يشبهون الدود الذي تولد في غير الحمأة، ثم ألقى في الحمأة فإنه

يموت فيها، بخلاف الدود المتولد من الحمأة، فإنه يعيش فيها ولا يموت.

^{٢٩} الذلول: البعير السهل القيادة. المعبد: المذل.

^{٣٠} ينتدي: يجتمع في النادي، والمعنى: قال ذلك القول ونحن في نادٍ يجتمع فيه من لم تكن نأمن تجسسه

ووشايته.

^{٣١} منشد: مصدر ميمي من نشد الضائع؛ أي نادى وسأل عنه.

فأدْنَيْتِ لِلنَّجْوَى فَمَي نَحْو سَمْعِهِ
رَعَى اللَّهَ حَيًّا مُسْتَبَاحًا كَأَنَّهُ
وَمَا صَاحِبَ الْبَيْتِ الْحَقِيرِ بِنَاؤُهُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ تَخَاذَلُوا
فَنَامُوا عَنِ الْجَلَى وَنَمَتِ كَنُومُهُمْ
وَهَلْ أَنَا إِلَّا مَنْ أَوْلَيْتُكَ إِنْ مَشَا
وَكَمْ رُمْتُ إِيْقَاضًا فَأَعْيَا هُبُوبُهُمْ!
نَهَوْضًا نَهَوْضًا أَيُّهَا الْقَوْمُ لِلْعُلَا
تَقَدَّمْنَا قَوْمَ فَأَبْعَدَ شَوْطَهُمْ
وَسَدَّ عَلَيْنَا الْاِعْتِسَافَ طَرِيقَنَا
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَزْحَفُ الدَّهْرُ نَحُونَا
فِيَا رَبِّ نَفْسٌ مِنْ كَرْوٍ عَظِيمَةٍ

وقلت: لأن العدل لم يتبغدد^{٣٢}
من الذعر أسراب النعام المطرّد^{٣٣}
بأفزع من رب البلاط الممرّد^{٣٤}
ولم ينهضوا للخصم نهضة مُلبّد^{٣٥}
سوى نُوحَةٍ مِنِّي بِشَعْرٍ مَغْرِد^{٣٦}
مشيت وإن يقعد أولئك أقعد؟
وكيف وعزم القوم شارب مُرقد^{٣٧}؟!
لتبنوا لكم بنيان مجد موطّد^{٣٨}
وقد كان عنا شوطهم غير مُبعد
فأجحف بالغوري والمتنجّد^{٣٩}
بجنّد من الخطب الجليل مجنّد
ويا ربّ خفّف من عذابٍ مشدّد

^{٣٢} النجوى: حديث السر. لم يتبغدد: لم ينتسب لبغداد، ومعنى الأبيات الأربعة: أن ذلك الحر جهر في ذلك النادي الذي يجمع فيه غير الأمناء قائلًا: لِمَ يضيع الحق في بغداد من غير أن نطلبه ونسأل عنه؟ فقلت له سرًا: ذلك لأن العدل غير بغدادي.

^{٣٣} الذعر: الخوف. الأسراب: جمع سرب، وهو القطيع من النعام والنساء وغيرها.

^{٣٤} الممرّد: المملس المنظم.

^{٣٥} الملبّد: من أسماء الأسد.

^{٣٦} الجلى: الأمر العظيم.

^{٣٧} أعيا: يريد أعيانني؛ أي أتعبني. هبوبهم: استيقاظهم من الخمول، وإسراعهم إلى المعالي. المرقد: دواء، يرقد شاربهُ أي يُنِيمُهُ كالأفيون. يقول: كيف يهبون إلى المجد وهم شاربون من الخمول والاستبداد ما أفقدهم السداد؟!

^{٣٨} الاعتساف: الظلم. أجحف به: كلفه ما لا يطيق. الغوري: قاصد الغور، وهو المطمئن من الأرض. المتنجّد: قاصد النجد، وهو المرتفع منها.

الدهر والحقيقة

أرى الدهر لا يَألو بستر الحقائق
يجرُّ ذبول الخطْبِ فوق طريقها
ولو لم يجئنا كل يومٍ مواربًا
كأن ليالي الدهر غضبي على الوري
وما طلعت كي تهدي القوم شمسُه
وقد تنطق الأيام بالحق أعجمًا
وكم مدَّع فضل التمدُّن ما له
وكم عاقلٌ قد عدَّه الناس أحمقًا
وربَّ ذكي لم يكن من ذكائه
وقد تُعرض الأسماع عن ذي فصاحة
إذا افتَرَّ عن صبحٍ تلاه بغاسقٍ^١
ليعفوَ منه ما به من سلائقٍ^٢
لما كان فجر كاذب قبل صادق
فتَنظُر شزْرًا بالنجوم الشوارقِ^٣
ولكن لتصليهم جحيم الودائعِ^٤
وتسكت عن تبيانهِ كل ناطق
من الفضل إلا أكله بالملاعق!
وما هو لو يُبلى سوى متحامقٍ^٥
سوى ما روه من ذكاء اللقالقِ^٦
وتصغي إلى ذي اللُكْنَةِ المتشادقِ^٧

^١ غاسق: ظلام دامس.

^٢ سلائق: جمع سليقة، وهي الطبيعة.

^٣ النظر الشزْر: ما كان بمؤخرة الطرف، وهو نظر احتقار وكبر. والشارق: الطالع.

^٤ الودائع: جمع وديقة، وهي حر نصف النهار.

^٥ المتحامق: المتشبه بالحمقى في أفعاله وليس بأحمق.

^٦ اللقالق: جمع لقلق، وهو ضرب من الطير طويل العنق والمنقار، يأكل الحيات.

^٧ اللكنة: الحبسة في اللسان. المتشادق: المتفاصح.

تجور عليهم باقتطاع العلائق
تدُلُّ معشوق وذلة عاشق
ولكنه في كتبهم والمهارق^٨
تخط بها طرسًا يراعة نامق
مغاربنا من أمره كالشارق
سوى لغط يُزري بفضل المناطق
تعرفت منها ما بها من خلائق
ولا أنا باكٍ من حبيب مفارق
ولا شاقني برق لربيع ببارق
وأعرضت عن حسن الحسان الغرائق^٩
إلى كل خلٍّ في الزمان موافق^{١٠}
فبيني وبين السكر خمس دقائق^{١١}
بمستقطر من خالص التمر رائق
بشرب كما عبَّ القطا متلاحق^{١٢}
بجنح من الأُنس المضاعف خافق
وقد دب من رأسي الطلا في المفارق
وقلت لهم ما قلت غير منافق
بِمَزٍ طريٍّ من نُقُولِ الحقائق
سوى شكر خلِّي أو سوى حمد خالقي
من السكر أن أحظى به غير سابق

ومن شيم الأيام في الناس أنها
والطف جور الدهر جور نرى به
وما كان كذب القوم في القول وحده
وأقبح مَيِّنٍ في الزمان خُرافةُ
ضلال على مر الجديدين لم تزلْ
فعدَّ عن الأيام إذ لم تجد بها
نفضتُ من الدنيا يدي؛ لأنني
فما أنا وقَّاف بها عند منزل
ولا عذبتني في العذيب صباة
تعشقت فيها حسن كل حقيقة
ولي عند إخوان الصفا أريحيةُ
إذا ما عقدنا مجلس الأُنس بالطلا
أقوم إلى كُبرى الزجاجات مُدهقًا
فأقعر بالكأس الرويّة جبهتي
أسابق ندماني إلى السكر طائرًا
فما هي إلّا بعد شربي سويعة
فنادمت أصحابي على غير حشمةٍ
وأغنيتهم عن نُقلهم في شرابهم
ولم يبدُ فيَّ السكر عند اشتداده
تعوّدت سبقي في الفخار فلم أرد

^٨ المهارق: الصحف تتخذ من حرير أبيض مصمغ مصقول، يكتب عليها الكتب المخلدة كالمعاهدات ونحوها.

^٩ الغرائق: جمع غرنوقة، وهي الشابة الممتلئة.

^{١٠} أريحية: ارتياح.

^{١١} الطلا: الخمر.

^{١٢} الروية: المملوءة.

كما اعتاد سبقاً في المكارم خزلٌ
أمير نمته للمكارم والعلا
كذلك أعلى الله في الناس كعبه
إذا سار سار المجد في طيِّ بُردِه
فيرحل من أنسابه في مواكب
وإن جاء أغضى من رآه تهيباً
بلا سابق فيها عليه ولاحق
جحاجُ من كعب كرام المعارق^{١٣}
بحظ من المجد المؤثِّل فائق^{١٤}
يرافقه أكرم به من مرافق!
وينزل من أحسابه في سراق
سوى نظر منهم بعيني مُسارق

* * *

أبا الأمراء الصيد جئتكَ شاكيًا
أجرني رعاكَ الله منها فإنَّها
أترضى وإنني صقر بغداد أنني
لئن أنكروا حقي فسوف تُحقِّقه
أصوغ بها حرَّ الكلام لخزلٍ
إليك جنيات الزمان الممازق
رمت كل عظم فيَّ منها بعارق^{١٥}
تقدَّمني فيها فراخ العقاق^{١٦}
شواهد أقلام بكفي نوامق
مديحاً كعقد اللؤلؤ المتناسق

^{١٣} نمته: نسبته. والججاج: جمع ججاج، وهو السيد الكريم. والمعارق: جمع معرق وهو الأصل والحسب.

^{١٤} المؤثِّل: الثابت القديم.

^{١٥} عرق العظم يعرقه فهو عارق: أكل ما عليه من اللحم.

^{١٦} العقاق: جمع عقق، وهو طائر صغير ذو لونين: أبيض وأسود، طويل الذنب، صوته العققة، قيل: وهو نوع من الغربان.

في سبيل حرية الفكر

أنشئت في حفلة منتدى التهذيب السنوية ببغداد بتاريخ ٢ أيار سنة ١٩٢٦.

وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا	كتبْتُ لنفسي عهد تحريرها شِعْرا
جعلت الثُّريا فوق عنوانه طُغْرا ^١	ومن بعد إتمامي كتابة عهدها
بمنبعث الأنوار من ذروة الشُّعْرى ^٢	وعَلَّقْته كي لا تَناولَهُ يدُ
وصيَّرت سرَّ الرأي في أمره جهرا	لذاك جعلت الحقَّ نُصبَ مقاصدي
فلم أَكْسُهُ إلا معانيه الغُرا	وجرَّدت شعري من ثياب رِيائهِ
فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا	وأرسلته نظماً يروق انسجامه
وإن كان بعض القوم يزعمه كفرا	فجاء مضيئاً ليلهُ كنهاره
فيحسبه جُهَّالُهُ مَنطَقاً هُجْرا ^٣	أَضَمَّنْهُ معنى الحقيقة عارياً
فيُوسعني شتْماً وينظرني شُزْرا ^٤	ويحمله الغاوي على غير وجهه

^١ الثريا: نجم مؤلف من عدة أنجم صغيرة. والطغراء، ويقال لها الطرة: هي علامة توضع في كتب الملوك شعراً لهم، والنقش يجعل في حاشية الثوب.

^٢ ذروة الشيء: أعلاه. والشُعْرى: كوكب نير، يطلع في شدة الحر.

^٣ الهجر: الفحش في الكلام.

^٤ الغاوي: الضال أو الجاهل. ويوسعني شتْماً: يبالغ في شتمي. وينظرني شُزْراً: يرمقني باحتقار بمؤخر عينه.

رُؤَيْدَكَ إِنِ الْكُفْرَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ
 هَلِ الْكُفْرَ إِلَّا أَنْ تَرَى الْحَقَّ ظَاهِرًا
 وَأَنْ تَبْصُرَ الْأَشْيَاءَ بَيَضًا نَوَاصِعًا
 إِذَا كَانَ فِي عُرْيِ الْجِسْمِ قَبَاحَةٌ
 فَيَلْمُسُهَا مِنْ مَارَسَتْ عَيْنَهُ عَمَى
 أَحَبُّ الْفَتَى أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ
 وَأَكْرَهُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مَقْلَدًا
 وَمَا هَذِهِ الْأَوْطَانُ إِلَّا حَدَائِقُ
 وَمَا حُبُّهَا إِلَّا لِأَجْلِ تَحَرُّرٍ
 وَمَا حَسَنُهَا إِلَّا بِأَنْ سَمَاءُهَا
 إِذَا كَانَ فِي الْأَوْطَانِ لِلنَّاسِ غَايَةٌ
 فَأَوْطَانُكُمْ لَنْ تَسْتَقِلَّ سِيَاسَةً
 إِذَا السَّيْفُ لَمْ يَعْضُدْهُ رَأْيٌ مُحَرَّرٌ
 سِوَا عَلَى الْإِنْسَانِ بَعْدَ جَمُودِهِ
 إِذَا لَمْ يَعْشَ حَرًّا بِمَوْطِنِهِ الْفَتَى
 أَحَرَّيْتِي إِنْني اتَّخَذْتُكَ قَبْلَةً
 وَأُمْسِكُ مِنْهَا الرُّكْنَ مُسْتَلَمًا لَهُ
 إِذَا كُنْتُ فِي قَفْرِ تَخَذْتُكَ مُؤَنَسًا
 وَإِنْ نَابَنِي خَطْبُ ضَمَمَتِكَ لَاتِمًا
 وَإِنْ لَامَنِي قَوْمٌ عَلَيْكَ فَإِنْنِي

وإن صريح العُرف ما خلته نُكْرًا^٥
 فتضرب للأَنْظار من دونه سترًا
 فتظهرها للناس قانية حُمْرًا
 فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
 ويبصرها من كابدت أذنه وَقْرًا^٦
 فيصبح في أفكاره مطلقًا حرًّا
 فيحشر في الدنيا أسيرًا مع الأسرى
 بها تُنَبِّتُ الْأَفْكَارَ مِنْ أَهْلِهَا زَهْرًا
 يكون إلى العلياء بالناس مُنْجَرًّا
 تضاحك من أحرارها أنجمًا زُهْرًا
 فحرية الأفكار غايتها الكبرى
 إذا أَنْتَمُ لَمْ تَسْتَقِلُّوا بِهَا فِكْرًا
 فلا تَأْمَلَنَّ مِنْ حَدِّهِ ضَرْبَةً بِكَرًا^٧
 أَلْهَلَّ بِقَفْرِ الْأَرْضِ أَمْ سَكَنَ الْمَصْرَا
 فَسَمَّ الْفَتَى مَيِّتًا وَمَوْطِنَهُ قَبْرًا
 أَوْجَّهَ وَجْهِي كُلَّ يَوْمٍ لَهَا عَشْرًا
 وفي ركنها استبدلت بِالْحَجَرِ الْحَجْرًا^٨
 وإن كنت في ليلٍ جعلتك لي بدرا
 فقبَلْتُ مِنْكَ الصَّدْرَ وَالنَّحْرَ وَالثَّغْرَا
 لَمَلْتِمَسُ الْقَوْمِ مِنْ جَهْلِهِمْ عَذْرَا

^٥ رويدك: تمهل ولا تعجل. والنكر: المنكر ضد المعروف.

^٦ الوقر: ثقل السمع.

^٧ لم يعضده: لم يؤازره. والضربة البكر: التي لم يضرب قبلها مثلها.

^٨ الحجر، بتحريك الجيم: هو الحجر الأسود الذي في ركن من أركان الكعبة. والحجر، بكسر الحاء وتسكين الجيم، مكان بجانب الكعبة، وفي اللفظ تورية؛ لأنه يطلق أيضًا على العقل وهو المراد به في البيت.

إلى أبناء المدارس

كفى بالعلم في الظلمات نورا يبيّن في الحياة لنا الأمور
فكم وجد الذليل به اعتزازًا وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به العقول هُدى ورشداً وتستعلي النفوس به شعورا

* * *

إذا ما عَقَّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا^١
فإنّ ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا
وَحَقَّ لمثلهم في العيش ضَنْكُ وإن يُدْعوا بدنياهم ثبورا^٢

* * *

أرى لُبَّ العلا أدبًا وعلماً بغيرهما العُلا أمست قشورا
أبناء المدارس إنَّ نفسي تؤمّل فيكم الأمل الكبيراً
فُسْقِيًا للمدارس من رياضٍ لنا قد أنبتت منكم زهوراً
ستكتسب البلاد بكم علواً إذا وَجَدَتْ لها منكم نصيراً

^١ عقه يعقه عقوقاً: لم يوفَ له بعهده وحقه.

^٢ حق لهم كذا: استحقوه. والضنك: الضيق والذل. أن يدعوا ثبوراً: أن يطلبوا الهلاك في الدنيا، يريد أن من قصر في حق العلم استهدف للهلاك.

فإن دَجَتِ الخطوب بجانبيها طلعتُ في دُجْنَتِها بدورا^٣
وأصبحتُ بها للعزِّ حصناً وكنتم حولها للمجد سورا

* * *

إذا ارتوتِ البلاد بفيضِ عِلْمٍ فعاجزُ أهلها يمسي قديرا
ويَقَوَى من يكون بها ضعيفاً ويغنى من يعيش بها فقيرا
ولكن ليس منتفعاً بعلم فتى لم يحرز الخُلُق النضيرا
فإنَّ عماد بيت المجد خلقُ حكى في أنف ناشقه العبيرا
فلا تستنفعوا التعليم إلا إذا هذَّبتم الطَّبْع الشريرا
إذا ما العلم لابسَ حسنَ خُلُقٍ فرجٌ لأهله خيراً كثيراً
وما إنْ فاز أغزنا علوماً ولكن فاز أسلمنا ضميراً

* * *

أبناء المدارس هل مُصِيخُ إلى من تسألون به خبيرا؟^٤
ألا هل تسمعون فإن عندي حديثاً عن مواطنكم خطيرا؟
ورأياً في تعاونكم صواباً وقلباً من تخاذلكم كسيرا
قد انقلب الزمان بنا فأمست بُغَاثُ القوم تحتقر النسورا^٥
وساء تقلب الأيام حتى حمدنا من زعازعها الدُّبورا^٦
وكم من فارةٍ عمياء أمست تُسمَى عندنا أسداً هصوراً^٧
فكيف تروم في الأوطان عزاً وقد ساءت بساكنها مصيرا؟
ولم يك بعضنا فيها لبعض على ما ناب من خطبٍ ظهيرا^٨

^٣ دجت الخطوب: أظلمت الحوادث واشتدت. والدجنة: الظلمة.

^٤ مصيخ: مستمع.

^٥ البغاث: مثلث الباء؛ صغار الطير وضعافها.

^٦ الزعازع: جمع زعزع، وهي الريح الشديدة. والدبور: التي تأتي من الجنوب وهي مكروهة عند العرب.

^٧ الهصور: الشديد الافتراس.

^٨ ظهيرا: عوناً ومساعدًا.

ألسنا الناظرين عقود مجد نزين من العصور بها النحورا؟
إذا لَجَّ الخطوب طَمَتْ بَنِينَا عليها من عزائمننا جسورا
لنبتدر العبور إلى المعالي بحيث تطاول الشعري العبورا^٩

* * *

ألا يا ابن العراق إليك أشكو وفيك أمارس الدهر المكورا^{١٠}
تنفض من غبار الجهل واهرع إلى تلك المدارس مستجيرا^{١١}
فهنَّ أمانٌ من خشَي الليالي وهنَّ ضمان من طلب الظهورا

^٩ الشعري: كوكب مضيء يطلع في الحر، وهما شعريان: العبور والغميصاء.

^{١٠} المكور: شديد المكر.

^{١١} اهرع: أسرع.

المطلقة

بدأت كالشمس يحضنها الغروبُ
منزّهةً عن الفحشاءِ خَوْدُ
نَوَارُ تستجدُّ بها المعالي
صفا ماءً الشبابِ بوجنتيها
ولكنَّ الشوائبَ أدركته
ذوى منها الجمالُ الغضُّ وجدًّا
أصابت من شبيبته الليالي
فبتاة راعٍ نضرتها الشحوبُ^١
من الخِفراتِ آنسة عروبُ^٢
وتبلى، دون عفتها، العيوبُ^٣
فحامتْ حول رونقهِ القلوبُ
فعاد وصفوه كدرٌ مشوبُ^٤
وكاد يجفُّ ناعمهُ الرطيبُ^٥
ولم يُدرك ذؤابتها المشيبُ^٦

^١ راع: شوه، وراع في الأصل بمعنى أفزع وأخاف. نضرتها: رونقها وحسنها.

^٢ الخود: المرأة الشابة. الخفرات: جمع خفرة، وهي المرأة التي تستحي أشد الحياء. الأنسة: التي يؤنس بحديثها. العروب: المرأة المتحبة إلى زوجها.

^٣ النوار: المرأة النفور من الريبة، ونوار اسم امرأة كانت زوجًا للفرزدق، فطلقها ثم ندم، وفي البيت إشارة إلى ذلك.

^٤ الشوائب: الأمور التي تغير الشيء. مشوب: مخلوط.

^٥ ذوى: ذبل.

^٦ الذؤابة: الناصية وهي مقدم الرأس، أو هي الطرة.

وقد خَلَبَ العقول لها جبينٌ تلوحُ على أَسْرَتِهِ النُّكوبُ^٧
ألا إِنَّ الجمالَ، إذا علاه نقابُ الحزن، منظرُهُ عجيب

* * *

حليَّة طيِّبِ الأعراق زالت به عنها، وعنه بها، الكروب
رعى ورعت، فلم ترَ قَطُّ منه ولم يرَ قَطُّ منها ما يريب
توثَّقَ حبلٌ ودَّهما حضورًا ولم يَنكثْ توثُّقَهُ المغيَّبُ^٨
فغاضتْ زوجها الخلطاءَ يومًا فأمر، للخلاف به نشوب^٩
فأقسمَ بالطلاق لهم يمينًا وتلك أَلِيَّةٌ خطأٌ وحب^{١٠}
وطلقها على جهل ثلاثًا كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاقَ بتٍّ ذوو فتيا يعصَّبُهم عصيب^{١١}
فبانَتْ عنه، لم تأتِ الدُّنيا ولم يعلق بها الدَّامُ المعيب^{١٢}
فظلَّت وهي باكية تنادي بصوتٍ منه ترتجفُ القلوب

* * *

لماذا يا نجيب صرمت حبلي وهل أذنبْتُ عندك يا نجيب؟^{١٣}
وما لك قد جفوتَ جفاء قالٍ وصرتَ إذا دعوتُكَ لا تجيب؟^{١٤}

^٧ الأسرة: هي خطوط في الجبهة والكف، وفي كل شيء، والغالب استعمالها لخطوط الجبهة. النكوب: جمع نكب، وهي المصيبة.

^٨ توثَّق: تقوى. ينكث: ينقض.

^٩ النشوب: نشب الشيء نشوبًا، بمعنى علق.

^{١٠} ألية: قسم. الحوب: الذنب، الحلف بالطلاق حرام؛ لذلك كان الحالف به مذنبًا.

^{١١} عصيب: شديد.

^{١٢} بانَتْ: بعدت، بسبب هذه الفتيا الباطلة الخاطئة. الدام: العيب، جهل الناس الحكمة من مشروعية الطلاق، وعبد من يُسمَّون بالعلماء أَلْفَاظ الكتب التي درسوها، فأفتوا بغير علم صحيح فضلوا وأضلوا، وأوقعوا الناس في حرج عظيم.

^{١٣} صرمت: قطعت.

^{١٤} قالٍ: مبغض.

أَبْنُ ذَنْبِي إِلَيَّ، فَدَتِكَ نَفْسِي
أَمَّا عَاهَدْتَنِي بِاللَّهِ أَنْ لَا
لَنْ فَارَقْتَنِي وَصَدَدْتَ عَنِي
وَمَا أَدْمَاءُ تَرْتَعُ حَوْلَ رَوْضٍ
فَمَا لَفَتَتْ إِلَيْهِ الْجِيدَ حَتَّى
فَرَاخَتْ مَنْ تَحَرَّقَهَا عَلَيْهِ
تَشْمُ الْأَرْضُ تَطْلُبُ مِنْهُ رِيحًا
وَتَمَزَعُ فِي الْفَلَاةِ لَغِيرِ وَجِهٍ
بَأَجْزَعٍ مِنْ فَوَادِي يَوْمٍ قَالُوا:
فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ خَجَلًا وَأَغْضَى
نَجِيبَهُ أَقْصَرِي عَنِّي فَإِنِّي
وَمَا وَاللَّهِ هَجْرُكَ بَاخْتِيَارِي
فَلَيْسَ يَزُولُ حُبُّكَ مِنْ فَوَادِي
وَلَا أَسْلُو هَوَاكَ وَكَيْفَ أَسْلُو
سَلِي عَنِي الْكَوَاكِبُ وَهِيَ تَسْرِي
فَكَمْ غَالِبَتْهَا بِهِوَكَ سُهْدًا
خَذِي مِنْ نَوْرِ «رَنْتَجِنٍ» شِعَاعًا

فَإِنِّي عَنْهُ بَعْدُذٍ أَتُوبُ
يَفْرُقُ بَيْنَنَا إِلَّا شَعُوبٌ^{١٥}
فَقَلْبِي لَا يَفَارِقُهُ الْوَجِيبُ^{١٦}
وَيَرْتَعُ خَلْفَهَا رَشًا رَبِيبٌ^{١٧}
تَخَطَّفَهُ بِأَزْمَتِيهِ ذِيبٌ^{١٨}
بَدَاءٍ مَا لَهَا فِيهِ طَبِيبٌ
وَتَنْحَبُّ، وَالْبَغَامُ هُوَ النَّحِيبُ^{١٩}
وَأَوْنَةً لِمَصْرَعِهِ تَتُوبُ^{٢٠}
بِرْغَمٍ مِنْكَ فَارَقَكَ الْحَبِيبُ^{٢١}
وَقَالَ وَدَمْعُ عَيْنِيهِ سَكُوبُ:
كَفَانِي مِنْ لَطَى النَّدَمِ اللَّهْيَبِ
وَلَكِنْ هَكَذَا جَرَتْ الْخُطُوبُ
وَلَيْسَ الْعَيْشُ دُونَكَ لِي يَطِيبُ
هُوًى كَالرُّوحِ فِيَّ لَهُ دَبِيبُ
بَجُنْحِ اللَّيْلِ تَطْلُعُ أَوْ تَغِيبُ
وَنَجْمُ الْقُطْبِ مُطْلَعُ رَقِيبُ
بِهِ لِلْعَيْنِ تَنْكَشِفُ الْغَيُوبُ^{٢٢}

^{١٥} شعوب: اسم للموت.

^{١٦} الوجيب: الخفقان.

^{١٧} الأدماء: الظبية المشرب لونها بياضاً. الرشاء: ولد الظبية الذي قد تحرك ومشى. ربيب: ملازم لها.

^{١٨} الجيد: العنق. الأزمتان: النابان.

^{١٩} تنحب: تبكي وبكاؤها أشبه بالسعال. البغام: صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

^{٢٠} تمزع: تسرع. لمصرعه: لمكان هلاكه. تثوب: ترجع.

^{٢١} بأجزع: الجار والمجرور خبر لقوله: وما أدماء في بيت سابق. يقول عن لسان المطلقة: إن هذه الظبية التي صفتها كيت وكيت ليست بأشد جزعاً واضطراباً مني حين بلغني أنك طلقتي، فليتبصر بمثل هذا القول المتسرعون بإيقاع الطلاق، وحل عقدة النكاح الموثقة.

^{٢٢} رنتجن: هو مخترع الأشعة المعروفة باسمه.

وَأَلْقِيهِ بِصَدْرِي وَانْظُرِينِي
وَمَا الْمَكْبُولُ أَلْقَى فِي خِضَمِّ
فَرَّاحٍ يَغْطُهُ الْتَّيَّارُ غَطًّا
بَأَهْلِكَ يَا ابْنَةَ الْأَمْجَادِ مَنِّي
تَرَى قَلْبِي الْجَرِيحَ بِهِ نَدُوبٌ^{٢٣}
بِهِ الْأَمْوَاجُ تَصْعَدُ أَوْ تَصُوبُ^{٢٤}
إِلَى أَنْ تَمَّ فِيهِ لَهُ الرُّسُوبُ^{٢٥}
إِذَا أَنَا لَمْ يَعْذُ بِكَ لِي نَصِيبُ

* * *

أَلَا قَلْ فِي الطَّلَاقِ لِمُوقِعِيهِ
غُلُوتُمْ فِي دِيَانَتِكُمْ غُلُوءًا
أَرَادَ اللَّهُ تَيْسِيرًا، وَأَنْتُمْ
وَقَدْ حَلَّتْ بِأَمَّتِكُمْ كُرُوبٌ
وَهِيَ حَبْلُ الزَّوْجِ، وَرَقَّ حَتَّى
كَخِيطٍ مِنْ لُعَابِ الشَّمْسِ أَدَلَّتْ
يَمَزَّقُهُ مِنَ الْأَفْوَاهِ نَفْثٌ
فَدَى ابْنَ الْقِيَمِ الْفَقْهَاءُ كَمْ قَدْ
فَفِي «إِعْلَامِهِ» لِلنَّاسِ رُشْدٌ
نَحَا فِيمَا أَتَاهُ طَرِيقُ عِلْمٍ
وَبَيَّنَ حُكْمَ دِينِ اللَّهِ لَكُنْ
بِمَا فِي الشَّرْعِ لَيْسَ لَهُ وَجُوبُ
يُضِيقُ بِبَعْضِهِ الشَّرْحُ الرَّحِيبُ
مِنَ التَّعْسِيرِ عِنْدَكُمْ ضُرُوبُ
لَكُمْ فِيهِمْ لَا لَهُمُ الذُّنُوبُ
يَكَادُ إِذَا نَفَخْتَ لَهُ يَذُوبُ
بِهِ فِي الْجَوِّ هَاجِرَةٌ حُلُوبُ^{٢٦}
وَيَقْطَعُهُ مِنَ النَّسَمِ الْهَبُوبُ
دَعَاهُمْ لِلصَّوَابِ فَلَمْ يُجِيبُوا^{٢٧}
وَمَزْدَجَرٌ لِمَنْ هُوَ مُسْتَرِيبُ^{٢٨}
نَحَاهَا شَيْخُهُ الْحَبْرُ الْأَرِيبُ^{٢٩}
مِنَ الْغَالِينَ لَمْ تَعِهِ الْقُلُوبُ^{٣٠}

^{٢٣} الندوب: آثار الجروح.

^{٢٤} المكبول: المقيّد. الخضم: البحر. تصوب: تنخفض.

^{٢٥} الرسوب: الغرق إلى القعر.

^{٢٦} لعاب الشمس: شيء كأنه ينحدر من السماء وقت شدة الحر، تراه مثل نسج العنكبوت. أدلت: أرسلت.

الهجرة: شدة الحر، والهجرة الطوب: هي التي تجلب الغرق لشدة حرارتها.

^{٢٧} ابن القيم: هو العلامة الْمُحَدِّثُ الْفَقِيهُ الْمَشْهُورُ.

^{٢٨} يشير إلى كتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم المذكور، وهو من أنفس الكتب التي ألفها. ومزدجر: مصدر.

ميمي من ازدجر، بمعنى زجره ومنعه. مستريب: شاك.

^{٢٩} أراد بشيخه: الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله.

^{٣٠} الغالين: هم المتشددون في الدين حتى تجاوزوا الحد، قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. لم تعه: لم تحفظه، ولم تدبر معناه.

المطلقة

لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ أَمْرٍا لَنَا، فَيُخَيِّبُ مِنْهُمْ مَنْ يَخَيِّبُ

اليتيم في العيد

ضجيجًا، به الأفراح تمضي وترجع
وليس لها إلا التوهّم مطلع
ويُعوزُ ذا الإعدام طمرٌ مرقّع¹
ثيابًا لها يبكي اليتيم المضيع
وترفض من عين الأرامل أدمع²
يجدد للمحزون حزنًا فيجزع
به الحزن جدًّا، والسرور تصنع
نحوس بها وجه المسرة أسفع³
رمى نكتًا سودًا به، فهو أبقع⁴

أطلّ صباح العيد في الشرق يسمع
صباح به تُبدي المسرة شمسها
صباح به يختال بالوشي ذو الغنى
صباح به يكسو الغني وليده
صباح به تغدو الحلائل بالحلى
ألا ليت يوم العيد لا كان، إنه
يُرينا سرورًا بين حزن، وإنما
فمن بؤساء الناس في يوم عيدهم
قد ابيض وجه العيد لكن بؤسهم

* * *

خرجت بعيد النحر صُبحًا فلاح لي مسارح للأضداد فيهن مرتع

¹ الوشي: نوع من الثياب الموشية المحسنة. أعوزه الشيء: احتاج إليه فلم يقدر عليه. الإعدام: الفقر.

الطمر: الثوب البالي.

² الحلائل: النساء ذوات الأزواج.

³ أسفع: أسود.

⁴ نكتًا: نقطًا سوداء. أبقع: مختلف اللون.

خرجتُ وقرصُ الشَّمسِ قد ذرَّ شارِقًا
هي الشمسُ خودٌ، قد أطلَّتْ مصيخةً
كَأَن تَفَارِيقَ الأشْعَةِ حَوْلَهَا
ولما بدَتْ حمراءَ أيقنْتُ أَنَّهَا
فرحتُ وراحتُ ترسلُ النورَ ساطعًا
بحيثُ يسيرُ النَّاسُ كُلُّ لُوجْهَةٍ
وبعضُ له أنفٌ أشمُّ من الغنى
وفي الحيِّ مِزمارٌ لَمْشَجِي نعيهِ
فجئتُ وجوفُ الطبلِ يرغو، وحولَه
لقد وقفوا، والطبلُ يهتَزُّ صوتهُ
ترى مِيعَةً الإِطْرَابِ والطبلُ هادرٌ
فقد كانتِ الأفراحُ تفتحُ بابَهَا

ترى النورَ سيَّالًا به يتدفعُ
على الأرضِ من أفقِ العلا تتطلعُ^٥
على الأفقِ مُرخاةً ذوائبُ أربع^٦
بها خجلٌ مما تراه وتسمع
وسرتُ وسارتُ في العُلا تترفعُ
فهذا على رِسلٍ، وذلك مسرع^٧
وبعضُ له أنفٌ من الفقرِ أجدع^٨
غدا الطبلُ في دَرْدابه يتقعقع^٩
شبابٌ، وولدانِ عليه تجمعوا^{١٠}
فتهتَزُّ بالأبدانِ سوقٌ وأكرع^{١١}
تفيضُ، وفي أَسْماعهم تتميع^{١٢}
لمن كانَ حولَ الطبلِ والطبلُ يُقرع

* * *

وقفتُ أجيلُ الطرفَ فيهم فراعني
صبِيٌّ صبيحُ الوجهِ أَسْمَرُ شاحبٌ
يزينُ حِجاجِيهِ اتِّساعُ جبينِهِ

هناكَ صبيٌّ بينهم مترعرع
نحيفُ المِبانِي أدعجُ العينُ أنزع^{١٣}
وفي عينِهِ برقُ الفِطانةِ يلَمع^{١٤}

^٥ الخود: المرأة الشابة. مصيخة: مستمعة.

^٦ الذوائب: الضفائر.

^٧ على رسل: أي على مهل.

^٨ أنف أشم: مرتفع كبرًا. أجدع: مقطوع، وهو كناية عن الذل.

^٩ نعيه: صوته. الدرداب: صوت الطبل.

^{١٠} يرغو: يضج ويصوت.

^{١١} سوق: جمع ساق. وأكرع: جمع كراع، وهو مستدق الساق.

^{١٢} ميعة: كل شيء أوله، تتميع: تتسيل.

^{١٣} شاحب: أي متغير اللون. أدعج العين: أسودها مع سعة فيها. الأنزع: المنحسر الشعر عن جانبي

جبينه.

^{١٤} حجاجيه: حاجبيه، وأصل الحجاج العظم المحيط بالعين.

عليه دريس يعصر اليتم رُدنه
يُليح بوجه للكابة فوقه
على كثر قرع الطبل تلقاه واجماً
كأن هدير الطبل يقرع سمعه
يرد ابتسام الواقفين بحسرة
ويُرسل من عينيه نظرة مُجهش
له رجفة تنتابه وهو واقف
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد
فكان ابتسام القوم كالثلج قارساً

فيقطر فقر من حواشيه مدقع^{١٥}
غبار به هبت من اليتم زرع
كأن لم يكن للطبل ثمة مقرر^{١٦}
فلم يلف رجعا للجواب فيرجع
تكاد لها أحشاؤه تتقطع
وما هو بالباكي، ولا العين تدمع^{١٧}
على جانب والجو بالبرد يلسع^{١٨}
على البرد من برد به يتلفع^{١٩}
لدى حشرات منه كالجمر تلذع

* * *

فلما شجاني حاله وأفرني
ورحت أعاطيه الحنان بنظرة
وأفتح طرفي مُشبعاً بتعطف
هناك على مهل تقدمت نحوه
أيا ابن أخي! من أنت ما اسمك ما الذي
فهب أمامي من رقاد وجومه
وأعرض عني بعد نظرة يائس
فعقبته مستطلعاً طلع أمره

وقفت وكلي مجزع وتوجع^{٢٠}
كما راح يرنو العابد المتخشع
فيرتد طرفي وهو بالحزن مُشبع
وقلت بلطف قول من يتضرع:
عراك فلم تفرح، فهل أنت مُوجع؟^{٢١}
كما هب مرعوب الجنان المهجع
وراح ولم ينبس إلى حيث يُهرع^{٢٢}
على البعد أقفو الإثر منه وأتبع^{٢٣}

^{١٥} الدريس: الثوب البالي. الردن: أصل الكم. فقر مدقع: شديد كأنه يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي التراب.

^{١٦} واجماً: ساكناً عاجزاً عن التكلم من كثرة الغم أو الخوف. ثمة: هناك.

^{١٧} المجهش: الهام بالبكاء المتهيي له، وماضيه أجهش.

^{١٨} تنتابه: تصيبه.

^{١٩} البرد: الثوب المخطط. تلفع بالثوب: تلفف به.

^{٢٠} شجاني: حزنني.

^{٢١} عراك: أصابك.

^{٢٢} لم ينبس: لم يتكلم.

^{٢٣} أقفو الإثر منه: أي أتبع أثره.

وبيناهُ ماشٍ حيثُ رُحْتُ وخلفهُ
لمحتُ على بعد إشارة صاحب
فأومأتُ أن ذكرتهُ موعدًا لنا
وعدتُ فأبصرت الصبيَّ معرَّجًا
فلما أتيتُ الدارَ بعد دخوله
دنوتُ إلى بابِ الدَّويرةِ مطرقًا
سمعتُ بكاءً ذا نشيجٍ مردِّدٍ
فحرتُ وعيني ترمقُ البابَ خلسةً
أأرجعُ أدراجي ولم أكُ عارفًا

أدبُ دبيبَ الشيخ طورًا وأسرع^{٢٤}
ينادي أن ارجع وهو بالثوب مُلمع
وقلتُ له: اذهب وانتظرُ فسأرجع
ليدخل دارًا بأبها متضعع^{٢٥}
وقمتُ حيالَ البابِ والبابُ مرجع^{٢٦}
وأصغيتُ، لا عن ريبة، أسمع^{٢٧}
تكادُ له صمُّ الصفا تتصدع^{٢٨}
وللنفسِ في كشفِ الحقيقةِ مطمع
جَلِيَّةٌ هذا الأمرِ أم كيف أصنع؟

* * *

فمرتُ عجوزٌ في الطريقِ وخلفها
تعرضتُها مستوقفًا، وسألتها
فأدنيتهُ مني، وقلتُ لها: اسمعي
فقلتُ: وأنتِ أنثى عن تنهيدٍ
أيا ابني ما يعنيك من نوحِ أيم
فقلتُ لها: إني امرؤ لا يهمني
وإني وإن جارت عليَّ مواطني

فتاةٌ يغشيها إزارٌ وبرقع^{٢٩}
عن الاسم، قالت: إنني أنا بوزعُ
حنانيك ما هذا الحنينُ الموجع
وفي الوجهِ منها للتعجبِ موضع
لها من رزايا الدَّهرِ قلبٌ مفجع^{٣٠}
سوى من له قلبٌ كقلبي مروّع^{٣١}
فؤادي على قطّانهم موزّع^{٣٢}

^{٢٤} الشيخ: هو الذي انتهى شبابه، وقيل: هو مَنْ بلغ الأربعين، وقيل: الخمسين.

^{٢٥} عرج: مال من جانب إلى آخر.

^{٢٦} حيال الباب: قبالة.

^{٢٧} الدويرة: تصغير دار. أطرق: سكت ولم يتكلم.

^{٢٨} النشيج: الغصة بالبكاء من غير انتخاب.

^{٢٩} يغشيها: يغطيها.

^{٣٠} الأيم: هي مَنْ فقدت زوجها. مفجع: موجع.

^{٣١} مروّع: أصابه الروع وهو الخوف.

^{٣٢} قطّانهم: سكانهم.

أَبَوَزْعُ مُنِّي، عَمْرِكِ اللَّهُ، بالذي
 فقالت: أَعْن هَٰذِي الَّتِي طَالَ نَحْبُهَا
 أَلَا إِنَّهَا سَلِمَى تَعِيسَةً مَعَشَرَ
 وَصَارِعَهُم بِالمَوْتِ حَتَّى أَبَادَهُمْ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا زَوْجُهَا وَشَقِيقُهَا
 وَلَمْ يَلْبِثِ المَقْدُورُ أَنْ غَالَ زَوْجُهَا
 فَرَبَّى ابْنَهَا سَعْدًا، وَقَامَ بِأَمْرِهِ
 فَأَذْهَبَ عَنْهُ الخَالُ دَهْرٌ غَشْمَشَم
 جَرَتْ هَنَةٌ مِنْهَا عَلَى خَالِهِ انْطَوَى
 فَزَجَّ بِهِ فِي السَّجَنِ بَعْدَ تَجْرُمٍ
 عَزَاهُ إِلَى إِيقَاعِهِ مُوقِعًا بِهِ
 وَلَكِنَّ غَدْرَ الحَاقِدِينَ رَمَى بِهِ
 فَحَقٌّ لِسَلِمَى أَنْ تَنُوحَ فَإِنَّهَا
 فَلَا غُرُوَ مِنْ أُمِّ الِيتِيمِ إِذَا غَدَتِ

سَأَلْتُ، فَقَد كَادَتْ حَشَايَ تَمْرُعُ
 سَأَلْتُ فَعَنْدِي شَرْحُ مَا تَتَوَقَّعُ
 مِنَ الصَّيْدِ أَقَوْتُ دَارَهُمْ فَهِيَ بَلَقَعُ^{٣٣}
 مِنَ الدَّهْرِ عَجَّارٌ شَدِيدٌ مَصْرَعُ^{٣٤}
 خَلِيلٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَوَدَّعُوا
 سَعِيدًا فَأَوْدَى وَهِيَ إِذْ ذَاكَ مَرَضِعُ^{٣٥}
 أَخُوهَا إِلَى أَنْ كَادَ يَقْوَى وَيَضْلَعُ^{٣٦}
 بِمَا يُوَجِّعُ الْإِيْتَامَ مُغَرَّى وَمُؤْلَعُ^{٣٧}
 بِقَلْبِ رَئِيسِ الشَّرْطَةِ الحَقْدُ أَجْمَعُ^{٣٨}
 عَلَيْهِ بِجُرْمٍ مَا لَهُ فِيهِ مَصْنَعُ^{٣٩}
 وَمَا هُوَ يَا ابْنَ القَوْمِ لِلْجَرْمِ مُوقِعُ^{٤٠}
 إِلَى السَّجَنِ فَهُوَ الْيَوْمَ فِي السَّجَنِ مَوْدَعُ
 مِنَ الْعَيْشِ سُمًّا نَاقِعًا تَتَجَرَّعُ^{٤١}
 ضَحَى الْعِيدِ يَبْكِيهَا الْيَتِيمَ المَضِيعُ

* * *

^{٣٣} الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل الذي لا يلتفت من كبره، وأراد بالصيد: أولى النعمة. بلقع: خالية من السكان.

^{٣٤} العجار: المصارع، الذي لا يطاق جنبه في المصارعة.

^{٣٥} غال: أهلك. أودى: أهلك.

^{٣٦} يضلع: يقوى وتشتد أضلاعه.

^{٣٧} الغشمشم: هو مَنْ يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء، وقيل: هو الكثير الظلم.

^{٣٨} هنة: أي شيء ما وهي مؤنث الهن، وكلاهما يكون كناية عن كل اسم جنس، ومعناها شيء. الشرطة: رجال البوليس والضابطة.

^{٣٩} تجرم عليه: أي ادعى عليه بجرم لم يفعله.

^{٤٠} موقعًا: منزلًا به ما يسوءه.

^{٤١} السم الناقع: البالغ القاتل.

فَعُدْتُ، وقلبي جازع متوجّع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه
وجئتُ إلى ميعادنا عند صاحبي
فأطلعتهم طلع اليتيم فأففوا
فقلت: دعوا التأفيف فالعار لاصق
ألسنا الألى، كانت قديمًا بلادنا
فما بالنا نستقبل الضيم بالرضا
شربنا حميم الذل ملء بطوننا
فلو أن عير الحي يشرب مثلنا
نهوضًا إلى العز الصراح بعزيمة
ألا فاكتبوا صك النهوض إلى العلا

وقلت، وعيني ثرة الدمع تهمع:^{٤٢}
يجد للمحزون حزنًا فيجزع!
وقد ضمّه والصحب نادٍ ومجمع
وخبّرتهم حال السجين فرجعوا:^{٤٣}
بكم واركوا الترجيع فالأمر أفضع
بأرجائها نور العدالة يسطع:^{٤٤}
ونعنو لحكم الجائرين ونخضع:^{٤٥}
ولا نحن نشكوه ولا نحن نيجع:^{٤٦}
هوانًا، لأمسي قالسا يتهوع:^{٤٧}
تخر لمرماها الطغاة وتركع
فإني على موتي به لموقع:^{٤٨}

^{٤٢} الثرة من العيون: السحاب الغزيرة. تهمع: تدمع.

^{٤٣} رجعوا: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

^{٤٤} الأرجاء: الأطراف.

^{٤٥} الضيم: الهوان. نعنو: نخضع.

^{٤٦} الحميم: الماء الحار.

^{٤٧} العير: الحمار. قلس: خرج من بطنه طعام أو شراب إلى الفم، سواء ألقاه أم أعاده إلى بطنه، فإن غلب فهو القيء والتهوع.

^{٤٨} الصك: ما يكتب عليه الإقرار بالمال وغيره. موقع: كاتب التوقيع.

سياسة لا حماسة

ولستُ للشُّعر، في حالٍ، بمفتقرٍ
فأقبلتُ وهي تمشي مشيَ معتذرٍ
فرحتُ فيهنَّ أجري جريَ مقتدرٍ
وأينما سرتُ سارتُ تقتفي أثري
أعرَّفَ الناسَ سحرَ السَّمعِ والبصرِ
من حيثِ أطربنَ حتى قاسيَ الحجرِ
وكنَّ فيها مكانَ الماءِ في الثمرِ
إذا تُنوشدنَ بين البدو والحضرِ
خلوا من الحشو مملوءاً من العبرِ
عُرِّي فأكسوه لفظاً قد من دُرٍ
ما بين بغدادَ والشهباءِ في سفري
بيتاً من الشُّعر لا بيتاً من الشُّعرِ
بوشي ذا العصر لا الخالي من العصرِ
وأئي حسن لشعرٍ غير مبتكرٍ
فلست واللَّه في شعرٍ بمفتخرٍ
ترمي بها حسرائي طائرَ الشرِّ
أبكي بهنَّ على أيامنا الغرِّ

الشعرُ مفتقرٌ منِّي لمبتكرٍ
دعوتُ غرَّ القوافي وهي شاردةٌ
وسلَّمتني عن طوعٍ مقادتها
إذا أقمت أقامت وهي من خدمي
صرَّفتُ فيهنَّ أقلامي ورحتُ بها
ملكَن من رقةٍ رقَّ النفوسِ هوًى
سقيتهنَّ المعاني فارتوين بها
كم تشرئبُ لها الأسماعُ مصغيةً
طابقتُ لفظي بالمعنى فطابقه
إني لأنتزِعُ المعنى الصحيح على
سلِّ المنازلَ عني إذ نزلتُ بها
ما جئتُ منزلةً إلا بنيتُ بها
وأجودُ الشعر ما يكسوه قائله
لا يحسنُ الشُّعرُ إلا وهو مبتكرُ
ومنَّ يكن قال شعراً عن مفاخرةٍ
وإنما هي أنفاسُ مُصعَّدةٍ
وهُنَّ إن شئتُ منِّي أدمعُ غُرِّ

أبكي على أمة دار الزمان لها
 كم خلّد الدهر من أيامهم خبراً
 ولست أذكر الماضين مفتخرًا
 وكيف يفتخر الباقون في عمه
 لهفي على العرب أمست من جمودهم
 أين الجاحجُ ممن ينتمون إلى
 قوم هم الشمس كانوا والورى قمرٌ
 راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقبًا
 أقول، والبرق يسري في مراقدهم:
 يأيها العرب هبوا من رقادكم
 كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم
 ما لي أراكم أقل الناس مقدرةً

قَبْلًا، ودار عليها بعدُ بالغير^١
 زان الطروس وليس الخبر كالخبر
 لكن أقيم بهم ذكرى لمذكر^٢
 بدارس من هدى الماضين مندثر^٣
 حتى الجمادات تشكو وهي في صخر!
 ذؤابة الشرف الوضاح من مضر؟!^٤
 ولا كرامة لولا الشمس للقمر^٥
 ناموا عن الأمر تفويضًا إلى القدر
 «يا ساهر البرق أيقظ راقد السم»^٦
 فقد بدا الصبح وانجابت دُجى الخطر^٧
 والعود ليس له صوتٌ بلا وتر!
 يا أكثر الناس عدًا غير منحصر!؟

^١ الغير: الحوادث.

^٢ أذكر: أذكر.

^٣ العمه: الضلال. الدارس: المنمحي. مندثر: بال دارس.

^٤ الجاحج: السادة. الذؤابة: في الأصل معناها الضفيرة فوق الناصية، وذؤابة الشرف: أعلاه.

^٥ ذلك لأن نور القمر مقتبس من نور الشمس، فلا كرامة له لولاها.

^٦ المراقد: جمع مرقد، وهو مكان النوم. السمر: القوم يجتمعون للمسامرة.

^٧ انجابت: انكشفت.

إلى الشبان^١

أدبُ العلمِ وعلمُ الأدبِ شرفُ النفسِ ونفسُ الشرفِ
بهما يَبْلُغُ أعلى الرتبِ كلُّ رامٍ منهما في هدفِ

* * *

أيها السابح في بحر الفنون غائصًا في لُجّها الملتطمِ
أنتَ واللّه على رغم المنون ذو وجودٍ قاتلٍ للعدمِ
قرنك الحاضر من أرقى القرون خضع السيفُ به للقلمِ
فإذا شئتَ بلوغَ الأربِ فاغترفُ من بحره وارثشفِ
فالمعالي أودعت في الكتبِ كاللآلي أودعت في الصّدَفِ
أنتَ يا جاهلُ من قبل المماتِ ميّتٌ يمرحُ ما بين البيوت^٢
أوما تعلمُ في هذي الحياة أن ربَّ العلم حيٌّ لا يموت
إذ قضى للعلم ربُّ الكائناتِ بالعلّا فهو زمام الملكوتِ

^١ هذه القصيدة أنشدت يوم افتتاح المنتدى الأدبي الذي أسسه شبان العرب في الآستانة، وقد طلبوا إلى الرصافي أن ينظم لهم قصيدة تُنشد في يوم الافتتاح المذكور، فنظم لهم هذه القصيدة.

^٢ يمرح: يتبختر ويختال فرحًا ونشاطًا، والجملة صفة الميت، والغرض من وصفه بها بيان الفرق بينه وبين الميت الحقيقي، كما يدل عليه قوله: من قبل الممات، أي: أنت ميت مجازًا قبل أن تموت حقيقة.

وعلى الجهلِ قضى بالعَطَبِ فهو في الناسِ دليلُ التلفِ
فافتكُرْ إن شئتَ علمَ السببِ هل يكونُ النورُ مثلَ السَّدَفِ^٣

* * *

يا رعى اللهَ زمانًا لو يدوم كان للدهرِ كأيامِ الصِّبا
أشرقتَ فيه من العلمِ النُّجوم ظنَّ كلُّ الناسِ أن لن تغربًا
زمنٌ قد ضحكتَ فيه العلوم ونراها اليومَ تبكي العَرَبَا
حيثُ منهمُ فقدتُ خيرَ أبٍ واغتدتُ من يُتمها في شظفٍ^٤
يا عهدَ العلمِ ما شئتَ اندبي يا عيونَ المجدِ ما شئتَ اذرفي

* * *

هل أتاك الدهرُ، فيما قد أتى، بحديثِ العُربِ في الأندلسِ؟
حيثُ بالعزمِ أماطوا العنتًا وبنورِ العلمِ ليلَ الهوسِ^٥
فاسألنَّ الغربَ عما ثَبَّتَا في ربوعِ خَلْفوها دُرُسُ؟
هل ترى ثَمَّةً من لم يجبِ عن معاليهم ولم يعترفِ؟
آه لو يَرْجِعِ ماضي الحُقبِ آه لو عادَ زمانَ الشرفِ!

* * *

سل رُبا بغدادَ عما قد مضى لبني العباسِ في تلكِ الديارِ
واسألنَّ الشامَ عما قد أضا للمعاويينَ فيها من فخارِ
كم ترى للمجدِ سيفًا منتضى كم ترى للعلمِ فيها من منارِ!
عجبي يا قومُ كلَّ العجبِ هذه الآثارُ لم لا نقتفي؟!^٥

^٣ السدف بفتحيتين: الظلمة، ويجوز أن يكون بضم ففتح، على أن يكون جمع سدف كظلمة، وزناً ومعنى.

^٤ الشظف: بالتحريك، ضيق العيش ويبسه وشدته.

^٥ العنت: مصدر عنت إذا فسد، أو وقع في أمر شاق، أو لقي الشدة وهلك. والهوس: بفتحيتين طرف من الجنون وخفة العقل.

آهِ مِنْ رَقَدْتَنَا وَاحْرَبِي آهِ مِنْ غَفَلْتَنَا وَاسْفِي!^٦

* * *

يَا أَبَا الضَّيْمِ مِنْ عَلِيَا نَزَارُ	أَيْنَ مِنْكُمْ زَهَبَتْ تِلْكَ الطَّبَّاعُ؟
كُنْتُمْ كَالسَيْفِ مَشْحُودَ الْغَرَارِ	وَالَّذِي حَلَّ جِمَاكُمْ لَنْ يُرَاعَ ^٧
كَمْ إِلَى الْعِلْمِ أَقْمَتُمْ مِنْ مَنَارِ	بِعَقُولٍ هِيَ أَسْنَى مِنْ شِعَاعِ
قَطَفْتُمْ أَبْوَاعَكُمْ عَنْ كَثِبِ	كُلِّ مَجْدٍ شَاهِقِ الْمَقْتَطِفِ ^٨
تِلْكَ وَاللَّهِ مَزَايَا الْعَرَبِ	أَوْرَثُوهَا خَلْقًا عَنْ سَلَفِ

* * *

أَنْتِ يَا شَمْسُ عَلَى كَرِّ السَّنِينَ	قَدْ تَقَلَّبْتَ طُلُوعًا فِي الْوَرَى
حَدَّثِينَا بِحَدِيثِ الْأَوَّلِينَ	فَلَقَدْ شَاهَدْتَ تِلْكَ الْأَعْصَرَ
أَفْكَانُوا مِثْلَنَا مَخْتَلَفِينَ	لَا يُغَيِّثُونَ إِذَا خُطِبَ عَرَا ^٩
إِنَّا يَا شَمْسُ فِي مُضْطَرَبٍ	قَدْ أَلْفَنَاهُ فَلَمْ نَأْتَلِفِ
إِنْ بَقِينَا هَكَذَا فَاحْتَجِبِي	عَنْ بَنِي الْغِبْرَاءِ أَوْ فَاَنْكَسِفِي

* * *

يَا بَنِي يَعْرُبَ مَا هَذَا الْمَنَامُ	أَوْ مَا أَسْفَرَ صَبْحُ النَّوْمِ؟!
أَيْنَ مَنْ كَانَ بِكُمْ يَرعى الدَّمَامُ	وَيَلْبِي دَعْوَةَ الْمَهْتَضِمِ؟ ^{١٠}
أَفَلَا يُلْذَعُكُمْ مِنْهُ الْمَلَامُ	فَلَقَدْ أَلْفَظُ جَمْرًا مِنْ فَمِي؟!
خَارِجًا عَنْ نَفْسِي كَاللَّهَبِ	مَحْرَقًا مَهْجَةً قَلْبِي الدَّنْفِ
أَنَا لَوْلَا فَيْضُ دَمْعِي السَّكْبِ	لَتَحَرَّقْتُ بِنَارِ الْأَسْفِ

^٦ وا حربِي: وا، حرف ندبة للتوجع أو التفجع، والحرب بفتحيتين: الهلاك، يقال: وا حربا ووا حربِي توجعًا أو تأسفًا وكذلك وا أسفِي ووا أسفا.

^٧ الغرار: بالكسر حد السيف، ومشحود الغرار: أي ماضي الحد.

^٨ الكتب: بفتحيتين، القرب، يقال: رماه من كتب، وعن كتب: أي من قرب وتمكن.

^٩ عرا: يعرفو؛ أي عرض وألم. والخطب هنا: الأمر المكروه.

^{١٠} المهتضم: بصيغة المفعول، المظلوم.

* * *

يا شبابَ القومِ لولاكمُ لما	سأغ لي العذبُ وما إن لذَّ لي
إنني أبصرُ منكم أنجمًا	لامعاتٍ في ظلامِ الأملِ
فاصبروا اليومَ على حرِّ الظَّما	كي تنالوا الرِّيَّ في المستقبلِ
واتعبوا اليومَ فعُقبى التعبِ	راحة مُشبعةً بالترفِ
لتقونا أسوأ المنقلبِ	إذ بناءُ القومِ هاري الجُرفِ

* * *

يا شبابَ القومِ هُبُّوا للبرازِ	فبكم يبسم ثغرُ الوطنِ
وارفلوا إما بثوبِ الإعتزازِ	أو بثوبٍ هو ثوبُ الكفنِ
وأعدُّوا العلمَ لا السيفَ الجُرازِ	إنه عُدَّةُ هذا الزمنِ ^{١١}
بسواه العزُّ لم يكتسبِ	وهو المُنصفُ للمنتصفِ
إنه واللَّهِ لا عن كذبِ	شرفُ النفسِ ونفسُ الشرفِ

^{١١} الجراز بالضم: صفة للسيف، ومعناه القاطع.

الدهر^١

هل الدهرُ إلا أعجميٌّ أخاطبه
أيثني إلى وجه اللئيم بوجهه
أراه إذا طارحته الجد لاعبًا
ويضرب أطنابَ المنى لي هازلًا
وبيناه يُبدي لي ابتسامةً خادع
لقد أضحكْتَ غيرَ الحليم شُئوْنَهُ
فيا أدباءَ القوم هل تنقضي لكم
يشدُّ عليكم بالسيوفِ نكايةً
فما لي إلى فهم الحديث أجاذه؟
ويرتدُّ مزورًا عن الحرِّ جانبهِ^٢
وما أنا ممَّنْ يا أميمُ يلاعبهِ^٣
وما أنا مخدوعٌ بما هو ضاربهِ
يقطَّبُ حتى لا تبين حواجبه^٤
وأبكت سوى عين السفية نوائبه
شكايةً دهرٍ حاربَكم مصائبهِ؟^٥
وأقلَّامُكم، وهو الأصمُّ، تعاتبهِ

^١ هذه القصيدة لم تنشر هنا بكاملها بل حذف منها زهاء أحد عشر بيتًا.

^٢ يثني: يعطف، والباء في بوجهه زائدة في المفعول. ومزورًا: منحرفًا.

^٣ يقال: طارحه الكلام والشعر وغير ذلك: إذا ناظره وجاوبه.

^٤ بيناه: الألف كافة لبين أو هي مختصرة من ما الكافة، والأصل بينما، فحذفت الميم من ما، وكذلك القول في الضمير المتصل بها أنه مختصر من هو، والأصل بينا هو، فالضمير ضمير رفع، وقوله يقطب: أي يزوي ما بين عينيه.

^٥ أي: هو يحمل عليكم بالسيوف قهراً بالقتل والجرح، وأنتم تقابلونه بالأقلام عتابًا، وهو مع ذلك أصم غير سامع للعتاب، والبيت تمثيل لحالة الأدباء مع الدهر.

* * *

هو الدهر لم يسلم من الغي أهله
إذا آنسوا نور الحقيقة رابهم
تضاربت الأهواء فيهم فناكب
طبائعهم شتى على أن بينهم
لعمرك حتى البرق خالف بعضه
أبت حركات الكون إلا تباينا
ولولا اختلاف شاء الله في القوى
كما الليل لم يأمن من الشر حاطبه^٦
فتجثو على الأبصار منهم غياهبه^٧
عن الشر يقصيه، وآخر جالبه
كريماً تواليه ووعداً تجانبه
فقد خولفت بالموجبات سوابه^٨
دوافعه فعالة وجواذبه
لما دار في هذا الفضاء كواكبه

* * *

سبرت زماني بالنهي ومخضته
ولم أستشر في الناس إلا تجاربي
فلا ترتكب قرب اللئام فإنهم
وما عجبي في الدهر إلا لواحد
وذلك أن العيش فيه مطيب
ولو كان في أعماله الدهر عاقلاً
بتجربتي حتى تجلت عواقبه
وهل يصدق الإنسان إلا تجاربه
لكالبحر محمول على الهول راكبه
وإن كثرت في كل يوم عجائبه
لمن خبثت بالمخزيات مكاسبه
لما كان مثلي في الوري من يحاسبه

^٦ حاطب ليل: مثل عندهم في التخليط، ومنه قولهم: المكثار حاطب ليل: أي يجمع بين الحميد والريء، أو أن الحاطب في الليل لا يأمن الشر إذا ربما جمع الأفاعي في الحطب الذي احتطبه وهو لا يدري، ففي البيت تشبيه الدهر بالليل، وأهليه بالحاطب فيه، فهم لا يسلمون من الوقوع في الباطل كما أن حاطب الليل لا يأمن من الوقوع في الشر، وكما في البيت: مثلها في قول الشاعر:

كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

^٧ آنسوا: أبصروا. رابهم: أوقعهم في الريب، وضمير الفاعل في رابهم يعود إلى الدهر.
^٨ يريد بهذا البيت وما بعده: أنه لا عجب في اختلاف طبائع الناس، وكونهم شتى بين كريم ولئيم؛ إذ هذا التخالف جارٍ في جميع ما في الكون فالبرق منه موجب ومنه سالب، ولولا اختلاف القوانين الجاذبة والدافعة لما تم نظام هذا العالم، ولا دارت في هذا الفضاء كواكبه.

ولو لم يكن في كل ما فيه خادعاً
 ألا ربَّ شيطان من الإنس قد غدا
 فقلتُ له: اخساً إنما أنت خائبٌ
 فوَلَّى على الأعقاب يحبو وقد درى
 فأتبعه مني شهابٌ تسامح
 ولو شئتُ أرسلتُ الخديعةَ خلفه
 ولكن أبى مني الخداعُ مهذبٌ
 لما أمَّ فيه صادقُ الفجرِ كاذبه^٩
 يخاتلني خَلْسًا وعيني تراقبه^{١٠}
 وقبلك أعياءُ الجنِّ ما أنت طالبه^{١١}
 ولله درِّي أنني أنا غالبه^{١٢}
 يشقُّ ظلامُ الجهلِ بالحلمِ ثاقبه^{١٣}
 تطاردهُ حتى تضيقَ مذهبُه
 تعودُ فعلَ الخيرِ مذ طُرَّ شاربه

* * *

وذي سَفَهٍ أغضيتُ عنه تكرُّماً
 فقمْتُ له بالنعلِ ضرباً فلم تزلْ
 وجنَّبته السيفَ الجُرَّازَ؛ لأنَّه
 لقد عابني جهلاً ولم يدرِ أنه
 له نسبةٌ مجهولةٌ غيرُ أنه
 فدبَّتْ على رجليَّ غدراً عقاربُه
 يدايَ به حتى اطمأنتْ غواربه^{١٤}
 تعالت عن الكلبِ العقورِ مضاربُه
 أقلُّ فداءً للذي هو عائبه
 مغامزه معلومةٌ ومعايبه^{١٥}

^٩ أم فلان القوم: إذا تقدمهم. وصادق الفجر: مفعول مقدم، وكاذبه: فاعل مؤخر، والمعنى أن كل ما في الدهر خادع فلذلك ترى الفجر الصادق يتقدمه الفجر الكاذب.

^{١٠} يخاتلني: أي يخدعني عن غفلة. والخلس: مصدر خلس الشيء إذا أخذه في مختلة، وهو في البيت مفعول لأجله، أو هو مفعول مطلق؛ لأنه بمعنى المخاتلة.

^{١١} اخساً: أي ابعد وانزجر، وهي كلمة زجر وطرُد للكلب.

^{١٢} المعنى المراد من قوله: «فولى على الأعقاب يحبو» أنه ذهب كالكلب يمشي على أربع.

^{١٣} أتبعه: بمعنى تبعه أي لحقه. وشهاب تسامح: أي شهاب صفح وعفو عنه.

^{١٤} فلم تزل يداي به حتى اطمأنت: أي لم تزل يداي تمارسه أو موقعة به حتى فعل؛ أي ما زلت أحاوله. غواربه: الغارب هو الكاهل، وأعلى كل شيء، وأعلى الموج.

^{١٥} المغامز: جمع مغمز، وهو المطعن، فهي كالمعايب معنًى.

إلى أبناء الوطن

أنشدها في حفلة أقيمت له بعد رجوعه إلى بغداد سنة ١٩٢٣.

سر في حياتك سَيرَ نابِه	وَلَمْ الزمَانَ ولا تحابِه ^١
وَإِذَا حَلَلْتَ بموطن	فاجعلُ محلَّكَ في هِضابِه ^٢
واخترْ لنفسِكَ منزلًا	تهفو النجومُ على قِبابِه ^٣
ورُمِّ العلاءَ مخاطِرًا	فيما تحاولُ من لُبابِه
والمجدُ ليس ينالُه	إلا المخاطرُ في طِلابِه
وَإِذَا يخاطبُكَ اللئيمُ	مُ فصمَّ سمعَكَ عن خطابه
وَإِذَا انبرى لك شاتمًا	فاربأُ بنفسِكَ عن جوابِه ^٤
فالروضُ ليس يضيرُه	ما قد يُطَنِّطُنْ من دُبابِه ^٥
ولرُبَّ ذنِبٍ قد أَتَا	كَ من ابنِ آدمَ في إهابِه ^٦
ما امتازَ قطُّ عن ابنِ آ	وى شخصُه بسوى ثِبابِه

^١ النابه: المشهور، ضد الخامل.

^٢ هضابه: جمع هضبة، وهي الجبل المنسبط على الأرض، والمراد: المنازل المرتفعة.

^٣ تهفو: تسرع، يقال: هفت نفسه إلى الشيء إذا أسرع إليه.

^٤ انبرى له: عارض وصنع مثل صنعه، اربأُ بنفسك: ارفع نفسك.

^٥ يضيره: يؤذيه، يطنطن: يصوت ويحدث طنينًا.

^٦ أصل الإهاب: الجلد قبل أن يدبغ، والمراد الجلد مطلقًا.

وَإِذَا ظَفَرْتَ بِذِي الْوُفَا ٧ َ فحُطَّ رَحْلُكَ فِي رَحَابِهِ
فَأَخَوْكَ مِنْ إِنْ غَابَ عِنْدَ ٨ كَ رَعَى وَدَاكَ فِي غِيَابِهِ
وَإِذَا أَصَابَكَ مَا يَسُو ٩ رَأَى مَصَابِكَ مِنْ مَصَابِهِ
وَتَرَاهُ يَنْجِعُ إِنْ شَكُو ١٠ تَ كَأَنَّ مَا بِكَ بَعْضُ مَا بِهِ^٨

* * *

يَا قَوْمُ قَدْ هَرَمَ الزَّمَا ١١ نُ مِنَ التَّمَادِي فِي انْقِلَابِهِ
فَلِذَاكَ عِنْدَ الْهَاجِرَا ١٢ تِ يَسِيلُ شَيْءٌ مِنْ لِعَابِهِ
مَا زَالَ عَنْ خَرَفٍ بِهِ ١٣ لِلنَّاسِ يَهْزِرُ فِي كِذَابِهِ^٩
يَأْتِي بِكُلِّ عَجِيبَةٍ ١٤ تَدْعُو اللَّبِيبَ إِلَى ارْتِيَابِهِ
وَالنَّاسُ فِي عَطِشٍ تَسِيءُ ١٥ رُ إِلَى ارْتَوَاءٍ مِنْ سَرَابِهِ
فَمَتَى يَجُودُ لَنَا الزَّمَا ١٦ نُ وَلَوْ بِمَذْقٍ مِنْ وَطَابِهِ^{١٠}
وَالِىَ مَتَى هُوَ سَاتِرُ ١٧ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ فِي ضُبَابِهِ^{١١}
يَتَلَوُ بِصَرْفِ الْحَادِثَا ١٨ تَ لَنَا فَصُولًا مِنْ كِتَابِهِ
كَمْ يَدْعِي وَطَنِيَّةً ١٩ مَن لَمْ تَكُنْ مَرَّتْ بِبَابِهِ
فَتَرَاهُ يَنْفَخُ لِأَغْيَا ٢٠ فِيهَا وَيَنْفَخُ فِي جَرَابِهِ
لِيَكُونَ مَكْتَسِبًا بِهَا ٢١ مَالًا تَهَالِكُ فِي اكْتِسَابِهِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ صَائِدُ ٢٢ وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ كَلَابِهِ
وَتَرَاهُ يَرْمِي الْمَخْلَصِي ٢٣ نَ بِكُلِّ سَهْمٍ مِنْ جَعَابِهِ
وَيَعِيبُ قَوْمًا بِالْخِيَا ٢٤ نَةِ وَالْخِيَانَةُ بَعْضُ عَابِهِ^{١٢}

^٧ حط رحلك في رحابه: أي انزل عنده في أرضه، والمراد تمسك بإخائه.

^٨ يقال: وجع في الماضي، ويوجع ويجمع ويأجع في المضارع، يريد أنه يتوجع لما ينوبك.

^٩ الخوف: الهذيان والهذر، مثل كلام المحموم والمجنون، والمراد أنه يخطئ فيما يأتي به من الحوادث ولا يستقيم له قصد.

^{١٠} المذق: اللبن الممزوج بالماء، يريد غير الخالص. والوطاب: جمع وطب، وهو سقاء يوضع فيه اللبن.

^{١١} يريد أن وجه الحقيقة ليس ظاهرًا وإنما يخفيه الضباب؛ يعني ما يأتي به الدهر من الخير والشر

ليس واضحًا.

^{١٢} عابه: عيبه.

* * *

من المسكّن لاضطرابه	لا بدّ للوطن العزيز
ظُر بالتأمل في مأبه	من مجلس للشعب ين
إن صادقوه على منابه	وينوب عن أبنائه
د به يعود إلى نصابه	حتى نرى أمر البلا
والشعب ليس له بآبه	أبهت حكومتنا له
ه ونحن نعرض عن طلابه؟!	أترى الحكومة تبتغي
يدعو الحليم إلى انتخابه	هذا لعمر أبيك ما
مسارعين إلى انتخابه؟	هلاً يقوم القاعدون
صرف الزمان له بنابه	كي ينقذ الوطن الذي
بنيه، بور في ترابه	وغدا يهدد بالبور
فلا محالة من خرابه	إن لم تكونوا مدركيه

* * *

ر على اضطراب في إياه	آب المسافر للديا
ب لما تعجل في ذهابه	لو كان يجنح للإيا
ب بالحفاوة من صحابه	قد كان يمرح في التغر
لبس النباهة في اغترابه	لا تعجبن لخامل
ن إذا تجرد من قرابه	فالسيف أحسن ما يكو
كل الرجاء بأسد غابه	أما العراق فإن لي
ء إذا نظرت إلى شبابه	ينجاب يأسى بالرجا
م الليل أضوا من شهابه	من كل من هو في ظلا
كالبرق يلمع في سحابه	لمع الذكاء بوجهه
فأتوا بأخلاق نوابه ^{١٣}	يا من زكت أحسابهم

^{١٣} زكت أحسابهم: برئت أصولهم من الدنس. نوابه: جمع نابه، أي: شريف عالٍ.

ووجوههم بالنَّيِّرا	ت من النجوم لها مشابه
إني لأشكر فضلكم	شكرَ الميثاب على ثوابه
كالروض يشكر وابلًا	حيّا الأزاهر بانسكابه

في المعهد العلمي

لعمرك إن الحرَّ لا يتقيَّدُ
إذا أنا قصَّدْتُ القصيدَ فليس لي
نشدت بشعري مَطْلَبًا عَزَّ نيله
فللنجم بُعْدٌ دون ما أنا ناشدُ
وكم جنبتني عِزَّةُ النفس مَنهلاً
وما أنا إلا شاعرٌ ذو لبانةٍ
ولي بين شذقيَّ الهريتين صارمٌ
ولا عجبٌ إن عابني الشاعر الذي
فإن ابنَ بُرْدٍ وهو أكبرُ شاعرٍ
تعودت تصرّحي بكلِّ حقيقةٍ
إذا رمت نصحاً جئت بالنصح واضحاً

ألا فليقل ما شاء فيَّ المفنَّدُ^١
به غير تبیان الحقيقة مَقْصِدُ
وإن هان عند الشعر ما كنت أنشدُ
وللدُّر قَدْرٌ دون ما أنا منشدُ
يطيب به لكنَّ من الذل مورِدُ
أنوح بها حيناً وحيناً أغرِدُ
يُسَلُّ على الأيام طوراً ويُغمدُ^٢
يقول سخيْفَ الشعر وهو مقلدُ
تنقَّصه في الشعر حمَّاد عجرد^٣
وللمرء من دنياه ما يتعود
وما كان من شأني الكلام المعقد

^١ المفنَّد: اللائم العائب.

^٢ الشدق الهريت: الواسع، وأصله من صفات الأسد. وصارم: لسان حاد مثل السيف يغمد؛ أي: يوضع في غمده وهو قرابه.

^٣ ابن برد: هو الشاعر بشار بن برد، شاعر فارسي، وحماد عجرد: شاعر أيضاً في عصر بشار كان مولعاً بهجائه، وكلاهما عاش في صدر الدولة العباسية.

وقد أبصر الداءَ الدفين الذي بنا
يقولون لي: استنهض إلى العلم قومنا
أما علموا أن الحياة بعصرنا
وما ينفع القول الذي أنت قائل
فيا قومنا إن العلوم تجددت
وخلُّوا جمود العقل في أمر دينكم
وإن شئتم في العيش عزاً فأقدموا
وأمضوا سديد الرأي دون تردُّدٍ
ولا تقبلوا قيداً بقولٍ مُجرَّدٍ

كما أبصر الأمواه في الترب هُدهد^٤
بشعرٍ معانيه تقيم وتُقعد
مدارس في كل البلاد تشيّد
إذا لم يكن بالفعل منك يُؤيّد
فإن كنتم تهوونها فتجددوا
فإن جمودَ العقل للدين مفسد
فكم نيلٌ بالإقدام عزٌّ وسُؤدد
فما يبلغ الغايات مَنْ يتردّد
فما قيّد الأحرارَ قول مجرّد

* * *

وأطلال علم لا تزال شواخصاً
أراها فأبكي وهي رهنُ يد البلى
وما أنا سالٍ عهداً حين لم تسل
فإن تكبروا تسديد دمعي لأجلها
ومعهد علم أسسته عصابة
شباب مشوا للمكرّمات بعزيمة
سأستودع الأيام كلّ قصيدة
أقول لهم قولاً به أستزيدهم
أما وخلال فيكمُ عربيّة
يسرُّ العلا أن ينهض القوم للعلا

تذكر بالعهد القديم وتشهد
بدمع كما ارفض الجمان المنضد
دموعي ولكني امرؤ متجلد
فإن دمي من أجلها سيبدّد
من القوم تسعى للنجاح وتجهد
تقاعس عنها الكوكب المتوقد
يطيب لهم فيها الثناء المخلد
وأشكركم شكراً جزيلاً وأحمد
وذا قسَم لو تعلمون مؤكّد
وأن يجمع الشبان للعلم معهد

^٤ يعني الشاعر أنه لطول تجربته وممارسته لشئون الحياة يستطيع أن يميز الصحيح من الفاسد ما لا يستطيعه غيره، وشبه نفسه بالهدهد الذي يرى الماء الغائر في الأرض لبعده نظره.

في منتدى التهذيب

أنشدها في حفلة افتتاح منتدى التهذيب في بغداد.

تريد لي الأيام أن أتقيّدا
وتقعد بي دون المدى في خطوبها
كفى لصريح العقل قيّداً لمطلق
لعمر الهدى إنَّ النهى ليس من صوى
فما بال هذا العقل أمسى معطلاً
أُخْلِقْنَا كُرُّ الجديدين ضلّة
فيما منجدي فيما أريد من العلا
أعني على ما لو تحقّق كونه
تجهّز من الحسنى بما أنت قادر
وأحسن إلى مَنْ قد أساء تكرّماً
وحبّ الذي عاداك إن رمت قتله

وأطلب فيها أن أكون المجدداً
وغاية همّ النفس أن أبلغ المدى
من الناس ينبغي أن يكون مقيدا
سواها لمن ضلّوا الطريق إلى الهدى^١
لدينا كأنّ الله أوجده سدى؟^٢
ولم نتقمّص فيهما ما تجددا؟^٣
ولولا العلا لم أطلب الدهر منجدا
لما كان لي بل للأناسيّ مسعدا
عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
وإن زاد بالإحسان منك تمردا
فإني رأيت الحبّ أقتل للعدا

^١ النهى: العقل وأصله جمع نهية، وهي ما ينهى المرء عن القبيح. والصوى: جمع صوة، وهي العلامة تنصب في الطريق ليهتدي بها السائرون في الصحراء ونحوها. يريد أن العقل من معدن الهداية.

^٢ سدى: ضياعاً، بلا فائدة.

^٣ يخلقنا: يبيلنا. ويقال: فلان يفعل كذا ضلة، إذا لم يوفق للرشاد، وكأنه منصوب على الحال؛ أي: ضالاً. وتقمص الشيء: كالتقميص.

على كل حال أن تحبَّ مَنْ اعتدى
تحصَّل شرُّ ثالث وتولَّد
مديدٍ وصار الشر في الناس سرمدًا
سوى أن يظلَّ السيف في الغمد مغمدًا
أشار إلى أسيفه متهدِّدًا
عسيرًا ففي هذا الزمان تمهدًا
بها كل جمع عُدَّ في الحكم مفردًا
على الخير تسليمي إلى الشر مقودًا
لأضرب في الأيام للغدر موعدًا
فعندي نفسٌ تتقي الذلَّ بالردى
لأصبحث في المثرين أطولهم يدا
من العيش إلا ما استطيبَ وحُمدا
وإن لامنني الأعمى عليها وفندا
شحا بفمٍ قد كان في العضُّ أدرأً
وشتتَ شملي في هواه مبدًا
عليَّ له في الحبِّ أن أتشدَّدًا
تعلَّق ليلى العامريُّ مُعمَّدًا
شدوت به في محفل القوم مُنشدا
خنا الطبع إلا أن يُروا لي حُسدا
ويمنعه ذبَّانُه أن يغردًا
جهولٌ تلهَّى أو حليمٌ تبلدًا
ولا مثل جدِّ المرء للمرء مُسعدًا

فليس مضرًا في العلا بالذي أرى
إذا دُفع الشر القبيح بمثله
وأمست دواعي الشر ذات تسلسل
فما الرأي عندي إن تمخَّضتِ الوغى
وأن تجمع الدنيا على ردِّ طامع
فإن كان هذا في العصور التي خلتُ
فإن جميع الأرض أمست كبلدةٍ
ولي خُلُقٌ يأبى عليَّ انطباعه
وأضرب عن جهل الجهول ولم أكنُ
إذا ما اتَّقت نفسُ رداها بذلةٍ
ولو طلبت نفسي الغنى بامتهانها
ولكنني آليتُ ألا أذيقها
سجيةً نفس لم أحلَّ عن عهودها
وما ضرَّني إذ عضَّني مُتَشادِقُ
ولي وطنٌ أفنيت عمري بحبه
ولم أرَ لي شيئًا عليه وإنما
تعلَّقته منذ الصبا مغرمًا كما
وسيرتُ فيه الشعرَ فخرًا فطالما
وكم رامَ إسكاتي أناسٌ أبى لهم
ومن عجبٍ أن يعشق الرُّوض بلبلُ
وما الناس إلا اثنان في الشرق كلُّه:
ولم أرَ مثل الفضل في الشرق مخفِّقًا

٤ المتشادق: يريد به المتشدد، وهو المتفاحص الذي يملأ شذقيه بالكلام، وقيل: هو المستهزئ بالناس، يلوي شذقه بهم وعليهم، وتشدق في كلامه: فتح فمه واتسع. شحا الرجل فاه: فتحه، وشحا فوه: انفتح، متعدُّ ولازم، والباء زائدة أو على تضمينه معنى نطق بفم. والأرد: صفة من الدرد، وهو سقوط مقدم الأسنان.

تأمل قليلاً في بنيه مفكراً
فتبصر أيقاظاً يطيعون هُجداً
وكم فارة في الشرق تُحسب هرةً
ألا ربُّ شاكٍ قال لي وهو آسفٌ:
فقلت له: أبشر بخير فإنه
لتشهد منهم للعجائب مشهداً
وتبصر أحراراً يخافون أعبداً
وكم عقَّع في الشرق سُمي هُهداً
أما أن للتهذيب أن يتبغدا؟^٥
ببغداد للتهذيب أسس مُنتدى

^٥ تبغدا: أي يصير ويتحول إلى بغداد.

في زحلة

قالها سنة ١٩٢٣ وأنشدها في حفلة أقيمت له وللريحاني في زحلة.

حَبِبت العلا منذ الصبا حبَّ شاعرٍ
أأقدر فيها أن أصيخ لللائمِ
تقول ابنة الأقبام وهي تلومني
إلى كم تُجدُّ البين عني مسافراً
وأسكتها عني نشيخٌ لم تزل
إلى أن تفاني الصبر فافتَرَّ مدمعي
ولا غرو أن أبكي أسى من بكائها
وقلت لها: إني امرؤٌ لي لبانةٌ
تعوّدت أن لا أستنيمَ إلى المنى
وأن أمضيَ الهم الذي هو مُقلقي

وقمت إليها ساعياً سعيَ قادرٍ
وقد ملكت مني جميع المشاعر؟^١
وأدمعُها رقراقة في المحاجر:^٢
أما تستلذُّ العيش غيرَ مسافرٍ؟^٣
تردّده منها بأقصى الحناجر
كمدمعها عن لؤلؤٍ متناثر
فأعظم ما يشجي بكاء الحرائر
منوطٌ مداها بالنجوم الزواهر
والأُرى إلا بهيئةٍ ثائر
بطيِّ الفيافي أو بخوض الدياجر^٤

^١ أصاخ له: استمع وأنصت.

^٢ رقراقة: جائلة متحركة. والمحاجر: جمع محجر، وهو ما دار بالعين من العظم.

^٣ تجد البين سفرًا بعد سفر.

^٤ أمضى همه: نفذ ما عزم عليه وهم به. وطي الفيافي: قطع الصحاري، والفيافي: جمع فيفاة. والدياجر: جمع ديجور، وهو الظلمة، وأصله: الدياجر.

أما تَرَيْنَ الوجهَ مِنِّي شاحبًا
ولست أبالي أنني عادم الغنى
ذريني أزر في هُضْب لبنان أربُعًا
بحيث أرى تلك الليوث خوادِرًا
ليوثٌ إذا ما عبَّست في مُلَمَّةٍ
وألقت جيوش الفاخرين سلاحها
فأكرم بلبنان مَقْرًا لنابه
ألا إنما لبنان في الأرض عاهل
وزحله في لبنان تاجٌ لرأسه
وما هي إلا روضةٌ أنبتت له
أزحلهُ إني تاركٌ فيك مُهْجتي
فنشكر الشكر الذي أنت أهله
وفاء امرئٍ ما عودَ الغدرَ نفسه
ومن عجبٍ أن الشويعرَ لامني
ومَنْ كان مثلي شاعرًا لا تسوءه
على أنني مِنْ عاذريه وإن يكن
وكم في رُبَا لبنان من ذي فصاحةٍ
ومن أهل آدابٍ كشارقة الضحى

لكثرة ما عرَّضته للهواجر^٥
إذا كان جَدِّي في العلا غير عاثر
تعاليت بحيث العز مُرخی الضفائر
تسارق ألحاظًا عيون الجآذر
تبسمت الدنيا تبسُّم ناصر
إذا خفقت راياتها بالمفاخر
ومأوى لمنكود ومهدى لحائر
تبوَّأ عرشًا من حليل المآثر
قد ازدان من أبنائها بالجواهر
أزاهيرَ من تلك الحسان الغرائر^٦
تعاطيك من بعدي محبة شاكر
طوال الليالي خالداً في الدفاتر
ولا ودَّ إلا مُخلصًا في الضمائر
ببيروت لومَ الشاتم المتجاسر
مقازعة جاءته من متشاعر^٧
لي الحق في عذري له غير عاذر
مُجيدٍ بيوم الحفل قرعَ المنابر!
ومن أهل علمٍ كالبحار الزواخر

^٥ الشحوب: الصفرة والتغير. والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر وسط النهار.

^٦ الغرائر: جمع غريرة، وهي التي لم تجرب شئون الحياة لنعمتها وحدثاتها.

^٧ مقازعة: مهاجاة ومساباة.

الفنون الجميلة

فاسلك إليه من الفنون طريقا
ممثل والتصوير والموسيقى
غصن الحياة بها يكون وريقا
منها الوجوه تلالؤا وبريقا
يمسي الغليظ من الطباع رقيقا
والعيش أخضر والزمان أنيقا
جعل الفنون من الحياة بروقا
زهر المسرة سوسنا وشقيقا
تدع الأسير من القلوب طليقا
وتفك ربقة من تراه ربيقا
إن كنت تشكو في الحياة الضيقا
فَتَحَسَّ منها قرقفا ورحيقا
إلا وكان لعارفيه عشيقا
ما كان وجه الحادثات طليقا

إن رُمتَ عيشًا ناعمًا ورقيقا
واجعل حياتك غُصَّةً بالشعر والت
تلك الفنون المشتهاة هي التي
وهي التي تجلو النفوس فتمتلي
وهي التي بمذاقها ومشاقها
تمضي الحياة طريّةً في ظلها
إن الذي جعل الحياة رواعداً
وأدركها غيث اللذائذ منبتاً
وأقام منها للنفوس حوافزاً
فتحلُّ عقدة مَنْ تراه معقداً
تلك الفنون، فطرَ إلى سعة بها
وإذا أردتَ من الزمان مضاحكا
ما فاز قطُّ بوصلها من عاشق
فهي ابتسامات الدُّنا وبغيرها

* * *

همُّ يجفُّ في الحلوق الريقا
في النفس تطفئ في حشاك حريقا
هَرَجَ الغناء خلاعة وفسوقا

رطب حياتك بالغناء إذا عرا
إن الغناء لمحدث لك نشوة
واترك مجادلة الذين توهّموا

أفأنتَ أغلظَ مهجةً من نوقهم؟! فقد استحثُّوا بالحداءِ النُّوقا
أرقى الشعوبَ تمدناً وحضارةً مَنْ كان منهم في الفنون عريقا
وأحطُّهم من إن سمعت غناءهم فمن الضفادعِ قد سمعت نقيقا
فالفن مقياس الحضارة عند مَنْ حازوا الرقيَّ، وناطحوا العيُّوقا

* * *

الشعر فنٌّ لا تزال ضروريه تتلو الشعور بألسن الموسيقى
ويجيدُ تقطير العواطف للورى فتحاله لقلوبهم أنبيقا

* * *

ومسارح التمثيل أصغر فضلها جعل الكليل من الشعور ذليقا^١
وإذا رأى فيها الوقائع غافل من نوم غفلته يكون مفيقا
تنمي الحميد من الخصال وتنتقي ما كان منها بالفخار خليقا
وتجيء من عبر الزمان بمشهد يُلقى خشوعاً في النفوس عميقا
ويكون منظره الرهيب ممهداً لمشاهديه إلى الصلاح طريقا

* * *

أما المصوِّر فهو فنَّانٌ يرى ما كان من صور الحياة دقيقا
يأتيك ريشته بشعرٍ صامت ولقد يفوق الشاعرَ المنطيقا^٢
وبدائع التّصوير من حسناتها أن يستفيد بها الشعور سموقا^٣
فهي الجديرة أن تكون ثمينةً وتكون أنفق من سواها سوقا^٤
إن الحياة على الكدورة لم تجد مثل الفنون لنفسها راووقا^٥

^١ الكليل من السلاح: الذي لا يقطع. والذليق: الماضي الحاد.

^٢ المنطيق: الفصيح.

^٣ السموق: الارتفاع.

^٤ أنفق: أروج.

^٥ الراووق: المصفاة.

الحياة الاجتماعية والتعاون

أنشئت في حفلة تأسيس جمعية حماية الأطفال في بغداد سنة ١٩٣٨.

يعيش الناس في حال اجتماع وتكثر للتعاون والتفادي ولو ساروا على طرق انفراد رأيت الناس كالبنيان يسمو فيمسك بعضه بعضاً فيقوى كذاك الناس من عَجَمٍ وَعُرْبٍ قد اشتبكت مصالحهم فكلُّ ولولا سعي بعضُهُم لبعضٍ إذا ربُّ الحسام ثناه عجز وإن قلم الأديب عراه رَيَغُ وإن صِفرت يدٌ من رَيَع زرع	فتحدث بينهم طرق انتفاع على الأيام بينهم الدواعي لما كانوا سوى هَمَجٍ رَعاعٍ ^١ بأحجار تسيع بالسياع ^٢ ويمنع جانبيه من التداعي جميعاً بين مرعيٍّ ورَاعٍ لكلِّ في مجال العيش ساعٍ لعاشوا عيش عادية السباع ^٣ تدارك عجزه ربُّ اليراع تلافى زيغه سيفُ الشجاع أعيد ثراؤها بيدِ صنّاع ^٤
---	--

^١ الهمج والرعاع: السفلة من الناس، وأصل الهمج: صغار البعوض.

^٢ تسيع بالسياع: أي تطلّ بما يطلّ به البناء بعد بنائه، ليكمل شكله ومنظره.

^٣ عادية: أي مفترسة.

^٤ صفرت: أي صارت صفراً خالية. وريع الزرع: يريد ثمرته وفائدته التي تجنى منه. واليد الصناع:

الماهرة، وهي ضد اليد الخرقاء، وهي التي لا تحسن عملاً.

بذاك قضى اجتماع الناس لَمَّا
يساند بعضهم في العيش بعضًا
فتعلوا في ديارهمُ المباني
وتستعلي الحياة بهم فتمسي
وما مدنيّة الأقوام إلا
ولم يصلح فساد الناس إلا
تُشاد به الملاجئ لليتامى
وتُبني للعلوم به مبان
وإلا فالشقاء لهم حليفٌ
ومما سرنى أني أناجي
سعوا لحماية الأطفال منا
فقاموا بالذي يُعلي ويُسلي
وما هذي الحياة سوى صراعٍ
وما سادت شعوب الخلق إلا
إذا لم يُعَنَّ بالأطفال قومٌ
ولا تزكو المَناشئ في أناسٍ
وما هاج العواطف في فؤادٍ
فشكرًا للكرام وكل شكر

أَن اعتصموا بحبل الاجتماع
مساندة ارتفاع وانتفاع
وتخصب في بلادهمُ المراعي
من العيش الرغيد على يفاع^٥
تعاونهم على غُرّ المساعي
بمال من مكاسبهم مُشاع
وتُمْتار المطاعم للجياح
تفيض العلم مؤتلق الشعاع
وما حملُ الشقاء بمستطاعٍ
رجالاً في الفخار ذوي ابتداعٍ
بما أوتوه من كرم الطباع
يصونون الضعاف من الضياع
يتمُّ بفوز مفتول الذراع
بتهيئة البنين لذا الصراع
فهضبة مجدهم رهن انصداع^٦
يرون الطفل من سقط المتاع^٧
كحال الطفل في زمن الرضاع
لِمَنْ عضدوا الكرام بمدّ باع^٨

^٥ اليفاع: المرتفع.

^٦ انصداع: تشقق وتكسر.

^٧ سقط المتاع: أردأ وأرخص ما في البيت من متاع وأدوات كالمكنسة والكوز ونحوهما.

^٨ عضده يعضده، بضم الضاد في المضارع: قَوَّى عضده وشد أزره، يريد عاونوا بمد أيديهم بالمال.

في سبيل الوطنية

كتب إليه صديقه فخري البارودي وهو إذ ذاك في بيروت، يخبره بأنه ألف في دمشق شركة للمنسوجات الوطنية، ويطلب إليه أن يكتب فيها قصيدة يدعو بها القوم إلى مؤازرتها والانضمام إليها، فكتب القصيدة الآتية وأرسلها إليه في دمشق.

فليطلبنّه بهمة البارودي	مَنْ كان في المجد المؤثّل راغباً
منهنّ مفتخرًا بكل جديد	فخري الذي ابتكر المفاخر واغتدى
متشبّثًا منها بكل مفيد ^١	وأبى سوى غُرّ المساعي إذ سعى
من بعد مجد في دمشق تليد ^٢	وبنى له بدمشق مجداً طارفاً
ورث المكارم عن أبٍ محمود	إن كان محمود الفعال فإنه
وبحسن رأي في الأمور سديد	نفع البلاد بماله وبسعيه
فيها المساعي أيّما توحيد ^٣	ورأى الشّتات بها فقام موحداً
ترمي إلى غرض أغر حميد	ودعا الرجال بها فألف شركةً
وتعيد عهد ثرائها المفقود	تغني البلاد بسعيها عن غيرها
من نسج أردية لهم وبُرود	وتقوم بالعمل المفيد لأهلها

^١ غر المساعي: جمع أغر، وهو الذي في وجهه بياض.

^٢ الطارف والطريرف: المكتسب الحديث، والتالد والتليد: الموروث القديم.

^٣ الشّتات: التفرق.

حتى تكون عن الأجانب في غنى
أوما ترى أهل البلاد تقيدوا
العرب يكسوهم ملابس هم بها
وتراه يسلخهم بمصنوعاته
هذي سفائنهم تروح وتغتدي
فكأنما هي لامتصاص دماننا
حتى متى نشقى ليسعد غيرنا
ويجانب الوطني من أشيائنا
إن البلاد لتشتكي من أهلها
يا سادة الأوطان لستم سادة
أفسيدٌ من عاش وهو لغيره
إن السيادة تستدير مع الغنى
لا يستقل بسيفه الشعب الذي
من كان محلول العرى في ماله
يا قومنا أنتم كغارس كرمة
كم تزرعون بأرضكم ولغيركم
فتبصّروا يا قوم في أحوالكم
من شاء منكم أن يعز بلادُه

وتعيش غير أسيرة التقليد
للغرب من حاجاتهم بقيود؟
يعرون من مال لهم ونقود
سلخ الشياه فهم بغير جلود
ببضائع لم تحص بالتعديد
بعض المحاجم أو كبعض الدود^٤
وتذلّ القربى لعز بعيد؟
ولو أنه من أحسن الموجود؟
وتقول قول الراح المجهود:^٥
ما عشت من فقركم كعبيد
في حاجة؟! بل ذاك عيش مسود
في حالي عدم له ووجود^٦
لا يستقل بنقده المنقود^٧
وجب انحلال لوائه المعقود
وسواه منها قاطف العنقود
مما زرعتم حب كل حصيد!
وتنبّهوا من غفلة ورقود
فليسع سعي معزها البارودي

^٤ المحاجم: جمع محجم، وهو كأس صغير يسحب به الدم من الإنسان. والدود: هو العلق الأسود، يستعمل كالمحجم لامتصاص بعض الدم من الجسم.

^٥ الراح المجهود: هو الذي لحقه الإعياء من حمل ثقل.

^٦ يريد أن المرء لا يوصف بأنه سيد إلا إذا استغنى عن غيره، فأما إذا احتاج إلى غيره فهو عبد له، وقد قيل: «استغن عن شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.»

^٧ يريد أن الاستقلال الاقتصادي للبلاد ينبغي أن يقدم على الاستقلال السياسي.

في المدرسة: دار التفيض

قد أقيمت للطالبين منارا
جعلوا العلم للحياة مدارا
من طريق العلوم ثوبًا معارا
ردَّ ليلِ الجهل المميت نهارا
فأرإل لنكتب الأسفار!¹
م ففأفأ وفم شققنا بشارا!
وركبنا لأفله الأخطارا
إذ لبسنا الصبر الجميل شعارا
م إذا كانت النفوس كبارا
هل ملكنا بغيرها الأقطارا²
هل عمرنا بغيره الأمصارا?
هل طلبنا بغيرهن فخارا?
هل غسلنا بغيرهن العارا?
هل رضينا تحت النجوم قارارا?

نعمتِ الدار للتففيض دارا!
هي دارٌ ينتابها ولد قوم
نحن قوم نرى المفأخر إلا
ما قصدنا بسلنا السيف إلا
هل شددنا الرأال في الأرض للأسـ
كم طوينا من قبلُ في طلب العلـ
واقأأمنا لأفله كلُّ هول
ولقد هانت النوائب فيه
إنما تصغر الخطوب لدى القو
سل بنا العلم والفنون جميعًا
سل بنا العدل في جميع الرعايا
سل بنا الغرَّ من كبار المساعي
سل بنا هذه الدماء الدوامي
سل بنا هذه النجوم الدراري

¹ الأسفار الأولى: جمع سفر بفتح الفاء، والثانية: جمع سفر بكسر السين وسكون الفاء، وهو الكتاب.

² سل بنا: سل عنا، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾.

كم رفعنا للعلم في الأرض برجًا
لا يكن منك في الذي قلت شكُّ
يعلم الله ذو الجلالة أنا
إنما هذه المدارس روضٌ
تتغذى بها النفوس غذاء
جلَّ فعلًا إكسيرها المتعالي
يدخل الناشئون فيها من النا
ربَّ نفس كدِرْهمٍ قد جلاها الـ
نضرت هذه المدارس روضًا
تمنح العاجز الضعيف اقتدارًا
كانت الناس في القديم عبيدًا
فعليكم فيها بتحصيل علمٍ

وبنينا له كغمْدانَ دارا!
وإذا شئت فانظر الآثارا
لسوى الله ما رجونا وقارا
ينبت المجد والعُلا والفخارا
هو يُنمي العقول والأفكارا
كيف يجلو القلوب والأبصارا؟!
س نحاسًا ويخرجون نضارا
علم حتى أعادها دينارا
من بني القوم منبتًا أزهارا
مُوشكًا أن يغالب الأقدارا
وبها اليوم أصبحوا أحرارا
يُرغد العيش، يُسعد الأعمارا

المدارس ونهجها

أنشئت في حفلة وضع الحجر الأساسي لبناية مدرسة التفيض الأهلية التي أقيمت عصر ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٢٩.

ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا
جودوا عليها بما درت مكاسيكم
إن كان للجهل في أحوالنا علل
سيروا إلى العلم فيها سير معتزم
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتم
هذي مدارسكم شروى مزارعكم
لا تتركوا الشوك ينمو في منابتها
وأسسوها على الأعمال قائمة
يلقى بها النشء للأعمال مختبرا
وأمطروا روضها علما ومقدرة
فتنبت العالم الفنان مخترعا

حتى نطاول في بنيانها زحلا
وقابلوا باحتقار كل من بخلا
فالعلم كالطب يشفي تلكم العللا
ثم اركبوا الليل في تحصيله جملا
بل علموا النشء علما ينتج العملا^١
فأنبتوا في ثراها ما علا وغلا^٢
أعني بذلك الأمواء والنحلا
ممهدين إلى المحيا بها سبلا
وللطباع من الأدران مغتسلا
حتى تفتح من أزهارها الأملا
وتنبت الفارس المغوار والبطلا

^١ يريد لا توجهوا كل اهتمامكم إلى التعليم القولي النظري، بل وجهوا عنايتكم إلى الشئون العملية، كالعلوم التطبيقية التي تفيد في ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها.

^٢ شروى: مثل.

وتنبت الحارس الفلاح مزدرعاً
واسقوا المتلمذ فيها خمر مكرمة
حتى إذا ما غدا خريجها طرباً
ربوا البنين مع التعليم تربية
وثقفوهم بتدريب وتبصرة
وجنبوهم على فعل معاقبة
إن العقاب يزيد النفس شرّاً
بل أنشئوا ناشئ الأحداث وهو على
بحيث يمشي إذا شأنته شائنة
من يترك الشر خوفاً من معاقبة
فجيئوا جيش علم من شبيبنا
إن قام للحرث رد الأرض ممرعة
وإن غزا مستظلاً ظل رايته
إننا لمن أمة في عهد نهضتها
هذا هو العلم لا ما تأدبون له
ماذا تقولون في نقدي مناهجكم
وأي نفع لمن يأتي مدارسكم
فأجمعوا الرأي فيما تعلمون به
ثم انهجوا في بلاد العرب أجمعها
حتى إذا ما انتدبنا العرب قاطبة

وتنبت المدره المنطيق مرتجلاً
عن خمرة الكرم تمسي عنده بدلاً
من عزة النفس خيل الشارب الثملاً
يمسي بها ناطق الأخلاق مكتملاً
ثقافة تجعل المعوج معتدلاً
إن العقاب إذا كررته قتلاً
وليس ينكر هذا غير من جهلاً
حب الفضيلة في محياه قد جبلاً
من فعله احمر منها وجهه جبلاً
فليس يحسب ذا فضل وإن فضلاً
عزماً تضرب الدنيا به المثلاً
أو قام للحرب دك السهل والجبلاً
هز البلاد وأحيا الأعصر الأولاً
بالعلم والسيف قبلاً أنشأت دولاً
مما تكون به عقباكم الفشلاً
وقد كفيتم التفصيل والجملاً؟
إن كان يخرج منها مثلاً دخلاً؟
ثم اعملوا بنشاط ينكر المللاً
نهجاً على وحدة التعليم مشتملاً
كنا كأنا انتدبنا واحداً رجلاً

العلم والإجازة فيه^١

إِنَّ مَنْ حَازَ فِي الْعُلُومِ إِجَازَةً لَجْدِيرُ بَرْتَبَةٍ مِمْتَازَةٍ
وَخَلِيقٌ بَعِيشَةٍ مَرْتَضَاةٍ وَافْتِخَارٍ بِفَضْلِ مَا قَدْ حَازَهُ
إِنَّمَا هَذِهِ الْإِجَازَةُ صَكٌّ بِيَدِ الْمَرْءِ ضَامِنٌ إِعْزَازَهُ
وَهِيَ تَعْوِذَةٌ لَهُ مِنْ عَيُونٍ بِالْمَسَاوِي هَمَّازَةٌ غَمَّازَهُ
فَهَنِيئًا لِمَنْ أُجِيزَ وَشُكْرًا لِلَّذِي فِي عُلُومِهِ قَدْ أَجَازَهُ

* * *

معهدُ العلم وهو حِرْزٌ يفوق الـ أبلقُ الفردَ منعةً وحرازه^٢

^١ الإجازة: هي الشهادة التي تمنحها المدارس والمعاهد للطلاب الذين أتموا دراستهم كلها أو بعضها وسميت بذلك: لأن شيوخ العلم من سلف المسلمين كانوا يجيزون المنتهين من الطلاب برواية مروياتهم وقراءة مؤلفاتهم، لأنهم أصبحوا أهلاً لذلك، وكان الطلاب يعتزون بشهادة أستاذيهم لهم، ويذكرونها في تراجمهم وتواريخ حياتهم.

^٢ الأبلق الفرد: حصن معروف للسَّموءل بن عادياء اليهودي بأرض تيماء من بلاد العرب، قال فيه الشاعر:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على مَنْ رامه ويطول

تَلَجَّأَ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ إِلَيْهِ هَرَبًا مِنْ جَهَالَةٍ وَخَازَهُ
حَبِذَا الْعِلْمُ يَكْسِبُ الْمَرْءَ عِزًّا وَيَقِيهِ فِي عَيْشِهِ إِعْوَازَهُ
فِي نَفُوسِ الَّذِينَ لَمْ يُرَزِّقُوهُ حَسْرَاتٍ وَفِي الْقُلُوبِ حَزَازَهُ
إِنَّمَا الْعِلْمُ مِنْ مُعَاجِزِ عَيْسَى كَمْ جَهُولٍ أَحْيَاهُ وَهُوَ جَنَازَهُ!
صَاحِبِ الْعِلْمِ يَرْكَبُ الْمَجْدَ طَرْفًا جَاعِلًا غَايَةَ الْعِلْمِ مَهْمَازَهُ^٢
وَيَهْزِ الدُّنْيَا رَجَاءً وَخَوْفًا بَيِّدٍ مِنْ دَرَايَةِ هَزَازِهِ
نَحْنُ سَفَرٌ وَمَا الرُّوْحُ وَالزَّأْ دُ سَوَى الْعِلْمِ، وَالْحَيَاةُ مَفَازَهُ^٣
كُلُّ مَنْ لَمْ يُعِدَّهُ لِاجْتِيَازِ لَمْ تَيْسِرْ بَيِّدِ النِّجَاحِ اجْتِيَازَهُ
إِنْ عَقَلَ الْفَتَى لِيَصْبَحَ بِالْعِلْمِ سَمَ رَزِينًا بِكَفٍّ مَنْ قَدْ رَازَهُ^٤
وَالطَّبَاعُ الْعَرَجَاءُ فِي كُلِّ شَخْصٍ تَقْتَضِي مِنْ ثِقَافَةِ عُكَازِهِ
أَلْغِزَ الدَّهْرِ فِي الْحَقَائِقِ لَكِنْ أَفْهَمَ الْعِلْمُ أَهْلَهُ أَلْغَازَهُ
وَإِذَا الْأَمْرُ قَدْ غَشَتْهُ الْغَوَاشِي ضَمِنَ الْعِلْمُ لِلوَرَى إِبْرَازَهُ

* * *

كَانَ لِلْعِلْمِ فِي الْقَدِيمِ طَرِيقٌ غَيْرٌ رَحِبٌ يُشَقُّ أَنْ تَجْتَازَهُ
فَجَرَى الْيَوْمَ فِي طَرِيقٍ جَدِيدٍ جُعِلَ الشُّكُّ وَالْيَقِينُ طَرَازَهُ
هُوَ صَيْدٌ وَلَمْ يَعِدْ يَجْعَلِ الْمَصْدَ طَاطُ مِنْهُ غَيْرَ التَّجَارِيِبِ بَازَهُ^٥
قَدْ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ الْقَوْلِ فِيهِ وَتَرَكْنَا لِلْغَافِلِينَ مَجَازَهُ
وَبَحَثْنَا عَنْ جَوْهَرِ الْحَقِّ فِيهِ فَبَلَّغْنَا دَفِينَهُ وَرَكَازَهُ^٦
بَلَّاهُ إِطْنَابَ شَرْحِهِ بِقِيَاسِ إِنَّ فِي تَجْرِبَاتِهِ إِيجَازَهُ^٧

^٢ الطرف: الحصان الكريم. والمهماز: ما يحث به الفرس على السير.

^٤ مفازة: صحراء يهلك فيها السائر الذي لم يستعد لها.

^٥ رازه: اختبره بيده ليعرف ثقله.

^٦ شبه العلم بصيد، وجعل التجربة كالبازي، وهو الصقر الذي يستعان به على الصيد.

^٧ الركاز: المعادن المدفونة في الأرض.

^٨ يقول: استعنا في عصرنا على تحقيق العلم بالتجربة الموجزة، واستغنينا بها عن الشرح الطويل، والقياس المنطقي النظري.

هو في الناس قدره متعال	لم يطلُ صرْحُ إيفلٍ أنشازه ^٩
وإذا المُلْكُ لم يؤيِّده علم	فارتقب سلبه ورجَّ ابتزازه ^{١٠}
وإذا العلم فاه يومًا بوعدٍ	ذهب اليأس أملًا إنجازَه ^{١١}
وإذا أنشط الجبان لحربٍ	صال يرغو حماسة وحمازه
قَلَمُ المرء في بلوغ المعالي	فائق في وغي الحروب جُرازه ^{١٢}
صاحب العلم في الأمور أمير	قد غدا كل حادث جِلوازَه ^{١٣}
يبصر الخطب من هواده حتى	يلتهى فيه مبصرًا أعجازه ^{١٤}
فلهذا، نعم لهذا أهني	كلَّ مَنْ حاز في العلوم إجازَه

^٩ صرْح إيفل، أو برج إيفل: بناء عالٍ جدًّا في فرنسا. والأنشاز: جمع نشز، وهو كل شيء مرتفع، ويقول:

إن قدر العلم وشرفه عالٍ جدًّا لا يساميه برج إيفل علوًّا.

^{١٠} يقول: إن المُلْك الذي لا يقوم على دعائم العلم لا يلبث أن يضيع ويسلب.

^{١١} إذا وعد العلم بتحقيق غرض، فلا بد أن يناله، وإن ظنه الناس مستحيلًا أو بعيدًا.

^{١٢} الجراز: السيف.

^{١٣} الجلواز: بمعنى الشرطي.

^{١٤} هواده: أوائله ومقدماته.

العلم

إلى شبان الكلية الإنكليزية في القدس

إلا بعلم يَجِدُّ في طلبه
عيشًا أمينًا من سوء منقلبه
فراحة المرء من جنى تعبهِ
أضرب عن شهده وعن ضربه
كل المعالي تدور في قُطْبهِ
مصمَّم الرأي غير مضطربه
فالعلم أبقي للمرء من نشبه
فالعلم يغني النسيب عن نسبه
واجتنب الفخر غير مكتسبه
يسرح في لهوه وفي لعبه!
فقصّر الناس عن مدى حسبه!
يحلُّ بيتًا يكون في صَقْبهِ
لو كنَّ يُحسبن من قوى طُنْبهِ^١
بعد قليل يفضي إلى عطبه

لا يبلغ المرء منتهى أربه
فأو إلى ظلّه تعش رَغْدًا
واتعب له تسترخ به أبدًا
ولذة العلم، مَنْ تَذَوَّقَهَا
وإن للعلم في العلا فلگا
فاسع إليه بعزم ذي جلد
وابذل له ما ملكت من نشب
لا تتكل بعده على نسب
واطرح المجد غير طارفه
ما أبعد الخير عن فتى كسل
كم رفع العلم بيت ذي ضعة
حتى تمنى أعلى الكواكب لو
وودت الشمس في أشعتها
وإن يسدَّ جاهل فسؤدده

^١ الطنب: حبل تشد به الخيمة.

يرى امرؤ مجدَ جاهلٍ عجباً لو صحَّ عقلاً لكفَّ عن عجبه
 كم كذب الدهر في فعائله وسؤدد الجاهلين من كذبه
 العلم فيضٌ تحيا القلوب به فامتَحَ بسجَلِ الحياة من قُلْبِهِ^٢
 كل فخارٍ أسبابه انقطعت إلا فخاراً يكون من سببه
 للعلم وجهٌ بالحسن منتقب وسافر منه مثل منتقبه
 ما حسن وجه للفتى بمفخرة إن لم يؤيِّد بالحسن من أدبه
 ما أقدر العلم! إنَّ صيحتَه يمعن منها الخميس في هربه^٣
 مَنْ تَخَذَ العلمُ عُدةً لوغى أغناه عن درعه وعن يَلْبِهِ^٤
 فانتدب العلم للخطوب فما خاب لعمرى رجاء منتدبه
 العلم كالنور بل أفضله ما أفقر النور أن يشبه به!
 سقيّاً ورعيّاً لروض معهده وطالبيه وقارئى كتبه
 ما الناس إلا رُؤاد نجعتَه وناشروه وكاشفو حُجْبِهِ
 وَمَنْ غدا هادياً يعلِّمه وراح يشقى الجهول من وصبه
 ومعهدٍ أسست قواعده في بلد شفني هوى عربه
 شيده للعلوم مدرسة مَنْ كَانَ نشر العلوم من دأبه
 قد غرَّد المجد في جوانبه فاهتزَّ عطف الفخار من طربه^٥
 وأصبح العلم فيه مزدهراً بكل ذاكي الذكاء ملتبه
 بمثله في البلاد قاطبة يشفي عَقور الزمان من كَلْبِهِ^٦
 أضحت فلسطين منه مُمرَّعةً مذ جادها بالغزير من سُحْبِهِ^٧

^٢ السجل: الدلو. والقلب: جميع قلب، وهي البئر.

^٣ الخميس: الجيش؛ لأنه خمس فرق: قلب وجناحان، ومقدمة ومؤخرة. يمعن: يبالغ.

^٤ عدة الحرب: أدواتها. واليلب: الترسة أو الدروع من الجلود، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض، تلبس على الرؤوس خاصة.

^٥ العطف: الجانب.

^٦ شبه الزمان بالكلب العقور، وهو المصاب بالكلب، فإذا عض إنساناً عقره أي: أهلكه.

^٧ الممرع: المخصب. جادها: أنزل بها المطر الجود الغزير.

العلم

تاهت به إيلياءَ فاخرةً على دمشق الشام أو حلبه
شكرًا لبانيه ما أقام به شبَّانه القاطنون في قُبَّبه

دار الأيتام أو مدرسة شنلر في القدس

لدار شنلر في القدس فضل ويحمده من الفقراء طفل بها يجد اليتيم له مقامًا يرى عن أمه أمًّا عطوفًا تميت نهارها فيه ليحيا فتشرب نفسه حبَّ المعالي وترأم كل مَنْ فجعوا بيتهم ويدخلها يتيم القوم طفلًا عليماً بالحياة يسير فيها وقد لبس الفضيلة وارتداها	به تنسى تيتّمها اليتامى يذمُّ لفقد والده الحماما إذا ما الدهر أفقده المقاما عليه وعن أبيه أبًا هماما وتُحيي الليل فيه لكي يناما وتطعم جسمه منها الطعاما صغارًا قبل ما بلغوا الفطاما ^١ فتخرجه لهم يفعًا غلاما على علم فيخترق الزحاما وشدَّ عليه من حزم حزاما
---	---

* * *

وقفت بها أعاطيها التحايا وأشكر فضلها والشكر عجز أدار شنلر لا زلت مأوى أثابك مالِكُ الملكوت عنهم	وأستسقي لساكنها الغماما إذا هو لم يكن إلا كلاما لأبناء الأرامل والأيتامى مثنوية كل مَنْ صلّى وصاما
--	---

^١ رثمت الأم ولدها: شمته وعطفت عليه.

ضمنت لهم رغيد العيش حتى
وجار الدهر معتدياً عليهم
إذا ما أبكت الدنيا يتيماً
لقد هونت رزء اليتيم حتى
وكاد إذا رأى مغناك راءٍ
ليمكت فيك مغتبطاً سعيداً
ويعلم كيف يدرع المعالي
وما فقد المسيح الناس لماً
فنبت عن المسيح وقمت حتى
ولا عجب فقد جدت منه
شمخت على ربا القدس اعتلاءً
ولحت بأفقهها بدرًا منيرًا
ألا إنَّ النجوم بشعريها
هززت الطور فهو يكاد يمشي
وجاذبت الكرامة خير قبر
تباهي القدس مكة فيك حتى
فلا برحت ربوعك عامرات

أخذت على الزمان لهم ذماما
فكنت لهم من الدهر انتقاما
أعدت بكاءه منه ابتساما
غفرنا للزمان بك الأثاما
يوذ بأن يكون من اليتامي
ويكسب عندك الشرف الجساما^٢
ويعرف كيف يبتر المراما
أعدت لهم خلائقه الكراما
لقد شكر المسيح لك القياما
عواطف كان عمَّ بها الأناما
فكنت لهن من شرف وساما
جلا من ليل أبؤسها الظلاما
لتحسد من مرابعك الرغاما^٣
إليك على تقدسه احتراما
به دفن المسيح ومنه قاما
تفاخر فيك مشعرها الحراما
نسلُّ على الشقاء بها حُساما

^٢ الشرف الجسام: الجسيم.

^٣ الشعريان: الشعري العبور، والغميصاء؛ كوكبان مضيئان. والرغام: التراب.

الفقر والسقام

أَيُّ مَضْنَى يَمُدُّهَا بَاكِتْنَابٍ أَنَّةُ تَتْرَكَ الْحِشَا فِي التَّهَابِ
يَتَشَكَّى وَاللَّيْلُ وَخَفُّ الْإِهَابِ ضَمَنَ بَيْتٍ جَثَا عَلَى الْأَعْقَابِ^١
صَفْعَتُهُ، فَمَالَ، كَفُّ الْخَرَابِ^٢
تَسْمَعُ الْأَذْنَ مِنْهُ صَوْتًا حَزِينًا رَاجِعًا فِي حِشَا الظَّلَامِ كَمِينًا
يَمْلَأُ اللَّيْلَ بِالْإِهَابِ أَنْيْنَا رَبُّ كُنْ لِي عَلَى الْحَيَاةِ مَعِينًا
رَبُّ إِنْ الْحَيَاةُ أَصْلُ عَذَابِي
وَجَعُ فِي مَفَاصِلِي دَقَّ عَظْمِي وَدِهَانِي وَلَمْ يَرْقُ لِعُدْمِي^٣
عَاقَنِي عَنْ تَكْسُّبِي قَوْتَ يَوْمِي رَبُّ فَارْحَمْ فَقْرِي بِصَحَّةِ جِسْمِي
إِنْ فَقْرِي أَشَدُّ مِنْ أَوْصَابِي^٤
يَا طَبِيبًا وَأَيْنَ مِنْكَ الطَّبِيبُ؟! حَالُ دُونَ الطَّبِيبِ فَقْرٌ عَصِيبٌ^٥
لَا أَصَابَ الْفَقِيرَ دَاءٌ مَصِيبٌ إِنْ سَقَمَ الْفَقِيرُ شَيْءٌ عَجِيبٌ

^١ الوحف: الشعر الكثير الأسود. الإهاب: الجلد، يصف شدة ظلام الليل. جثا على الأعقاب: يريد أنه قارب أن يتهدم.

^٢ كف: فاعل صفعت.

^٣ العدم: الفقر.

^٤ الأوصاب: الأمراض.

^٥ عصيب: شديد.

بطلت فيه حكمة الأسباب

* * *

رجلٌ معسرٌ يسمي بشيرا كان يسعى طول النهار أجيرا
كاسباً قوته زهيداً يسيرا مالگًا في المعاش قلباً شكورا
راجياً في المعاد حسن المآب^٦
عالٌ أختاً حكته خُلُقاً نزيها عانساً جاوز الزواج سنيها^٧
لزمت بيت أمها وأبيها مع أخوها تعيش عند أخيها
مثله في طعامه والشراب
كل يوم له ذهاب ومأتى في معاش من كده يتأتى^٨
هكذا دأبه مصيفاً ومشتى فاعتراه داء المفاصل حتى
عاقه عن تعيُّش واكتساب
بينما كان في قواه صحيحاً ساعياً في ارتزاقه مستميحاً^٩
إذ عراه الضنى فعاد طليحاً ورمته يد السقام طريحاً^{١٠}
جسمه من سقامه في اضطراب
بات يبكي إذا له الليل آوى بعيون من السهاد نشاوى^{١١}
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تنهاوى
كشهاب ينقضُّ إثر شهاب^{١٢}
إنَّ سقمًا به وعُقمًا ألمًا تركاه يذوب يومًا فيوما
فهو حيناً يشكو إلى القسم عُدماً وهو يشكو حيناً إلى العدم سقما

^٦ أي أن ذلك المضمنى الذي مرَّ ذكره في أول القصيدة هو رجل معسر ... إلخ.

^٧ عالٌ أختاً: كفّلها وكفّاها معاشها. العانس: هي التي طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

^٨ يتأتى: يتهياً.

^٩ مستميحاً: طالِباً.

^{١٠} الطليح: المهزول.

^{١١} نشاوى: سكارى، جمع نشوان.

^{١٢} الشهاب: هو ما يُرى كأنه كوكب قد سقط.

باكيًا من كليهما بانتحاب

ظل يشكو للأخت ضعفًا وعجزًا إذ تعزیه وهو لا يتعزَّى
أيها الأخت عزَّ صبري عزًّا إن للداء في المفاصل وخزاً^{١٣}
مثل طعن القنا ووخز الحراب^{١٤}

قد تمادى به السقام وطالا وتراءى له الشفاء محالا
إذ قُلبًا به السقام استحالا كان هينًا فصار داء عضالا^{١٥}
ناشبًا في الفؤاد كالنُشاب^{١٦}

* * *

ظلاً ملقى وأعوزته المطاعم موثقًا من سقامه بالأداهم^{١٧}
منفقًا عند ذاك بعض دراهم ربحتها من غزلها الأخت فاطم
قبل أن يُبتلى بهذا المصاب

قال والأخت أخبرته بأن قد كربت عندها الدراهم تنفذ:^{١٨}
أخبري السقم علَّه يتبعَّد أيها السقم خلَّ عيشي المنكد
لا تُعقني في عيشتي عن طلابي

مرضىني شقيقتي مرضيني وعلى الكسب في غدِ حرّضيني
وإذا مسَّك الطوى فإرضيني أو على الناس للمبيعِ ارضيني^{١٩}
علَّهم يشترونني مما بي

رام خبزًا والجوع أذكى الأوارا في حشاه فعلَّته انتظارا
ثم جاءت بالماء تُبدي اعتذارا وهل الماء، وهو يطفئ نارا

^{١٣} الوخز: الطعن غير النافذ برمح أو إبرة أو غير ذلك.

^{١٤} القنا: جمع قنّاء، وهي الرمح.

^{١٥} القلاب: داء القلب، داء عضال: شديد متعب غالب.

^{١٦} ناشبًا: عالقًا.

^{١٧} أعوزته المطاعم: احتاج إليها فلم يقدر عليها. موثقًا: مقيدًا. الأداهم: القيود.

^{١٨} كربت: كادت.

^{١٩} الطوى: الجوع.

يطفئُ الجوع ذاكياً في التهابِ؟!
خرجتُ فاطمٌ إلى جارتِها وهي تُذري الدموع من مقلتيها
فأبانت برقّة حاليها من سقامٍ ومن سُعارٍ لديها^{٢٠}
وشكت بعد ذا خلوّ الوطاب^{٢١}
فانثنت وهي بين ذلٍّ وعزٍّ تحمل التمر في يدٍ فوق خبز^{٢٢}
وبأخرى سمنًا وبعض أرزٍّ منحوها به وذو العرش يجزي
مَنْ أعان الفقير حسن الثواب

* * *

ليلة تنشر العواطفُ دُعرا في دجاها حيث السحاب اكفها^{٢٣}
ذا هزيمٌ يمجُّ في الأذن وقرا حين تبدي صوالج البرق تترى^{٢٤}
كهربائيّة سرت في السحاب
مدّ فيها ذاك المريض الأكفّا في فراش به على الموت أوفى^{٢٥}
طرفها كالسّها يبين ويخفى حيث يُغضي طرفًا ويفتح طرفا^{٢٦}
عاجزًا عن تكلم وخطاب
فدعته والعين تُذري الدموعا أخته وهي قلبها قد ريعا
يا أخي أنت ساكن أفجوعًا؟ ساكت أنت يا أخي أم هجوعا؟^{٢٧}

^{٢٠} السعار بضم السين: شدة الجوع.

^{٢١} الوطاب: جمع وطب، وهو سقاء اللبن من الجلد، وخلو الوطاب كناية عن الفقر والحاجة.

^{٢٢} انثنت: رجعت.

^{٢٣} دعرًا: خوفًا. اكفهر: تراكم واشتدت ظلمته.

^{٢٤} الهزيم: الرعد وصوته. يمج: يلقي. الوقر: الصمم. صوالج: صولجان وهو ما تضرب به الأكرة، وصوالج البرق: هي الرياح التي تسوق السحب بشدة، فيحصل منه الاحتكاك الذي يولد البرق، فإن كان الاحتكاك أعظم حصل مع البرق صوت الرعد.

^{٢٥} أوفى: أشرف.

^{٢٦} السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته، يغضي: يغمض.

^{٢٧} الهمة للاستفهام والفاء عاطفة، وجوعًا: مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله من ساكت، وأصل العبارة: أفأنت ساكت جوعًا أم أنت ساكت هجوعًا؛ أي نومًا؟

فأشفني يا أخي برجع الجواب
 فرأت منه أنه لا يجيبُ فتدانت والدمع منها صبيبُ
 ثم أصغت وفي الفؤاد وجيبُ ثم هابت والموت شيء مهيبُ^{٢٨}
 ثم قامت بخشية وارتياب
 خرجت فاطمٌ من البيت ليلاً حيث أرخى الظلام سدلاً فسدلاً^{٢٩}
 وهي تبكي والغيث يهطل هطلاً مثل دمع من مقلتيها استهلاً
 أو كماءٍ جرى من الميزاب
 ربُّ أدرك باللطف منك شقيقي وامنع الغيث ربُّ عن تعويقي
 ومُرِّ البرق أن يضيءَ طريقي ببريقٍ يبديه إثرَ بريق
 فعسى أهتدي به في نهابي
 قرعت في الظلام باب الجار وهي تبكي الأسى بدمع جار
 ثم نادت برقةً وانكسار أمَّ سلمى ألا بحق الجوار
 فافتحي إنني أنا في الباب
 فأتتها سَعْدَى وقد عرفتُها وعن الخطب في الدجى سألتها^{٣٠}
 ثم سارت من بعد ما أعلمتها تقتفيها وبنتها تبعتها
 فتخطين في الدجى بانسياب^{٣١}
 جئن والسُّحُب أقلت عن حياها وكذاك الرعود قلَّ رغاها^{٣٢}
 حيث يأتي شبه الأنين صداها غير أن البروق كان ضياها
 مَوْضًا في السماء بين الرباب^{٣٣}
 فدخلن المحلَّ وهو مخيف حيث إنَّ السكوت فيه كثيف^{٣٤}

^{٢٨} الوجيب: الخفقان والرجفان.

^{٢٩} السدل: الستر.

^{٣٠} الخطب: الأمر.

^{٣١} الانسياب: الإسراع في المشي.

^{٣٢} الحيا: المطر. الرغاء: صوت الرعد.

^{٣٣} الرباب بفتح الراء: السحاب الأبيض الذي أراق ماءه.

^{٣٤} شبه كثرة السكون بجيش كثيف أو عظيم.

وضياءُ السراج نزر ضعيف وبه في الفراش شخص نحيف
دَبَّ منه الحِمام في الأعصاب^{٣٥}
قالت الأخت أم سلمى: انظريه ثكلت روح أمه وأبيه^{٣٦}
فرأت منه إذ دنت نحو فيه نَفَسًا مبطئ التردد فيه
ثم قد غاله الردى باقتضاب^{٣٧}
وَجِمت حيرة وبعد قليل رَمِقت فاطمًا بطرفٍ كليل^{٣٨}
فيه حَمْلٌ على العزاء الجميل فَعَلَا صوت فاطمٍ بالعويل
وبكت طول ليلها بانتحاب
فاستمرَّت حتى الصباح تُوالي زفرات بنارها القلب صال^{٣٩}
فأتاها ودمعها في انهمال بعض جاراتها وبعض رجال
من صعاليك أهل ذاك الجنب^{٤٠}
وقفوا موقفًا به الفقر ألقى منه ثِقَلًا به المعيشة تشقى
فأروا دمع فاطم ليس يرقا وأخوها ميّت على الأرض ملقى^{٤١}
مُدْرَج في رثايت الأثواب^{٤٢}
فغدت فاطمُ ترنُّ رنينًا ببكاء أبكت به الواقفين
ثم قالت لهم مقالًا حزينًا أيها الواقفون هل ترحموننا
من مُصابٍ دها وأي مصابٍ؟!
أيها الواقفون لا تهملوه دونكم أدمعي بها فاغسلوه
ثم بالثوب ضافيًا كفنوه وادفنوه لكن بقلبي ادفنوه

^{٣٥} الحمام: الموت.

^{٣٦} ثكلته أمه: فقدته.

^{٣٧} غاله: أهلكه. الاقتضاب: الاقتطاع والانتزاع.

^{٣٨} وجمت: سكنت من كثرة الغم والحزن.

^{٣٩} صال: محترق.

^{٤٠} الصعاليك: الفقراء، مفردها صعلوك. الجنب: هو المكان القريب من محلة النوم.

^{٤١} ليس يرقا: لا يجف، وأصله يرقأ بالهمز فخفف.

^{٤٢} مدرج: مكفن. ورثايت الأثواب: البالي منها.

لا تواروا جبينه بالتراب
بعد أن ظلَّ لافتقاده المال وهو مُلقى إلى أوان الزوال
جاد شخص عليه بعد سؤال بريال وزاد نصفَ ريال
رجل حاضر من الأنجاب^{٤٣}
كفنوه من بعد ما تمَّ غسلاً وتمشوا به إلى القبر حملاً
فترى نعشه غداة استقلاً نعش مَنْ كان في الحياة مقلّاً^{٤٤}
دون ستر مكسّر الأجانب
ناحت الأخت حين سار وصاحت أختك اليوم لو قضت لاستراحت
ثم سارت مدهوشةً ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت^{٤٥}
تسكب الدمع أيما تسكاب
أيُّها الحاملوه لا مشي رَكُض إن هذا يوم الفراق المُمِضُّ^{٤٦}
فاسألوه عن قصده أين يمضي إنه قد قضى ولم يك يقضي
واجبات الصبا وشرخ الشباب^{٤٧}
إن قلبي على كريم السجايا طاح واللّه من أساه شظايا^{٤٨}
قاتل الله يا ابن أمّي المنايا أنا من قبلُ مُذْ حسبت الرزايا
لم يكن رزءٌ موتكم في حسابي
إن ليلي وليس من راقديه كلما جاءني وذكّرني^{٤٩}
قلت والدمع قائلٌ لي: إيه! يا فقيداً أعاتب الموت فيه^{٥٠}

^{٤٣} الأنجاب: جمع نجب، وهو السخي الكريم.

^{٤٤} استقل: ارتفع. مقلّاً: فقيراً.

^{٤٥} طاحت: سقطت.

^{٤٦} الممض: الموجد المؤلم.

^{٤٧} شرخ الشباب: أوله.

^{٤٨} طاح: معناها هنا ذهب. من أساه: من حزنه. شظايا: قطعاً، وهو جمع شظية، وتطلق على كل فلقه

من شيء.

^{٤٩} راقديه: النائمين فيه.

^{٥٠} إيه: كلمة يطلب بها استزادة الحديث.

ببكائي وهل يفيد عتابي؟!
رحتُ يومًا وقد مضت سنتان أتمشَّى بشارع «المَيْدان»
مَشْيَ حيرانَ خطوهُ مُتَدَانٍ أَثْقَلَتْهُ الْحَيَاةُ بِالْأَحْزَانِ^{٥١}
وسقته كأسًا كطعم الصاب^{٥٢}
بينما كنت هكذا أتمشَّى عرضتُ نظرة فأبصرتُ نعشا
باديًا للعيون غير مغشَّى نقش الفقر فيه للحنن نقشا
فبدا لوح أبؤس واكتئاب
قلتُ سرًّا، والنعش يقرب مني: أيها النعش أنت أنعشتَ حزني
للأسى فيك حالة ناسبتني إن بدا اليوم فيك حزن فإنني
أنا للحنن دائمًا ذو انتساب
رحتُ أسعى وراءه مذ تعدَّى مسرعًا في خطاي لم أَلْ جهدًا^{٥٣}
مع رجالٍ كأنجم النعش عدًّا هم به سائرون سيرًا مجدًّا^{٥٤}
فنراه يمر مرَّ السحاب
مذ لَحَدْنَا ذاك الدفين وعدنا قلت، والدمع بلّ مِنِّي رُدنا:٥٥
إن هذا هو الذي قد وعدنا فأبينوا مَنْ الذي قد لحدنا
فتصدَّى منهم فتى لجوابي
قال: إن الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقير
بقيت بعده بعيش عسير وبطرف باكٍ وقلب كسير
وقضت مثله بداء القلب
قلت: أقصِرْ عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيت والضراعة ثوبي ربِّ رحماك ربِّ رحماك ربي^{٥٦}

^{٥١} متدَانٍ: متقارب.

^{٥٢} الصاب: شجر مر.

^{٥٣} تعدى: تجاوز.

^{٥٤} أي: عدد حاملي النعش كعدد أنجم بنات نعش، وهي سبعة.

^{٥٥} الردن بضم الراء: أصل الكم.

^{٥٦} الضراعة ثوبي: أي وأنا لابس ثوب الضراعة.

رَبِّ رَشْدًا إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ
رَبِّ إِنْ الْعِبَادَ أضعَفَ أَنْ لَا يَجِدُوا مِنْكَ رَبًّا عَفْوًا وَفَضْلًا
فَاعْفُ عَنْ أَخْذِهِمْ وَإِنْ كَانَ عَدْلًا أَنْتَ يَا رَبُّ أَنْتَ بِالْعَفْوِ أَوْلَى
مِنْكَ بِالْأَخْذِ وَالْجَزَا وَالْعِقَابِ
قَدْ وَرَدْنَا وَالْأَرْضَ لِلْعِيشِ حَوْضُ وَاحِدٍ كُلْنَا لَنَا فِيهِ خَوْضُ
فَلِمَاذَا بِهِ مَشُوبٌ وَمَحْضُ؟ عِظَةُ حَكْمَةِ الْإِلَهِ، فَبَعْضُ^{٥٧}
فِي نَعِيمٍ وَبَعْضُنَا فِي عَذَابٍ
أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ كَمْ قَدْ ظَلَمْتُمْ نِعَمَ اللَّهِ حَيْثُ مَا إِنْ رَحِمْتُمْ
سَهَرَ الْبَائِسُونَ جَوْعًا وَنَمْتُمْ بِهِنَاءٍ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ طَعَمْتُمْ
مِنْ طَعَامٍ مَنْوَعٍ وَشَرَابٍ
كَمْ بَذَلْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي الْمَلَاهِي وَرَكِبْتُمْ بِهَا مَتُونَ السَّفَاهِ!
وَبَخَلْتُمْ مِنْهَا بِحَقِّ الْإِلَهِ أَيُّهَا الْمَوْسِرُونَ بَعْضُ انْتِبَاهِ!
أَفْتَدِرُونَ أَنْكُمْ فِي تَبَابٍ؟^{٥٨}

^{٥٧} مشوب: مخلوط. محض: خالص من الكدورة.

^{٥٨} التباب: الخسران.

تنبيه النيام

أما آن أن يغشى البلاد سعودها
متى يتأتى في القلوب انتباهها
أما أسدٌ يحمي البلادَ غضنفرٌ؟
برئتُ إلى الأحرار من شرٍّ أمّةٍ
سقى الله أرضاً أمحلت من أمانها
جرى الجور منها في بلادٍ وسيعه
ويذهب عن هذي النيام هجوُّها؟
فينجأَ عنها رَيْنُها وجموُّها؟^١
فقد عاثَ فيها بالمظالم سيِّدُها^٢
أسيرة حكام ثقال قيودها
وقد كان رُؤاد الأمان ترودها^٣
فضاقت على الأحرار ذرعاً حدودها

* * *

عجبتُ لقومٍ يخضعون لدولةٍ
وأعجب من ذا أنهم يرهبونُها
إذا وُلّيت أمرَ العباد طغاتها
وأصبح حرُّ النفس في كل وجهةٍ
وصارت لئام الناس تغلو كرامها
يسوسهم بالموبقات عميدُها
وأموالها منهم ومنهم جنودها
وساد على القوم السراة مَسودها
يُرْدُ مهاناً عن سبيل يريدها
وعاب لبيداً في النشيد بليدُها^٤

^١ الرين: ما غطى على القلب بحيث يحجب عنه رؤية الحقيقة.

^٢ عاث فيها: أفسدها. السيد الذئب.

^٣ الرواد: جمع رائد، وهو الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكاناً ينزلون فيه، يقال منه: راد المكان

يروده، يرتاده؛ بمعنى طلبه.

^٤ لبيد: عَلَمُ الشاعر المشهور.

فما أنت إلا أيُّها الموت نعمةٌ يعزُّ على أهل الحفاظ جحودها^٥

* * *

ألا إنما حرّية العيش عادةٌ منى كل نفسٍ وصلها ووفودها
يُضيء دجنات الحياة جبينها وتبدو المعالي حيث أطلع جيدها^٦
لقد واصلت قومًا وخلت وراءها أناسًا تمنى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا في انتظارها فما ضرّها، وا لهفتا! لو تعودها^٧

* * *

بني وطني ما لي أراكم صبرتم على نوب أعيا الحُصاة عديدها؟!
أما أدكم حمل الهوان فإنّه إذا حُمّلت الراسيات يؤدها؟!^٨
قعدتم عن السعي المؤدّي إلى العلا على حين يُزري بالرجال قعودها
ولم تأخذوا للأمر يومًا عتاده فجاءت أمورٌ ساء فيكم عتيدها^٩
ألم تروا الأقوام بالسعي خلّدت مآثر يستقصي الزمان خلودها
وساروا كرامًا رافلين إلى العلا بأثواب عزٍّ ليس يبلى جديدها

* * *

قد استحوذت، يا للخسار! عليكم شياطين إنس صال منكم مريدها^{١٠}

^٥ أهل الحفاظ: المحامون عن عوراتهم، والمدافعون دون أن يصل إليهم الضيم.

^٦ أطلع عنقه: مده متطاولًا.

^٧ تعودها: تزورها من عيادة المريض.

^٨ أدكم: أثقلكم. يؤدها: يثقلها.

^٩ العتاد: العدة لأمر ما تهيه وما أعد من سلاح ودواب وآلة حرب. العتيد: الحاضر المهيأ، يقول: لم تستعدوا للركي فيما مضى، فجاءكم يوم ساءكم فيه حاضرکم، ويعني بالحاضر ما كانت تقاسيه الأمة من جور الحكام واستبداد الطغاة، وهو يصلح لحالتنا الحاضرة أيضًا، ويكون حاضرنا السابق ماضيًا، وحريرتنا الآن حاضر لنا، فإنها جاءتنا على غير استعداد منا لها بما أفسده الظالمون من نفوسنا فأسأنا استعمالها ولم نحسن فهمها بسبب ما يوحيه المتقهقرون إلى زعانف القوم وما يثبونه في نفوسهم من الشرور، تارة باسم الوطنية، أصلح الله الأحوال وجعل كيد الرجعيين في ضلال.

^{١٠} المريد: الخبيث المتمرد الشرير.

تنبيه النيام

وما اتَّقَدَت نار الحميَّة منكمُ
ولولا اتحاد العنصرين لَمَا غدا
إذا جاهلٌ منكم مشى نحو سُبَّةٍ
كأنَّكم المعزَّى تهاوَيْنَ عندما
وما ثَلَّةٌ قد أهملتْها رُعاتها
فباتت ولا راعٍ يحامي مراحها
بأضيغ منكم حيث لا ذو شهامة
لغدا اتحاد فاستطال خمودها^{١١}
من النار يذكو لو علمتم وقودها
مشى جمعكم من غير قصدٍ يريدها^{١٢}
نزا فنزَتْ فوق الجبال عتودها^{١٣}
بمأسدةٍ جاعت لعشر أسودها^{١٤}
فرائس بين الضاريات تبيدها
يذب الرزايا عنكم ويذودها^{١٥}

* * *

أطمع هذي الناس أن تبلغ المنى
فهل لمعت في الجو شعلة بارق
وأدخنة النيران لولا اشتعالها
وإنَّ مياه الأرض تعذب ما جرت
ومَن رام في سوق المعالي تجارةً
ولم تور في يوم الصدام زنودها^{١٦}
وما ارتجست بين الغيوم رعودها؟^{١٧}
لما تمَّ في هذا الفضاء صعودها
ويفسدها فوق الصعيد ركودها
فليس سوى بيض المساعي نقودها

^{١١} أي إن نار حميتكم لم تتقد لأنكم لم تتحدوا، فإن اشتعال النار لا يكون إلا باتحاد العنصرين: الأكسجين والكربون.

^{١٢} السبة: العار.

^{١٣} نزا: وثب. العتود: الجدي الذي استكرش، أو هو ما رعى وقوي وأتى عليه حول؛ يريد بذلك أنه إذا قام قائم منا بأمر نتابعه عليه من غير أن نعلم ما هو ولا أن ندري أكانت عاقبته شرًا أم خيرًا؟

^{١٤} الثلة بفتح الثاء: الجماعة الكثيرة من الغنم، وأما الثلة بضم الثاء: فهي الجماعة من الناس. المأسدة: المكان الذي تكثر أو ترى فيه الأسود.

^{١٥} يذب: يدفع، ومثله يذود.

^{١٦} أورى الزند: أخرج ناره، والزند: العود الذي يقتدح به النار، والأسفل يقال له: زنده.

^{١٧} ارتجست السماء: رعدت، وارتجس البناء: رجف وتحرك حركة سمع لها صوت.

سوء المنقلب

بغدادُ حسبك رقدةٌ وسُباتٌ
ولَعْتُ بك الأحداثَ حتى أصبحت
قلبَ الزمانِ إليك ظهرَ مجنَّه
ومن العجائبُ أن يمسَّكُ ضره
إذ من دِيالَةٍ والفِراتِ ودجلةٍ
إن الحياةَ لفي ثلاثة أنهرٍ
قد ضلَّ أهلك رشدهم وهل اهتدى
قومٌ أضاعوا مجدهم وتفرَّقوا
لقد استهانوا العيشَ حتى أهملوا
يا صابرين على الأمور تسومهم
أوما تمضُّك هذه النكباتُ؟^١
أدواء خطبك ما لهنَّ أساةُ^٢
أفكان عندك للزمانِ تِراتُ؟^٣
من حيث ينفع لو رعتك رعاةُ^٤
أمست تحلُّ بأهلك الكربات
تجري وأرضك حولهنَّ موات
قومٌ أجاهلُهم هم السَّروَاتُ؟^٥
فتراهمُ جمعًا وهم أشتات
سعيًا مغبَّةً تركه الإعناتُ^٦
خسفًا على حين الرجالِ أباةُ^٧

^١ السبات: النوم. تمضك: توجعك.

^٢ الأحداث: النوازل. أدواء: جمع داء. أساة: أطباء.

^٣ المجن: الترس، وقلب له ظهر المجن: أي صارحه بالعدواة، ترات: عداوات، وهي جمع ترة.

^٤ رعاة: جمع راع.

^٥ السروات: السادة والرؤساء.

^٦ المغبة: العاقبة. الإعنات: الإذلال والإيقاع في الشدة وفي أمر يخاف منه.

^٧ سامه الخسف: أذله وأهانته. أباة: لا يرضون الضيم والإهانة.

لا تهملوا الضرر اليسير فإنه
فالنار تلهب من سقوط شرارة
لا تستنيموا للزمان توكلًا
فإلى متى تستهلكون حياتكم
تالله إن فعالكم بخلافه
أفتزعمون بأن تترك السعي في
إن صحّ نقلكم بذاك فبيّنوا
لم تلقّ عندكم الحياة كرامةً
شقيت بكم لَمَّا شقيتم أرضكم
وجهلتم النهج السويّ إلى العلا
بالعلم تنتظم البلاد فإنه
إن البلاد إذا تخاذل أهلها
تلك الرصافة والمياه تحفّها
سالت مياه الواديين جوارفًا
فتهاجم الماءان من ضفتيّهما
حتى إذا اتّصل الفرات بدجلة
زحفت جيوش السيل حتى أصبحت
فسقت بيوت الكرخ شرّ مُقييٍ

إن دام ضاقت دونه الفلوات^٨
والماء تجمع سيله القطرات
فالدهر نزاءً له وثبات^٩
فوضى وفيكم غفلةً وأناة^{١٠}
نزل الكتاب وجاءت الآيات^{١١}
هذي الحياة توكلٌ وثقاة؟^{١٢}
أو قام عندكم الدليل فهاتوا
في حالة فكأنكم أموات
فلها بكم ولكم بها غمرات^{١٣}
فترادفت منكم بها العثرات
لرقيّ كل مدينة مرقاةً
كانت منافعها هي الآفات
والكرخ قد ماجت به الأزمت
فطفحن والأسداد مؤتكلات^{١٤}
فتناطحا وتوالت الهجمات
وتساوت الوهّدت والربوات
بالكرخ نازلة لها ضوضاءُ
منها فقاعت أهلها الأبيات^{١٥}

^٨ الفلوات: الأراضي المتسعة.

^٩ نزاء: وثاب.

^{١٠} الأناة: الحلم.

^{١١} الفعال: بفتح الفاء، بمعنى الفعل.

^{١٢} الثقاة: التقوى.

^{١٣} الغمرات: الشدائد.

^{١٤} الأسداد: جمع سد. مؤتكلات: أكل بعضها بعضًا.

^{١٥} شبه الماء الداخل إلى البيوت بما يشربه الإنسان من المقيئات، فكما يخرج الإنسان ما في جوفه بعد شرب المقيء، فكذلك البيوت أخرجت ما فيها من السكان بعد دخول الماء.

واستنقعت فيها المياه فطحلت
حتى استحال الكرخ مشهد أبؤس
طرقاته مسدودةً ودياره
يا كرخ عزَّ على المروءة أنه
فلئن أماتتك السيول فإنما
بالمكث ترغو تحتها الحمات^{١٦}
تبكي به الفتیان والفتيات
مهدومةً وعِراضه قذرات
لجج المياه عليك مزدحمات
أواجهنَّ عليك ملتطمات

* * *

من مبلغ المنصور عن بغداده
أمست تناديه وتندب أربُعاً
وتقول: يا لأبي الخلائف لو ترى
لغدوت تنكرني وتبرح قائلًا
أين البروج بنيتهاً مشيدةً
أين الجنان بحيث تجري تحتها الـ
أترى أبو الأمناء يعلم بعده
لا دجلةً يا للرزية دجلةً
كان الفرات يمدُّ دجلةً مأؤه
إذ بين دجلة والفرات مصانع
يا نهر عيسى أين منك مواردُ
ماذا دهى نهر الرفيل من البلى
إذ قصر عيسى كان عند مصبه
خبراً تفيض لمثله العبراتُ
طمست رسوم جمالها الهبوات
أركان مجدي وهي منهدمات!^{١٧}
بتعجبٍ: ما هذه الخربات؟!
أين القصور علت بها الشرفات؟!
أنهارُ يانعة بها الثمرات؟!
بغداد كيف تروعها النكبات؟
بعد الرشيد ولا الفرات فرات
بداول تُسقى بها الجنات
تفتّر عن شنبٍ بها السنوات!^{١٨}
عذبت وأين رياضك الخضلات؟^{١٩}
حيث المجاري منه مندرسات؟!^{٢٠}
وعليه منه أطلَّت الغُرفات^{٢١}

^{١٦} طحلت: علاها الطحلِب وهي خضرة تعلو الماء المزمِن. الحمات: جمع حمأة وهي الطين الأسود؛ أراد بها جثث الذين لم يستطيعوا الخروج من البيوت.

^{١٧} يا لأبي الخلائف: هو نداء استغاثة.

^{١٨} المراد بالشنب هنا: الخصب، والري والشنب في الأصل: هو الماء والرقعة والبرد والعذوبة في الأسنان، ويقول: افتر المحبوب: بمعنى ضحك، وافتر عن أسنان كالبرد.

^{١٩} الخضلات: المروة.

^{٢٠} الرفيل: نهر يصب في دجلة بغداد.

^{٢١} قصر عيسى: هو قصر عظيم في بغداد وكان مبنياً على شاطئ نهر الرفيل.

أم أين بركة زُلزل وزَلالها السَل
 يا نهرَ طابَقَ لا عدمتك منهلاً
 أم أين كرخايا تمدُّ مياهاه
 أم أين نهر الملك حين تسلسلت
 قد كان تزدرع الحبوب بأرضه
 أم أين نهر بطاطيا تأتيه من
 وله فروع أصلهنَّ لشارع الـ
 تنمو الزروع بِسقيه فغلّاله
 لهفي على نهر المُعلّى إذ غدت
 نهر هو الفردوس تدخل منه في
 كالسيف مُنصّلاً تضاحك وجهه الـ
 إذ نَهر بين عند كلواذي به
 وبقربه من نهر بُوقِ دارة
 يا قصر باب التبر كنت مقرّناً
 أيّام تطلّعك العدالة شمسها
 أيّام تبصرك الحضارة في العلا
 أيّام تنشدك العلوم نشيدها
 أيّام تقصدك الأفاضل بالرجا
 أيّام يأتيك الشكّي بأمره
 تمضي الشهور عليك وهي أنيسة

سأل تسرح حوله الطّبيات^{٢٢}
 أين الصّراة تحفُّها الرّوضات؟^{٢٣}
 نهر الدجاج فتكثر الغلات؟
 فيه المياه وهنَّ مطّردات؟
 فتسحُّ فيه بفيضها البركات
 نهر الدجيل مياهاه المجراة؟
 كبش المجاري منه منتهيات
 كل العراق ببعضها يقتات
 لا تستبين جنانه النضرات
 قصر الخلافة شعبة وقناة
 أنوارٌ وهي عليه ملتمعات
 مُلد الغصون تهزّها النسّامات^{٢٤}
 تنفي الهموم مروجها الخضرات
 والنفي يصدر منك والإثبات^{٢٥}
 وترِفُ فوقك للهدى رايات
 بدرًا عليك من الثنا هالات
 فتعود منك على العلوم صلات
 فتفيض منك لهم جدًّا وهبات^{٢٦}
 فيروح عنك وما لديه شكاة
 وتمرُّ باسمه بك الساعات

^{٢٢} بركة زلزل: بركة في بغداد كان قد بناها رجل يقال له: زلزل، وكان مشهوراً بضرب العود حتى ضُربَ به المثل، وكان في أيام المهدي والهادي والرشد.

^{٢٣} نهر طابق: في بغداد يصب في نهر عيسى. الصراة: نهر على فرسخ من بغداد يأخذ من نهر عيسى.

^{٢٤} نهر بين: نهر بالعراق. كلواذي: قرية قرب بغداد. ملد: جمع أملد، وغصن أملد: ناعم.

^{٢٥} لعله باب التين بالنون: وهي محلة كبيرة كانت ببغداد على الخندق.

^{٢٦} الجدا: العطية.

ماذا دهاك من الهوان فأصبحت	آثار عزك وهي منطمسات؟!
قد ضيّعت بغداد سابق عزّها	وغدت تجيش بصدرها الحسرات
كم قد سقاها السيل من أنهارها	ضرّاً وهنّ منافع وحياة!
واليوم قلت: بجانبها أرخوا	دفق السيول، فماجت الأزمات

العادات

لهنَّ ينقاد في كل الإرادات
ينفكُّ عنهنَّ حتى في الملذات
حتى يرى في تعاطيه المسرات
تكون حاجاته إلا كثيرات
تعوّدي ما به تزداد حاجاتي
حتى تنال غناها بالمنيات
لما أسيغت بحال بنت حانات
قوم بوقت انفراد واجتماعات
ما عُدت الخمر أولى في البليّات

كلُّ ابن آدم مقهور بعادات
يجري عليهن فيما يبتغيه ولا
قد يستلذ الفتى ما اعتاد من ضرر
عادات كل امرئ تأبى عليه بأن
إني لفي أسر حاجاتي ومن عجب
كل الحياة افتقاراً لا يفارقها
لو لم تكن هذه العادات قاهرة
ولا رأيت سيكارات يدخنها
إن الدخان لثانٍ في البلاء إذا

* * *

في الكف وهي احتراق في الحشاشات^١
ألقي اصفراراً على بيض الثنيّات^٢
بل قد تفتت بفكيه الممرات

وربّ بيضاء قيد الأصبع احترقت
إن مرّ بين شفاه القوم أسودها
وليتها كان هذا حظّ شاربها

^١ أراد بالبيضاء: اللفافة من التبغ. وقيد الأصبع أي: مقداره.

^٢ الشفاه: جمع شفة، الثنيات والثنايا: هي أربع أسنان في مقدم الفم، اثنتان من فوق واثنتان من أسفل، ومفردتها ثنية.

وإنما أنا في تلك المصيبات
شربت لكن دخاناً من سيكاراتي
أحرقته ثوبِي منه بالشرارات
إياكمُ في التذانِ بالمُضِرَّات
إذ تشربون لهيباً ملء كاسات
يَسُمُّ من دمننا تلك الكريّات
إن كان لا بدّ من هذي الحماقات
لُمني أَلْمُكَ ولا ترضِ اعتذاراتي
على قلوبٍ لنا منهنَّ أَشتات
من العيون فنأتِي بالمداجاة
وإن علمناه من بعض المباحات
في زعمها وهي من أَجلى الشناعات
من الأثام نسيجاً من خرافات!
وشوّهوا وجه أحكام الديانات
عند النساءِ وإن كنَّ العفيفات
خافوا عليهنَّ من عار الجهّالات
مهما تفنّنتُ منها في عباراتي
في الناس منهنَّ آفاتٌ بأفات!
ما راجت الخمر في سوق التجارات
بين الورى وهو مطلوبٌ كأقوات
فوق احتقارٍ له أضعافٌ مرات
حتى يبيعه قيراطاً ببدرات^٢
يبلى به غيرٌ مثيرٍ ذي سفاهات

عوائد عمّت الدنيا مصائبها
إن كلّفتني السكارى شرب خمرتهم
واخترت أهون شرّاً بالدخان وإن
قلت: يا قوم تكفيكم مشاركتي
إنّي لأمتصُّ جمرًا لفّ في ورقٍ
كلاهما حُمُقٌ يفتّر عن ضررٍ
حسبي من الحُمُقِ المعتاد أهونه
يا مَنْ يدخّن مثلي كلّ آونةٍ
إن العوائد كالأغلال تجمعنا
مقيّدين بها نمشي على حذرٍ
قد ننكر الفعلَ لم تألفه عادتنا
وربّ شنعاء من عاداتنا حسنت
عناكبُ الجهل كم أَلقت بأدمغة
فحرّموا وأحلّوا حسب عاداتهم
حتى تراهم يرون العلم منقصة
وحجّبوهُنَّ خوف العار، ليتهمُ
لم تحصِ سيئة العادات مقدرتي
فكم لها بدعٌ سوّد قد اصطدمتُ
لو لم يك الدهرُ سوقاً راج باطلها
ولا استمرّ دخانُ التبغ منتشراً
لو استطعتُ جعلتُ التبغ محتكراً
وزدتُ أضعافاً أضعافٍ ضريبته
فيستريح فقير القوم منه ولا

* * *

^٢ البدرات: جمع بدرة، وهي عشرة آلاف درهم.

الْحُرُّ مَنْ خَرَقَ الْعَادَاتِ مَنِتْهَجًا نَهَجَ الصَّوَابِ وَلَوْ ضَدَّ الْجَمَاعَاتِ
وَمَنْ إِذَا خَذَلَ النَّاسُ الْحَقِيقَةَ عَنْ جَهْلٍ أَقَامَ لَهَا فِي النَّاسِ رَايَاتِ
وَلَمْ يَخَفْ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ لَائِمَةً وَلَوْ أَتَتْهُ بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ^٤
وَعَامَلَ النَّاسَ بِالْإِنْصَافِ مَدْرَعًا ثَوْبَ الْأَخْوَةِ مِنْ نَسَجِ الْمَسَاوَاةِ
أَغْبَى الْبَرِيَّةِ أَرْفَاهُمْ لِعَادَتِهِ وَأَعْقَلَ النَّاسَ خَرَّاقُ لِعَادَاتِهِ^٥

^٤ المشرفيات: السيوف.

^٥ أرفاهم: اسم تفضيل من قولهم: رفا الثوب.

بعد الدستور

سقوط كامل باشا

وغنّت لنا الدنيا تهنئنا عَزْفاً^١
فأهلاً بما زفت وشكراً لِمَنْ زَفّاً
وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا
ولا كحلت عيناً ولا خضبت كفاً
على الشّعْر أن لا يستطيع له وصفا
ولا غير شَنْفِ العدل في أذنها شنفاً^٢
وهل يكتسي الديباج مَنْ يكتسي العُرْفاً^٣
ونحن أناس نحسن النشر واللفاء
وقمنا على الأقدام صفّاً لها صفّاً^٤

سقتنا المعالي من سُلَافتها صرفاً
وزفّت لنا الدستور أحراراً جيشنا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرًا
ورحنا نَشَاوَى العزّ يهتف بعضنا
ولاحت لنا حُرِّيَّةُ العيش عندما
أتت عاطلاً لا يعرف الحلي جيدها
فجاءت بمطبوعٍ من الحسنِ قد قضى
فلم نرض غير العلم تاجاً لرأسها
ولم نكسُها إلا من العَرَفِ حُلَّةً
نشرنا لها منّا لفيفاً اشتياقنا
حللنا الحبي لما أتتنا كرامةً

^١ السلافة: أفضل الخمر، وهو ما تحلب وسال قبل العصر.

^٢ الشنف: هو ما يعلق في الأذن من الحلي.

^٣ العرف: المعروف.

^٤ اللفيف: المجموع، ويطلق على ما اجتمع من الناس من قبائل شتى.

^٥ الحبي: جمع حبة، وهي ما يحتبي به الرجل من عمامة أو ثوب.

عقدنا لها عقد اللّواء تعشُّقًا فكنا لها إلْفًا وكانت لنا إلْفًا
رفعنا لواء النصر يهفو أمامها ورحنا على صرف الزمان لها حِلْفًا
فلم ترَ غير الرفق فينا سجيَّةً وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفاً

* * *

تحمَّلَ أعباءَ الصَّدارة كاملٌ فناءَ به ما لم يخفَّ وما خفَّا
طوى كشحه منها على غير لطفها وأظهر من وجه الخِداع بها اللطفًا^٦
نحا أن يتمَّ الدست فيها لحزبه علينا وظنَّ الأمرَ فيما نحا يخفى^٧
وقد فاتته أنا أولو المعية بها نخطف الأسرار من قلبه خطفاً
وأنا نرى مَنْ قد تأبَّط شرَّه بعين تقدُّ الإبط أو تخلع الكتفاً
لنا فطنة ترمي الزمان بنورها فيبدو حجاب الغيب منه وقد شفاً^٨
رمانا بشزُر اللحظ مزور طُرْفِه فصحنا به أن غُضَّ يا كامل الطرُفاً
فما نحن بعد اليوم مهما تنوعت عناصرنا من أمة تحمل الخسفاً
مددنا إلى كف الإخاء أكفَّنا نصافحه شوقاً فمدَّ لنا الكفاً
فطاب لنا منه العِناق وضَمَّنا إليه فقبلناه من عينه إلْفًا
أدلاً وهذا العزُّ صرَّح سابغاً علينا إذن فالعز أن ندرك الحتفاً
إذا نحن قمنا مُحَنِّقين رأيتنا ندكَّ جبال الظلم ننسفها نسفاً
ونحن إذا ما الحرب أفنت جياننا قتالاً ركبنا الموت في حربنا طُرفاً^٩
تربَّع في صدر الوزارة كامل فخط من النقصان في وجهها حرفاً
وأنحى عليها بالجفاء مشتتاً نجاحاً بركنيها الركينين ملتفاً
لقد أغضب الدستور فعلاً ونية ومَنْ أعلنوا الدستور والشعب والصحفاً
قد استوضَّحوه الأمر والأمر واضحٌ فأعياءه إيضاحُ الحقيقة فاستعفى

^٦ طوى كشحه عنها: أي أعرض عنها.

^٧ الدست: الحيلة والخديعة، ويطلق على ما يكون فيه الغلب في الشطرنج.

^٨ شف الثوب: لم يحجب ما تحته.

^٩ الطرف: الكريم من الخيل.

رأى عذره أنَّ لم يطل سبكه زيفا
تمهَّل حينًا يكثر الخط والحذفا
ويحتاج للتفكير من موَّه الخلفا^{١٠}
فإياك أن تطغى وأن تثني العطف^{١١}
إلى المجد لا تلقى كلاً ولا ضعفا
لغير التجافي اختارك الشعب واستصفي
من العلم فاستمطر لها الدِّيمَ الوُطف^{١٢}
فحقَّق لها من طبِّ رأيك أن تشفى
ومثلك من راعي الدِّمام ومن وقى
أمامًا وقد خلَّت تقهقرها خلفا
فإن البلاءَ الجمَّ من حوله احتفًا
فلا أنبتت زرعًا ولا أشبعت ظلِّفا^{١٣}
به الماء يجفو أو به الماء قد جفًا^{١٤}
حكَّت شهداء «الطف» إذ نزلوا الطفا^{١٥}
على الذل إذ أمست قلوبهم غلِّفا
رُواقًا على هام الكواكب قد أوفى
يقاسون أهوالًا به تجدع الأنفا^{١٦}

ولم يطلب الإمهالَ إلا لأنه
كذلك مَنْ صاغ الكلام ملفَّقًا
ومَنْ قال حقًا قاله عن بديهة
فيا أيها «الصدر» الجديد اتَّعظ به
ويا مجلس النواب سِرَّ غير عاثر
ودع عنك مذموم التَّجافي فإنما
ألم ترَ أرجاء البلاد مَحولةً
بلاد جفاها الأمن فهي مريضة
فإن لأهلها عليك لزمة
وما أنت إلا أمة قد تقدمت
ولا تنس مغبرَّ العراق وأهله
فدجلة أمست كالذُّجيل شحيحة
وإن «الفرات» العذب أمسى مرنِّقا
سَلَّ «الحلَّة» الفيحاء عنه فإنها
فيا ويل قوم في العراق قد انطووا
ولم يذكروا مجدًا لهم كان ضاربًا
وكانوا به شَمَّ العرانيين فاغتدوا

^{١٠} الخلف: هو أن تعد عدة ولا تنجزها.

^{١١} أراد بالصدر الجديد: حسين حلمي باشا. العطف: الجانب، وثني العطف: كناية عن الإعراض والجفاء.

^{١٢} محولة: مجدبة لا مرعى فيها ولا كلاً. الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون، بلا رعد ولا برق. الوطف: جمع وطفاء، وهي السحابة المسترخية لكثرة مائها.

^{١٣} الدجيل: شعبة من نهر دجلة.

^{١٤} مرنقًا: مكدراً غير صافٍ.

^{١٥} الحلّة: قرية في طف دجيل بغداد. الطف: أرض من ضاحية الكوفة وفيها قتل الحسين بن علي عليه السلام.

^{١٦} العرانيين: جمع عرنين، وهو الأنف.

يَرْجُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ رَجَاءَهُمْ وَمَنْ يَحْمِلُ الدَّبَّوسَ أَوْ يَضْرِبُ الدُّفَّ^{١٧}

^{١٧} يشير بهذا البيت إلى قوم تركوا النصوص الشرعية القاضية بالسعي والاعتماد على النفس، ولجئوا في طلب الخير والنصر إلى الأموات أو الدجالين الذين يحملون الدبابيس، ويضربون الدفوف والمزاهر؛ ادعاء أنهم من أهل البيت وخيرة رجاله، وما هم إلا أهل لهو وبطالة.

إيقاظ الرقود

إلى كم أنت تهتف بالنشيد وقد أعياك إيقاظ الرقود؟!
فلست وإن شددت عرى القصيد بمُجدٍ في نشيدك أو مفيد
لأن القوم في غيٍّ بعيد
إذا أيقظتَهم زادوا رقادا وإن أنهضتهم قعدوا وثادا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خُلِقوا جَمادا!
وهل يخلو الجَماد عن الجمود
أطلت وكاد يُعييني الكلامُ مَلَامًا دون وقعته الحسامُ
فما انتبهوا ولا نفع الملام كأنَّ القومَ أطفال نيام
تَهَزُّ من الجهالة في مهود
إليك إليك يا بغدادُ عني فإني لستُ منك ولستُ مني
ولكنني وإن كُبر التجني يعزُّ عليَّ يا بغدادُ أنني
أراك على شفا هولٍ شديد
تتابعَت الخطوبُ عليك تترى وبُدِّلَ منك حُلُو العيش مُرًّا
فهلاً تُنجِبين فتى أغرًا؟ أراكِ عقمَتِ لا تلدين حُرًّا
وكنْتَ لمثله أذكى ولود
أقام الجهل فيك له شهودا وسامِكِ بالهوان له السُّجودا
متى تُبدين منك له جحودا فهلاً عدتِ ذاكرةً عهدا
بهن رَشَدَتْ أيام الرشيد؟

زَمَانٌ نَفُوذٌ حَكَمَكَ مُسْتَمِرٌّ زَمَانٌ سَحَابٌ فَيُضِكُ مُسْتَدِرٌّ
زَمَانُ الْعِلْمِ أَنْتَ لَهُ مَقَرٌّ زَمَانُ بِنَاءٍ عَزَكَ مُشْمَخِرٌّ
وَبَدْرٌ عَلَكَ فِي سَعْدِ السَّعُودِ
بَرَحَتِ الْأَوَجُ مِيلًا لِلْحَضِيضِ وَضَقْتَ وَكُنْتَ ذَاتَ غُلَا عَرِيضِ
وَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي جِسْمٍ مَرِيضِ وَكُنْتَ بِأَوَجِهِ لِلْعَزِّ بِيضِ
فَصَرْتَ بِأَوَجِهِ لِلذَّلِّ سُودِ
تَرْقَى الْعَالَمُونَ وَقَدْ هَبَطْنَا وَفِي دَرَكِ الْهَوَانِ قَدْ انْحَطَطْنَا
وَعَنْ سَنَنِ الْحَضَارَةِ قَدْ شَحَطْنَا فَقَطْنَا يَا بَنِي بَغْدَادِ قَطْنَا!^١
إِلَى كَمْ نَحْنُ فِي عَيْشِ الْقُرُودِ؟!
أَلَمْ تَكُ قَبْلَنَا الْأَجْدَادُ تَبْنِي بِنَاءً لِلْعُلُومِ بِكُلِّ فَنٍّ؟
لِمَاذَا نَحْنُ يَا أَسْرَى التَّائِي أَخَذْنَا بِالتَّقْهَرِ وَالتَّدْنِي؟!
وَصَرْنَا عَاجِزِينَ عَنِ الصَّعُودِ
كَأَنَّ زُحْلًا يَشَاهِدُ مَا لَدَيْنَا لِذَاكَ أَحْمَرٌ مِنْ حَنْقِ عَلَيْنَا
فَقَالَ مُوجِّهًا لَوْمًا إِلَيْنَا: لَوْ أَنِّي مِثْلَكُمْ أَمْسَيْتُ هَيْنَا
إِذْنًا لِنُضَوْتُ جَلِبَابَ الْوُجُودِ
رَكَدْتُمْ فِي الْجِهَالَةِ وَهِيَ تَمْشِي وَعِشْتُمْ كَالْوَحُوشِ أَحْسَ عَيْشِ
أَمَّا فَيْكُمْ فَتَى لِلْعَزِّ يَمْشِي؟! تَبَارَكَ مَنْ أَدَارَ بَنَاتِ نَعَشِ!^٢
وَصَفَّدَكُمْ بِأَصْفَادِ الرُّكُودِ
حَكَيْتُمْ فِي تَوْقُفِكُمْ جُدِيًّا فَصَرْتُمْ كَالسَّهَاءِ شَعْبًا خَفِيًّا^٣
أَلَا تَجْرُونَ فِي مَجْرَى الثَّرِيَّا تَوْمٌ بِدَوْرَهَا فَلَكَا قَصِيًّا؟
فَتَبَرَّزَ مِنْهُ فِي وَضْعٍ جَدِيدِ

* * *

^١ شحطنا: بعدنا. قطنا: حاسبنا وكافينا.

^٢ بنات نعش قسمان: كبرى وصغرى، وكل منهما سبعة كواكب، أربعة نعش وثلاثة بنات.

^٣ الجدي: أحد البروج الاثني عشر وأصله غير مصغر. السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته.

حكومة شعبنا جارتُ وصارتُ علينا تستبدُّ بما أشارت
 فلا أحدًا دعتَه ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
 فبشَّرها بتمزيق الجدود
 حكومتنا تميلُ لباحسيها مُجَانِبَةً طريقَ مؤسَّسيها
 فلا يَغْرُزُكَ لِينُ مُلابسيها فهم كالنار تحرقُ لامسيها
 وتحسُنُ للنواظر من بعيدٍ
 لقد غَصَّ «القصيم» بكل نذلٍ وأمسى من تخاصمهم بشغلٍ^٤
 فريقًا خُطَّتِي غِيٌّ وجهل كلا الخصمين ليس له بأهلٍ
 ولكن مَنْ لَتَنكِيل المريد^٥
 إليهم أرسلت بغدادُ جُنْدًا ليهلك فيه من عبثٍ ويُفدى
 لقصدي ابن الرشيد أضاع قصداً فلا يا ابن الرشيدِ بلغتِ رُشدا
 ولا بلغ السعودُ ابنُ السعودِ
 مشوا يتحركون بعزمٍ ساكنٍ ورثتهُ حالهم تبكي الأماكنُ
 وقد تركوا الحلائلَ في المساكنِ جنود أرسلت للموت لكن
 بفتك الجوع لا فتك الحديد
 قد التفَعُّوا بأسمالٍ بوالٍ مُشاةً في السهول وفي الجبال
 يُجَدُّون المسيرَ بلا نِعالٍ بحالٍ للنواظر غير حالٍ
 وزِيٍّ غيرِ ما زِيَّ الجنودِ
 مشوا في منهجٍ جهلوه نهجا يجوبون الفلا فجًّا ففجًّا^٦
 إلى حيثُ السَّلامة لا ترجى فيا لهفي على الشَّبَّانِ تزجى^٧
 على عبثٍ إلى الموت المبيدِ!
 وكلُّ مُذْ غدوا للبيتِ أَمَّا فودَّعَ أهله زوجًا وأما^٨

^٤ القصيم: اسم محل.

^٥ المريد: بفتح الميم، هو الخبيث المتمرد الشرير.

^٦ فجًّا ففجًّا: أي طريقًا فطريقًا، وأصل الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

^٧ تزجى: تدفع.

^٨ أَمَّا: قصد.

وضمَّ وليدَه بيِدٍ وشمًّا بكى الولد الوحيدُ عليه لمَّا
غدا يبكي على الولد الوحيدِ
تقول له الحليَّةُ وهو ماشٍ: رُويدًا لا برحت أخا انتعاش!
فبعذك مَنْ يحصِّل لي معاشي؟! فقال، ودمعه بادي الرشاش:
وكلتكمُ إلى الربِّ الوُدودِ
عساكر قد قضوا عُريًا وجوعا بحيثُ الأرضُ تبتلع الجموعا
إلى أن صار أغناهم ربوعا لِفِرط الجوع مرتضيًا قنوعا
بِقَدِّ لو أصاب من الجلودِ^٩
هناك قضوا وما فتحوا بلادا هناك بأسرهم نفدوا نفادا
هناك بحيرةٍ عديموا الرشادا هناك لَرِوعهم فقدوا الرقادا
هناك عرُّوا هناك من البرودِ
أناديهم ولي شجنٌ مهيجٌ وأذكرهم فينبعثُ النشيج
ودمعٌ محاجري بدمٍ مزيجٌ ألا يا هالكين لكم أجيج^{١٠}
ذكا بحشايٍ محتدمٍ الوقودِ
سكنًا عن جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمَّر ما استطاعا
فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا
تولى أمرها عبدُ الحميد
أيا حرية الصحف ارحمينا فإنَّا لم نزل لك عاشقينَا
متى تصلين كيما تطلقينا عدينا في وصالِكِ وامطينَا
فإننا منك نقنعُ بالوعودِ
فأنت الروحُ تشفينَ الجروحا يُحرِّجُ فقدك البلدَ الفسيحا
وليس لبلدةٍ لم تحوِ روحا وإن حوت القصور أو الصروحا
حياةٌ تُستفاد لمستفيد^{١١}

^٩ القد: بكسر القاف، هو القطعة من الجلد غير المدبوغ والنعل الذي لم يجرد عن الشعر.

^{١٠} الأجيح: الالتهاب.

^{١١} حياة مرفوع بليس؛ لأنه اسمها، وخبرها الجار والمجرور «لبلدة».

أقول، وليس بعضُ القولِ جدًّا لسلطانِ تجبّر واستبدا
تعدّي في الأمور وما استعدًّا ألا يا أيها الملكُ المفدّي
وَمَنْ لولاهُ لم نكُ في الوجود
أَنْمَ عن أن تسوسَ الملكَ طرفا أقم ما تشتهي زمراً وعزفا
أَطْلُ نَكَرَ الرعية، خلّ عُرْفا سُمِ البلدانُ مهما شئتَ خسفا
وأرسلَ مَنْ تشاءُ إلى اللحدِ
فَدَتَكَ الناسَ من ملكٍ مُطاعٍ أبْنِ ما شئتَ من طُرُقِ ابتداعِ
ولا تخشَ الإلهَ ولا تراعِ فهل هذي البلادُ سوى ضياعِ
ملكْتِ، أو العبادُ سوى عبيدِ؟
تنعمُ في قصورك غير دارٍ أعاشِ الناسُ أم هم في بوارٍ؟
فإنك لن تطالبِ باعتذارٍ وهبْ أن الممالكَ في دمارٍ
أليس بناء «يلدن» بالمشيد؟!
جميع ملوك هذي الأرضِ فُلُكُ وأنتِ البحرُ فيك نَدَى وهُلُكُ
فأنّي يبلغوك وذاك إِفْكُ؟! لئن وهبوا النَقودَ فأنتِ ملكُ
وهوْبُ للبلادِ وللنقودِ

الصديق المضاع

أفي سفر قد كنت أم كنت لاهيا؟
فكيف علينا قد أطلت التجافيا؟!
بعيدًا عن الخلان تأبى التدانيا؟
فإني أرى حُزنًا بوجهك باديا
تديران لحظًا يحمل الحزنَ وإنيا؟
به بعد أن قد كنت أحمر قانيا؟
عهدتك غريِّدًا بشعرك شاديا
بما ناب من صرف الزمان مباليا
سحابة صيف لا تدوم ثوانيا

علامَ حُرْمنا منذُ حين تلاقيا
عهدناك لا تلهو عن الخِلِّ ساعة
وما لي أراك اليوم وحدك جالسًا
أنابك خطبٌ أم عراكَ تعشُّق؟
وما بالُ عينيك اللتين أراهما
وأئي جوى قد عُدت أصفر فاقعًا
تكلمَّ فما هذا الوجومُ فإنني
تجلَّدَ تجلَّدُ يا «سليم» ولا تكن
ولا تبتئس بالدهر إن خطوبه

* * *

تنائرن حتى خِلتهنَّ لآليا
وذُكِّرتني ما كنت بالأمس ناسيا
قريعُ تباريحٍ نُشيب النواصيا^١
ترحلت عنها لا عليَّ ولا ليا

فقال ولم يملك بوادِر أدمع
لقد هَجَّتني يا أحمدُ اليوم بالأسى
أتعجب من حزني وتعلم أنني
لقد عشتُ في الدنيا أسيفًا وليتني

^١ القريع: الغالب في المقارعة.

وقد كنت أشكو الكاشحين من العدا
وما رحْتُ أَسْتَشْفِي القلوبَ مداويا
وداريتُ حتى قيلَ لي: متملِّقٌ
وحتى دعاني الحزمُ أن خلَّ عنهمُ
ورُبَّ أخٍ أوقرتُ قلبي بحبه
أراد انقيادي للهوان وما درى
إذا ما سمائي جاد بالذل غيْثها
ألا فابكِ يا أحمدُ اليوم رحمةً
فإنَّ أحقَّ الناس بالرحمة امرؤ
وما كان حظِّي وهو في الشعر ضاحكٌ
ركبتُ بحورَ الشعر رَهْواً ومالجاً
وسيرتُ سَفْني في طِلاب فنونه
وقلتُ: اعصني يا شعرُ في المدح إنني
ولو رضيت نفسي بأمر يشينها
وكم قام ينعي حين أنشدت مادحاً
وكم بشرتني بالوفاء مقالة

فأصبحت من جور الأخلاء شاكياً^٢
من الحقد إلا عُدْتُ عنها كما هيا
وما كان من داءِ التملُّق دائياً
فإن صريح الرأي ألا تداريا
فكنتُ على قلبي بحبِّه جانياً^٣
بأنِّي حرَّ النفس صعبُ قياديا
أبيتُ عليها أن تكون سمائيا
ودعني وشأني والأسى وفؤاديا
أضاع وداداً عند مَنْ ليس وافيا
ليظهر إلا في سوى الشعر باكيا
وأقحمتُ منها كلَّ هولٍ يراعياءُ
وألقيتُ في غير المديح المراسيا
أرى الناس مَوْتى تستحق المراثيا
لما نطقت بالشعر إلا أهاجيا
إليَّ الندى ناعٍ فأنشدت راثياً!^٤
فلما انتهت للفعل كانت مناعيا!

* * *

فلماً بكى أمسكتُ فضل ردائه
وقلت له: هوّن عليك فإنما
وكفكفتُ دمعاً فوق خديّهِ جارياً^٥
تنوبُ دواهي الدهر مَنْ كان داهياً^٦

^٢ الكاشح: العدو الباطن العداوة.

^٣ أوقرت: أثقلت.

^٤ الرهو: السير السهل. أقحمت يراعي: قذفته وأدخلته بشدة.

^٥ الندى: الكرم، يقول: إذا أنشدت مادحاً قام الناعي ينعي إليّ الكرم؛ أي: يخبرني بموته، فأبدلت الرثاء

بمدحي.

^٦ الفضل: الزيادة، وفضل الرداء: يريد به طرفه.

^٧ تنوب: تصيب. الداهي: العاقل، وصاحب الرأي الجيد. يقول: إن المصائب لا تصيب إلا العقلاء.

من الناس لم يجنوا لك الوُدَّ صافيا
فكنت الفتى الأعلى وكانوا الأدانيا
فقد يشكر الإنسان ما كان شاكيا
يجرُّ تجافينا إلينا التصافيا
لرُحنا من الطوفان نشكو الغواديا^٨
نجومٌ بأفلاكٍ لهنَّ جواريا
إذا هي في الإثبات لم تَلُقْ نافيا
ويحيينَ ما دام التباين باقيا
ألم تر في الكون التنافر ساريا؟!
ألم تغنَّ عنهم أن ملكت القوافيا؟
وأطلع لنا فيها النجوم الدَّاريا
فتبدو وإن أرخصتَهنَّ غواليا
وتأتيك طوعًا إن دعوت العواصيا
فشدَّ بها قلبًا من الوجد هافيا؛^٩
فداويت لي سُقمًا وهيَّجت ثانيا
أمنِّي لهم مما أحبُّ الأمانيا
أطاولُ في العز الجبال الرواسيا
وإن كنت عنهم نازح الدارِ نائيا
إذا لم أكن للقوم في النفع ساعيا
ولكنَّ نُصحَ القوم جُلُّ مَراميا
تُنشِطُ كسلانًا وتُنهِضُ ثاويا
ولكنَّ سريَّ القوم من كان هاديا
ومن أيَّ طُرُقٍ يبتغون المعاليا
وجددَ رشدًا عندهم كان باليا

وما ضرَّ إن أصفيت ودَّك معشرًا
كفى مفخرًا أن قد وفيت ولم يفوا
لعلَّ الذي أشجاك يُعقب راحة
ألا ربَّ شرٍّ جرَّ خيرًا وربما
فلو أن ماء البحر لم يك مالحًا
ولولا اختلاف الجذب والدفع لم تكن
وكيف نرى للكهرباء ظواهرًا
تموت القوى إن لم تكن في تباين
فلا تعجبن من أننا في تنافرٍ
وهبهم جفوك اليوم بخلًا بودهم
فطر في سموات القريض مُرفرفًا
فأنت امرؤ تُعطي القوافي حقها
يجيبك عفواً إن أمرت شرودها
فقال، وقد ألقى على الصدر كفَّهُ
لقد جئتني بالقول رطبًا ويابسًا
فإني وإن أبدى لي القوم جفوةً
وما أنا عن قومي غنيًا وإن أكن
إذا ناب قومي حادث الدهر نابني
وما ينفعُ الشعرُ الذي أنا قائلُ
ولستُ على شعري أرومٌ مَثُوبَةٌ
وما الشعرُ إلا أن يكون نصيحةً
وليس سريَّ القوم من كان شاعرًا
فعلمهم كيف التقدم في العُلا
وأبلى جديد الغيِّ منهم برشده

^٨ الغوادي: السحب المطرة صباحًا.

^٩ هافيًا: مضطربًا.

وسافر عنهم رائدًا خصب نفعمهم يشقُّ الطوامي أو يجوب المواميا^{١٠}
وإن أفسدتهم خطَّة قام مصلحًا وإن لدغتهم فِتنة قام راقيا^{١١}

^{١٠} رائدًا: طالبًا. الطوامي: أراد بها البحار، وأصلها من طما الماء والبحر؛ أي امتلأ. يجوب: يقطع.
الموامي: جمع مومة، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
^{١١} الراقي: هو الذي يقرأ وينفث؛ دفعًا لأذية اللدغ.

بعد البين

طوائحُ جاءت بالخطوب تباعا
سوى حبّها عند البراح متاعا
أمضّته فيها الحادثات قِراعا
لعزّها عليها أن أكون مُضاعا
لأشكرها أن لم تُتمّ رِضاعا
نهضتُ خِصامًا دونها ودفاعا
فلم تبدِ إصغاءً لها وسماعا
تخذتُ بها السيف الجُراز يِراعا^١
على الحِقد صاعًا بالعداءِ فصاعا
طبّاعُ المعالي أن تسوءَ طبّاعا
وتأبى الضواري أن تكون ضباعا
فلم يُجدِ نفعًا ما أتيت وِضاعا
لبيبُ يُداري في نُهاه رِعا
ونزّهت شِعري أن يكون قِذاعا^٢

لقد طوّحتني في البلاد مُضاعا
فبارحتُ أرضًا ما ملأتُ حقائبِي
عَتَبْتُ على بغداد عَتَبَ موَدِّع
أضاعتني الأيام فيها ولو دَرَّتْ
لقد أرضعتني كلَّ خَسَفٍ وإنّني
وما أنا بالجاني عليها وإنّما
وأعملتُ أقلامي بها عَرَبِيَّةً
ولو كنت أدري أنها أعجمية
ولو شئتُ كailتُ الذين انطَوُوا بها
ولكن هي النفس التي قد أبّت لها
أبيت عليهم أن أكون بذلّةً
على أنني داريتُ ما شاء حقدهم
وأشقى الورى نفسًا وأضيعهم نُهىً
تركت من الشعر المديح لأهله

^١ الجراز: القاطع.

^٢ قِذاعا: سفاهة ومشاتمة.

وأنشدته يجلو الحقيقة بالنهي ويكشف عن وجه الصواب قناعاً
وأرسلته عفواً فجاء كما ترى قوافي تجتاب البلاد سراعاً

* * *

وقفت غداة البين في الكرخ وقفةً لها كربت نفسي تطير شعاعاً^٢
أودع أصحابي وهم محدقون بي وقد ضقت بالبين المشتت ذراعاً
أودعهم في الكرخ والطرف مرسل إلى الجانب الشرقي منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مطرقاً كأن برأسي يا أميم صُداً^٣
وكنت أظن البين سهلاً فمذ أتى شرى البين مني ما أراد وباعاً
وإني جبانٌ في فراق أحبتي وإن كنت في غير الفراق شجاعاً
كأنني وقد جدَّ الفراق سفينةً أشالت على الريح الهجوم شراعاً^٤
فمالت بها الأرواح والبحر مائجٌ وقد أوشكت ألواحها تتداعى^٥
فتحسبني من هزةٍ في أفعاً ترقى هضاباً زلزلت وقلاعاً^٦
فما أنا إلا قومة وانحناءة وسرُّ أذاعتها الدموع فذاعاً
رعى الله قوماً بالرصافة كلما تذكرتهم زاد الفؤاد نزاعاً^٧
أبيت، وما أقوى الهجوم! بمضجع تصارعني فيه الهموم صراعاً
والهو بذكرهم على السير كلما هبطت وهاداً أو علوت يفاعاً^٨
هم القوم أما الصبر عنهم فقد عصى وأما اشتياقي نحوهم فأطاعاً
لقد حكُموني في الأمور فلم أكن لأنطق إلا أمراً ومطاعاً

^٢ كربت: كادت.

^٤ أدم: أسند. أميم: أصلها أميمة، وهي تصغير أم؛ وحذفت تأؤها لأنها منادى مرخم.

^٥ أشالت: رفعت.

^٦ الأرواح: جمع ريح.

^٧ الأفع: المعوج المفاصل كأنها قد زالت عن مواضعها، وهذا أقرب معانيه إلى مقصد الشاعر.

^٨ الرصافة: محلة في بغداد، ينسب إليها صاحب الديوان.

^٩ اليفاع: المرتفع من الأرض.

فلسْتُ أبا لي بعد أن جدَّ بينهم
سلام على وادي السلام وإنني
له الله من وادٍ تكاسل أهله
رأهم عبيدًا فاستبدَّ بمائه
جرى شاكراً صنع الطبيعة إنَّها
وما أنس لا أنس المياة بدجلة
ولو أنَّها تسقي العراق لما رمت
وما وجدت ريح وإن قد تناوحت
سأجري عليها الدمع غير مضيع
وأذكر هاتيك الرباع بحسنها

زجرت كلاباً أم قحمت سباعاً^{١٠}
لأجعل تسليمي عليه وداعاً
فباتوا عطاشاً حوله وجياعاً
ولم يجد بين المجذبات مشاعاً
أبانت يدًا في جانبيه صناعاً
وإن هي تجري في العراق ضياعاً
به الشمس إلا في الجنان شعاعاً
مهباً به إلا قرى وضياعاً
وأندب قاعاً من هناك فقاعاً
فنعمت على شحط المزار رباعاً^{١١}

^{١٠} بينهم: بعدهم. قحمت المفازة: دخلها وطواها غير مبالٍ بها.

^{١١} الرباع: جمع ربع، شحط: بعد.

يقولون

يصدُّ ذويه عن طريق التقدُّم!
أوائله في عهدها المتقدِّم؟!
فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟
وهل أمّة سادت بغير التعلُّم
بصائر أقوام عن المجد نُوم
حُبّاه وأبدت منظر المتبسِّم^١
على وجه عصر بالجهالة مظلم^٢
وقوّض أطناب الضلال المخيم
لأهليه مجدًّا ليس بالمتهدِّم
فطارت بأفكار على المجد حُوم
نهوضًا إلى العلياء من كل مجثم
وساروا بنهج للحضارة معلم
كزعزع ريح أو كتيار عيِّلم
بأسرع من رفع اليدين إلى الفم

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه
فإن كان ذا حقًّا فكيف تقدمت
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله
هل العلم في الإسلام إلا فريضة
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعُلا
وحلّت له الأيام عند قيامه
فأشرق نور العلم من حَجَراته
ودك حصون الجاهلية بالهدى
وأنشط بالعلم العزائم وابتنى
وأطلق أذهان الورى من قيودها
وفك إसार القوم حتى تحفzوا
فخلّوا طريقًا للبداوة مَجْهَلًا
فدوّت بمستنّ العلا نهضاتهم
وعمّا قليل طبّق الأرض حكمهم

^١ قوله حُبّاه: جمع حيوة وهي ما يحتبي به الرجل من عمامة أو ثوب.

^٢ قوله: من حجراته بفتحتين: أي من نواحيه، جمع حَجْرة، وهي الناحية.

تَلَأَلُوْا بَرَقَ الْعَارِضِ الْمُتَهَزِّمِ
بِهَا عَنْ بَنِي الدُّنْيَا شُكُوكَ التَّوَهُّمِ
عَلَى مِثْلِهِ مِمَّنْ لَأَدَمَ يَنْتَمِي
وَلَا عَرَبِيٌّ بَعْضُهُ فَضْلٌ أَعْجَمِ
وَلَا فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقَى وَالتَّكْرُمِ
صَلَاةٌ مُّصَلٍّ أَوْ عَلَى صَوْمِ صَيِّمِ
يُؤَدِّي مِنَ الْحَسَنِ إِلَى نَيْلِ مَغْنَمِ
وَمَا خَصَتْ التَّقْوَى بِتَرْكِ الْمَحْرَمِ
يَكُونُ عَثَارًا فِي طَرِيقِ التَّقَدُّمِ
فَأَيُّ ارْتِقَاءٍ بَعْدُ أَمْ أَيُّ سُلْمٍ!
رُويْدًا فَقَدْ فَارَقْتُمْ كُلَّ مَأْتَمِ
لَأُظْهِرَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
لِنُبْدِي إِلَيْكُمْ جَفْوَةَ الْمُتَهَكِّمِ
وَتِلْكَ لَعَمْرِي شِيْمَةُ الْمُتَحَلِّمِ
كَشَفْتُمْ لَنَا عَنْ مَنْظَرِ مُتَجَهِّمِ
كَمَا هِيَ إِذْ أَوْدَتْ بِعَادٍ وَجُرْهُمِ

وَقَدْ حَاكَتِ الْأَفْكَارُ عِنْدَ اصْطِدَامِهَا
وَلَا حَتَّ تَبَاشِيرِ الْحَقَائِقِ فَانْجَلَتْ
وَمَا تَرَكَ الْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ مِيزَةً
فَلَيْسَ لِمُتَرِّقِ نَقْصِهِ حَقٌّ مُعْذِرِ
وَلَا فُخْرٌ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِسَعْيِهِ
وَلَيْسَ التَّقَى فِي الدِّينِ مَقْصُورَةٌ عَلَى
وَلَكِنَّهَا تَرَكَ الْقَبِيحَ وَفَعَلَ مَا
فَتَقَوَّى الْفَتَى مَسْعَاهُ فِي طَلَبِ الْعِلَا
فَهَلْ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ يَا لِأُولَى النِّهَى
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا إِلَى الْمَجْدِ سُلْمًا
أَلَا قَلِيلٌ لِمَنْ جَارُوا عَلَيْنَا بِحُكْمِهِمْ:
فَلَا تَنْكُرُوا شَمْسَ الْحَقِيقَةِ إِنَّهَا
عَلَوْنَا وَكُنْتُمْ سَافِلِينَ فَلَمْ نَكُنْ
وَلَمْ نَتَرَكَ الْحَسَنَى أَوْ أَنَّ جِدَالَكُمْ
فَلَمَّا اسْتَدَارَ الدَّهْرُ بِالْأَمْرِ نَحْوَكُمْ
فَلَا تَأْمَنُوا الْأَيَّامَ إِنَّ صُرُوفَهَا

في سبيل الوطن

إلى إخواننا المسيحيين

فَيُبْنَى عَلَى أَسِّ الْمُواخَاةِ بُنْيَانُ؟
فَتَكْسَبَ عِزًّا بِالتَّنَاصُرِ أَوْطَانُ؟
وَإِنَّ التَّعَادِي فِي الدِّيَانَةِ عُدْوَانُ
فَتَعْمُرَ بُلْدَانُ وَتَأْمَنَ قُطَّانُ
فَمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ تَعَدَّدَ أَدْيَانُ؟
لِسَانُ وَأَوْطَانُ وَبِاللَّهِ إِيْمَانُ
بِهَا قَالَ إِنْجِيلُ كَمَا قَالَ قُرْآنُ؟
عَلَى رُسُلِهِ إِلَّا لِيَسْعِدَ إِنْسَانُ
فَدَعَوَاهُ فِي أَصْلِ الدِّيَانَةِ بَهْتَانُ
إِذْ فَاتَّبَعَ الدِّينَ يَا قَوْمُ خُسْرَانُ
إِلَى كُلِّ قَوْلٍ لَمْ يُؤَيِّدْهُ بَرَهَانُ
تَخَبَّطَهُ مِنْ شِدَّةِ الْمَسِّ شَيْطَانُ

أَمَا أَنْ أَنْ تَنْسَى مِنَ الْقَوْمِ أَضْغَانُ
أَمَا أَنْ أَنْ يُرْمَى التَّخَاذُلُ جَانِبًا
عَلَامَ التَّعَادِي لِاخْتِلَافِ دِيَانَةٍ؟
وَمَا ضَرُّ لَوْ كَانَ التَّعَاوُنُ دِينَنَا
إِذَا جَمَعْتَنَا وَحْدَةً وَطَنِيَّةُ
إِذَا الْقَوْمُ عَمَّتْهُمْ أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ:
فَأَيُّ اعْتِقَادٍ مَانَعَ مِنْ أَخُوَّةِ
كِتَابَانِ لَمْ يَنْزِلْهُمَا اللَّهُ رَبُّنَا
فَمَنْ قَامَ بِاسْمِ الدِّينِ يَدْعُو مَفْرَقًا
أَنْشَقَى بِأَمْرِ الدِّينِ وَهُوَ سَعَادَةٌ؟
وَلَكِنَّ جَهْلَ الْجَاهِلِينَ طَحَا بِهِمْ
فَهَامُوا بِتِيَهَاءِ الْأَبَاطِيلِ كَالَّذِي

* * *

نَدُّرُ لَكُمْ مِنْهَا مَدَى الْعَمْرِ أَلْبَانُ

مَوَاطِنُكُمْ يَا قَوْمُ أُمَّ كَرِيمَةٍ

ففي حِضْنِهَا مَهْدٌ لَكُمْ وَمَبَاءٌ^١
 فما بالكم لا تُحَسِّنُونَ وواجِبُ
 أَصْبَرًا وَقَدْ أَمْسَى الْعَدُوُّ يُهَيِّنُهَا؟!
 أَجَلُ إِنَّكُمْ تَأْبَى الْحَيَاةَ نَفُوسَكُمْ
 أَلَسْتُمْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَلَاؤُهُمْ
 نَمْتَكُم إِلَى الْمَجْدِ الْمُؤَثِّلِ تَغْلِبُ
 فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت
 أَجِبْ أَيُّهَا الذَّنْبُ الْمَسِيحِيُّ مُسْلِمًا
 فلا تحرما الأوطان أن تتحالفا
 ألا فانهضوا نحو العدا وكلاكما
 وقولا لِمَنْ قَدْ لَامَ: صَهْ وَيَكْ إِنَّا
 وفي قلبها عطف عليكم وتحنان^٢
 على الابنِ لِلأُمِّ الْكَرِيمَةِ إِحْسَانُ
 أما فيكُمْ شَهْمٌ عَلَى الأُمِّ غَيْرَان؟!
 إذا لم يكن فيها على المجد عُنوانُ
 تَقَاعَسَ عَنْهُ الدَّهْرُ وَاِنْحَطَّ كَيْوَانُ؟^٣
 كما قد نمتكم للمكارم غسان
 تصافحكم فيه نِزار وَعَدْنَانُ
 صفا لك منه اليومَ سِرٌّ وإِعْلَانُ
 يَدًا بِيَدٍ حَتَّى تُؤَكِّدَ أَيْمَانُ
 لصاحبه في المَأْزِقِ الضَّنْكَ مَعَوَان
 على كل حال في المواطنِ إِخْوَان

* * *

فَمَنْ مُبْلَغُ الْأَعْدَاءِ أَنْ بِلَادِنَا
 وَإِنَّا إِذَا مَا الشَّرُّ أَبْدَى نِيَوِيهِ
 سنستصرخ الآساد من كل مَرِيضٍ
 أَسْوَدَ وَغَى تَأْبَى الْحَيَاةَ ذَمِيمَةً
 مَقَاحِيمَ تَصْلَى الْمَعْمَعَانِ مُشِيحَةً^٤
 وتكسو العراء الرَّحْبَ مِسْحَ عَجَاجَةٍ
 سننهض للمجد المخلَّدِ نهضةً
 وتعتز من أرض الشَّامِ دِمَشْقَهَا
 مَأْسَدٌ لَمْ يَطْرُقْ ذَرَاهُنْ سِرْحَانُ^٥
 رددناه عِنا بِالظُّبَا وَهُوَ خَزْيَانُ
 فتمشي إلى الهِجَاءِ شَيْبٌ وَشَبَّانُ
 وتلبس بِالْعَرِّ الرَّدَى وَهُوَ أَكْفَانُ
 إذا احتدمتْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ نِيرَانُ
 يُمُجُّ بِهَا السَّيْفُ الرَّدَى وَهُوَ عُريَانُ^٥
 يقرُّ بِهَا حَوْرَانُ عَيْنًا وَلُبْنَانُ
 وتهتز من أرض العراقيين بَغْدَانُ

^١ المباءة: المنزل.

^٢ كيوان: زحل بالفارسية، معرب.

^٣ مأسد: جمع مأسدة، وهي المكان الذي تكثر فيه الأسود. والذرا بفتح الـ ذال: فناء الدار ونواحيها.

والسرحان بالكسر: الذئب.

^٤ مشيحة: جادة مانعة لما وراء ظهرها.

^٥ المسح بالكسر: الكساء من شعر، وإضافته إلى عجاجة بيانية، أي: مسحًا عن عجاجة.

وتطرب في البيت المقدّس صخرة
وتحسّن للعُرب الكرام عواقب
ولو أنصفتنا ساسة الغرب لاغتدت
ورقّت قلوب للعراق وأهله
ولكنهم رانت عليهم مطاعم
لقد قيل: إن الغرب ذو مَدَنِيَّة
وأَيُّ فَخَار كائن في تمَدُّن
إذا كانت الأخلاق غير شريفة

وترتاح في البيت المحرّم أركان
فيَحْمدها مُفَتّ ويشكر مطران
يَمَشُقُّ لها من ساسة الغرب أعوان
وأصغت إلى شكوى فلسطين آذان
فأمسوا وهم صُمٌّ عن الحق عُميان
فقلت: وهل معنى التمدُّن عدوان؟
إذا لم يقيم في الغرب للعدل ميزان
فماذا عسى تجدي علومٌ وعِرفان؟

* * *

بنفسي أفدي في العراق منابِتًا
رياضُ رعتها النائبات بأذُوبٍ
لقد كان فيها الرند والبان زاهيًا
وأصبح مرصودًا بها كلُّ منهل
وظل ابنها عن كل حوضٍ مُحَلًّا
سأبكي عليها كلما هبّت الصِّبا
ومن ذرفت أماقه الدمع لؤلؤًا

يفوخُ بها شيخٌ ويَعْبَقُ حَوَازان^٦
من الجور فارتاعت ظباء وغزلان
فأصبح لا رَنَدُ هناك ولا بان
عليه من الترنيق بالظلم ثعبان^٧
يحوم على سلساله وهو عطشان^٨
فمالت بها من حول دجلة أغصان
ذرفتُ عليها أدمعي وهي مَرْجان

^٦ الشيخ: نبات طيب الرائحة، وكذا الحوذان.

^٧ الترنيق: التكدير.

^٨ محلاً: أي مطروداً ممنوعاً عن ورود الماء.

بين تونس وبغداد

أنشدت في حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسي الأستاذ الكبير عبد العزيز الثعالبي،
عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥.

تَرْفُ قُلُوبَهُمْ لَكَ بِالْوِدَادِ	أَتُونِسَ إِنَّ فِي بَغْدَادَ قَوْمًا
إِلَى مَنْ خَصَّ مَنَاطِقَهُمْ بِضَادِ	وَيَجْمَعُهُمْ وَإِيَّاكَ انْتِسَابُ
نَوَاصِعُ آيَةٍ سَبَلَ الرِّشَادِ	وَدِينُ أَوْضَحَتْ لِلنَّاسِ قَبْلًا
وَإِنْ قَضَيْتِ السِّيَاسَةَ بِالْبَعَادِ	فَنَحْنُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَهْلُ قُرْبَى
أَوَاصِرُ مَنْ لِسَانٍ وَاعْتِقَادِ	وَمَا ضَرَّ الْبِعَادَ إِذَا تَدَانَتْ
وَإِنْ أَغْرَى الْأَجَانِبَ بِالتَّعَادِي	وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّآخِي

* * *

إِلَى عَلِيَا نِزَارٍ أَوْ إِيَادِ	أَتُونِسَ إِنَّ مَجْدِكَ ذُو انْتِمَاءِ
عَلَى أَشْتَاتِنَا حَبْلَ اتِّحَادِ	لَنَا بِثَعَالِبِيَّكَ خَيْرٌ مُلْقٍ
لِحَبِّ بِلَادِهِ عِلْمَ التَّفَادِي	وَأَكْبَرُ حَامِلٍ بِيدِ اعْتِزَامِ
وَأَفْصَحُ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْ سَدَادِ	وَأَسْمَى مِنْ سَمَا أَدَبًا وَعِلْمًا
وَسَلَّ عَنْهُ الْمَنَابِرُ وَالنَّوَادِي	دَعِ الْقَوْلَ الْمُرِيبَ وَقَائِلِيهِ
وَمِدْرَهَهَا لَدَى كُلِّ احْتِشَادٍ ^١	تَجِدُهُ خَطِيبَهَا فِي كُلِّ خُطْبِ

^١ المدره: المحامي المدافع عن القوم.

فَتَيَّ صَرُحْتَ عَزَائِمَهُ وَجَلَّتْ
تَغَرَّبَ ضَارِبًا فِي الْأَرْضِ يَبْغِي
فَأَوْغَلَ فِي الْمَفَاوِزِ وَالْمَوَامِي
وَكَانَ طَوَافُهُ شَرْقًا وَغَرْبًا
وَلَكِنْ سَاحَ لَاسْتَنْهَاضَ قَوْمِ
يَغَارُ عَلَى الْعُرُوبَةِ أَنْ يَرَاهَا
فَأَنْتَى سَارَ كَانَ لَهُ هَدِيرُ
وَكَمْ قَدْ قَامَ فِي نَادٍ خَطِيبًا
تُنِيرُ بِكُهْرِبَائِيِّ الْمَعَانِي
تَحُلُّ مِنَ الْقُلُوبِ إِذَا وَعَتْهَا
إِلَى أَنْ جَاءَ حَاضِرَةٌ نَمَاهَا
فَكَانَ نَزُولُهُ فِي سَاكِنِيهَا
فِيَا عَبْدَ الْعَزِيزِ أَقِمْ عَزِيزًا
يَحْيِيكَ الْعِرَاقَ بِرَافِدِيهِ

عَنِ الرَّوَّغَانِ فِي طَلَبِ الْمَرَادِ
مَدَى مِنْ دُونِهِ خَرُطَ الْقِتَادِ^٢
وَطَوَّفَ فِي الْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي^٣
لِغَيْرِ تَكْسُّبٍ وَسَوَى ارْتِفَادٍ^٤
حَكَّوْا بِجُمُودِهِمْ صِفَةَ الْجَمَادِ
مَهْدَدَةً الْمَصَالِحِ بِالْفُسَادِ
يَهْزُ دَوِيُّهُ أَقْصَى الْبِلَادِ
بِمُحْكَمَةِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَبَادِي
أُمُورًا كَنْ كَالظَّلْمِ الدَّادِي^٥
مَحَلَّ الْحُبِّ مِنْ شَغَفِ الْفُؤَادِ
أَبُو الْأَمْنَاءِ ذُو الشَّرَفِ التَّلَادِ
نَزُولَ الْمَاءِ فِي الْمُهْجِ الصَّوَادِي
بَحَيْثُ الْأَرْضِ طَيِّبَةُ الْمَرَادِ
تَحِيَّةَ مُخْلِصٍ لَكَ فِي الْوِدَادِ

^٢ خَرُطَ الْقِتَادِ: قَطَعَ وَرَقَهُ بِالْيَدِ، وَالْقِتَادُ: نَبْتُ تَرَعَاهُ الْإِبِلُ فَتَسْمَنُ عَلَيْهِ، وَيَصْعَبُ خَرُطَ وَرَقِهِ لِكثْرَةِ شَوْكِهِ وَقُوَّتِهِ.

^٣ الْمَوَامِي: جَمْعُ مَوْمَاءَ، وَهِيَ الصَّحْرَاءُ أَيْضًا.

^٤ الْارْتِفَادُ: طَلَبُ الرِّفْدِ، وَهُوَ الْعَطَاءُ، يَرِيدُ أَنَّهُ لَا يَبْغِي مِنْ تَطَوُّفِهِ كَسْبَ مَالٍ.

^٥ الدَّادِي: جَمْعُ دَادَا بِالْفَتْحِ، أَوْ دَوْدُو بِالضَّمِّ؛ وَهِيَ آخِرُ لَيْلَةٍ فِي الشَّهْرِ، وَأَصْلُهُ: الدَّادِيُّ بِالْهَمْزَةِ، ثُمَّ خَفَفَ.

في حفلة شوقي

أمارسُ دهرًا من جديدي داهرا
أبى الحقُّ إلا أن أقوم لأجله
وأن أتمادى في جدال خصومه
وإني لأهوى الحق كالطيب ساطعًا
ستبقى لنفسى في هواه سريرة
وتكره نفسى أن أكون مخادعًا
ومن أجل مقتي للمخانيث أنكرت
وما العجزُ إلا أن أكون مكاتمًا
وما أنا من يُبهم القولَ لاحقًا
ولولا طموحي في الحياة إلى العلا
وما زال ليلى بالعراقين ساهرا^١
على الدهر في كل المواطن ثائرا
وأقرع منهم بالبيان المُكابرا
وكالريح هبًّا وكالشمس ظاهرًا
إذا الدهر أبلى من بنيه السرائرا
لأدرك نفعًا أو لأدفع ضائرا
يدي أن تحلِّي في الجنان أساورا
إذا ما تقاضتني العلا أن أجاهرا
فيضمّر فيه للجليس الضمائرا
سكنتُ البوادي واجتنبت الحواضرا

* * *

يقولون لي: في مصرَ للعلم نهضة
وإن بها للعلم قدرًا وحرمةً
وإن لأهل العلم فيها نواديًا
تُفتّق أذهانًا وتجلو بصائرا
وإن بها للحق عونًا وناصرا
وإن لأهل الفضل فيها دساكرا

^١ يريد أنه أرقه أمر مهم، وهو رغبته في الدفاع عن الحق، وحبّه لجدال خصومه ومنكريه الذين يزخرفون الباطل وينصرونه.

بها رفعوا للقائلين المنابرا؟!
تملّك صيتاً في الأقاليم طائراً؟!
بإنشاده في البر والبحر سائراً
تشدُّ به منا لمصرَ الأواصراً!
ولن تعدّموا مني على الشعر قادراً
يفوق الأوّالي بل يبرز الأواخراً
وقام عليه بالذي شاء أمراً
وإن رام سهلاً منه أنشد ساحراً
إذا عقدوا منهم عليه الخناصراً
لذا جعلوا حسن الثناء وكائراً^٢

ألم تر أنّ القوم في كل محفلٍ
وقد ضربوا وعدّاً لتكريم شاعرٍ
هو الشاعر الفحل الذي راح شعره
فلو قلتَ بعضَ الشعر في يوم حفلهم
فقلتُ: أجل والشعر ليس بمعجزي
ألا إن شوقي شاعرٌ جدُّ شاعرٍ
تملّك حرَّ الشعر فهو رقيقه
إذا رام جزلاً منه أنشد زاحراً
فلا عجبٌ من أهل مصر وغيرهم
بنى لهم مجداً رفيعاً بشعره

* * *

تقام له ذا اليوم في مصر ساخراً
تقيم على الأحرار في العلم حاجراً؟!
عليّاً وطه حاصباً متطائراً^٢
وما بال هذا عدّ في مصر كافراً؟!
فليس لمصر أن تكرّم شاعراً
ويؤضع قدرُ العلم ينطق ناثراً؟!
ويقذف بالتجهيل من جاء فاكراً؟!
إذا كان عمّا يبلغ العلم قاصراً
إذا لم تكن فيه النفوس حرائراً
لمن كان عن حُرّية الفكر جائراً
له السبق في تكريم من كان شاعراً

ولكنني قد أنظر الحفلة التي
إذا احتفلت مصرٌ بشوقي فما لها
فقد أسمعنا ضجّةً أمطرت بها
فما بال هذا عدّ في مصر مارقاً
إذا لم تك الأفكار في مصر حرةً
أُرفع قدرُ العلم ينطق ناظماً
ويُختصّ بالتبجيل من جاء منشداً
ألا إنّ هذا الشعر ليس بطائل
كما أنّ هذا العلم ليس بنافعٍ
وتكريمُ ربّ الشعر ليس بمفخرٍ
وإلا فعصر الجاهلية قبلنا

^٢ الوكائر: جمع وكيرة، وأصله الطعام يعمل عند الفراغ من بنیان الوكر، أو عند شرائه فيدعو إليه، استعاره الشاعر هنا لحفلة التكريم.

^٢ علي: هو الأستاذ علي عبد الرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وطه: هو أستاذ الجيل؛ الدكتور طه حسين.

الأمة العربية: ماضيها وبقاها

وسعادة الأوطان في عُمرانها
متواصل الأسباب من سُكانها
إلا بنشر العلم في أوطانها
أجرت به الأعمال خيَل رهانها
أمل البلاد يكون في شبَّانها
نزلت بها الآيات في قرآنها
بفتوحها وعُلوها وبيانها
يعيا ذوو الإحصاء عن حِسبانها
تتحير الأفكار في بُنيانها
عن قيسها أبداً وعن قحطانها
للمكرّمات يُعدُّ من ديدانها^١
خضعت لها الأفلاك في دورانها
بهرت بني الدنيا جلالة شأنها
رايات مَعْدلة على قطّانها
من تُركها طُراً إلى إسبانها

همُّ الرجال مقيسةً بزمانها
وأساس عُمران البلاد تعاونُ
وتعاون الأقوام ليس بحاصل
والعلم ليس بنافعٍ إلا إذا
إن التجارب للشيوخ وإنما
هذي لدى العرب الكرام مبادئُ
والعُرب أكبر أمةٍ مشهورة
كم قد أقامت للعلوم مدارساً
وبنت بأقطار البلاد مصانعاً
فالمجد مأثور بكل صراحة
طُبعت على حُبِّ العلاء فسعيها
نهضت بماضي الدهر نهضتها التي
حسّنت عواقب أمرها حتى لقد
فهم الألى فتحوا البلاد ونشروا
وهم الألى خضعت لهم أمم الورى

^١ الديدان بالفتح: الدأب والعادة.

والروم قد نزلت لهم عن ملكها والفرس عمّا شيد من إيوانها

* * *

يا أمة عاش البريةُ أعصرًا في عدلها رَغَدًا وفي إحسانها
تم انقضتْ تلك العصورُ فجاءها زمنٌ به انقادت إلى عبدانها
فنضتْ ملابسَ عزّها وتثاقلت في الذل راسفة بغير هوانها

في إيلياء

إلى فاضليها: النشاشيبي والسكاكيني

بغير دم الأنام تريد رياء
بها شكل الأهلة خنجرياً
لجرم الأرض حين غدا كُرياً
فلما يقتدح زنداً ورِيّاً¹
أهانوا الشهم واحترموا الزريّاً
ظنينَ القوم يتَّهم البريّا
أُعزّي العلم أم أبكي الدُريّا؟!
وقلبٌ ظلٌّ في عمه كُريّاً
وكانت قبل تحتمل الهريّاً²
وهزّ أخو الجبانة سمهريّاً³
فأصباح من تجسّسه ثريّاً!
فأمطى من سعايته شريّاً!
قسيّاً في السياسة مرمريّاً

أرى الأيام ظامئة وليست
ولو لم تنو حرباً ما تبدّى
ودلّ على تقلبها انقلاب
وأصلدت الحقيقة في الليالي
نفضت يديّ من أبناء دهر
وقلّ حيائهم حتى رأينا
وساد الجاهلون فلسّت أدري
لهم عين تراعي السرّ يقظى
تقلّدت السيوف رُعاة مغز
فجرد منهم الرعديّ عضباً
وكم ترب تجسّس للأعادي
وساع كان يسرّح بالمواشي
وإن لُساسة الدنيا لقلباً

¹ أصله: لم يور.

² الهريا: العصي، وهو جمع هراوة.

³ العضب: السيف القاطع. والسمهري: الرمح الصلب الشديد.

قد اتخذوا الحسام لهم لساناً فقالوا البطل واختلقوا الفرياً
وكيف تُساس مملكة بعدل إذا ما الحكم أصبح عسكرياً؟

* * *

ألا ما بالُ دمعي ليس يرقا؟! كأنَّ بمقلتي عرقاً صرياً
إذا ذُكرَ العراق بكيثُ شجواً بدمع طَمَّ سائله القريراً
ولمَّا سِرْتُ في جبلٍ وسهلٍ وكابدتُ السمام والعرياً
نزلتُ بإيلياء على كرامٍ وخيمُ العيش عاد بهم مرياً
فكدتُ بقربهم أنسى بلادي وأسلو الطفَّ ثمة والغرياً
ولم أرَ كالنشاشيبي ندباً إلى العلياء مبتدراً جرياً
فتى سعت المفاخرُ وهي عطشى إلى آدابه فأصبَن رياً
تجدد في العلاء فكان بدعاً فعاش بمصره رجلاً طرياً
وأحرز في الورى شرفاً ربيعاً وصيتاً في العلا إسكندرياً
ولم أرَ سيداً كأبي سريٍّ ولا مثلَ ابنه ولدًا سرياً
هما متشابهان فعبقريٌّ من الآباء أنجب عبقرياً
أبٌ في المجد أروعُ أخوذِيٍّ نَمَى للمجد أروعُ أخوذِيٍّ
إلى الشهم السكاكينيُّ أهدي ثناءً لا يزالُ به حرياً
فتى غرس المكارمَ ثم منها جنى ثمر العُلا غصّاً طرياً
يعافُ معاشه إلا شريفًا ويأبى المجد إلا جوهرياً

٤ الأخوذِي: الجاد في أمره، والحسن السياقة للأمور.

تجاه الريحاني

شكواي الخاصة

به الأناف يَفْعَمُهُنَّ طيبُ
له تهتز بالطرب القلوب
بريحانيُّنا وهو الأديب
له في كل مكرمة نصيب
له بجليسه أثرٌ عجيب
فَواقًا لاغتدى وهو الأريب^١
تمرُّ عليه ناسمة تطيب
وريحان الرياض له نسيب
كما يحيا من المطر الجديد
كواكب ليس يُدرکها مَغيب
كما طارت بشهرته جَنوب
تعرَّفه القبائل والشعوب
شَكاة لا تُصيخ لها الخطوب
وأدعو مَنْ أراه فلا يجيب؟!

لهذا اليوم في التاريخ ذكر
ويحسن في المسامع منه صوتُ
ففي ذا اليوم نحن قد احتفينا
فتى كثرت مناقبه فأضحى
نجالس منه ذا خُلُقٍ كريم
وأقسم لو يجالسه سفيهُ
كذاك يكون زهرُ الروض لَمَّا
ولم يُنسب إلى الريحان إلَّا
له قَلَمٌ به تحيا المعاني
وتُشرق في سماء الشعر منه
لقد طارت بشهرته شَمالُ
وطبَّق صيته الأفاق حتى
فديتك! هل تُصيخ؟ فإن عندي
إلى كم أَسْتَغِيث ولا مغيث

^١ فواقًا: أي قدر فوق، وهو مدة ما بين الحلبتين.

أَقَمْتُ ببلدة مُلئتُ حُقودًا
أمرُّ فتَنظرُ الأبصارَ شَزْرًا
وكم من أوجِهٍ تُبدي ابتسامًا
سكنت الخانَ في بلدي كأني
وعشت معيشة الغرباء فيه
وما هذا وإن آذى بدائي
ولكني أرى أبناء قومي
يُقدِّم فيهم الشريرُ دفعًا
فهذا الداء منتشِبٌ بقلبي
فكيف شفاؤه ومتى يُرجى؟
وإن أكُ قد شكوت فما شكاتي
سأنصبُ للهواجرَ حرَّ وجه
وأضربُ في البلادَ بغير مُكث
إلى أن أستظلَّ بظلِّ قوم
وإلا فالحياةُ أمرٌ شيءٌ

عليَّ فكل ما فيها مُريب
إليَّ كأنما قد مرَّ ذيب
وفي طيِّ ابتسامتها قُطوب!
أخو سَفَرٍ تقاذفه الدروب
لأنني اليوم في وطني غريب
ولا هو أمره أمر عَصيب
يدبر أمرهم مَنْ لا يُصيب
لشرِّته ويُحتقر الأديب
وفي قلب العُلا منه وجيب
وأين دواؤه ومِن الطبيب؟
إلى ذي خُلَّةٍ شيءٌ معيب
يعود إلى الشروق به الغروب
أجوب من المَهمِّه ما أجوب
حياة الحر عندهمُ تطيب
وخيرٌ من مرارتها شُعبُ

بني الأرض

بني الأرض هل من سامع فأبئته
جُبلنا على حبِّ الحياة وإنها
سعى الناس والأقدار مخبوءةٌ لهم
جرت سفن الأيام مشحونة بنا
حديثٌ بصيرٍ بالحقيقة عالم؟
مخيفة أحلام أطافت بحالم
وناموا وما ليل الخطوب بنائم
على بحر عيش بالردى متلاطم

* * *

تأملتُ في الأحياء طرّاً فلم أجد
ربّ سعيد واحدٍ تمَّ سعدهُ
وما المرءُ إلا دَوْحَةٌ في تنوِّفةٍ
لها ورقٌ قد جفَّ إلا أقلُّه
ولا بدَّ أن تُجثَّتْ يوماً جذورها
بهم باسمًا إلا على ألف واجم
بألف شقيٍّ في المعيشة راغم
مُلَوَّحَةٌ أغصانها بالسماجم^١
وعيدانها بين النُيُوب العواجم^٢
وتقلعها إحدى الرياح الهواجم

* * *

أرى العُمُر مهما ازداد يزداد نقصه
ولولا انهدامٌ في بناءِ جِسمِنا
إذن نحن في نقصٍ من العمر دائم
لما احتيج في تعميرها للمطاعم

^١ الدوحة: الشجرة العظيمة. التنوِّفة: المفازة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

^٢ النُيُوب: جمع ناب، وهي السن التي خلف الرباعية. العواجم: الأسنان؛ لأنها تعجم المأكول.

لحى الله بأساء الحياة كأننا
نروح كما نغدو نجاهد دونها
فلو كنت في هذا الوجود مخيراً
هل الموت إلا سالك وحياتنا
وما زال هذا الدهر غضبان آخذاً
تبصر تجد هذي البسيطة منزلاً
وليس الذي آسى له فقد هالك
أرامل تستذري الدموع وحولها
وكائن ترى مخدومة في جلالها
فليت المنايا حين قوَّض بيتها
نكبل من حاجاتها بالأداهم^٢
أموراً دعتنا لارتكاب الجرائم
وفي عذمي لاخترته غير نادم^٤
إليه سبيل مستبين المعالم؟
على الناس من سيف المنون بقائم^٥
كثير اليتامى عامراً بالمآتم
ولكن ضياع المفجعات الكرائم
يتامى كأفراخ القطا والحمائم
سعت حيث أبكاها الردى سعي خادم^٦
بدأن بها من قبل هدم الدعائم!

* * *

أرى الخير في الأحياء ومض سحابة
إذا ما رأينا واحداً قام بانياً
وما جاء فيهم عادل يستميلهم
جهلت كجهل الناس حكمة خالق
وغاية جهدي أنني قد علمته
بدا خللاً والشرّ ضربة لازم
هناك رأينا خلفه ألف هادم
إلى الحق إلا صدّه ألف ظالم
على الخلق طراً بالتعاسة حاكم
حكيمًا تعالى عن ركوب المظالم

* * *

دأبت لنفسي في الحياة كأنني
يخاصمني منها على غير طائل
وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه
من العيش ملقى في شقوق الضراغم
أناس فأبدي الصفح غير مخاصم
حذار وقوعي في خبيث المطاعم

^٢ يقال: لحى الشجرة: بمعنى قشرها، ويستعمل اللحي بمعنى الشتم والسب مجازاً كما هنا. الأداهم: القيود.

^٤ اخترته: أي اخترت العدم.

^٥ قائم السيف: مقبضه.

^٦ كائن: بمعنى كم للتكثير.

بني الأرض

وأترك ما قد تشتهي النفس نَيْلَه
وكم لي في بغدادَ من ذي عداوةٍ
لما تشتهيه قِلة في دراهمي
إذا جئت بالقلب السليم يجيئني
وما أنا في شيءٍ عليه بجارم!^٧
بقلبٍ له من كثرة الحقد وارم

^٧ جارم: مذنب.

الحمد للمعلم

إلى المعلم نخلة زريق

وَأَرَقْتُ فِيهِ النِّجْمَ أَنْ يَتَغَوَّرَا^١
تَكَائَفَ حَتَّى خِلْتَهُ قَدْ تَحَجَّرَا
فَلَوْ سَارَ سَارٌ فِي دُجَاهٍ تَعَثَّرَا
إِذَا زَادَ طَوْلًا زِدْتَ فِيهِ تَضَجَّرَا
لَوَاعَجَ شَوْقِي فِي الْفَوَادِ تَسْعُرَا
بَتِيهَاءٍ يَجْتَابِ الدُّجَى مَتَحِيرَا
تُرَدَّدَ لَحْظًا فِي الدُّجْنَةِ أَشْزَرَا
لِنَخْلَةٍ رَأْيَا بِالذِّكَاةِ مُنَوَّرَا
كَبِيرَا وَمَذْ شَاهِدَتَهُ كَانَ أَكْبَرَا
وَعَقْلُ رَزِينٍ بِالْعُلُومِ تَحْضُرَا
أَدِيبَا وَإِنْ خَاشَنَتَهُ فَعَضَّنَفَرَا
لَدُنْ كَانَ لِلتَّدْرِيسِ فِيهَا تَصَدَّرَا
بَهَا قَرَّطَ الْأَذَانَ دُرًّا وَجَوْهَرَا
أَمَالِي أَمْلَاهَا عَلَيْهِمْ وَقَرَّرَا

وليلٍ به قد بُتُّ أختلس الكرى
تمطى على الأكام منه بغيهٍ
وكاد دُجَاهُ يَمَكُنُ الْكَفَّ لِمُسَّهُ
لَقَدْ بَتُّهُ وَالْهَمُّ مُعْتَلِجٌ بِهِ
يَقْلُبُنِي فِيهِ الْجَوَى وَتَهْزُنِي
أَرَى الزُّهْرَ فِيهِ يَضْطَرِبْنَ كَخَابِطٍ
كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ غَضَبِي عَلَى الدُّجَى
إِلَى أَنْ بَدَأَ لِي الصُّبْحُ يَحْكِي عَمُودَهُ
فَتَى كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ خُبِّرْتُ فَضْلَهُ
لَهُ خُلُقٌ بَادٍ إِبَاءً وَنَخْوَةً
تَرَى مِنْهُ إِنْ لَا يَنْتَهُ ذَا دِمَائَةٍ
لَقَدْ عَلِمْتُ هَذِي الْمَدَارِسَ فَضْلَهُ
تَقَضَّتْ لَهُ فِيهَا ثَلَاثُونَ حِجَّةً
وَجَهَّزَ بِالْآدَابِ أَبْنَاءَ قَطْرِهِ

^١ يتغور: يميل للمغيب.

بذلك أحيًا للأعاريب لهجةً
إذا استبهمت طُرُقُ الفصاحة مازها
لنا اليوم جيش من تلاميذ علمه
هم الجيش سدُّوا ثغر كلِّ جهالةٍ
له الفضلُ في تعليمهم أفصح اللغا
فكلُّ فتى منهم أديبٌ نقيمه
لك ابنَ زُرَيْقٍ مِنَّةٌ سَرْمَدِيَّةٌ
إذا ما سمعنا ناطقًا بفصاحةٍ
كفى بالسكاكيني في القدس شاهدًا
فقد كان قبل اليوم تلميذك الذي
خلا ربُّعها من ساكنيه وأقفرا
بما في كتابِ الله منها تقرِّرا
به الجهل ولَّى مدبرًا وتقهقرا
إذا اتخذوا في كل ثغر معسكرا
وغرَّ القوافي والكلام المحبِّرا
لِيلْقِي دَرْسًا أو ليقرع منبرًا
سيذكرها في دهره مَنْ تذكرا
من الناس أثنينًا عليك تشكُّرا
بما لك من فضل عميم على الورى
غدا اليوم أستاذًا كبيرًا مفكِّرا

عرس مصر

قالها لَمَّا أُقِيمَ في مصر عرس لكريمة مصري عند اقترانها بابن الداماد فريد باشا، وكان ذلك في أثناء حرب البلقان المعلومة.

حين أدمت قلوبنا الآلامُ	أطربَتهم بلحنها الأنغامُ
رقصَ العار بينهم والذَّامُ	فأقاموا مجالسَ الأُنسِ حتى
قد بكت في خلاله الأَحلامُ	أضحكوا أوجه السفاهة ضحكًا
سوف تُعْنَى بشرحه الأَقلامُ	إنَّ في مصر للكريمة عرسًا
عمَّ من نوره البلاد ظلام	أوقدوا فيه للسُرور سراجًا
عن نيوب كأنهن سهام	ذاك عرس تَكشَّر اللؤم فيه
أنكر المهدُّ صوتها والذمام	وتغَنَّت للقوم فيه قِيانُ
ولثغر السفيفه فيه ابتسام	فَلِغَيْنِ الحليم فيه بكاء

* * *

إن إيلامكم لنا إيلام	أيها المُولمُون في مصر مهلاً
قام في مأتم به الإسلام؟!	أتغنِّيكم القيان بيوم
وتحلَّت بوشيه الأهرام	لبست هذه البلاد حدادًا
وجرى النيل ثغره بسام	وجرت أعين الفرات دموعًا
رت عليهم بنحسها الأيام؟!	أشَمَاتًا بالمسلمين وقد دا
جَلَل ما لنقضه إبرامُ	إن رمتهم يد الزمان بخطب
جثثُ تملأ الفضاء وهام	فهوت في مصارع الحكم منهم

وتخلُّوا عن البلاد وأبقوا حُرْمَاتِ تدوسها الأقدام

* * *

يا بني مصر صَغِيَّة لسؤال	فيه عَتَب لكم وفيه مَلام
أَتَنَاطُ الفتوخُ في خِنَصر الكفِّ	ازدياناً إن قَطَطِ الإبهام؟ ^١
أدماء القتلى لديكم خِضابُ	أم أنين الجرحى لكم أنغام؟!
أم تريدون أن تكونوا كقوم	أسكرتهم بين القبور مُدام؟!
أم أصختم إلى الأغاريد كيلاً	تسمعوا كيف تنحَب الأيتام؟!
لست أدري وقد سمعت بهذا	يقظة ما سمعته أم منام؟!

^١ الفتوخ: جمع فتح، وهي حلقة كالخاتم.

من مضحكات الدهر

سأبدي لدهري ناجدَ المتضحِّك
فما أنا راجٍ بعد ذا اليوم خيرَه
إذا الدهر لم يُعتب من الناس جازعًا
على أنَّ ضُحكي منه لا عن سفاهةٍ
ولو سَبَرَ الناس الحوادث بالنهي
وما حادثات الدهر إلا خوابٌ
وتنهض للإرقال في غير مَنهض
وما حُكْم هذا الدهر إلا تحكُّمٌ
كأنَّا من الدنيا ببيت مقامرٍ
فمن قامرٍ قد فاز باليسرِ قدحُه
وما الحِرَف اللاتي يجيد احترافها
ولو كان يجري بالذي هو مهلكي
ولا خائفٌ من شره المتحرِّك
فأضيقُ ما فيه شكايةٍ مشتكي
ولك كضحك العَفِّ من متهتِّك
لما حصلوا منها على غير مُضحك
كعشواءٍ تمشي مشية المتهرِّوك^١
وتبرك أحيانًا على غير مَبْرُك
كحكم فصوص النرد في نقل مُهْرَك^٢
حوى من سهام القَمَر كل مُدْمَلَك^٣
وآخر مقمورٍ بقدح التصعلُك
سوى شبكِ منصوبة للتملك

^١ المتهوك: المضطرب، الذي تراه كأنه يموج في مشيته.

^٢ المهرك: واحد المهارك، وهو قطع مستديرة من خشب أو غيره يلعب بها في النرد.

^٣ سهام القمر: قداحه التي يقارع بها في القمار. والمدملك: من السهام المخلوق، أي: المسوى للممس، لما جعل أحكام الدهر في البيت المتقدم كأحكام كعاب النرد، ناسب أن يجعل الدنيا في هذا البيت بيت مغامرة، والناس فيها بين قامر ومقمور، وأوضح ذلك بالأبيات التالية.

وإنَّ طبيبَ القومِ ناصِبٌ كِفَّةٌ
ومن مضحكات الدهر حاملُ سُبْحَةٍ
وآخرُ تركيٍّ تعرَّبَ وادَّعى
وتحديثُ غرٍّ مطريًّا عدلَ دولة
وما الناسُ إلا خادعٌ أدركَ المنى
فلا تُبِدْ من زيرِ النساءِ تعجبًا
فما دارتِ الأفلاكُ إلا وقطبها
وإن أبصرتُ عيناكِ يومًا حقيقةً
فإنكِ لم يُنبئكِ مثلُ مُجَرَّبٍ
فهذا لعمرُ الله رأيي فخذ به

ليصطاد فيها بالدواء الممصطك^٤
تُقَبَّلَ جهلاً كَفُّهُ للتبرُّك
على عربي هُجِنَةُ المتترك^٥
برايتهَا رسم الصليب المشبَّك
وآخر مخدوع لها غير مدرَك
ولا تغتَرِرُ بالزاهد المتنسك
بحكم الهوى حب الكعابِ المفكَّك^٦
تخالف ما قد قلته فتشكَّك
خبير ولم ينصحك مثل مُحَنِّك
فقد فُزَتَ منه بالجذيل المحكَّك^٧

^٤ الكفة: حباله الصائد التي يصيد بها الطباء، وهي بضم الكاف وتكسر. والدواء الممصطك: المخلوط بالمصطكي.

^٥ حاصل معنى البيت أن من المضحكات تركيًّا تعرب، فصار يعير بالهجنة عربيًّا قد تترك.

^٦ الكعاب: كسحاب؛ الجارية الناهد. والمفكك بصيغة الفاعل واللام مشددة؛ التي استدار ثديها، يقال: فلكت الجارية: استدار ثديها كفلكة المغزل.

^٧ الجذيل المحكك: الذي يشتفى برأيه، والجذيل: تصغير جذل، وهو عود كانوا ينصبونه في العطن لتحتك به الإبل الجربى، ثم صار يضرب مثلًا للذي يستشفى برأيه.

الشارع الكبير ببغداد

دَ وَلَا تَمْشِ فِيهِ إِلَّا اضْطَرَارًا
تَلَقَّ فِيهِ السَّهُولُ وَالْأَوْعَارُ
إِنْ تَقَحَّضْ وَغُثِّهِ وَالْخَبَارُ
جِهَ حَثْوًا وَتَقْذِفِ الْأَحْجَارُ
قَ نَهَارًا لَمَّا أَمْنْتَ الْعِشَارُ
مِنْ هَوَاءٍ تَنْسَمُوهُ غِبَارًا
حَامِلًا فِي ذَرَاتِهِ الْأَقْذَارُ
مَسْبُطَرًا عَرْمَرَمًا جَرَارًا^١
جَاشَ نَقْعًا عَلَى الْوُجُوهِ مُثَارًا
مَ إِذَا هُمْ تَخَبَّطُوهُ نَهَارًا
فَتَجَنَّبَ رَصِيفَهُ الْمُنْهَارًا
رَفَافَ لِحْظًا أَنْكَرْتَهُ إِنْكَارًا
عَ حُسْنًا وَبِيْهَجِ الْأَبْصَارِ
تَكَرَّهَ الْعَيْنُ أَنْ تَرَاهُ جِدَارًا
مُتَدَانٍ تَقْيِسُهُ أَشْبَارًا

نَكَبِ الشَّارِعَ الْكَبِيرَ بَبْغَدَا
شَارِعُ إِنْ رَكَبْتَ مَتْنِيَّهِ يَوْمًا
تَتْرَامِي سَنَابِكَ الْخَيْلِ فِيهِ
فَهْيُ تَحْتُو التُّرَابَ فِيهِ عَلَى الْأَوْ
لَوْ رَكَبْتَ الْبُرَاقَ فِيهِ أَوْ الْبَرْ
تَحْسَبُ الْعَابِرِينَ فِيهِ سُكَارَى
سَاطِعًا يَمْلَأُ الْفُضَا مُسْتَطِيرًا
مُسْتَجِيشًا مِنَ الْجَرَائِمِ جَيْشًا
هُوَ إِنْ رُشَّ جَاشَ وَحَلَا وَإِلَّا
تَصْهَرُ الشَّمْسُ فِيهِ أَدْمَغَةُ الْقَوِ
وَإِذَا مَا مَشَيْتَ فِي جَانِبِيهِ
وَإِذَا مَا أُرْسَلْتَ فِيهِ إِلَى الْأَطْ
لَا تَرَى فِيهِ مَا يَسْرُكُ بِالْصَنْدِ
بَلْ تَرَى الْعَيْنَ فِيهِ كُلَّ جِدَارِ
فَجِدَارٌ عَالٍ وَفِي الْجَنْبِ مِنْهُ

^١ مسبطرًا: من اسبطر؛ أي امتد.

ودكاكينُ كالأفاحيص تمت	سُدُّ يمينًا بطوله ويسارا
أين هذا من الشوارع في الأمص	ار زانت بحسنها الأمصارا؟!
عبّدها ومهدوها فجاءت	لا اعوجاجًا بها ولا إزورارا
وأعدّوا بهنَّ كل رصيف	يَحْمَدُ السيرَ فوقه من سارا
وأقاموا لهم بها كلَّ صرح	مشمخرٌ بناؤه اشمخرارا
فعلى الجانبين كل بناء	خيلَ في الحسن كوكبًا قد أنارا
ثم لم يكتفوا بذلك حتى	غرسوا في ضفافها الأشجارا
فوقَّتْهم ظلالُها وهَجَ الشم	س وسرَّ اخضرارها الأنظارا
هكذا فلتكن شوارعنا اليو	مَ وإلا فما عمرنا الديارا

على الخوان

أكْبَّ على الخوان وكان خِفًّا
ووالى بينها لُقْمًا ضَخَامًا
وعاجل بَلْعَهْنَ بغير مَضْغٍ
فضاقت بطنه شَبْعًا وشالت
فأرسلتُ اللحاظ إليه شَزْرًا
أَرَى اللقَمَات تَأْخُذْهَا حَلَالًا
قد انتَضَدَّت بجوفك مفرداتُ
أَتَزْدَرِد الطَعَامَ بغير مضغٍ؟!
فلا تَأْكُل طَعَامَكَ بازْدِرَادٍ
أَلَا إِنَّ الطَعَامَ دَوَاءٌ دَاءٍ
فداوِ سَقَامَ جوعك عن كِفَافٍ
وما أكل المطاعِم لالتذائِ
طعام الناس أعجب ما أحبوا

فلما قام أثقله القيام^١
فما مرثت له اللُقْم الضخام^٢
فهن بفيه وضع فالتهم
إلى أن كاد ينقطع الحزام
وقلت له: رويدك يا غلام!
فتدخل فاك وهي به حرام
تخلل بينها الداءُ العُقام
على أيام صحتك السلام
معاجلةً فيأكلك الطعام
به ابتليت من القَدَم الأنام
فإكثار الدواء هو السَّقام
ولكن للحياة بها دوام
فمنه حياتهم وبه الحِمام

^١ أكْبَّ عليه: أقبل عليه ولزمه. وكان خِفًّا بالكسر: أي خفيفًا.

^٢ والى بينها: أي تابع بين اللقم. فما مرثت له: أي ما ساءت المغبة. لقْمًا: تمييز للضمير المضاف إليه في قوله بينها.

يقودهمُ الزمان إلى المنايا	وما غير الطعام لهم زمام
وأعجب منه أن الناس راموا	تنوعه ألا ببئس المَرام!
إذا استعصى القفار عليك أَكلًا	كفاك من القراح له إدام ^٢
حَذَارِ حَذَارِ من جَشَعِ فإني	رأيت الناس أجشعها اللثام!
وأغبي العالمين فتى أكل	لفطنته ببطنته انهزام
ولو أني استطعت صيام دهري	لصمت فكان ديداني الصيام
ولكن لا أصوم صيام قوم	تكاثر في فُطورهم الطعام
فإن وضح النهار طَوْوًا جياغًا	وقد نهموا إذا اختلط الظلام
وقالوا: يا نهار لئن تُجِئنا	فإنَّ اللَّيْلَ منك لنا انتقام
وناموا مُتخمين على امتلاء	وقد يتجشَّئون وهم نيام
فقل للصائمين أداء فرض:	ألا ما هكذا فُرض الصيام!

^٢ القفار بالفتح: صفة لمحذوف؛ أي الخبز القفار، ويقال: خبز قفار: أي غير مأدوم. والقراح بالفتح: الماء الخالص.

تحية سر كيس

أنشدها في حفلة أقيمت في القدس لتكريم الكاتب الشهير سليم سر كيس، عند قدومه إليها زائراً.

من فاضلٍ أكبرته قبل اللقاء
حتى إذا كان اللقاء وجدت ما
إلا الفتى سر كيس؛ أي وتشرفني
جالسته في القدس أول مرة
في مجلس نظم الزمان بصدرة
إذ كان يسكرنا بخمر حديثه
يحيي السرور الميت منك بنكتة
وإذا أفاض من الحديث بحكمة
وإذا تحدّث مازحاً فنكاته
لو يستدرّ يد الشحيح بظرفه
جالسته فكّه الكلام منافئاً
فمجالس الأدباء أنت رئيسها
أولست ربّ مَجَلَّةٍ أدبية
في كل شهرٍ بالفنون تزفها
قد جئت في تحبيرها متنطّساً
تبدو الحقائق من خلال سطورها

فَسَجَرْتُ فيه من الثناء وطيسا
يُعزى إليه من العُلا معكوسا
بلقائه، إلّا الفتى سر كيسا
فأحسّ قلبي من هواه رسيسا
عقداً من الصيد الكرام نفيسا
فيدير منه على الجلوس كئوسا
فيُريك معجزة ابن مريم عيسى
خلنا محدّثنا أرسطاليسا
بالضحك تصفع من تراه عبوسا
يوماً لجاد له وحلّ الكيسا
أكرم بمثلك يا سليم جليسا!
أخلق بمثلك أن يكون رئيسا
تُزري بأزهار الرياض طروسا
عذراء باهرة الجمال عروسا
تشفي بنفث يراعك المألوسا
فتضيء في ليل الشكوك شموسا

لَمَّا قَدِمْتَ الْقُدْسَ قَصِدَ زِيَارَةٍ فَمُنَحْتَ وَحْشَةَ أَهْلِهَا تَأْنِيْسَا
قَمْنَا لِفَضْلِكَ يَا سَلِيْمٌ تَجَلَّاهُ نَحْنِي الظُّهُورَ مُطَاطِئِينَ رءُوسَا

إلى البلاغ

أرسلها وهو في الآستانة إلى محمد باقر، لَمَّا أصدر جريدة البلاغ في بيروت.

أباقرُ لم تَدْعُ للقوم عُذْرًا
فقد صُغتِ النصائحَ خالصاتٍ
وأوضحتِ الحقائقَ رائقاتٍ
ولكن أين من يُصغي ومن ذا
لقد حلم الأديم فليت شعري
ألسْتَ ترى بني الإسلام أمسوا
فقومٌ في مقاصفهم وقومٌ
وكم داعٍ رأوه لهم «مفيدًا»
وكم صحفٍ لهم فغرَّتْ حلوقًا
وما أخذتهمْ نفثًا ولكن
على أني وإن أبديت سُخطًا
فلا تترك بلاغَكَ عن مَلالٍ
فقم في القوم مُنتضيًا يراعًا
وخطبهمْ بشقشقةِ المنادي
فأنتِ فتى إذا بُلِّغتِ أمرًا
وأنتِ وإن خُلِّتِ نحيفَ جسم

بما أصدرت من حُجج البلاغِ
فجاءت وهي فائقة المصاغِ
لدى الأدواق طيِّبة المساغِ
نحاول منه قلبًا غير صاغٍ؟
أينفع ما تريد من الدباغِ؟
حيارى بين منتصف وباغٍ؟
يلوكون القفار بلا صباغِ
وما هو في «الحقيقة» غير لاغِ
لتمضغهم بأسنان شواغِ
تضجُ كأنها الإبل الرِّواغي
فما أدعوك فيه إلى الفراغِ
فيفرح من مَلالك كل طاغِ
يفلُّق هام أرباب الرِّواغِ
وأونةً بدندنه المناعي
تؤيِّدك البلاغة في البلاغِ
تفوق سواك في كبر الدِّماغِ

في حفلة الزهاوي

زهت بقدم شاعرها الزهاوي
زهت بطبيب علتها المداوي
به لو ظلّ وهو هناك ثاوي
فخار الأرض والشرف السماوي
بِمَنْ لا زال مُرشد كل غاوي
يَراع جميلها إلا دَعاوي
رواه له بأقصى الأرض راوي
فَجَلَّ عن المُعادل والمساوي
يسوءك نقد أرباب المَساوي
بفهم كان أجدر بالتداوي
إذا هم أفزعوك بصوت عاوي
يدل على الضغائن في المطاوي
تذيق نفوسهم حرّ المكاوي
إذا ما ناوءوك ولم تناوِ
بضغث من نبات الشعر ذاوي
بهزّ مذبّة وهويّ هاوي
وهم ما بين مهزول وضاي
ويسقطهم إلى سفلى المَهاوي

أرى بغداد من بعد اغبرار
زهت بكبيرها أدباً وعلماً
وكادت مصر تسبقها فخاراً
ولكن عاد محتقّباً إليها
فأهلاً بالحكيم وألف أهل
وما الآداب في بغداد لولا
إذا ما قال في بغداد شعراً
تفرّد في بديع الشعر معني
أعيذك يا جميل الشعر من أن
يداوون السقيم من المعاني
ألا لا تعجبين وهُم ذئاب
لقد نقدوا قريضك نقد أعمى
فأحم لهم حديد الشعر حتى
فهم قوم يروُن الحلم عَجْزا
ولا تضربهم إن شئت إلا
فهم مثل الذباب يطير ذعراً
وليسوا مُحوجيك إلى معين
فنفضْ منك يجعلهم هباءً

ديوان معروف الرصافي

وما احتاج القويُّ إلى مُعينٍ إذا كان الضعيف هو المُقاوي

إلى صاحبة الحياة الجديدة

أرسلها إلى السيدة حبوبة صاحبة مجلة الحياة الجديدة في بيروت.

إلى حياة سعيده	هَلُمَّ يا قومُ نسعى
إلى أمورٍ عديده	فإن فينا افتقارًا
إلى المساعي المُفيدة	إلى اتحادٍ وسعي
بها الشرور المبيده	إلى معاهدٍ نُفني
على القصور المُشيده	إلى مدارس تعلو
إلى نفوس رشيده	إلى عقولٍ كبار
بها الخطوب الشديده	إلى جسوم نُقاوي
به فساد العقيدة	إلى صلاح نداوي
بكلمةٍ عن قصيده	وإن أريد اكتفاءً
هو الحياة الجديده	فكل ما نبتغيه
حبوبةً في الجريده	هو الذي تدعيه
لنا بكل شريده	تلك الصحيفة تأتي
من كل عقد فريده	تلك المجلة تحوي
إن شئت كل نشيده	حبوبةً استنشديني
حميدة ومجيدة	فأنت خير فتاة
وقد فككت قيوده	الشرق فيه قيود
وقد شفيت جُموده	وفيه داءُ جُمود

صحيحة وسديده	آراؤك الغرُّ فيه
لهنَّ أنت مُريدَه	مَن لا يُريدُ أمورًا
وطوَّق الأسرُ جيده	إلا الذي عاش غرًّا
لقصعة وثريده	فذاك ما عاش إلا

إلى المتعلم

أَخْصِ فِي الْعِلْمِ إِنْ أَرَدْتَ كَمَالًا
وَإِذَا رُمْتَ فِي التَّعْلَمِ حِذْقًا
وَاجْتَنِبْ قَسْرَهَا عَلَى مَا أَبْتَه
إِنَّمَا الْمِيلُ فِي الْغَرَائِزِ تِيًّا
أَطْعِمِ الْعَقْلَ مَا اشْتَهَاهُ مِنَ الْعِلْمِ
لَيْسَ فِي أَرْوُسِ الرِّجَالِ دِمَاعٌ
فَمَنْ النِّقْصُ أَنْ تَحَاوَلَ أَنْ تَضْمَ
حَسَنَ فَهْمِ الْأَخْصِ أَكْثَرَ نَفْعًا
وَبُغَاةَ الْعُلُومِ مِثْلَ رِمَاةِ الصِّدِّ
وَإِذَا مَا اشْتَغَلْتَ بِالْجِدِّ سَاعًا
وَتَرَفَّقَ إِذَا جُهِدْتَ فَإِنَّ الرِّ
وَوَصُولًا إِلَى الْفَخَارِ الْآتَمَّ^١
فَاتَرَكَ النَّفْسَ وَالَّذِي هِيَ تَرْمِي
إِنْ قَسَرَ الطَّبَاعَ أَكْبَرَ ظَلَمٍ
رَ وَمَنْ ذَا يَرُدُّ تِيَارَ يَمٍّ
مَ وَإِلَا اسْتَقَاتَ مِنْ سَوْءِ هَضْمٍ
هَاضِمٍ فِي ذِكَايِهِ كُلِّ عِلْمٍ
رَبِّ فِي كُلِّ ذِي الْعُلُومِ بِسَهْمٍ
لِذَوِيهِ مِنْ قَبْحِ فَهْمِ الْأَعْمِ
يَدِ فَاعِلٍ وَلَيْسَ مِنْهُمْ كُمُصِمِي^٢
تِ فَهَازِلِ سُوَيْعَةٍ وَاسْتَجَمَّ
فَقَ يُذَكِّي الْفَوَادَ وَالْعَنَفَ يُعْمِي

^١ قوله أخص: فعل أمر من أخصى طالب العلم، إذا تعلم علمًا واحدًا.

^٢ قوله: «وليس منهم كمصمي»، المنمي: اسم فاعل، من قولهم: أنمى الصياد الصيد؛ إذا رماه فأصابه ولم يقتله، ثم ذهب عنه فمات، والمصمي: اسم فاعل من قولهم: أصمى الصيد؛ إذا رماه فقتله مكانه وهو يراه، والمعنى أن طالب العلم كرامي الصيد، فإذا أخصى في العلم وأتقنه كل الإتقان، كان كالمصمي الذي ينتفع بصيده.

ولقد يبلغ العجول مداه	بالتأني بلوغ خضم يقضم ^٣
كل من كانت العلوم لديه	جمّة كان نفعه غير جمّ
أئيّ فضلٍ لعالم غير بدّع	ليس في العلم يرتجى للمهمّ؟!
سار شوطاً لكلّ علم ولكنّ	لم ينل فيه غاية المستتمّ
هبه أبدى من العلوم نجومًا	في ليالٍ من المشاكل دهم
أوليس البدرُ التمام وإن كا	ن وحيدًا يربو على ألف نجم؟!
كن قويًّا في كل ما تدّعيه	إنما الفوز للقويّ الملمّ
أيها العاجزُ الضعيفُ رويدًا	أقرن الضأن فاتك بالأجمّ ^٤

^٣ المراد بالخضم هنا: الأكل ملء الفم. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان قليلاً قليلاً، وقد ضمن هذا البيت المثل وهو قولهم: «قد يبلغ المخضم بالقضم»؛ أي الشبعة تبلغ بالأكل بأطراف الفم، أي الغاية البعيدة تدرك بالرفق.

^٤ الأقرن من الضأن: الذي له قرنان. والأجم: الذي لا قرن له، والمعنى أن القوي فاتك بالضعيف لا محالة.

اليتيم المخدوع^١

قضى والليل مُعتكراً بهيمٌ
قضى في غير موطنه قتيلاً
قضى من غير باكيةٍ وباكٍ
قضى غُصَّ الشبيبة وهو عَفٌّ
سقاها من الردى كَأَسَا دهاقاً
تجرَّعها على طَرَبٍ ولكن
على حينَ الربابة في نواحٍ
بحيث رقائق الألحان كانت
كأن ترنُّم الأوتار نَغْيٌ
ولا أهل لديه ولا حميم
تمجُّ دم الحياة به الكلوم^٢
ومن يبكي إذا قتل اليتيم؟
مُطَهَّرة ماآزره كريم
عَفافُ النفس والعِرْضُ السليم^٣
بكفَّ اليتيم ليس له نديم
يساجلها به العود الرخيم
بها الأشجان طافية تعوم
وصمت السامعين لها وجوم

^١ السبب الذي دعا شاعرنا إلى نظم القصيدة، أن رجلاً يهودياً مطرباً من حلب اسمه «سليم» خدع غلاماً مسيحياً يتيمًا من أهلها، وأتى به من بغداد فأراد منه المنكر بعض أهلها، فأبت نفس الغلام الزكية الطاهرة ذلك، فجاءه يوماً وهو سكران والغلام في نادي طرب يضم المئات من الناس، وأطلق عليه الرصاص، فسقط ذلك اليتيم المخدوع على الأرض، فحمل إلى مستشفى الغرباء هناك، وقبض على الجاني وزج به في السجن، فنظم معروف الرصافي هذه القصيدة حاكياً بها هذه الحادثة المؤلمة.

^٢ الكلوم: الجروح.

^٣ دهاقاً: ممثلة.

فجاء الموتُ ملتفعاً بخزّي
فأطلق من مسدّسه رصاصاً
فخرّ إلى الجبين به «نعيم»
فبانَ مودّعاً بعد ارتثاثٍ
لئن لم تبك من أسف عليه
ولو درّت النجوم له مصاباً
عسى الشهباءُ تثأره فتبدي
ولم يقتله «إبراهيم» فيما
أليس «سليم» الملعون أغوى
وأخرجه من الشهباء غراً
وجاء به إلى بغداد حتى
سأبكيه ولم أعبأ بلاح
ولمّا أن ثوى ناديت أرخ

وملء إهابه سفه ولوم^٤
به في الرمي تنخرق الجسم
كما انقضت من الشهب الرجوم^٥
حياء لا تُناط بها الوصوم^٦
سفاهتنا فقد بكت الحُوم^٧
بكته على ترفعها النجوم
إلى الزوراء ما يبدي الخصيم^٨
أرى بل إن قاتله «سليم»
«نعيمًا» فهو شيطان رجيم
يتيماً ما له أبداً زعيم
تخرّمه بها قتل أليم
وأندبّه وإن سخط العموم
ثوى قتلاً بلا مهل «نعيم»

^٤ الإهاب: الجلد قبل أن يدبغ.

^٥ الرجوم: ما يرجم به، مفردها رجم.

^٦ ارتث ارتثاثاً: بالبناء للمجهول؛ حمل من المعركة جريحاً. الوصوم: العيوب.

^٧ الحُوم: العقول.

^٨ الشهباء: حلب. والزوراء: بغداد.

ميت الأحياء وحي الأموات

تَيْقُظُ فما أنت بالخالدِ
فخلدٌ بسعيك مجداً يدومُ
وأبقى لك الذكر بالصالحات
ورّد ما يناديك عنه الصدورُ
وسر بين قومك في سيرة
فإن فتى الدهر مَنْ يدّعي
ولا تكُ مُرمَى بداء السكونِ
وكن رجلاً في العلا حوَّلاً
إذا اطّردت حركات الحياة
ولم تتنوّع أفانينها
ولم تتجدّد لها شَمْلَةٌ
فما هي إلا حياة السّوامِ

ولا حادث الدهر بالراقِدِ
دوام النجوم بلا جاحد
وخلّ النزوع إلى الفاسد^١
ألا درّ درك من وارد!^٢
تميت الحقود من الحاقِدِ
فتأتى أعاديهِ بالشاهد
فتصبح كالحجر الجامد
تفنّن في سيرهِ الراشد^٣
ومرّت على نسقٍ واحد
ودامت بوجهٍ لها بارد
من السعي في الشرف الخالد
تجول من العيش في نافد^٤

^١ النزوع: الميل.

^٢ الصدور عن الأمر: الرجوع عنه. در درك: أي أكثر خيرك، وأصل معنى الدر: اللبن.

^٣ الحول: هو الشديد الاحتيال.

^٤ السوام: الحيوانات السائمة.

* * *

وما يُرتَجَى من حياةٍ امرئٍ	كماءٍ على سَبْخَةٍ راكدٍ ^٥
وليس له في غضون الحياة	سوى النفس النازل الصاعد
يَغْضُ على الجهل أجفانه	ويرْضَى من العيش بالكاسد
فذاك هو الميْتُ في قومِه	وإن كان في المجلس الحاشد
وما المرءُ إلا فَتَى يغتدي	إلى العلم في شَرِكٍ صائد
سعى للمعارف فاحتازها	وصاد الأنيسَ مع الآبد ^٦
وطالع أوجه أقمارها	بعين بصيرٍ لها ناقد
فأبدى الحقائق من طيها	وألقى القيود على الشارد
إذا هو أصبح نادى: البدار	وشمّر للسعي عن ساعد
فكان المجليّ في شأوه	بعزمٍ يشقُّ على الحاسد
وإن بات بات على يَقْظَةٍ	بطرفٍ لنجم العُلا راصد
وأحدث مجداً طريفاً له	وأضربَ عن مجده التالد
وما الحمقُ إلا هو الاتكا	لُ على شرفٍ جاء من والد
فذاك هو الحيُّ حيُّ الفخار	وإن لحدّثه يد اللاحد

^٥ السبخة: الأرض ذات النر والملح.

^٦ الآبد: النافر.

نحن في بغداد

أيا سائلاً عنّا ببغدادَ إننا
علتُ أمةَ الغرب السماءَ وأشرقَتْ
وهم ركضوا خيلَ المساعي وقد كبا
فنحن أناسٌ لم نزل في بَطَالَةٍ
خضعنا لحكام تجور وقد حلا
كما قامرتنا ساسةُ الأمرِ خدعةً
لماذا نخلف الموت جُبناً فلم نقم
إذا كنتُ لا ألقى من الموت موئلاً
وللموتُ خيرٌ من حياة تشوبها
بهائم في بغداد أعوزها النُّبْتُ
علينا فظَلنا نَنظر القوم من تحتُ
بنا فرسٌ عن مِقْنَب السعي مُنْبِتٌ^١
كأنّا يهودٌ كلُّ أيامنا سبْتُ
بأفواهها من مالنا مأكَل سُحْتُ^٢
فتمَّ علينا بالخداع لها الدُسْتُ^٣
إلى الذَّبِّ عنا من أمور هي الموت؟!^٤
فهل نافعني أن خِفْتَه أو تهيَّبْتُ؟!
شوائب منها الظلم والذل والمقتُ

^١ ركض فرسه: غمزه برجله ليعدو ويسرع. كبا: عثر. المِقْنَب: جماعة من الخيل تجتمع للغارة. منبت: منقطع.

^٢ السحت: المكسب الحرام.

^٣ الدست: الخديعة، والدست أيضاً: هو الذي يكون فيه الغلب في الشطرنج، وهذا المعنى أقرب المعاني

لينااسب معنى المقامرة.

^٤ الذَّبُّ: المدافعة.

رقية الصريع

يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبل
هلاً عطفت على الصريح المَعُول!
حادث بهنَّ عن الطريق الأمثل
ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل
للعَدل وهي بحكمها لم تعدل
فغدت تُفَوِّض للغنيِّ الأجهل
ومتى انقضى الأجل المسمَّى يُعزل
قد عاد من أهل الثراء الأجزل
حتى يعود بمنصب كالأول
دار الخلافة عند مَنْ لم يعقل
خصت برأي مقدَّس لم يسأل
مَثَل البناء على نَقَا متهيل^١
هَبَّي وفي أمر الملوك تأملي
منصوص في أي الكتاب المنزل؟
مَنْ حاد عن هدي النبي المرسل؟!

يا عدل طال الانتظار فعجِّل
يا عدل ليس على سواك مُعَوَّلُ
كيف القرار على أمورِ حكومة
في الملك تفعل من فظائع جورها
ملأت قراطيس الزمان كتاباً
أضحت مناصبها تُباع وتشتري
تَعطى مؤجلة لِمَنْ يبتاعها
فيروح يشري ثانياً وبما ارتشى
فيظلّ في دار الخلافة راشياً
سوق تباع بها المراتب سميت
أبت السياسة أن تدوم حكومة
مَثَل الحكومة تستبدُّ بحكمها
يا أمة رقدت فطال رُقادها
أَيكون ظل الله تارك حكمه الـ
أم هل يكون خليفة لرسوله

^١ نَقَا: القطعة من الرمل. متهيل: متصبب.

كم جاء من مَلِكٍ دهاكٍ بجوره
يقضي هواه بما يسومك في الورى
ويروم صبرك وهو يسقيك الردى
وقد استكننت له وأنت مُهانة
بات السعيد وبَّت فيه شقيَّة
تلك الحماقة لا حماقة مثلها
إن الحكومة وهي جمهورية
سارت إلى نجح العباد بسيرة
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لم
حتى استقلوا كالكواكب فوقنا
وعَلُوا بحيث إذا شَخَصنا نحوهم
لِيسوا ثياب فخارهم مَوْشِيَّة
نالوا وصال مُنى النفوس وإنها
حتى أقيم مجسِّمًا تمثالُها
تمثال ناعمة الشمائل وجهها
أفبعد هذا يا سَراة مواطني
الغوث من هذا الجمود فإنه
قد أبحرت شَمُ الجبال وأجبلت
ما ضَرَّكم لو تسمعون لناصح
حتَّام نبقى لُعبة لحكومة
تنحو بنا طرق البوار تحيُّقًا

ولواك عن قصد السبيل الأفضل!^٢
خسفًا وينقم منك إن لم تقبلي
ويريد شكرك وهو لم يتفضَّل
حتى صبرت لفتكه المستأصل
تُستخدمين لغيِّه المسترسل
حُمقًا فهل هو من صحيح تعقل
كشفت عماية قلب كلِّ مُضلل
أبدت لهم حُمق الزمان الأول
نبرح نسوخُ إلى الحضيض الأسفل^٣
تجلو الظلام بنورها المتهلل
من تحتهم ضحكوا علينا من علٍ
بالعزِّ وهي من الطراز الأكمل
حرية العيش الرغيد المُخضل^٤
بين الشعوب على بناءٍ هَيكل
تزداد نورًا منه عينُ المجتلي
نرضى ونقنع بالمعاش الأرذل؟!
تالُّه أهونُ منه صُمُ الجنْدل^٥
لجج البحار ونحن لم نتبدل
لم يأت من نسج الكلام بهلهل^٦
دامت تجرُّعنا نقيع الحنظل؟!
وتسومنا سوء العذاب الأهول

^٢ لواك: صرفك. قصد السبيل: أي السبيل المستقيمة.

^٣ نسوخ: نغوص.

^٤ المخضل: الندي.

^٥ الجنْدل: الحجارة، مفردها: جندلة.

^٦ الهلهل: الثوب الرديء النسج.

رقية الصريع

هذا ونحن مُجَدَّلون تجاهها كالفأر مرتعدًا تجاه الخَيْطَل^٧
ما بالنّا منها نخاف القتل إنّ قمنا! أما سنموت إنّ لم نُقتل؟!
يا عاذلاً فيما نفثت من الرُّقى وعزمت فيه على الصريع المهمَل
انظر لصرعة من رقيت وطولها فإذا نظرت فعند ذلك فاعذَل

^٧ مجدلون: مطروحون أرضًا. الخيطل: السنور، ويطلق على الكلب أيضًا.

مثنيات شعرية

أشُرُّ فعل البرايا فعل منتحر وأفحش القول منهم قول مفتخر
إن التمدُّح من عُجْبٍ ومن أشُرٍ والمرءُ في العجب ممقوت وفي الأشر¹

* * *

يا راجي الأمر لم يطلب له سببًا كيف الرماية عن قوس بلا وتر؟!
ليس التسبب من عجز ولا خورٍ وإنما العجز تفويضٌ إلى القدرِ

* * *

دع الأناسيَّ وانسبني لغيرهم إن شئتَ للشاءِ أو إن شئتَ للبقرِ
فإن للبشر الراقى بخلقته مَنْ قد أنفت به أني من البشرِ

* * *

ألَيْسَ حياتك أحوال المحيط وكن كالماء يلبس ما للظرف من جدرِ
وإن أبيت فلا تجزع وأنت بها عارٍ من الإنس أو كاسٍ من الضجرِ

* * *

إن رمتَ عزًّا على فقر تكابده فاستغنِ عن مال أهل البذخ والبطرِ
فإنما النفس ما لم تنأ عن طمعٍ فريسة بين ناب الذل والظفرِ

¹ الأشر: البطر.

* * *

إذا نظرتَ إلى الجزئي تصلحه فارقبه من مَرَقَبِ الكلِّي في النَّظَرِ
فإنَّ نفْعَكَ شَخْصًا واحدًا رُبَّمَا يكون منه عموم الناس في الضرر

* * *

قد يقبح الشيءُ وضعًا وهو من حسن كالنعش يْدْهَشُ مَرَأًى وهو من شجر
فالقبح كالحسن في حكم النُّهى عَرَضٌ وليس يثبِت إلا عند معتبر^٢

* * *

لا تعجبَنَّ لذي عقل يروح به لينتج الشرُّ خيرًا غير منتظر!
فإنما لمعات الخير كامنة بين الشرور كمون النار في الحجر

* * *

سبحان مَنْ أوجد الأشياءَ واحدةً وإنما كثرة الأشياء بالصُّور
هَبْ منشأ القوم يبقَى مبهمًا أبدًا فهل ترى فيه عقلًا غير منبهر؟

* * *

الحب والبغض لا تأمن خداعهما فكم هما أخذا قومًا على غرر!
فالبغض يبدي كُدورًا في الصفاءِ كما أن المحبة تبدي الصفو في الكدر

* * *

وأشنع الكذب عندي ما يمازجه شيءٌ من الصدق تمويهاً على الفكر
فإن إبطال هذا في النُّهى عَسِرٌ وليس إبطال مُحض الكذب بالعَسِر

* * *

قالوا: عشقتَ معيَبَ الحسن! قلتَ لهم: كَفُّوا الملامَ فما قلبي بمنزجر
ما العشق إلا العمى عن عيبٍ مَنْ عَشِقتُ هذي القلوب ولا أعني عمى البصر

^٢ النُّهى: العقل.

* * *

قالوا: ابنُ مَنْ أنت يا هذا؟ فقلت لهم: أبي امرؤٌ جدُّه الأعلى أبو البشر
قالوا: فهل نال مجداً؟ قلت: وا عجبني! أتسألوني بمجدٍ ليس من ثمري؟!^٣

* * *

لا دَرَّ دُرٌّ قصيدٍ راح ينظمه مَنْ ليس يعرف معنى الدَّرِّ والدُّرِّ^٣
يبكي الشعور لشعر ظل ينقده مَنْ لا يفرق بين الشُّعر والشَّعر

* * *

قالت «نوار» وقد أنشدتها سَحَرًا: مِمَّنْ تعلمت نفثَ السحر في السحر؟
فقلت: من سحر عينيك الذي سحرت به المشاعر من سمعٍ ومن بصرٍ

^٣ الدر بفتح الدال: هو اللبن.

إلى المتقاعدين من ضباط الجيش

هذي صفاتٌ حازها المتقاعد
كي يستريح من الجهاد مجاهد
إن البطالة للرجال مفسد
عما تقوم به الحكومة حائد
لون الحياة بغير سعي كامد
فالراقد الكسلان فيها بائد
هممٌ مثبّطة وعزم راقد
فيها من السعي الحثيث مشاهد
والسعي نارٌ والبلاد مواعد
نقدًا يصول به عليكم ناقد
أنّ الحياة تعاونٌ وتعاضد
كيلا يكون تباغض وتحاسد
رجل — إذا دعت الدواهي — واحد
في السلم أعمال لكم ومقاصد
منكم أشد من السيوف سواعد
فيها سلاح المرء جهد جاهد
عند اللئام دسائس ومكايد
للناس فيه مصالح وفوائد

عقل وتجربة وجدٌ زائدُ
جعلوا التقاعد للجنود كرامة
ليس التقاعد للرجال بطالةً
لكنه عمل جديد نافع
بالسعي تزدهر الحياة وإنما
إن الحياة ليقظة فعّالة
لن تبلغ العلياء في ساحاتها
انظر تجد شعبَ الحياة كثيرة
فكأنّ أشغال الحياة مراجل
يا أيها المتقاعدون ألا اتّقوا
علمت تجاربكم وأيقن رأيكم
فاستمسكوا بعُرى المودة بينكم
كونوا جميعاً في الحياة كأنكم
في الحرب طاب لكم جِلاّدٌ فلتطبّب
تركت أكفكم السيوف وعندها
كل الحياة معارك لكنما
ولربما كانت سلاحاً نافذاً
فأتوا من الأعمال ما هو صالحٌ

وتتبعوا سُبُلَ الحَيَاةِ ولا يكن	منكم إلى غير المكارم قاصد
وتصرّفوا في أمرها بمهارةٍ	وذروا السيوف فإنهن جوامد
ما عاب من سَلِّ المهنّد أنه	للسيف من بعد التجالد غامد

دار تربية الطفل

حَسَدْتُ أَرْضَهُ عَلَيْهِ السَّمَاءُ
فِيهِ قُدْسِيَّةٌ فَهَذَا الْبِنَاءُ
شَرُفْتُ بِالْمَقَاصِدِ الْأَشْيَاءُ
لِي مِنْ تَحْتِ أَسْهِ الْعِلْيَاءُ
فَقَالَ فِيهِ حِمَايَةَ عِزِّهِ
فَكَّرْتُ فِيهِ قَبْلُنَا الرَّحْمَاءُ
مِنْ سَمُومِ تَذْوِي بِهِ الرُّضْعَاءُ
عَلَى أَنْ أُمُّهُ ثَدِيَاءُ
يَنْهَكَ الْبُؤْسُ جَسَمَهَا وَالشَّقَاءُ
حَ ذَبُولَ بِجَسَمِهَا وَارْتِخَاءُ
وَهُوَ إِنْ عَاشَ عَاشَ فِيهِ الدَّاءُ
وَلَهَا مِنْ حَيَاتِهَا إِفْنَاءُ
فَقَالَ تَفَنَّى لِأَنَّهُمْ فَقَرَاءُ
لَا وَطَاءُ مِنْ تَحْتِهِمْ لَا غِطَاءُ
مِنْ السَّجَايَا أَنْ تُرْحَمَ الْعِجْمَاءُ
فِيهِ لِلنَّاسِ مَأْمَلٌ وَرَجَاءُ
شَرَفٌ بَاذِخٌ لَنَا وَعِلَاءُ
بَغٍ مِنْهُمْ نَوَابِغٌ أَذْكَيَاءُ

أَيَّ قُدْسٍ يَضُمُّ هَذَا الْبِنَاءُ!
إِنْ يَكُنْ فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ شَيْءٌ
هُوَ مِنْ هَذِهِ الْبَنِيَّاتِ لَكِنْ
كَلِمَا قَدْ رَأَيْتَهُ تَتَجَلَّى
هُوَ بَكَرٌ فِي ذِي الْبِلَادِ وَلِلْأَطْ
لَمْ نَكُنْ قَبْلَ ذَا نَفْكَرْ فِيمَا
كَانَ لِلْبُؤْسِ فِي الْمَوَاطِنِ لَفْحُ
رَبِّ طِفْلِ أَوْدَتْ بِهِ قَلَّةُ الدَّرْ
أُمُّهُ مِنْ أَبِيهِ آمَتْ فَأَمْسَتْ
فَحَكَى شَخْصَهَا الْخِيَالَةَ إِذْ لَا
فَهُوَ إِنْ لَمْ يَعِشْ فَمَوْتُ مُرِيحُ
هَكَذَا كَانَتْ الْمَوَالِيدُ تَحْيَا
وَمِنْ اللَّؤْمِ أَنْ تَرَى عِنْدَنَا الْأَطْ
لَا غِذَاءُ فِي جُوفِهِمْ لَا كِسَاءُ
إِنَّهُمْ غَيْرُ مُعَرِّبِينَ وَمِنْ حَسْ
عَلَّ مَنْ لَوْ يَعِيشُ مِنْهُمْ لِأَضْحَى
رَبِّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مَاتَ مَعَهُ
لَيْسَ مَوْتُ الْأَطْفَالِ هَيْئًا فَقَدْ يَنْ

لست تدري: دُرُّ بها أم خلاء؟	إنما هم كمثّل أصداف بحر
مات عقل بموته ودهاء	ولعلّ الطفل الذي مات منهم
لم تطاوله في العلا الجوزاء	شأن هذا البناء شأن عظيم
فيه من تحت أسّهِ العلياء	كلما قد رأيتَه لمعت لي
سادة في طباعهم كرماء	ولقد دلّ أن مَنْ شيدوه
بلغوا من فخارهم ما شاءوا	شكر الله سعيهم من رجال
فيه حمد لهم وفيه ثناء	سوف يبقى لهم على الدهر ذكرٌ

خزانة الأوقاف

كنز يَفِيضُ غِنًى من الأوقاف
لتوجَّروا منه الداء الشافي
لتثقفوا منه بخير ثقاف
لأطارهم بقوادم وخوافي
في جانبيه عوامل الإتلاف
تجري الرياح بها وهن سوافي
أهل الحياة به من الإجحاف
وتغافلوا عن حكمة الإيقاف
وتعاملوا فيه بنفع خافي
في كل حال منه بالسَّفساف
ماذا التوقُّفُ عند رسم عافي؟
غَيْرُ الزَّمان فعاد كالصفصاف
نَفَع العموم تناقض وتنافي؟
وأمرنا هي للزمان قوافي؟
أمست تعد اليوم بالآلاف
في الحكم واحدة لدى الأسلاف
من كل علم بالزلال الصافي!
من كل فنَّ بالنصيب الوافي

للمسلمين على نزُورة وفُرهم
كنزٌ لو استشفَّوا به من دائهم
ولو ابتغَوْا للنشء فيه ثقافة
ولو ارتقَوْا بجناحه في عصرهم
لكنهم قد أهملوه وأعملوا
فإذا نظرت رأيت ثمة أرضه
قد تابعوا الموتى عليه وما وقوا
وقفوا به عند الشروط لواقف
تركوا له في العصر نفعا ظاهرا
لم يستجدوا فيه شيئا واكتفوا
قل للذين تقيَّدوا بشروطه
غرسوه غرسا مثمرا لكن جرت
هل بين شرط الواقفين وبين ما
أنريد أن يقفوا الزمان أمورنا
الأرض مسجدا فقيم مَساجدُ
كان الصلاة بمسجد وبغيره
هَلَّا جُعِلْنَ مدارسَ فياضة
ينتابها أبناؤكم كي يأخذوا

فيفيض فيض العلم حتى يرتوي
إن لم يكن شرف البلاد محصناً
وإذا النفوس تسافلت من جهلها
هذي الخزانة أنشئت فبناؤها
أيظنُّ ذو عقل بأن بناءها
تالله ليس بمُنكرٍ تشييدها
أحيوا بها عصرَ العلوم لدولة
عصر الرشيد أبي الخلاف إذ غدت
في عهد فيصلنا المعظم أنشئت
فإذا هتفتُ بحمده وبشكره
ناديت طلاب العلوم مؤرخاً
منه بنو الأمصار والأرياف
بالعلم كان مهتدَّ الأطراف
لم يُغلها شممٌ على الأناف
للأمر فيه تدارك وتلافي
أمر لشرط الواقفين مُنافي
إلا امرؤ خالٍ من الإنصاف
خلفاؤها من آل عبد مناف
بغداد رافلةً بمجدٍ ضافي
علماً يشير لأشرف الأهداف
ردَّ الصدى بنيانها لهتافي
حُجُّوا بناء خزانة الأوقاف

التعصب الوطني للأدب

تتعمدُ التّمسيرَ في آدابها
لم تنتحلها مصر في أنسابها^١
متواليّ النزغاتِ في أعصابها^٢
في مصر يغضبُ منك أهل جَنابها
ما إن ترى فيها لقولك آيها
أن لن يكون له البعيد مشابها
وسواه مفضول وإن يك نابها
مقصورة فيها على كُتابها
من فرطِ ضلّلتها ألو ألبابها
جلّت عن الأوطان في استنسابها
دار محرمة إجافةً بابها^٣
كمواطن الأعراب في إعرابها؟
صُرِدَ رَقَى في مصر رَقَى غرابها^٤

من جَوْر مصر على العروبة أنها
وتحيد عن آداب كل قبيلة
فترى بمصر تعصّباً لأديبها
فاذكر أولي الآداب من غير الألى
وأشدّ بمن في غير مصر مُنوّها
تحفى بمنشدها القريب وتدعي
فالشاعر المصريّ فيها فاضل
وكأنما أمست مواهب ربنا
هذا لعمر الله جَوْر عدّه
آدابُ كل معاشر كعلومهم
للعلم والآداب في كل الورى
من أين كانت مصرُ في أقباطها
أبتِ العروبة أن يفوق هزّارها

^١ تنتحلها: تدعيها.

^٢ النزغات: جمع نزغة، وهي الميل مع الهوى.

^٣ إجافة الباب: إغلاقه.

^٤ الصرد: طائر. وزقى: صاح وصوت.

عتاب وولاء

للشاعر الصادق الإحساس نعمان
من القريض رفيع ليس بالداني
فرع الذؤابة من علياء عدنان
كمثل أزهار روض ذات ألوان
حتى اتسقت بأنغام وأوزان
مازجن في الشدو ألحاناً بألحان
ويزدهيك من المعنى بأفنان
ما يفعل الماء في أحشاء ظمآن
حيناً وترسب أحياناً بأحزان
كيف ابتدعت نشيداً هاج أشجاني؟!
حسن الفرائد في أسلاك عقيان
قرحاً بقلبي قديماً كان أدماني
فإنه عن شجون اليوم سلّاني
وإن يكن هاج بي شجواً فأبكاني

أقيم راية تحميدي وشكراني
أقيمها رمز تعظيم على نشر
للشهم ذي الأدب الزاكي بمحتده
من جاءني بقوافٍ جدّ زاهية
قد زانهنّ بوشي من بدائعه
لما شدونَ بموسيقى براعته
ينوط بالسمع من ألفاظها درراً
لقد فعلن بنفسي حين أنشدها
فقلت، والنفس تطفو في مسرّتها
يا شاعراً تطرب الدنيا نشائده
أنشدتنيه رُقى تحكي بروعتها
شعر يفيض شعوراً قد نكأت به
إن كان بالشّجن الماضي يذكّرني
هذا لعمرك شعر قد سررت به

* * *

تنبيك عن شغفي في حبّ أوطاني
إلا لأدفع عنها كل عدوان
نفسي وأهلي وأحبابي وخلاني

إليك أرسل يا نعمان قافيةً
أشربتُ حبّ بلادٍ ما نشأت بها
أخلصتُ حبّي لها حتى نسيت به

عش بعد موتَي عيشِ الوداع الهاني
وكل أبنائك الأعداء إخواني
أذاك بالمزعجات الدهر آذاني
إن كنت أنت جليل القدر والشان
إن لم تكن أنت ذا عزٍّ وسلطان
ما كت غير ظلوم فيك خوآن
أن لا أقابل نعماء بكفران
بالنصر أول أنصار وأعوان
بنيت للمجد فيه خير بنيان
نفس ولا ازدهرت أرض بعمران
ما كان أفضل منها كل إنسان
فقربوا من حياتي كل قربان
مما بكم حل من هون وخسران
وإن يكن شظفي في العيش أصواني
فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان
وتترك القصف في ذلِّ لمبطان
في الهند يمشي وثيِّداً شبه عريان
والذل أقتل من جوع لجوعان
والجوع يقتل منه جسمه الفاني
وإنما هو تقويم لأبدان
عن المطاعم تخليطاً بألوان
يزول عنه ولو من بعد أحيان
يحيي الثناء عليه عمره الثاني

يا موطناً لست منه في موادعة
فكل مَنْ فيك تغنيني سعادتهم
إن سرَّكَ الدهر يوماً سرني وإذا
ما ضرَّني أن كل الناس تحقرني
وليس ينفعني عزٌّ ولا شرف
لو ملَّكونيك عن قهرٍ بلا ثقة
أليْتُ منذ بلغت الحلم في وطني
وأن أكون له عوناً أوازره
إني وإن لم أوفق في تحرره
لولا التعاون بين الناس ما شرفت
لولا التعادي الذي تشقى الوحوش به
يا قوم إني من الدنيا ضحيّتكم
واستنصروا الله وادعوه لينقذكم
لا تحسبونني منكم جازعاً ضجرًا
إني ألُفت على الأيام مخمصتي
تختار نفسي الطوى بالعز قانعة
أعيش عيشة «غندي» وهو ذو جِدَّة
العز أعظم للإنسان من شبع
فالذل يقتل نفساً منه باقيةً
وما الطعام بمأكولٍ للذته
وفي القفار غنى للمستقيت به
وكل ما يملك الإنسان عاريةً
وإنَّ ذَكَرَ الفتى بعد الممات بما

* * *

ناموا على الأمن في أحضان غفراني
أُحْرِقْتُ من لظى هجوي بنيان
حتى بذيتُ بذاء الماجن الخاني

يا لاهجٍين بشتمي في مجالسهم
لولا ترفع نفسي في سفاهتكم
جادلتموني فما أحسنتموا جدلي

شتى الأقاويل من زور وبهتان
 مَنْ ليس يقرع بالبرهان برهاني
 إلى التقوُّل عن زهو وطغيان
 فالغش ديدانكم والنصح ديداني
 عزماً يؤيده بالله إيماني
 بل أتبع العفو عنها بعض إحسان
 عني الأخلاء من شيب وشبان
 من كل أحمر هيَّان بن بيَّان
 مستعجم القول جافي الطبع مرطان
 ولستم في السجايا غير غربان؟
 وإن يكن جاء في مسلاخ إنسان
 في أن يُسمَّى ابن آوى باسم سرحان
 وتشمخون إلى آفاق كيوان
 أيدي الأجانب تلُّ الجارم الجاني
 في رعدة بلسان الخائف العاني
 وتضمرون ضمير الفاجر الزاني
 لعاذ بالله من كل شيطان
 شعراً أتى من زكي النفس نعمان
 كل الكواكب من قاص ومن دان
 أهل المكارم من أبناء عدنان
 رِيَّان من شرفٍ بالمجد مزدان!

وخضتم الباطل المبدي بنعرته
 ومن عناء الليالي أن يجادلني
 بل يترك القول من عجز ومن خورٍ
 تأبى المروءة إلا أن أخالفكم
 وإن لي في إبائي كلَّ شائنةٍ
 ولا أريد قصاصاً من شتائمكم
 تلکم سجيّة حرّ النفس يذكرها
 يا منتمين إلى عرب وهم عجمُ
 سمج الملامح في عثونهِ صهب
 كيف استويتم صقوراً في مجاثمكم
 وما بكم غير قرد في جبلّته
 إذا تسمّيتمو عرباً فلا عجبُ
 تستنثرون صغاراً في معاطسكم
 ورب مستكبر منكم تُتَلَّتِلُهُ
 فيستكين لهم حتى يكلمهم
 كم تظهرون عفافاً في تدينكم
 لو كان في الجنّ شيء من خباثتكم
 هذي قوافٍ دعاني أن أبوح بها
 ذاك الأديب الذي باهى بسيرته
 وباهرت في مساعيه مكارمه
 أكرم به يافعاً شرخ الشباب به

مناجاة وشكوى

إلى كم تنأغي بالقوافي السواحر؟
يُرَوِّدُ منها سمعه كلُّ شاعر
فلم تَلَقَ إلا غيرَ وَاعٍ وذاكر
فتدعُو منهم خاذلاً غيرَ ناصر
فهل أنت مغرور ببيض المسافر؟
لدى كل ذي علم بما في السرائر
ظواهرهم منقوضة بالضمائر
ومن بطرٍ فيهم بداءِ الضرائر
فساد السجايا وانمساخ العناصر
أنانيَّة حَلَّتْ عقود الأواصر
على عكس عيشٍ عند أهل الحواضر
وحسنَ ابتسام من ثغور مواكر
كأنَّ لَمْ يَبْثُوا منك قِليلاً لزائر
فيَلْقونهم بالمنظر المتخازر
يَدْجُون منها في الدِّياجي الكوافر
يعودون في العقبى بصفقة خاسر
لكل كذوب بينهم متشاعر
لعمركُ منها كلُّ طامٍ وذاخر

أقول لربِّ الشعر مَهدي الجواهر:
فترسلها غُرّاً هواتفَ بالُعلا
وتشددو بها والقومُ صُمٌّ عن العلا
أترجو من الحسادِ عَوناً وناصراً
كأنك لم تبصرَ سوادَ قلوبهم
روَيْدِكَ! إن القوم ليسوا كما ترى
فلا تغتررُ منهم ببادٍ فإنما
رمتهم يدُ الأيام من جشع بهم
بداءين قتالين حمّت نفوسهم
وقد فَرَّقَتْ أهواءهم في بلادهم
لذاك ترى كُلاًّ يعيش لنفسه
إذا جئتهم أبدوا إليك بشاشة
وإن غبت عنهم أوسعوك مَدَمَّةً
وقد ينكرون العار فيهم تجاهلاً
فدَعُهُمْ وما هم فيه من جاهلية
فسوف تراهم من تماذي ضلالهم
ونزّه بليغ الشعر عنهم بتركه
سكبتُ بحورَ الشعر قبلك خائضاً

وسَيَّرْتُ منْ غُرِّ القوافي بلجَّها	قصائدَ سارت كالسفين المواخر
بكيّت بها المجدَ المضاعَ بأدمع	من الشعر شروى اللؤلؤ المتناثر
ونحتُ على الماضي الذي كان زاهراً	مناحة ربات الجبال الحرائر
فلم أُلِفْ إلا مُنكرين مكانتي	يُحيدون عني كالوحوش النوافر
كما راعني منهم تماسيحُ خُسّة	تريد ازدرادي بالحلوق الفواغر
فقابلتهم بالصفح عنهم ترفّعاً	وأعرضت عن شتم السّففيه المُهاير
أنا النوم من هذي الحياة على شفا	أشارف منه مَرَقدي في المقابر
سأرحل عنهم عائداً من شرورهم	بربّ كريم قابل التّوب غافر

في حفلة الميلاد النبوي

وضح الحق واستقام السبيلُ
قام يدعو إلى الهدى بكتابٍ
طالباً غايةً من المجد قصوى
ووصولاً إلى مقام رفيع
همة دونها الكواكب نوراً
بعظيم هو النبي الرسول
عربي قرآنه ترتيل
صدّه عن بلوغها مستحيل
عزّ مَنْ قبله إليه الوصول
واعتلاء يعلو به ويطول

* * *

جرّد الله منه للحق سيقاً
فيه عزم للمهلكات قحوم
ودهاء لو ماكرته دواهي الد
تدلهم الخطوب والرأي منه
كل أوصافه الجليّة بدّع
كل ضدين حده والفلول
واضطبار للنائبات حمل
هر طراً لاغتالها منه غول
في دجاها كأنه قنديل
فهو من عبقرية مجبول

* * *

أطلق الناس من تقاليد جهل
وشفاهم بهديه من ضلال
أنهض القوم للعلاء وكانت
فاستقالت به على الدهر يقضي
تلك في الدين نهضة هي للعقـ
كل فرد منهم بها مغلول
كل فرد منهم به معلول
في دنا القوم رقدة وخمول
همم يعربية وعقول
ل انتباه وللهدى تأثيل

من أمام البعير فرَّ الفيل	نهضة عالمية في وغاها
كل أفق بفضلها مشمول	هَنُّ كالبرق سرعة والتماعاً
وتداعى إيوانها المستطيل	خضعت فارسٌ لها عن صغار
أثر مثل طودها لا يزول	وإلى اليوم قام في الهند منها
من قديم ويشهد الدردنيل	يعرف النيل فضلها وعلاها
وتقر التوراة والإنجيل	وبها الأرض والسموات ترضى

* * *

واستحلنا وكل حال تحول	غير أنا عن نهجها اليوم حدنا
ورجعنا وفي الصعود نزول	حيث عدنا وفي النهوض قعود
فرقاً لا يسيغها المعقول	واختلفنا في الدين حتى افترقنا
بالتزام الفروع منه الأصول	والتزمنا الفروع منه فضاعت
وَلِمَنْ هم مخالفوه خذول	كلُّ حزب بما لديه فخور
غضب الله فوقها مسدول	بدعٌ في حياتنا منكرات

* * *

كلَّ أي بها أتانا الرسول	حالة ساءت الرسول وساءت
مستفيض والخير نزر قليل	لو رأنا والشر فينا كثير
ووجوه الهدى عليها محول	وثغور الضلال مبتسمات
طال فيها التزمير والتطويل	والدعاوى في الحق منا كبار
عند بعض وعند بعض عويل	نعبد الله والعبادة لحنٌ
يكثر المسح فيه والتقبيل	ونحجُّ القبور كالبيت حجاً
وهو في الدين ما له تحليل	ونعد الركوع للقبور جلاً
فضحايا مسوقة وحمول	ونزجِّي إلى القبور نذوراً
هو للشرك عامد وفعل	ونقول التوحيد قولاً وكلُّ
ما بهذا قد جاءني جبريل	قال مستنكراً لما نحن فيه:
ن الأوبُّ لله وحده والقفول؟	أين دين التوحيد منكم وأيـ
شبه للأصنام أو تمثيل	أنا حرمت كل ما كان فيه
هو دين الإسلام فهو جهول	كل مَنْ قال منكم: إن هذا

لِمَ لَمْ تحفظوا أُخُوَّةَ دينٍ جاءكم ناطقًا به التنزيل؟
كان حبل الإخاء فيكم وثيقًا كيف أمسى وعقده محلل
لست منكم بيائس بل نهوض منكم بعد فترة مأمول
فاجمعوا الشمل ناهضين فإن الـ كفر في الدين عجزكم والخمول

إلى العمال

ليس إلا نتيجة الأعمال
ة عيشُ فالفضل للعمال
فبفضل الإنتاج والإبدال
لا حياة للعاطل المكسال
قد حوى كل باطلٍ ومحال
لغني مستأثرٍ بالغلال
أرغدته لهم يد الإقلال
لسواهم ما أخرجوا من لآلي
كعبيد والموسرين موالي
قعدوا في قصورهم والعلالي
في شقاءٍ وأبؤس واعتلال
طرقات المخاتل المحتال
من خياناتنا مسوح الثُّعال
ها قديمًا من العصور الخوالي
هكذا في عَمَايةٍ وضلال؟!
ة فيما يختصُّ في الأموال
قديمًا في غابر الأجيال
خطوة نحو مبتغاه العالي

كلُّ ما في البلاد من أموال
إن يطب في حياتنا الاجتماعيـ
وإذا كان في البلاد ثراء
نحن خلق المقدَّرات وفيها
عندنا اليوم في الحياة نظام
حيث يسعى الفقير سعي أجيرٍ
فترى المكثرين في طيب عيشٍ
وترى الغائصين في البحر أمسى
وترى المعسرّين في كل أرض
أكثر الناس يكدحون لقوم
واحد في النعيم يلهو وألف
حالة في معاشنا أسلكتنا
فترانا بعضًا لبعض لبسنا
تلك عادٌ مستهجنات ورثنا
فإلى كم نشقى وحتامَ نبقى
إنما الحق مذهب الاشتراكيـ
مذهب قد نحا إليه أبو ذرٍّ
ليس فضل الزكاة في الشرع إلا

مبدأ ذو مقاصد ضامناً
موصلات إلى السعادة في العيـ
ليس للمرء أن يعيش بلا كدّ
كل مجدٍ يُبنى على غير سعي
ليس قدر الفتى من العيش إلاّ
ما رءوس الأموال إلا أداة
مثل شدّ الأحمال شدّ المساعي
صاح ماذا تجدي الدنانير لولا
أفتأتي من الطعام بديلاً؟
حاجة المرء أكلة وكساء
إن للعيش حومةً في وغاها
إنها مثل حومة الحرب ما دا
وسوى الحذق ما بها من سلاح
بطل الحرب مثله بطل السعـ
ونشاط منه ببيض المساعي
أيها العاملون إنّ اتحاداً
ما لعيش تشقّون فيه سقاماً
فليكن بعضكم لبعض نصيراً
وإذا قلت: إنكم أنتم النـ
فاعملوا دائبين غير كسالى
ثم قولوا معي مقالاً رفيع الصـ

ما لأهل الحياة من آمال
ش هوادٍ إلى طريق التعلّـ
وإن كان من عظام الرجال
فهو مجدٌ مهددٌ بالزوال
قدر إنتاج سعيه المتوالي
للمساعي كالحبل للأحمال
ودنانيرها لها كالحبال
همم الدائبين في الأشغال؟
أفتغني عن كسوة ونعال؟
وسوى ذاك بسطة في الكمال
لا تحقّ الحياة للبطل
رت رحاها إلا على الأبطال
وسوى الكدّ ما بها من قتال
ي ومنه الأعمال مثل الصيال
مثل إشراعه لسلّ العوالي
بينكم مُرخصٌ لكم كلّ غال
بسوى الاتحاد من إبلال
ومعيناً له على كل حال
س جميعاً فلا أكون مغال
وارقبوا ما به ستأتي الليالي
سوت: فلتَحْيَا زمرة العمّالِ

الفلسفيات

خواطر شاعر

تجاه شاعرية الريحاني

لعمرك ما كلُّ انكسارٍ له جبرٌ
لقد ضربت كفُّ الحياة على الحجا
فقمنا جميعاً من وراءِ ستارها
حكّت سرحة فنواءٍ نُبصر فرعها
وقد قال بعضُ القوم: إن حياتنا
فإن كان هذا القول فيها حقيقةٌ
وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها
وإن رقيتْ نحو السماء فحبّاً

ولا كلُّ سرٍّ يُستطاع به الجهرُ
ستاراً فعلمُ القوم في كنهها نزر¹
نقول بشوقٍ: ما وراءك يا ستر؟
ولم ندر منها ما الأنابيش والجذر²
كليلٍ وإن الفجر مطلعهُ القبرُ
فيا شدّ ما قد شاقني ذلك الفجر
بقاءً وحسّ فالحياة هي الخسر
إذا أصبحت مأوى لها الأنجم الزهر

* * *

وأعجب شأن في الحياة شعورنا وأعجب شأن في الشعور هو الجُر³

¹ يقول بهذا البيت والذي بعده: إن لنا من حياتنا سترًا مسدولًا على عقولنا، فليس لنا من العلم بما وراء ستر الحياة إلا النزر اليسير، ولكن عندنا شوق كبير إلى معرفة ما وراء الحياة.

² السرحة: الشجرة العظيمة. وفنواء: كثيرة الأفنان، واسعة الظل. وأنابيش: أصول الشجرة تحت الأرض، واحدها: أنبوش. بَيْنَ في البيتين السابقين جهلنا بما بعد الحياة، أي: بمنتهاهما، وبَيْنَ بهذا البيت جهلنا بما قبلها.

³ الحجر، بكسر فسكون: العقل.

وللنفس في أفق الشعور مخايلٌ
وما كلُّ مشعور به من شئونها
ففي النفس ما أعيَا العبارة كشفهُ
ومن خاطرات النفس ما لم يَقُمْ به
ويا رَبَّ فكر حاك في صدر ناطقٍ
ويا رَبَّ معنَى دَقَّ حتى تخاوصتِ
أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومهُ
وأفق المعاني في التصوُّر واسعٌ
ولولا قصور في اللُّغا عن مرامنا
ولست أخصُّ الشعر بالكلم التي
وذاك لأنَّ الشعر أوسع من لُغَا
وما الشعر إلا كل ما رنَّح الفتى
وحرَّك فيه ساكنَ الوجد فاغتندى
فمن نفثات الشعر سجعُ حمامة
ومن شذرات الشعر حومُ فراشةٍ
ومن ضحكات الشعر دمة عاشقٍ
ومن لمعات الشعر نظرةٌ غادةٍ
ومن جمرات الشعر رنةٌ ثاكلٍ
ومن نفحات الشعر ترجيعُ مطربٍ
وإنَّ من الشعر ائتلاقُ كواكبٍ

إذا بَرقت فالفكر في برقها قطرٌ
قديرٌ على إيضاحه المنطقُ الحرُّ
وقصَّر عن تبليانه النظمُ والنثر
بيانٌ ولم ينهض بأعبائه الشعر
فضاق من النطق الفسيح به الصدر
إليه من الألفاظ أعينُها الخُزرُ
كفاية معنى فاقد العد والحصر؟!^٤
يتيه إذا ما طار في جوِّه الفكر
لما كان في قول المجاز لنا عذر
تُنظَّم أبياتاً كما تنظم الدُّر
يكون على فعل اللسان لها قصُر
كما رنَّحت أعطافَ شاربها الخمر
مهيجاً كما يستنُّ في المرح المهر
على أَيْكَةٍ يُشجي المشوق لها هدر^٥
على الزهر في روض به ابتسم الزهر
بها قد شكا للوصل ما فعل الهجر
بنجلاء تسبي القلب في طرفها فتر^٦
مُفجَّعة أودى بواحدها الدهر
تعاوَرَ مجرى صوته الخفضُ والنبر
بجُنح الدجى باتت يضاحكها البدر

^٤ تخاوصت: أي غضت من بصرها شيئاً. والخزر: جمع خزراء، وهي العين الصغيرة الضيقة، ومعنى البيت: أن من المعاني ما يدق حتى تقصر عن بيانه الألفاظ.

^٥ أسومه: أي أكلفه. يقول: إن الألفاظ متناهية، والمعاني غير متناهية، فكيف يحيط المتناهي بغير المتناهي.

^٦ الهدر: صوت الحمام.

^٧ نجلاء: عين واسعة.

وإن لريحانيِّنا شاعريَّةً من الشعر فيها ما يقال هي الشعر
وما الشعر إلا الروضُ أما أَمِينُنَا فريحانة، والخلق منه هو النشر
وإن لم يكن شعري من الشعر لم يكن لَعَمْرُ النَّهْيِ للشعر عند النهي قَدْرٌ^٨

^٨ النهي: جمع نهية، وهي العقل.

وجه ابن آدم

لِلَّهِ سِرٌّ فِي الْأَنَامِ مُطْلَسٌ
بَرًّا ابْنِ آدَمَ وَهُوَ إِنْ لَمْ تَلْقَهُ
وَإِذَا نَظَرْنَا فِي الْعَجَائِبِ نَظْرَةً
أَمَّا الْعَجِيبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ فَهُوَ مَا
وَالْوَجْهَ أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ وَإِنَّهُ
هُوَ مَنْ طَرَّازُ اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ
أَمَّا الْحَوَاجِبُ فَهِيَ فِيهِ كَوَاشِفُ
وَلَرَبٌّ خَافِيَةٌ يَكْتُمُهَا الْفَتَى
كُلُّ شَيْءٍ إِلَى السَّرِيرَةِ وَجْهُهُ
فَالْوَجْهَ فِيهِ مِنَ الْقُرُونَةِ مَسْحَةٌ
صَرَخَ النَّهْيُ فَالْوَهْمُ فِيهِ تَيَقَّنَ
وَلَرَبٌّ وَجْهٍ فِي تَبَسُّمِهِ الْبُكَاءُ
وَالْأَنْفُ فِي وَجْهِ ابْنِ آدَمَ زِينَةٌ

حَارَ الْفَصِيحُ بِوصفه والأعجم
فِي الْخَلْقِ أَقْدَمَ فَهُوَ فِيهِ مُقَدَّمٌ
ظَهَرَ ابْنُ آدَمَ وَهُوَ مِنْهَا الْأَعْظَمُ
نَسَقَ الْكَلَامَ بِهِ إِذَا نَطَقَ الْفَمُ
لِيَحَارَ فِي سَحْنَائِهِ الْمَتَوَسِّمُ
بِسَرَائِرِ النَّفْسِ الْحَدِيثَةِ مُعْلَمُ
وَالْعَيْنُ فِيهِ عَنِ الضَّمِيرِ تَتَرَجَّمُ
وَالْوَجْهَ مِنْهُ بِسَرِّهَا يَتَكَلَّمُ
فَكَأَنَّهُ بِضَمِيرِهِ مُتَلَثَّمُ
لِلْخَافِيَّاتِ بِهَا وَضُوحٌ مُبْهَمٌ^١
تَحْتَ الْمَلَامَحِ وَالْيَقِينِ تَوْهَمٌ^٢
وَلَرَبٌّ وَجْهٍ فِي الْبُكَاءِ تَبَسُّمُ
فَالْوَجْهَ لَوْلَا أَنْفُهُ مُتَجَهَّمُ

^١ القرونه: النفس، ومعنى قوله: «وضوح مبهم»؛ أنك ترى ما يخفيه الإنسان واضحاً في وجهه، ولكنه مع ذلك لا يزال مبهمًا عنك إذ لا تعلمه يقينًا.

^٢ المراد بكونه صرعه النهي: أنه غلبها، والضمير في صرعه يعود إلى الوجه.

كالهُدْبِ فِي شَفْرِ الْعَيُونِ فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ تَنْشَتَرُ الْعَيُونُ وَتَسْجُمُ^٢

* * *

يُمَحُو كِتَابَتَهَا وَيَثْبِتُهَا الدَّمُ	إِنَّ الْوُجُوهُ صَحَائِفَ مَطْمُوسَةٍ
يَبْدُو تَحَرُّفُهَا فَلَا تَتَفَهَمُ	بَيْنَكَ تَقْرَأُ حَرْفَهَا مَتَفَهَمًا
طَوْرًا وَطَوْرًا جَاهِلٌ مَتَعَلِّمٌ	فَالْعَقْلُ فِيهَا عَالِمٌ مَتَجَاهِلٌ
بِالسَّرِّ لَكِنْ نَطَقَهُنَّ مَجْمَعٌ	إِنِّي أَرَى هَذِي الْوُجُوهُ نَوَاطِقًا
عَنْهَا وَلَكِنْ الْحَدِيثُ مَرَجَّمٌ	وَأَرَى لِحَاظِ عَيُونِهَا مَتَحَدِّثًا
وَكَأَنَّمَا هِيَ أَعْجَمِيٌّ طِمْطَمٌ ^٤	فَكَأَنِّي الْبَدَوِيُّ يَسْمَعُ رَاطِنًا

* * *

فَتَرَوُحُ مِنْهُ وَأَنْتَ صَبٌّ مُغْرَمٌ	وَلَرَبِّ وَجْهِ يَسْتَبِيكَ بِحَسَنِهِ
وَيَصْدُ عَنْكَ وَأَنْتَ فِيهِ مُتَيَّمٌ	يَبْدُو إِلَيْكَ وَأَنْتَ خَلُوفٌ مِنْ هَوًى
وَإِذَا أَضَاءَ فَكُلُّ بَذْرٍ مَظْلَمٌ	وَإِذَا تَغَيَّبَ فَالْبَدُورُ مُضِيئَةٌ
يَعْنُو السَّفِيهُ لَهَا وَمَنْ يَتَحَلَّمُ	لِلَّهِ فِي وَجْهِ ابْنِ آدَمَ حَكْمَةٌ

^٢ الهدب: شعر أشفار العينين. وتنشتر: أي تكون شتراء، أي: ذات شتر، وهو انقلاب الجفن من أعلى وأسفل أو انشقاقه أو استرخاؤه. وتسجم: أي تسيل الدمع.
^٤ راطنًا: متكلمًا بالأعجمية، وأعجمي طمطم: في لسانه عجمة لا يفصح.

ما وراء القبر

فينشطُ فيها العقل من عُقْلة الأسر^١
ويترك ما لم يدِرِ منها لِمَنْ يدري
عُزينا معادَ الله فيها إلى الكفر
كما قد جهلنا قبله أولَ العمر
ففي أيِّ أمر نحن بينهما نجري
وفي أيِّ ليلٍ من تشكُّكنا نسري؟
لنعبُرَ والأعمار جسر إلى القبر
وهل من مدًى بعد العبور على الجسر؟^٢
ألا هلْ لكسر الموت ويحك من جَبُر؟
غياهبه من سكرة الموت بالفجر
كما قيل: سِتْرُ والرّدى كاشف السّتر
عروج إلى الأعلى، إلى الأنجم الزهر؟
فتمكثُ منه في السماء على ذكر؟
فما من عُروجٍ بل نزولٍ إلى القعر

متى تطلق الأيام حرّية الفكرِ
ويصدعُ كلُّ بالحقيقة ناطقًا
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة
جهلنا أشدَّ الجهل آخر عمُرنا
هما ساحلا بحر من العيش مائج
ومن أين جئنا أم إلى أين قصدنا؟
كأنّا أتينا والمعيشة لُجّة
وماذا وراء القبر مما نريده؟
تسائلني نفسي وللموت صولة
لعلَّ حياة المرء ليلٌ ستنجلي
فإن كان ذا حقًا فإن حياتنا
وقد قيل: إن الروح تبقى فهل لها
وهل تعرف الجثمان بعد عروجها
إذا أرضنا كانت سماءً لغيرها

^١ عقلة: ما تعقل به الرّجلُ وتقيد.

^٢ المدى: الغاية.

وهل عَرَجَتْ أرواحُ مَنْ في عُطاردٍ
خيال به رُحنا نعلِّل أنفساً
وشبّه بالنهر الحياةَ معاشرُ
ولكنهم أعياء عليهم مَصْبُهُ
فيا ليت شعري أين ينصبُّ جارياً!
لعمرك ما هذي الحياة وما الذي
نحاول علماً بالحياة وإنَّ ذا
ونسلك منها في مَجاهل قفرةٍ
على أننا نمضي إلى أمر ربِّنا

إلى الأرض أم هذا الكلام من الهذر؟
هَزَأَنَ به لَمَّا رَجَعْنَ إلى الحجر^٣
فمنبَعُهُ في رأيهم قَدَم الدهر
وإن رجموا بالظنِّ في منبع النهر
أَعُوذاً لبدءٍ أم إلى غايةٍ يجري؟
يُرَاد بنا فيها من الخير والشر؟
منوطٌ إلى ما ليس يُدركُ بالفكر
فنخرج من قفرٍ وندخل في قفر
كما أننا آتون من ذلك الأمر

^٣ الحجر: العقل.

لو

لو أَسْكَرَ الْإِنْسَانَ بَاطِلُ أَمْرِهِ
لو قَاسَ كُلُّ فَتًى سِوَاهُ بِنَفْسِهِ
لو أَنْصَفَ الْخَصْمَانِ مَا اصْطَادَ الرُّشَا
لو أَخْلَصَ الْإِنْسَانُ فِي إِحْسَانِهِ
لو لَمْ يَشْكُ رَبَّهُ مَتَفَلِسْفُ
لو أَنَّ عَقْلَ الْمَرْءِ يَغْلِبُ حَبَهُ
لَوْلا جُمُودُ فِي الشَّرَائِعِ مُهْلِكُ
لو كَانَ قَصْدُ الدِّينِ غَيْرَ سَعَادَةِ الدُّ
لو أَخْلَصَ الرَّجُلُ التَّقِيَّ بِدِينِهِ
لا خَيْرَ فِي تَقْوَى أَمْرٍ لَوْ لَمْ يَخَفْ
لو كَانَ أَمْرُ الْحَجِّ مَعْقُولًا لَمَا
لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مُعَزِّدٍ سَكْرَانٍ^١
فِي مَا أَرَادَ لَمَّا تَعَادَى اثْنَانِ
أَهْلُ الْقَضَا مِمَّا ادَّعَى الْخَصْمَانِ^٢
لَمْ يَرْجُ أَنْ يُجْزَى عَلَى الْإِحْسَانِ
فِي الدِّينِ لَمْ يَحْتَجَّ بِالْبَرْهَانِ
لِلنَفْسِ لَمْ يَلْجَأْ إِلَى الْأَدْيَانِ^٣
لَتَغَيَّرَتْ بِتَغْيِيرِ الْأَزْمَانِ
نِيا لَكَ الْكُفْرُ كَالْإِيمَانِ^٤
مَا كَانَ ذَا طَمَعٍ بِحُورِ جَنَّاتِ
نَارِ الْجَحِيمِ لِلَّجِّ فِي الْعَصِيَانِ
كَانَ اسْتِلَامُ الْقَوْمِ لِلْأَرْكَانِ

^١ يريد: لو كان الباطل منكراً كالخمر لرأيت الناس كلهم سكارى.

^٢ هذا البيت قريب في معناه من القول المشهور: «لو أنصف الناس لاستراح القاضي.» غير أن معنى البيت: لو أنصف الناس لما فسدت أخلاق القضاة.

^٣ معنى البيت: أن حب النفس هو الذي يدفع الإنسان إلى التمسك بما تقوله الأديان من الحياة الأخرى؛ لأنه يحب الخلود لنفسه.

^٤ أنه لو صح ما يقوله هؤلاء، من أن غاية الدين أخروية محضة؛ لتساوى الكفر والإيمان في الدنيا.

لو حَكَّم العقلَ الحجيُّ بحجهم
لو أخلص الغزى بنصرة دينهم
كذبت قريشٌ لو تقادَم عهدُها
لو كان للشيطان مَعْنَى غير ما الـ
لو يجعل الناس التعاون دأبهم
لو أن أخلاق الرجال تهذَّبتْ
ومحبة الأوطان لولاها لما
لو كان خيرٌ في المجرة لم يكن
لم تمَّ في فلك الثريا سعدُها
لو لم يكن فزعاً سهيلاً لم يبت
أبوا الطواف بتلْكُم الجُدران
ما حلَّ سبِي حرائر النسوان
في المجد ما خدعتُ أبا غَبشان^٥
إنسانٍ ما آمنْتُ بالشيطان
لتمتعوا بسعادة العُمران
لتكشَّفت حُجُبٌ عن النسوان
عرف الأنامُ عداوة الأوطان^٦
في الأرض شرٌّ دائم الغليان
لم تُمنَّ بالعيُّوق والدبران
في أفقه متتابع الحَققان

^٥ قوله أبا غبشان: هو رجل من خزاعة كان يلي سدانة الكعبة قبل قريش، فأسكره قصي واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر، ثم أفاق نادماً، فضرب به المثل في الحمق والندم وخسارة الصفقة.

^٦ أراد بمحبة الأوطان هنا: المحبة السياسية، التي يتخذها صاحب السياسة ذريعة إلى تهيج الشعوب إلى الحروب، ولا شك أن هذه المحبة هي أساس العداوات الوطنية بين الأمم قاطبة.

حقيقتي السلبية

أُحِبُّ صَرَاحَتِي قَوْلًا وَفِعْلًا
فَمَا خَادَعْتُ مِنْ أَحَدٍ بِأَمْرٍ
وَلَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يَرُونَ خَيْرًا
وَلَا مَمَّنْ يَرَى الْأَدْيَانَ قَامَتْ
وَلَكِنْ هُنَّ وَضَعُ وَابْتِدَاعُ
وَلَسْتُ مِنَ الْأَلَى وَهَمُّوا وَقَالُوا:
لَأَنَّ الْأَرْضَ تَسْبَحُ فِي فِضَاءٍ
وَلَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يَرُونَ فَخْرًا
وَلَا مَمَّنْ قَدْ ارْتَبَطُوا بِمَاضٍ
وَلَا مَمَّنْ يَرَى لِلنَّاسِ حُكْمًا
وَلَا مَمَّنْ تَوَدَّدَ فِي حُضُورٍ
وَلَا مَمَّنْ يَرَى الْأَنْسَابَ مِمَّا
وَلَا مَمَّنْ إِذَا وَبَّئُوا اسْتَعَاذُوا
وَلَا مِنْ مَعِشَرٍ صَلَّوْا وَصَامُوا
وَلَا مَمَّنْ يَرُونَ اللَّهَ يَجْزِي
وَلَا مَمَّنْ يَرَى الْأَشْيَاءَ تَفْنَى
وَلَكِنْ هُنَّ فِي جَمْعٍ وَفَرَقٍ
وَلَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يَرُونَ فَضْلًا

وأكره أن أميل إلى الرياء
ولا أضمرت حسوا في ارتغاء
بإبقاء الحقيقة في الخفاء
بوحي مُنْزَلٍ لِلْأَنْبِيَاءِ
من الْعُقَلَاءِ أَرْيَابِ الدِّهَاءِ
بأنَّ الروح تعرجُ للسماءِ
وما تلك السماء سوى الفضاء
لمفتخر بإهراق الدماءِ
فعاشوا ينظرون إلى الوراءِ
سوى الحكام أَرْيَابِ الْقَضَاءِ
وعند الغيب جاهرَ بالعداءِ
يَمُتُّ بِهِ الْأَنَامُ إِلَى الْعَلَاءِ
بتمتمة الدعاء من الوباءِ
لِما وعدوه من حسن الجزاءِ
على الصلوات بِالْحُورِ الْوُضَاءِ
بحيث تكون من عَدَمِ هَوَاءِ
تَبَدَّلُ مِنْهُمَا صُورُ الْبَقَاءِ
كبيرًا للرجال على النساءِ

ديوان معروف الرصافي

ولكن دالت الأيام حتى تهاون هؤلاء بهؤلاء

حياة الورى

عليه الورى يمشون مشية عابر
بلفً ضِماَد أو بشدَّ الجبائر
لِتدرك فيه ثأَرها نفسُ ثائرٍ¹
وكيف أثَّارٌ في السَّهامِ العَوائر؟²
ثَوَّوا بين مقبورٍ هناك وقابر
إليها بمسودِّ الدجَنَّةِ كافر³
تساقط عُمِّي في عِماق الحفائر
رواية رُؤيا من كتاب المقادر
فجائعها حتى انتهت في المقابر
نذيرًا، ومن يُنذر فليس بغادر
أكفَّ المَنايا داميات الأظافر

حياة الورى جِسْرٌ مَدِيد وإنما
وللموت كسرٌ ليس يمكن جَبْرَه
وقتل الردى قَتْلُ جُبَّارٍ فلم تكن
فإن مَنايانا سَهاًمٌ عَوائر
أرى الناس طُرًّا في الردى غير أنهم
وما الموت إلا هُوءة أدلَج الورى
فهم أبداً يَسَاقطون لقعَرها
أَرى كُلَّ حي في الحياة مَمَثِّلاً
رواية رُؤيا قد جرت في ديارنا
لقد قدم الموت الحياة أمامه
فلا عَجَبُ أنَّا نرى كُلَّ ساعة

¹ القتل الجبار: الذي لا دية معه.

² السهم العائر: الذي لا يُعْلَم مَنْ رماه.

³ الإدلاج: السير في الدلجة، وهي الليل كله؛ أي وقت السحر.

حبذا النوم

إلى صاحبة مجلة «الفجر»

عاشقُ نورَ فجرها الوضاحِ
مستنيرًا بأشهر الأوضاح
كصياح الديوك في الإصباح
عَطرَتنِي بنشرها الفيَّاحِ
ناظر في بنفسجٍ وأقاحي
كلمات بديعة الإفصاح
م ارتياحًا لنا وأَيَّ ارتياح!
قولها في غنى عن الإيضاح

قل لنَجَلَا — نجلا أبي اللُّمَع — إني
هو للعلم خير فجر تجلَّى
وصرير الأقلام في الطُّرس منه
كم تصفَّحت فيه من صفحات
فكأنِّي في النفس والطرس منها
ثم إني قرأت فيه لأَسْمَا
أيقظتنا بها إلى أنَّ في النُّو
صدقت في الذي تقول ففحوى

* * *

من عناء الهموم والأتراح
لجسومٍ روازح أطلاح
عالمًا فوق عالم الأشباح
و«تلسكوبُنا» إلى الأرواح
تدُّ في الجسم لاصطياد ارتياح
وهو للجسم من دواعي الصلاح
ح به تستضيء كالمصباح
لن تَنَاهَى أبعاده والنواحي

حبُّذا النُّومُ فهو للروح رَوْح
وهو تجديد قوة ونشاط
حبُّذا النُّومُ ترتقي النفس فيه
«تَلِفُونُ» به إلى الغيب نُصْغِي
حبُّذا النُّومُ إنه شَرَكُ يَمِّ
فهو للنفس من مراقي المعالي
حبُّذا النُّومُ فهو كالزيت للرو
وهو معراجنا إلى أفق غيب

حبذا النومُ واصلاً بين حيٍّ	ذي ثواءٍ وميِّتٍ ذي بَراح
حبذا النومُ جامعاً بين معشو	قٍ مقيمٍ وعاشقٍ ذي انتزاح
إنَّ للنَّومِ لذةً هي في الأنـ	فس أشهى من لذة الأفراح
أدركتها النفوس بالفعل واستغـ	نت بإدراكها عن الإيضاح
أيها القومُ إنَّ للنوم سلطا	ناً قوياً لا يُتَّقى بسلاح
نافذ الحكم والقضاء على الإنـ	سان في حزنه وفي الأفراح
وعلى الأسد وهي في الغاب تدأى	وعلى الطير وهي في الأدواح ^١

^١ دأى له يدأى دأياً ودأواً: إذا ختلته، والذئب يدأى للغزال، وهي مشية شبيهة بالختل.

بين الروح والجسد

أرى للروح بالبدن اتصالاً
تطيف به الهواجسُ شاعرات
فإنَّ الروح للجثمان تَلُوُّ
فإنَّ كلاهما هذا بهذا
فلا جسدٌ يقوم بغير روح
هما متلازمان فما لكلُّ
لذلك كانت الأرواح منا
ولست أظنُّ أن الروح تبقى
ورُبَّتما يكون لها دوامٌ
وما هبطت من الخضراء لكن

خفيًا لا تبين له رسومٌ
وتعجز عن حقيقته الفهوم
به منها ومنه بها وسُوم
كذلك تمَّ أمرهما القويم
ولا روح بلا جسد تقوم
بغير قرينه أبدًا لزوم
بحيث تهَي إذا وهتِ الجسوم
إذا مُحيت من الجسد الرسوم
ولكن غيرَ شاعرةٍ تدوم
من الغبراء أنبتها الحكيم¹

* * *

وأما هذه الأجسام منا
وترويهما المشارب والمحاسي
ويوهنها التقشُّف والتضني
وبعض من مطاعمنا غذاء

فتبنيها المآكل والطعوم
وتذويها اللوافح والسموم
ويُحسنها التتَرُّف والنعيم
تحاك على العظام به اللحوم

¹ الخضراء: السماء. والغبراء: الأرض.

وبعضُ من مطاعمنا وَقودٌ تديم به حرارتها الجسوم
له في جوف آكله احتراقٌ تكون رماده فيها الشحوم

* * *

وللأرواح كالأجساد زادٌ به تنمو المشاعر والحلوم
هو النغم الرقيق من المثاني هو الأدب الرفيع، هو العلوم^٢
فإن الروح تغذوها الأغاني ويجلو همّها الصوتُ الرخيم
ويصقلها الجمال إذا رآته وتصديّها القبائح والهموم
فلا تنفر بسمعك من غناء به غنتك شادية بغموم^٣
ولا تترفعنّ عن الملاهي ولو شهدت برفعتك النجوم
وكنّ في المطربات فتىً طروباً فإنّ الناس أطرّبها الكريم
وقف عند الحدود فلا تُعدّ إلى ما ليس يحمده الحليم
ولا تشتطّ في طربٍ ولهوٍ فكل مُقارِف شططاً ذميم
فإنّ وافقتني وجريت جريي وإلا فاتك الطبعُ السليم

^٢ المثاني: جمع مثنى بوزن مفعّل، وهو ما يثنى ويكرر من الكلام في الغناء أو الإنشاد.

^٣ بغموم: صيغة مبالغة من البغام، وهو صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

من نواميس الحياة

كلُّ شيءٍ من عالم الدُّرّاتِ كلُّ شيءٍ في كونه كالنباتِ
كل شيءٍ في بدئه من صغير ثم ينمو في ذاته والصفات
هكذا تكبر الصغار وتقوى في نواميس حادثات الحياة
هكذا ترسل الأصول فروعًا عاليات يأتين بالثمرات

* * *

إن للفلس في الثراء محلًّا كمحل الجذور في الدوحات
إن أصل الثراء فلسٌ وهل سا لت سيول إلا من القطرات؟!
هو في قدره حقيرٌ ولكن جمعه موصل إلى العظمت
يتساوى فيه السخيُّ وذو البخ ل ورب الإقلال والمثرة
هو هَيْنٌ على الذي قال: هاكُم حين يعطيه للذي قال: هات

* * *

إن ترد غرس نخلةً من ثراء فسوى الفلس ما لها من نواة
فاقتصد في موارد العيش فلسًا كل يوم من طائل النفقات
واجعل الفلس فوق فلس تجده مسعدًا مسعفًا على الخيرات
واقصد الخير في اقتصادك حتى لا يئول الثراء للآفات
ليس حسن الأعمال في الناس إلا حسن ما يضمرون من نيات
فدع الفعل كيف كان — حميدًا أو ذميمًا — وانظر إلى الغايات

حسنات الأنام إن لم تكن ذا ت عموم ضرب من السيئات
يا شباب العراق هبُّوا إليه وتوخوا بجمعه البركات
إن تكونوا اعتزمت الأمر فيه فالبدار البدار قبل الفوات

الوصفيات

أنا والشعر

وَيَبْذُلُ مَا قَدْ عَزَّ لِي مِنْ مَصُونِهِ
تَحْرُكُ شَجْوِي نَاشِئٌ مِنْ سَكُونِهِ
لَدَهْرٍ أَرَاهُ مُوْغِلًا فِي مُجُونِهِ
تَمِيلُ إِلَى الْمُشْجِي لَهَا مِنْ حَزِينِهِ
إِذَا أَنْشَدُوهُ أَطْرِبُوا بِلَحُونِهِ
شَفِيتْ صَدَى الرَّائِي بِبَرْدِ مَعِينِهِ^١
وَلَمْ أَتَحَيَّرْ خَاطِبًا فِي حَزُونِهِ
أَبْتُ غَتَّهُ وَاسْتَوْتَقْتُ مِنْ سَمِينِهِ^٢
إِذَا كَانَ فِي طَوْعِي اخْتِشَابٌ مَتِينِهِ؟^٣
إِذَا هِيَ لَمْ تَنْزِعْ إِلَى مُسْتَبِينِهِ
إِذَا لَمْ أَفْزَ مِنْ دُرِّهِ بِثَمِينِهِ

أرى الشعر أحيانًا يجيش بخاطري
ويسكن أحيانًا فأشجى وإنما
وقد أتوَّخَى الهَزْلَ مِنْهُ مُجَارِيًا
ولكنَّ نَفْسِي وَهِيَ نَفْسٌ حَزِينَةٌ
وقد علم الراون شعري بأنهم
وإنني إذا استنبطته من قريحتي
وإنني على علم طويْتُ سهولَه
وإنني لِمَحَاصِرٍ لَهُ بِسَلِيقَةٍ
وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري
ألا لا اهتدْتُ للشعر يومًا هواجسي
ولا غُصْتُ فِي بَحْرِ الْقَرِيضِ مَخَاطِرًا

^١ الصدى: العطش. والمعين: الماء الظاهر.

^٢ الغث: المهزول، ضد السمين.

^٣ الاختشاب: افتعال من خشب الشعر يخشبه، من باب ضرب؛ أي: يمره كما يجيئه ولم يتأنق فيه، ولا تعمَلْ له.

على أن لي طبعًا لبيقًا بوشيه
إذا انتظمت أبياته في قصائدي
وما كان دوح الشعر يومًا لنجّني
ولم يستقد إلا لذي ألمعية
وإنّي قد مارسته بفطانية

نزوعًا إلى أبكاره دون عونه^٤
تري كل بيت ممسكًا بقيرينه
بغير اليد الطولى ثمار غصونه
يكون كراي العين رجم ظنونه^٥
يلوح سناها غرة في جبينه

* * *

لعمرك إن الشعر صمصام حكمة
إذا جنني ليل الشكوك سلّته
وما الشعر إلا مؤنسي عند وحشتي
تقوم مقام الدمع لي نفثاته
وأجعله للكون مرآة عبرة
فأبصر أسرار الزمان التي انطوت
وللشعر عين لو نظرت بنورها
وأذن لو استصغيتها نحو كاتم

وأن النهى معدودة من قيونه^٦
عليه ففراه بفجر يقينه^٧
ومُسلي فؤادي عند وزي شجونه
إذا الدهر أبكاني بريب منونه
فيظهر لي فيها خيال شئونه
بما دار في الأحقاب من منجنونه^٨
إلى الغيب لاستشففت ما في بطونه
سمعت بها منه حديث قرّونه^٩

* * *

وليل إلى شعراه أرسلت فكرتي
رسولاً بشعري حاملاً لرقينه^{١٠}

^٤ العون: جمع عوان، وهي من إناث الحيوان ما كانت وسطًا في السن بين الفارض: وهي المسنة، والبكر:

وهي الصغيرة، يقال: امرأة أو فرس أو بقرة عوان.

^٥ استقاد له الأمر: ذل وانقاد.

^٦ الصمصام: السيف. والنهى: [جمع] نهية، وهي العقل.

^٧ فراه: بتخفيف الراء وتشديدها؛ مزقه.

^٨ المنجنون: الدولاب، يستقى به الماء لإرواء الأرض.

^٩ القرون: النفس.

^{١٠} الرقين: الكتاب المزين.

سَلِ اللَّيْلَ عَنِّي نَسْرَهُ وَسَمَاكَهُ
فَكَمْ بَتُّ فِي نَهْرِ الْمَجْرَةِ فِي الدَّجَى
هُوَ الشَّعْرُ لَا أَعْتَاضُ عَنْهُ بَغِيرَهُ
وَلَوْ سَلَبْتَنِيهِ الْحَوَادِثَ فِي الدُّنَا
إِذَا كَانَ مِنْ مَعْنَى الشُّعُورِ اشْتِقَاقُهُ
وَنَجْمَ سُهَاةِ وَالْجُدِيِّ خَدِينِهِ^{١١}
مِنْ الشَّعْرِ أَجْرِي مُنْشَأَتِ سَفِينِهِ
وَلَا عَنْ قَوَافِيهِ وَلَا عَنْ فَنُونِهِ
لَمَّا عَشْتُ أَوْ مَا رُمْتُ عَيْشًا بِدُونِهِ
فَمَا بَعْدَهُ لِلْمَرَّةِ غَيْرَ جَنُونِهِ

^{١١} النسر والسماء والسها والجُدي — تصغير جدي: أسماء نجوم، يريد بسؤالها عنه أنه طالما سهر في صنع الشعر مراعيًا هذه النجوم، فبينها وبينه ألفة وصحبة.

الغروب

قالها سنة ١٨٩٤ وقد وصف فيها ما شاهده في الأعظمية عياناً من منظر الغروب.

نزلت تجرُّ إلى الغروب ذيولا	صفراء تشبه عاشقاً متبولاً
تهتزُّ بين يد المغيب كأنها	صبُّ تملَمَل في الفراش عليلاً
ضحكت مشارقها بوجهك بُكرةً	وبكت مغاربُها الدماء أصيلاً
مذ حان في نصف النهار دلوكها	هبطت تزيد على النزول نزولاً ^١
قد غادرت كبد السماء منيرةً	تدنو قليلاً للأفول قليلاً
حتى دنت نحو المغيب ووجهها	كالورس حال به الضياء حُلولاً ^٢
وغدت بأقصى الأفق مثلَ عرارة	عطشت فأبدت صفرةً وذبولاً ^٣
غَرَبَتْ فأبقت كالشُّواظ عَقيبها	شفقاً بحاشية السماء طويلاً
شفقٌ يروع القلبَ شاحب لونه	كالسيف ضُمخ بالدماء مسلولا
يحكي دمَ المظلوم مازَجَ أدمعاً	هملت بها عين اليتيم همولا
رقت أعاليه وأسفله الذي	في الأفق أُشْبِعَ عُصفراً محلولا ^٤

^١ دلوك الشمس والنجوم: زوالها على الاستواء، ويستعمل في الغروب أيضاً.

^٢ الورس: نبت أصفر، يزرع باليمن وتصبغ به، أو هو صنف من الكرم.

^٣ العرارة: واحدة العرار، وهو نبت طيب الريح، قيل: هو النرجس البري.

^٤ العصفور: نبت أصفر، يصبغ به.

شفقُ كأن الشمس قد رفعت به
كالخود ظلَّت يوم ودَّع إلَـفها
حتى توارت بالحِجاب وغادرت
فكأنَّها رَجُلٌ تخَرَّم عِزَّه
وانحطَّ من عُرفِ النباهة صاغراً
رُدْنَا بذوبِ ضيائها مبلولاً^٥
ترنو وترفع خَلْفه المَنديلاً^٦
وجه البسيطة كاسفاً مخذولاً
قرع الخطوب له فعاد ذليلاً
وأقام في غار الهوان خمولاً

* * *

لم أنس قرب «الأعظميَّة» موقفي
وعن اليمين أرى مُروج مُزارع
وتروع قلبي للدَّوالي نكرة
ووراء ذاك الزرع راعي ثلة
وهناك ذو برذونتين قد انثنى
وبمنتهى نظري دخان صاعد
مدَّ الفروع إلى السماء ولم يزل
وتراكبت في الجوّ سوْدُ طباقه
فوقفتُ أرسل في المحيط إلى المدى
والشمس قد غرَبت ولما ودَّعتُ
غابت فأوحشتِ الفضاء بكدره
حتى قضت رُوح الضياء ولم يكن
وأتى الظلامُ دُجْنَةً فدجَّنة
ليل بغيهبه الشخوصُ تلفعت
ثم انثنيت أخوض غمر ظلامه
والشمس دانيئةً تريد أفولا
وعن الشمال حداثاً ونخيلاً
في البين يحسبها الحزين عويلاً^٧
رجعت تؤمُّ إلى المراح قفولاً^٨
بهما العشيَّ من الكراب نحيلاً^٩
يعلو كثيراً تارةً وقليلاً
بالأرض متصلاً يمدُّ أصولاً
تحكي تلولاً قد حملن تلولا
نظراً كما نظر السقيم كليلاً
أبكت حُزُوناً بعدها وسهولاً
سَقِم الضياء بها فزاد نحولاً
غير الظلام هناك عزرائيلاً
يُرخي سدولاً جمَّةً فسدولاً
فظَلَلْتُ أَحْسِبُ كُلَّ شَخْصٍ غولاً
وتخَذْتُ نجم القطب فيه دليلاً

^٥ الردن: أصل الكم.

^٦ الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة، والجمع خودات، وخود بضم الخاء في الأخير.

^٧ الدوالي: جمع دالية، وهي الناعورة تديرها البقرة، والنعرة بالفتح: المرة من نعر إذا صوت.

^٨ التلة: القطيع من الغنم. والمراح: المكان تروح إليه الدواب وتأوي إليه بعد المراعي.

^٩ الكراب مصدر كرب الأرض كرباً وكراباً: قلبها للحرث، وأثارها للزرع.

إن كان أوحشني الدجى فنجومه
سبحان من جعل العوالم أنجمًا
كم قد تصادمَت العقول بشأنها
لا تحتقرُ صِغَر النجوم فإنما
دارت قديمًا في الفضاء رَحَى القوى
فاقرأ كتاب الكون تَلَقَّ بمتنه
ودع الظُّنون فلا وربك إنها
بعثت لتؤنسني الضياء رسولا
يسبحنَ عرضًا في الأثير وطولا
وسعت لتكشف سرها المجهولا
أرقى الكواكب ما استبان ضئلا
فغدا الأثير دقيقها المنخولا
آيات ربك فُصِّلَتْ تفصيلا
لم تغنِ من علم اليقين فتिला

ليلة في ملهى

لما كان الرصافي في الآستانة سنة ١٨٩٨ أخذه جماعة من فضلاء فلسطين، معهم الأستاذ خليل السكاكيني، إلى مرقص من مرقص الآستانة في إحدى الليالي، واقترحوا عليه أن يصفه، فقال هذه القصيدة:

طرب الشعر أن يكون نسيبا	مذ أجالت لنا القوامَ الرطيبا
وتجلّت في مسرح الرقص حتى	أرقصت بالغرام منا القلوبا
أقبلت تنثنني بقدر رشيقي	ألبسته البرد القصير قشيبا
قصرت منه كمّه عن يديها	وأطالت إلى النهود الجيوباً ^١
حبس الخصر حيث ضاق ولكن	أطلق النحر بادياً والتربيا
هو زِيّ يزيد في الحسن حسناً	من تزيّاً به، وفي الطيب طيبا
خطرت والجمال يخطر منها	في حشا القوم جيئةً وذُهباً
وعلى أروّس الأصابع قامت	تتخطّى تبخترًا ووثوباً
يعبس الأنس أن تروح ذهاباً	ويعيد ابتساماً أن تتُوباً
فَهي إن أقبلت رأيت ابتساماً	وهي إن أدبرت رأيت قطوباً
نحن منها في الحاليتين ترانا	نرقب الشمس مطلعاً ومغيباً
تضحك الجوّ في الصباح طلوعاً	ثم تبكيه في المساء غروباً

^١ المراد بالجيب هنا فتحة الطوق، من عند الرقبة إلى ما بين الثديين.

أظهرت في المجال من كل عضو
حَيَّرْتَنَا لما أَرْتَنَا عَجِيبًا
شَابَهَتْ عطفَةَ الغصون انثناءً
تَلَفِتُ الجيد للرجوع انصياعًا
تثب الوثبة الخفيفة كالبر
حركات خلالها سكنات
وخطًا تفضح العقود اتساقًا
بَسَمَتْ كوكبًا ومَرَّتْ نسيماً
لو غدا الحسن شاعراً ينظم الحبَّ
هي كالشمس في البعاد وإن كا
عمت الناس بالغرام فكلُّ
زَهْرَةٍ تبهج النواظر حسناً
هي دائي إذا شكوت من الدا
وأنت بعدها من الغيد أخرى
فأرْتَنَا من الجبين صباحاً
حملت بندُقيَّةً صَوَّبْتَها
واستمرَّتْ رمياً بها عن بنان
تحسن الرمي تارة مستقيماً
وانكباباً إلى الأمام وإقعا
وهي في كل ذا تصيب الرمايا
لو أرادت رمي الغيوب وأغضت

لعباً كان بالقلوب لُعباً
فعجيباً من رقصها فعجيباً
وحكت خطرةً النسيم هبوباً
كفطيم رأى على البعد ذيباً
ق صُعُودًا في رقصها وصبوباً^٢
يقف العقل بينهنَّ سليباً
نظمتها تسرعاً ودبيباً
وشدَّتْ بلبلاً وفاهت خطيباً
قريضاً أبدى بها التشبيباً
ن إلينا منها الشعاع قريباً
قد غدا عاشقاً لها ورقيباً
ورُوءاً وتُنْعَشُ الرُّوح طيباً
عِ وَطَبِّي إذا أردت طبيباً
يقتفي إثرها الجمال جنيباً
ومن الخدِّ كوكباً مشبوباً
نحو مُسْتَهْدِفٍ لها تصويباً
لطفه ضامن له أن يصيباً
وإلى الخلف تارة مقلوباً
سأ كثيراً إلى الوراء عجيباً
مثلما طرفها يُصِيبُ القلوباً
لأصابت خفيَّها المحجوباً

* * *

مشهد فيه للحياة حياة
قد شهدناه ليلة جعلتُنا
تترك الوالة الحزين طُروباً
نحمدُ الدهر غافرين الذنوباً

^٢ صبوباً: اندحاراً.

بين رهطِ شُمِّ العرانيين ينفى الـ
 كرمُوا أنفُسًا وطابوا فِعَالًا
 كل ذي نجدةٍ تراه لدى الفعل
 تلك والله ليلةٌ لست أدري
 كدتُ أنسى بها العراق وإن
 يا سواد العراق بيَّضَكَ الدهـ
 شَمَلَتْ ريحك العقيمُ وقد كا
 أين أنهارُك التي تملأ الأر
 إذ حَكَت أرضك السماء نجومًا
 لهف نفسي على نضارة بغدا
 أين بغدادُ وهي تزهو علومًا
 أقفرت أرضها وحاقت بها الجهـ
 هَمَّ عَنِّي حديثُهم والكروبا^٣
 وسموا محتدًا وعفوا جُيوبًا
 كريمًا وفي المقال أديبا
 في بلادي قضيتها أم غريبا
 أبقى ندوبا بمهجتي فندوبا
 ر فأشبهت مقلتي يعقوبا
 نت لقوحًا تهبُ فيك جنوبا
 ض غلًا بسيحها وحبوبا؟^٤
 ماحيات أنوارهنَّ الجُدوبا
 د استحالت كدورةً وشحوبا
 وزروعًا وأربعًا ودروبًا؟!
 ل فجاشت دواهيًا وخطوبا

^٣ أشم العرنيين: مرتفع قصبه الأنف؛ كناية عن الإباء والشمم وعلو النفس.

^٤ السيح: النهر يسبح ماؤه على وجه الأرض؛ أي يسيل.

في القطار

قالها لما ركب القطار من الأستانة إلى سلانك سنة ١٨٩٨.

فأرسلت دمعا فاض وابله سكبا
بشاخص طرف في الدجى يرقب الشُّهبا
عدوا فآلى لن يهادنه حربا
إذا ما رمى كربا رأى تحته كربا
لتأنف نفسي أن أكلّمه عتبا
غلام على حب المكارم قد شبا
نبا كلّ غضب عنه أو أنكر الضربا^١
وإن كان في أحواضه باردا عذبا
تساقط من أجفاني اللؤلؤ الرطبا
بدت نغمات ترقص الدمع مُنصبّا

تذكّرت في أوطاني الأهل والصحبا
وبت طريد النّوم أختلس الكرى
كئيب كأن الدهر لم يلق غيره
يقلّ كروبا بعضها فوق بعضها
وإنني إذا ما الدهر جرّ جريرة
وقد علم القوم الكرام بأنني
وأنّي أخو عزم إذا ما انتضيته
وأنّي أعاف الماء في صفوه القذى
ولكنّ لي في موقف الشوق عبرة
إذا ضربت أوتار قلبي شجونه

* * *

وتملأ صدر الأرض سيرها رعبا
وجوف به صار البخار لها قلبا

وقاطرة ترمي الفضأ بدخانها
لها منخر يبدي الشواظ تنفسا

^١ يقال: انتضى سيفه: إذا سلّه من قرابه، وقد شبه عزمه بالسيف، ونبا السيف عن الضريبة: رجع ولم يقطع.

تمشّت بنا ليلاً تجرّ وراءها
فَطَوْرًا كعصف الرياح تجري شديدةً
تساوى لديها السهلُ والصعبُ في السّرى
تدكُّ مُتون الحزن دُكًّا وإنها
يمر بها العالي فتعلو تسلّقًا
وتخترق الطودَ الأشم إذا انبرى
يرنُّ بجوف الطّودِ صوت دويّها
لها صيحة عند الوُلوج كأنها
وتمضي مُضيّ السهم فيه كأنما
تغالب فعل الجذب وهي ثقيلةٌ
طوت بالمسير الأرض طيًا كأنها
وما إن شكت أيّنا ولا سئمت سُرى
عشيّة سارت من فَرُوقَ تقلُّنا
فما هي إلا ليلةٌ ونهارها
فجئنا ولم يُعيّ السفرُ مطينا

قطارًا كصف الدّوح تسحبه سحباً
وطَوْرًا رُخاءً كالنسيم إذا هبّا
فما استسلّحت سهلاً ولا استصعبت صعباً
لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
وقد وجدت من تحت قُنّته نقبا
إذا ولجّت في جوفه النفقَ الرحبا
تقول بها: يا طودُ خلّ لي الدربا
ترى أفعوانًا هائجًا دخل الثقباً
فتغلب بالدفع الذي عندها الجذبا
تسابق قرصَ الشمس أن يدرك الغربا
ولا استهجت بعداً ولا استحسنت قرباً^٢
وتقذّف من فيها بوجه الدجى شهباً^٣
وما قد دعونا من سلانك قد لبّى^٤
كأن لم نكن سفرًا على ظهرها ركبا^٥

* * *

تعاليت يا عصرَ البخار مفضلًا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجزُ
تظاهرت من فعل البخار بقوةٍ
وأقسم لولا الكهرباء فوقه
هو العلم يعلو في الحياة سعادةً

على كل عصر قد قضى أهله نحبا
بها آمن السيفُ الذي كذّب الكُتبا
يذلُّ أدنى فعلها المَطْلَبُ الصعبا^٦
لقلت: على كل القوى ته به عجباً!
ويجعلها كالعلم محمودة العُقبى

^٢ الأئين: التعب والكلال.

^٣ فروق: اسم القسطنطينية.

^٤ سلانك: بلد باليونان.

^٥ السفار: السفر.

^٦ تظاهرت بقوة: استعنت بها وتقويت.

فكلُّ بلاد جادها العلمُ أمرعت
متى ينشئ الشرقُ الذي اغبرَّ أفقُه
فإن دبور الذل ألوت بعزّه
تبصر إذ دارت رحي الشرق هل ترى
رُباها وصارت تنبتُ العزَّ لا العُشبا
سحابة علمٍ تمطر الشرف العذبا
وكادت سُموم الجهل تحرقه جدبا^٧
سوى الجهل في أثناء دورتها قُطبا

^٧ الدبور: ريح الجنوب، وهي حارة.

الأرملة المرضعة

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها!
أثوابها رثَّةٌ والرَّجُلُ حافيةٌ
بكت من الفقر فاحمَرَّتْ مدامعها
مات الذي كان يحميها ويسعدها
الموت أفجعها والفقر أوجعها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها
كُرُّ الجديدين قد أبلى عباؤها
ومزَّق الدهرُ — ويلُ الدهرِ — مئزرها
تمشي بأطمارها والبرد يلسعها
حتى غدا جسمُها بالبرد مرتجفاً

تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
والدمع تذرفه في الخدَّ عيناها
واصفراً كالورس من جوعٍ مَحياها^١
فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
والهمُّ أنحلها والغمُّ أضناها
والبؤس مرأهُ مقرونٌ بمرأها
فانشقَّ أسفلها وانشقَّ أعلاها
حتى بدا من شقوق الثوب جَنباها
كأنه عقربٌ شالت زُبانها^٢
كالغُصن في الريح واصطكَّت ثناياها

* * *

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها
قد قمطتها بأهدام ممزقة
ما أنسَ لا أنسَ أني كنتُ أسمعها

حَمَلًا على الصَّدْر مدعوماً بيمنها
في العين منشرها سَمَج ومطواها
تشكو إلى ربها أوصاب دنياها

^١ الورس: نبت أصفر يصبغ به.

^٢ شالت: ارتفعت. والزبانة: الذنب.

هذي الرضيعة وارحمني وإياها
إن مسّها الضرُّ حتى جفّ ثدياها^٣
كزهرة الروض فقُد الغيث أظماها
والأمُّ ساهرة تبكي لمبكاها
تبكي وتفتح لي من جوعها فاهها
وبتُّ من حولها في الليل أرهاها!^٤
ولست أفهم منها كُنه شكواها
ولست أعلم أي السقم آذاها
بالفقر واليتم، آها منهما آها!
وموت والدها باليتم ثناها

تقول: يا ربُّ لا تترك بلا لبن
ما تصنع الأم في تريب طفلتها
يا ربُّ ما حيلتي فيها وقد ذبلت
ما بالها وهي طول الليل باكية
يكاد ينقُد قلبي حين أنظرها
ويلمّها طفلةً باتت مروّعة
تبكي لتشكو من داء ألم بها
قد فاتها النطق كالجماء أرحمها
ويح ابنتي إن ريب الدهر روعها
كانت مصيبتها بالفقر واحدة

* * *

منها فأثّر في نفسي وأشجاها
وأدمعي أوسعت في الخد مجراها
أشارك الناس طُراً في بلاياها
في قالة أوجعت قلبي بفحواها
ما في يدي الآن أسترضي به الله
دراهما كنت أستبقي بقاياها^٥
بأخذها دونما من تغشّاهها
ترمي السهام وقلبي من رماياها
كالنار تصعد من أعماق أحشاهها
واهاً لمثلك من ذي رقة واها!
ما تاه في فلوات الفقر من تاهها

هذا الذي في طريقي كنت أسمع
حتى دنوت إليه وهي ماشية
وقلت: يا أخت مهلاً إنني رجل
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها
هل تسمح الأخت لي أني أشاطرها
ثم اجتذبت لها من جيب ملحفتي
وقلت: يا أخت أرجو منك تكرمتي
فأرسلت نظرة رعشاء راجفة
وأخرجت زفّرات من جوانحها
وأجهشت ثم قالت وهي باكية:
لو عمّ في الناس حسّ مثل حسّك لي

^٣ تريب: تربية.

^٤ ويلمها: أصله ويل لأمها.

^٥ ملحفتي: الرداء الذي أرتدي به فوق ملابس.

الأرملة المرضعة

أو كان في الناس إنصافٌ ومرحمة لم تشكُ أرملة ضنكًا بدنياها

* * *

هذي حكاية حالٍ جئتُ أذكرها وليس يخفى على الأحرار مغزاها
أولى الأنام بعطف الناس أرملةً وأشرف الناس من في المال واساها

عهد الصبا أو نهر الحياة

أشبهُ شيءٍ بأزاهير الربا
وعُمره واللون منه والشذا
خلف ذاكره بقلبي ومضى!
وكان ريان التصابي والمُنَى
فإن تولّى فهو هيش مُزدرى

عهد الصّبا سَقِيًّا لأيام الصبا
إن الصبا كالورد في نضرته
وأها على شَرخ الشباب المشتهى
لقد ذوى غصن حياتي بعده
أطيب عيش المرء في شبابه

* * *

أحوالها مختلفات في الرؤى
أوضاعه في الأرض كلما جرى
مَصَّبُه تلقاه بحرًا قد طَمَأ^١
إذا بواديه تمطّى واستوى
في الأرض ينساب وطورًا كالقنا
راجعةً من حيث جاء القهقرى
فيه وقد خرَّ خيرًا ورغاً^٢
وتارةً منزويًا فوق الثرى

إنَّ حياة المرء ما عاش تُرى
كالنَّهرِ الجاري الذي تغيَّرتْ
فهو لدى المنبع ضَحْضاحٌ وفي
بيناه يجري في الثرى مُنعطفًا
طورًا كأسياف الوغى مُنحنيًا
وربما عادت مجاريه به
وربما صادف غوطًا فانهوَى
والماء فيه قد يُرى منبسطًا

^١ ضحضاح: ليس عميقًا.

^٢ غوطًا: أرضًا منخفضة. ورغا البعير: صوت.

وتارة تلقاه في مَشَجَرَةٍ يجري وأخرى بين أصلاذ الصفا^٢
حتى إذا أبحر مجراه به كان إلى الدأما من المنتهى^٤
وهكذا أنهار أعمار الوري تجري فتصب إلى بحر الردى

* * *

وإنما العمر شبابٌ فإذا زال فحزن وشقاءً وضنى
ما كان أحلى العيش لو أن الفتى لم يجد الشيب إليه مُخْتَطًى^٥
ليت الفتى كالبدر في النشأة إذ عاد هلاًلاً كل شهر فنماً!
أو ليت كالشجر النابت إذ يورق في الصيف ويعرى في الشتا!
أو ليت هذا الشيب إن كان ولا بُدَّ من الشيب أتى قبل الصبا
شبيبة الإنسان مرآة المُنَى بدائع الآمال فيها تُجْتَلَى
والمرء فيها إن تمرأى راجياً أبدت له مبتسماً ثغر الرجا
ويح شباب فتك الشيب به إذ لاح كالسيف عليه مُنْتَضَى
بُردان: هذا من وقارٍ ونهى حيك، وهذا من تصابٍ وهوى
لكن وقارُ الشيب لا يعدل ما في طيئه من لوثةٍ ومن ونى

* * *

يا مُسلياً ذا الشَّيب عن شبابه بأنَّ وخطَّ الشيب أزهارُ النُّهى
أَقْصِرْ هَذَاذِيكَ عَنِ الْقَوْلِ فَلَما يُقَاسَ ذِيَالِكَ تَاللهِ بَذَا^٦
وما الصبا بمانعٍ من الججا بل هو في الشيخ يكون والفتى
وليس من أصبح يمشي الخيزلى في مَعْرِضِ السبق كماشي الهيدبى^٧

^٢ مشجرة: أرض كثيرة الشجر. أصلاذ: جمع صلا، وهو الصخر الجلمد. والصفاء: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس.

^٤ أبحر مجراه: اتسع كالبحر. والدأما: البحر.

^٥ مختطى: مصدر ميمي من اختطى، بمعنى خطا.

^٦ هذاذيك: مشي هذاذ، أي: هذا بعد هذا، والهذ: القطع، يريد: كف عما تقوله واقطعه ولا تعد إليه.

^٧ الخيزلى: مشية تخاذل وتراجع وتفكك. والهيدبى، والهيدبى: ضرب من مشية الخيل سريعة. استوحى الشاعر هذا المعنى من المتنبي الذي فضل ابنة البادية على ابنة الحاضرة فقال:

وما إياة الشمس في تطفيلها مثل إياة الشمس في رأد الضحى^٨
وهل يطيب العيش للهم الذي إن همّ بالنهضة خانتها القوى؟!^٩
يبيت طول الليل في مضجعه مستأنس السعلة وحشي الكرى
وإن ظهر الأرض يستثقل من أمسى يدب فوقها على العصا

ألا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبي

^٨ إياة الشمس: شعاعها. والتطفيل: وقت الأصيل. ورأد الضحى: ارتفاعه ورونقه.

^٩ الهم: الرجل المسن البالي، جمعه أهمام.

السفر في التومبيل

طَوَيْتَ أَجْوَازَهُ طَيِّ الْمَكَاتِيْبِ^١
كَمَا جَرَى الْمَاءُ مِنْ سَفْحِ الْأَهَاضِيْبِ
عَوَامِلُ عَجَلَاتٍ مِنْ دَوَالِيْبِ^٢
تَمْشِي بِأَخْفَافِ أَنْوَاقِ مَطَارِيْبِ
سَوَى حَفِيْفٍ كَنْفَخٍ فِي الْأَنْبَابِيْبِ
مَا تَعْرِفُ الْخَيْلَ مِنْ حُضْرٍ وَتَقْرِيْبِ^٣
قَدْ زَانَهَا حُسْنُ تَنْجِيْدٍ وَتَقْبِيْبِ
يُزْهِى بِتَاجٍ عَلَى الْفُؤْدِيْنِ مَعْصُوبِ
صَدَرَ الْمَلِيْحَةِ مَكْشُوفِ التَّلَابِيْبِ
يَرْنُو إِلَى الْفَجْرِ فِي الْحَازِ مَرْعُوبِ
كَالْعِقْدِ مَنْفَرَطًا مِنْ جِيْدٍ رُعْبُوبِ^٤
مَا يَنْعَشُ الرُّوحَ مِنْ نَشْرِ وَمِنْ طِيْبِ

وَفَدَفَدِ قَائِمِ الْأَعْمَاقِ مَتَسَعِ
بِتَوْمُبِيْلٍ جَرَى فِي الْأَرْضِ مَنْسَرَحًا
يَنْسَابُ مِثْلَ انْسِيَابِ الْأَيْمِ تَحْمَلُهُ
كَأَنَّهَا وَهِيَ بِالْمَطَّاطِ مُنْعَلَةٌ
يَمُرُّ كَالرِّيْحِ لَمْ تَسْمَعْ لِأَرْجَلِهِ
وَتَنْكُرُ الْخَيْلَ إِنْ جَارَتْهُ فِي سَنَنِ
تَظْلُهُ قُبَّةٌ فِيهِ مَنْجَدَةٌ
يَخَالُ مِنْ حَلٍّ فِيهَا نَفْسُهُ مَلَكًا
رَكِبَتْهُ وَبِيَاضُ الصَّبْحِ تَحْسِبُهُ
وَالْبَدْرُ فِي الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ مَمْتَقِعِ
وَلِلنَّجُومِ بَقَايَا فِي جَوَانِبِهِ
وَلِلنَّسِيْمِ هَبُوبٌ فِي مَدَارِجِهِ

^١ الفدغد: الفلاة الواسعة لا شيء بها. والأجواز: جمع جوز، وهو وسط الشيء.

^٢ الأيم: الحية.

^٣ الحضر: السير السريع. والتقريب: ضرب من السير بطيء.

^٤ الرعبوب: الشابة الممتلئة الحسنة الناعمة.

فطار من غير تحليق براكبه
وسار سيرًا دراكا ملء مهيعه
فكنت أبصر حولي الأرض جارية
يلوح فصل الربا وصلًا فأحسبها
ما زال يجتاز بي ما في البسيطة من
حتى بلغت به أقصى مدى عجزت
وكم علا بي أنشارًا تسلقها
لا يعرف الأين منه أين موقعه
وكيف يتعب من لا حس يتبعه
وإنما هو يجري في مسالكه

بل مرّ يمطر مطرًا فوق ملحوب^٥
كالويل يتبع شؤبوبًا بشؤبوب^٦
كمثل تيار بحر وهو يجري بي
من سرعة المرّ قد صفت بترتيب
سهل ومن جبل عالي الشناخيب^٧
عنه العتاق من الجرد السراحيب^٨
وشاب في السير تصعيدًا بتصويب^٩
ولو يواصل إدلاجًا بتأويب^{١٠}
ولا يسير على ساق وظنبوب^{١١}
دفعًا بقوة غاز فيه مشبوب

* * *

جرّبه هابطًا أجزاع أودية
وملهبًا في سهول الأرض ينهبها
فكان أسبق مركوب لغايته
تلك المطية لا عوجاء يذكرها
لو امتطاها لبيد قبل تاه بها

وطالعًا في الثنايا والعراقيب^{١٢}
نهبًا ويخلط ألهوبًا بالهوب^{١٣}
وكنّت أقرب طلال لمطلوب
أديب ذبيان من عيرانة النيب^{١٤}
على الحواضر قدمًا والأعاريب

^٥ الملحوب: الطريق الواسع.

^٦ دراكا: متتابعًا. والمهيع: الطريق. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

^٧ الشناخيب: جمع شخوب وشنخابة وشنخاب، وهو رأس الجبل.

^٨ السراحيب: جمع سرحوب، وهي الفرس الطويلة الجسم.

^٩ أنشارًا: جمع نشر بالتحريك، وهو المرتفع من الأرض.

^{١٠} الإدلاج: سير الدلجة في الليل. والتأويب: السير بالنهار.

^{١١} الظنبوب: مقدم عظم الساق.

^{١٢} الأجزاع: جمع جزع، بكسر الجيم، وهو حيث ينزع الوادي والطريق، أي: ينعطف.

^{١٣} الألّهوب: العدو الشديد تنتهب منه الأرض الصلبة، فيخرج منها الشرر.

^{١٤} أديب ذبيان: هو النابغة الذبياني. والعيرانة: الناقة تشبه العير — وهو حمار الوحش — في وثاقة خلقها وقوتها. والنيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.

ولم يَهَم لو رأى ابن العبد منظرها من وصف عوجائه في كل أسلوب^{١٥}
ولا أطال ابنُ حُجْرٍ وصف منجرٍ عالي السراة كُميت اللون يعيوب^{١٦}

^{١٥} ابن العبد: هو طرفة بن العبد، وعوجاؤه: ناقتة التي وصفها في معلقته.

^{١٦} ابن حجر: هو امرؤ القيس. والمنجرد: القصير الشعر. والسراة: الظهر. والكميت: الأحمر. واليعيوب: الجواد البعيد الغاية في الجري.

من ويلات الحرب

مرت تقول: ألا يا ربَّ خُذْ روحي
مهزولة الجسم من فقرٍ ومن نَكْدٍ
باتت بغير عشاء وهي طاوية
ضنك المعيشة أضوى جسمها فبدت
وأذبلتها هموم النفس ناصية
ويُلْمُّها عيشة نكداء يابسة
في طرفها نظرٌ وان تُردِّده
تلفعت بدريس من تخرُّقه
كي أستريح بموتي من تباريحي^١
مُصْفَرَّةَ الوجه من هَمٍّ وتريح
وأصبحت وهي غَرثى دون تصبيح^٢
شروى خيال بطرف العين ملموح^٣
فصوَّحت وجنتيها أي تصويح^٤
لم تبَقَ من جسمها غير الألويح!^٥
لَمَحَ المريض إذا ما جاد بالروح
تخال طرَّته بعض التقازيح^٦

^١ التباريح: كلف المعيشة في مشقة.

^٢ التصبيح: هنا بمعنى الغداة؛ أي ما يؤكل صباحًا.

^٣ شروى: بمعنى مثل؛ أي مثل خياله.

^٤ التصويح: التجفيف؛ أي جففت وجنتيها.

^٥ الألويح: جمع ألواح، جمع لوح، فهو جمع الجمع، وألواح الجسد: عظامه العراض، والمعنى: لم يبقَ في جسمها غير العظام، يقال للمهزول: لم يبقَ منه إلا الألواح.

^٦ التقازيح: جمع التقزيع، وهو رأس نبت أو شجرة يتشعب كبرثن الكلب؛ أي تخال جانب ثوبها المنخرق كرأس هذا النبت المتشعب شعبًا.

فكم ترى العينُ خرقاً غير مرتقع في جانبه وفتقاً غير منصوح^٧
تمشي انخزالاً بعبء الفقر مُثقلة كظالغ في الطريق الوعر مكسوح^٨
خارت قواها فمارت في تخذلها يكاد يسقطها هبُّ من الريح

* * *

لَمَّا دنوت إليها كي أسأئلهما والقلب في خطرٍ كالأراجيح
تأوّهت أهة حمراء داميةً تشفُّ عن كبدٍ بالهم مجروح
وأجهشت ثم أرخت من محارها عنان دمع على الخدين منصوح
وأعرضت وهي لم تنبس سوى نظر يغني الألباء عن نطق وتصريح
فرحّت من عجبي منها ومن جزعي أبكي لها بين ترجيع وتسبيح
من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح
ولا يقوم بعبء المجد مضطلعاً من لا يقوم إلى إنهاض مفدوح^٩
وما السعادة في الدنيا بحاصلة إلا بإسعادٍ أطلّاح مرازيح^{١٠}
إن المروءة شيء لا تناوشه إلا سواعد أجواد مساميح
أرى كنوز المعالي ما لأقفلها غير السماح لعمرى من مفاتيح
والعيش غيهبٌ آمالٍ وليس لنا سوى التعاون فيه من مصابيح

* * *

قامت قيامة أهل الغرب فانبعثت هزاهزٌ بينهم عمّت بني نوح^{١١}
واستفحلت فتنة عمياء جائحةً تمخّضت في دم في الأرض مسفوح
وقامت الحرب باللاواء شاملة كل البسيطة حتى الأبحر الفيح^{١٢}

^٧ منصوح: أي مخطط، من نصح الثوب إذا خاطه.

^٨ الظالغ: الذي يغمز في مشيه؛ أي يميل من رجله، وكذلك المكسوح، يقال: جمل مكسوح؛ إذا كان به ظلع شديد.

^٩ المفدوح: المثقل.

^{١٠} أطلّاح: جمع طلح، وهو المعنى والمهزول، وكذلك مرازيح.

^{١١} الهزاهز: الفتن التي تهز الناس.

^{١٢} اللاواء: الشدة والمجاعة. والفيح: جمع أفيح، يقال: بحر أفيح؛ أي واسع.

والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها
ضاقَت على الناس وانسَدَّت مسالكها
والحرب أغنت أناسًا غنيَّةً عَجَبًا
ومعشرًا أسكنتهم في الذرا غُرَفًا
مُحَمَّرَةً اللُّوح أو مُغَبَّرَةً السُّوح^{١٢}
فَعَاد كل طريق غير مفتوح
وآخرين رمتهم بالمجاليح^{١٤}
ومعشرًا بطنَ ملحود ومضروح^{١٥}

* * *

أما التي أوجعت قلبي بمنظرها
فغادة عضَّت الحربُ الضُّرُوسُ بها
أُمست تكابدُ من فقرٍ أَلَمٍ بها
ترنو إلى الناس بالشكوى فتحسبها
وأوهنته بتبضيعٍ وتقريح
عُضًّا بناب حديد غير مرضوح^{١٦}
آلَمَ عيشٍ بشيع الطعمِ مذروح^{١٧}
ظمآن يشكو لآلِ حُرقة اللُّوح^{١٨}

^{١٢} اللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض. والسوح: جمع ساحة؛ احمرار اللوح، واغبرار السوح: كناية عن وقوع القحط والجذب.

^{١٤} المجاليح: السنون التي تذهب بالمال، وهي ذات القحط والجذب.

^{١٥} الملحود والمضروح: القبر.

^{١٦} مرضوح: مكسور.

^{١٧} مذروح: مسموم.

^{١٨} الآل: السراب. واللوح: بضم اللام هنا، بمعنى العطش، والمعنى أنها تشكو إلى الناس بلا فائدة كشكوى الظمآن إلى الشراب.

على جسر مود

قالها يصف بها ليلة مقمرة وهو على جسر مود بغداد.

واربأُ بحبِّك أن يكون خيالاً	لا تبكِ أَرْبُعَهُمْ ولا الأطلالا
مما يزيدك بالسؤال ضللاً	واتركِ سؤالك للرسوم فإنها
حُسن يفيدك في الحياة كملاً	وانظر إلى حسن الطبيعة إنه
ويفكُّ من أفكاره الأغلالا	حسن يقيّد من رآه بحبه
بالمشتكين كآبة وملا	ويطير في جوّ السرور مُرْفَرَفاً
يكسو الدُّجى من نوره سربلا	أوما ترى البدرَ المنير إذا بدا

* * *

والبدر في أفق العلا يتللا	ولقد وقفت بجسر مودَ عشيةً
منها يجرُّ بدجلة أذيالا	والليل يلبس من سناه مطارِفاً
وحكى بطيب هُبوبه الآملا	أما النسيم فقد جرى متعطراً
فحكى السماء محاسناً وجمالا	وجبين دجلة قد صفا متألّقا
تحتي بدجلة للسماء مثالا	فحسبت نفسي في السماء مُشاهداً
ورأيت من تحتي السماء خيالاً	ورأيت من فوقي السَّماء حقيقة
قد مدَّ في جوّ السماء مشالا	فكأنما الجسر الذي أنا فوقه
طَوَراً أسفُ وتارةً أتعالي	وكأنما أنا في السماء محلِق

* * *

لله ما شاهدته من مَنظرٍ يدع الكئيب كشارب جريالا!^١
حُفَّتْ جوانبه بكل بديعةٍ فزها جمالاً واستقلَّ جلالاً
حتى نخلُ الجانبين جميعها قامت له بحفاوةٍ إجلالاً

^١ الجزئال: من أسماء الخمر.

على البسفور

وللدَّوح ظلُّ دونه متقلَّصٌ
كجري طموح الخيل إذ يتوقَّص¹
هضابٌ إلى أطرافها الثلج يخلص
تغنِّي وهذا الموج في البحر يرقص
بها العيش يصفو أو بها يتنغَّص
بها الناس تغلو أو بها الناس ترخص
تزيد لمن فيه المروءة تنقص
ويُظهر إخلاصًا وما هو مخلص²
يروغ أو الكلب الذي يتبصَّب
جهولًا على علاته يتعنَّفص
بغِيضٍ إلَيَّ الكاذب المتخرَّص
فإني بأثواب العلا متقمَّص
وإني على ذا في المغيب لأحرص
إذا كان فيه باطنٌ متلصَّص

وقفتُ على البوسفور والريح عاطف
وفي البحر مجرى موجة إثر موجة
ويُزبد أعلى الموج حتى كأنه
كأنَّ رياح الجو عند هبوبها
كذا حادثات الدهر تمضي رواقصًا
وفي كل يوم للزمان عجائبٌ
وأعجب ما في الدهر أن هباته
وربَّ أفيك جاء يمدِّقُ ودَّه
ولكنه في ودَّه الثعلب الذي
تعاليتُ عن تبكيته إذ رأيته
وقلت له: لا تدنُ مني فإنني
وإنك عارٍ من سوى العار فابتعد
حرَّصت على تكريم محضر صاحبي
وما غرني ذو ظاهر متودِّدٍ

¹ يتوقَّص: يثب في عدوه وهو يقارب الخطو.

² أفيك: كاذب. ويمدِّق: يخلط.

ويا رَبِّ وجهٍ لم يَرَقْنِي بياضُه
فيا شعراء القوم كُفُّوا وَغَاكُمُ
دعوا كشف مكنون الصدور لِفُطَّتَنِي
ذكاء لو اجتزتُ الجدار بنوره
ولست على الأعقاب في الرأي ناكصًا
على أن لي في معرض الشكِّ رِبْصَةٌ
إذا أنا لم أنكر على الدهر جورَه
فلَمَّا دنا مني إذا هو أبرص
فشرح العلا في بعض شعري مُلْخَص
فإني بذا من دونكم متخصص
لشف لعينيَّ الجدارُ المَجْصَص
إذا كان للمستضعفِ الرأي منكص
وَرُبَّ يقينٍ ناله المتربص
فلا وطئت بي موطئَ العز أخمص

إلى غرة آل سعدون

أراك مَنَاطَ أسباب الرجاء
يلألئ من فخارك في سماء
رثاة بزتي وبلَى كسائي
تكاد تذوب من مسّ الهواء
لبست بهنّ أثواب الرياء
لكاسي النفس من حُلل الإباء
إذا ما كان محمود المضاء^١
بثوب منك يا غمر الرداء^٢
ولم أخلعه إلا في المساء
ظلاماً ما تمزق بالضياء
وألجأ في النهار إلى الضراء^٣
ولا من زِيّ أرباب الثراء^٤
فمن ثوب عليّ ومن عباء

أعبد المحسن السعدونَ إني
وأبصر من فعالك بدَرَ تَمَّ
لذلك قد أتيتُ إليك أشكو
فقد رَقَّتْ ثيابي اليوم حتى
غدت شفافة حتى كأني
وليس العُزّي من ثوب معيباً
وما ضرَّ المهنّد فقد جفن
فإن لم تدرك الأيام عُريي
لبست قرار بيتي في نهاري
فإن جاء المساء لبست منه
وصرت أجول كالخُفّاش ليلاً
ولست أريد ثوباً أتحميّا
ولكن بزة البدويّ أبغي

^١ الجفن: قراب السيف.

^٢ غمر الرداء: واسع العطاء.

^٣ الضراء: الشجر الملتف في الوادي.

^٤ الأتحمي: الثوب الصفيق المتين النسيج.

ومن كوفية صَحِبَتْ عِقَالاً
فذا زِيٌّ يَتَمُّ به رجوعي
وما صَيَّرْتُ ملبوسي خَفِيفاً
وكيف وأنت أكرم من حباني
ولكنني رَغِبْتُ عن اكتسَاءٍ
وكيف يكون مطلوبي حقيراً
وهل أنا غيرُ عبيدٍ أنت منه
لأَتَّخِذَنَّ إِخْلَاصِي وَصَدَقِي
وأجعل ما حَيَّيتَ جميلَ شكري
ولست أرى الحياةَ تطيب إلا
وأعلم أن ما أَشْكَو إِلَيْكُمْ
ويشمت بي الذين لهم نفوس
ولم يشمت بأحرار البرايا
ولكن هَوَّنَ الْبَرَحَاءَ أَنِي
شكوتُ إلى فتَى جَمِّ المزايا
فتَى يُولِيكَ عِنْدَ الْبُؤْسِ خَيْراً
رحيبُ الْبَاعِ مَوْلَقُ الْمَحِيَّا
صريح في مقاصده إذا ما
زكت أخلاقه فصفت ورقت
تلاقي الزائرين ببشر وجه
إذا رَأَسَ الْبِلَادَ أَبُو عَلِيٍّ
وإن ولي الوزارة وهو أهلٌ

يكون الرأس منها في غطاء
إلى عيش بسيط ذي هناء
لأنني خفت من ثِقَلِ الْعَطَاءِ
بأكرم ما رجوت من الحباء؟!
يطول به من الدنيا عَنَائِي
وأنت أجلُّ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ؟!
خَصَصْتَ أبا عَلِيٍّ بِالْوَلَاءِ؟!
لكم من كل موبقة وقائي
لما أسديت من نعم غذائي
بحسن تجمُّلي لك والثناء
يسرُّ الماردين على عدائي
مَرْضَنَ مِنَ الْعُيُوبِ بِكُلِّ دَاءٍ
سَوَى لَوْمَائِهِمُ وَالْأَدْنِيَاءِ
شكوت إلى جديرٍ بَاشْتِكَايِ
كبير النفس منفرد السناء
ولا ينسأك في حال الرخاء
أَصِيلُ الرَّأْيِ وَقَادُ الذِّكَا
أَسْرُّ الْقَوْمِ حَسَوْا فِي ارْتِغَاءٍ^٥
فهنَّ لكل مَكْرَمَةٍ مَرَائِي
تجلُّ بالمروءة والحياءِ
فقد وضحت بها طرق العلاءِ
فيا حسن السياسة والدَّهَاءِ

^٥ الحسو: الشرب. والارتغاء: شرب الرغوة، وهذا مثل معناه أنه يظهر أنه يشرب الرغوة، وهو يحسو اللبن الذي تحتها، يضرب لمن يظهر غير ما يبطن.

الوسام وفخامة رئيس الوزراء

وبدا عليه كزهرة من سوسنٍ
فاستعصمت منه بأشرف مكمّن
من كل شائنةٍ بأكرم مأمّن
كالنجم في الأفق السعيد الأيمن
أكرم بصدرك للعلا من معدن!
للمخلصين وحسرة المتخوّن
إذ أكرمتك به سياسة لندن
ما تبتغيه من اعتزاز الموطن
ما شئت سير حضارة وتمدّن
شرقاً فيعظم حسنّها في الأيمن
ذو نسبة في المجد ذات تفنّن
فاعجب لحسن مَعْنون بمعنون
يَهْدِي البلاد إلى المآب الأحسن
وابلغْ بهنّ مدى الرقيّ الممكن
بك يا أصيل الرأي فضل تحسّن

حَسَنَ الوسام بصدر عبد المحسن
صدر به كمنّت سرائر مجده
واستأمنته المكرمات فأصبحت
لاح الوسام بأفقِ صدرك لامعاً
هو للعلا من فوق صدرك شارة
شرف حُبَيْتَ به فكان مسرة
جعلته لَندنُ للعراق كرامة
ليكون فيك علامة منها على
فافخر به كل الفَخار وسر بنا
تتناسب الأشياء مع أصحابها
وكذاك صدرك والوسام كلاهما
فكلاهما عنوان مجد قرينه
يا أصدق الوزراء معرفة بما
سر بالبلاد إلى معالم عزها
إننا لنرجو للعراق وأهله

نحن

في يوم حادثة الرئيس

شاع كالبرق في العراقيين يوماً
خَبِرَ قُطْرُنَا الْعِرَاقِيَّ قَدْ رُلَ
شاع أَنَّ الرَّئِيسَ أَهْوَى إِلَيْهِ
إِذْ رَمَاهُ بَطْعَنَةٍ مِنْهُ فِي الزُّنْدِ
فهوى يخبط الصعيد صريعاً
خبر صاح عنده الناس يا لله
واستمر الكرام يرجون أن لو
ويقولون: من أصيب؟ أعبد المح
أسليل الداودي من آل سع
ويحكّم ما الذي تقولون للننا
إن يكن صَحَّ ما تقولون، لا صَحَّ

خَبِرُ أترع القلوب كآبه
زل منه حتى خشنا انقلابه
ذو اعتداء بمُدِيَةِ فأصابه
عد وأخرى في رأسه والذُّوَابِه
بدماء قد ضَرَجَتْ أَثْوَابِه
للمجد والندى والنجابه
حَقَّقَ الله خُلْفَه وكذابه
سن العبقري ليث الغابه؟!
دونَ أربُ الشَّمائلِ المستطابه؟!
س أجدُ مقالكم أم دُعابه؟!
فقدنا من العلاء لُبابه

* * *

ثم مرت سَوِيعة فتولت
إذ علمنا أن الرئيس بحالٍ
وعلمنا الخطب الذي أكبروه
بيدَ أن الذين هم أكبروه
فإذا كل ما جرى هو هذا

سُحِبَ الغمُّ والأسى مُنْجابه
غيرِ قَتَّالَةٍ ولا رِيَّابه
غيرِ خطبٍ وإن يكن ذا غرابه
أرجفوا نافخين في الشَّبَّابِه
أَسَدُ قد عدتْ عليه ذبابه

ديوان معروف الرصافي

فهنيئاً لا للرئيس ولكن للمعالي وللنهي والنَّجاة

في ملعب كرة القدم

كرة تُراضُ بلعبها الأجسامُ
فتعاورتها منهم الأقدام
للسُّوق مُعترك بها وصدام
بالكف عند اللاعبين حرام
شرعوا الرءوس فناطحتها الهام
فتمرُّ صائتةً لها إرزام
للضرب عِبل الساعدين همام
سقطت فزمجر دونها الضرغام
أملُّ به تتقاذف الأوهام
نحو الجنوب مُلاعب لطمّام
مرًّا كما تتواثب الآرام
عنها وآخر ضاربٍ مقدام
قلب عليه تَهَاجُمُ الآلام
علمًا تراض بدرسه الأفهام
يَفْعُ مَرِير المرفقين غلام

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم
وقفوا لها متشمّرين فألقيت
يتراكمون وراءها في ساحةٍ
رَفَسًا بأرجلهم تساق وضربُها
ولقد تحلّق في الهواء وإن هوت
وتخالها حينًا قذيفة مدفع
ولربما سقطت فقام حيالها
فتخالها وتخاله كفريسةٍ
لا تستقر بحالة فكأنها
تنحو الشمال بضربة فيردّها
وتمر واثبة على وجه الثرى
وتدور بين اللاعبين فمُحْجَم
وكأنها والقوم يَحْتَوِشُونَهَا
راضوا بها الأبدان بعد طِلابهم
أبناء مدرسة أولاءٍ وكلهم

* * *

تَعَبٌ وبعضُ مُزاحها استجمام

لا بدَّ من هزل النفوس فجِدُّها

فإذا شغلت العقل فآلهُ سُويعةٌ	فاللهو من تعب العقول جِمام ^١
والفكر منهكة فباستمراره	تهن العقولُ وتهزَلُ الأجسام
إن الجسم إذا تكون نشيطة	تقوى بفضل نشاطها الأحلام
هذي ملاعبهم فجسمك رُض بها	واسلك مسالكهم عَداك الذام ^٢

^١ جمام: راحة.

^٢ الذام: العيب.

الإحسان

أنشدت في حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية في بغداد، وأنفق في بنائها حضرة المحسن الكبير مناحيم صالح دانييل من أشراف الملة الموسوية وأغنيائها في بغداد، وذلك سنة ١٩٢٨.

لعبدتُ من دون الإله المحسِنَا
سِرًّا وفُهِتْ له بشكري مُعلِنَا
ولكي أكون بشكره متفَنِنَا
غرسًا سوى الإحسان حلو المجتَنِي
أعيا اللبيب وأعجز المتفَطِّنَا
بالحب يطلق بالثناء الألسِنَا
ويرد بغض المبغضين تحنِنَا
من بين مُشترك الصوارم والقِنَا
إلا أعاد ضحى سناه المَوْهِنَا^١
إلا أعزَّ الله ذاك الموطِنَا
من حيث تُعمي عن رؤاها الأعينَا
في الغرب لم نَزَرْتُ وقلَّتْ عندنا

لو كنتُ أعبد فانيًا في ذي الدُّنَا
وجعلت قلبي مسجدًا لتعبدي
كي لا أكون مُرائيًا بعبادتي
في مُجتَنِي غرس الخليفة لم أجد
هو في الخليفة ذو عجائب سرُّها
بيناه يغدو للنفوس مُقيَّدًا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم
كم بلَّ نائرة فأطفأ نارها
ما لاح كوكبه بمَوْهِنِ غُمَّة
ما إن تظَلَّلَ موطنٌ بظلاله
نفحاته تمحو معايب أهله
لم أدِرِ والآثار منه كثيرة

^١ الموهن: الساعة بعد منتصف الليل.

أفنحن نجهله وقد علم الورى في الشرق نشأته ربيباً بيننا
أوما أمرنا في عظات كتابنا بالعدل والإحسان أن نتدينا

* * *

ويسرني أني أشاهد موطني قد نال من بركاته بعض المني
وإذا استريب بما أقول فشاهدي هذا البناء ومن حماه ومن بني
قد شيد للأيتام مأوى واهياً يهتم بالأيتام فيه ويعتني
ليكون فيه شفاؤهم من جهلهم ومن الظما ومن الطوى ومن الضنى
جاد ابن «دانييل» الكريم لذا البنا بالمال مشترياً به كل الثنا
فاستوجب الحمد الذي كلماته مستغرقات بالثناء الأزما
فلنكنه بأبي اليتامى بعد ذا إذ لا يخاطب مثله بسوى الكنى
رجل علمنا اليوم من إحسانه أن ليس للإحسان دين في الدنا
لا يحسن الإحسان إلا هكذا قد صار طبعاً في النفوس وديدا
والمال إن جادت به يد محسن حسن وإلا فهو بئس المقتنى
سعد امرؤ بذل الفواضل للورى عفواً وعود نفسه أن يحسنا
والجهد مني ها هنا هو أنني أدعو إلى الإحسان من حضروا هنا

الجرائد وما كانت عليه في الأستانة

يدوي بقطريها هزيمُ الرواعد^١
وتعثر في ظلماتها بالجلامد
تروح بها أم للمدى المتباعد
أرى الويل كل الويل بين الجرائد
لهيب خلافٍ بينها غير خامد
أطافت بنقص في الحقيقة زائد
وما بين مجحود عليه وجاحد
فريقين من ذي حجة ومعاند
بتفنيد رأي أو بتزييف ناقد
وآخر رام سهمه نحو ذائد^٢
من الصحف يدعو آتياً بالشواهد
بها مدّ للدنيا حباله صائد
وعُقبى ضياع الحق سود الشدائد
مبادئه منقوصة بالمقاصد

إذا شئت أن تسري بكافرة الصوى
وتذهب محيار الظلام تخبطاً
وتمشي فما تدري إلى قعر هوة
فطالع أراجيف الجرائد إنني
جرائد في دار الخلافة أضرمت
ولم يكفها هذا الخلاف وإنما
فما بين مكذوب عليه وكاذب
ترى في فروق اليوم قرءاً صُحفها
جدال على مرّ الجديدين دائم
فذائد سهم عن رمي يردّه
وهذا إلى هذي وذاك لغيرها
وما هي إلا ضجّة كل صائت
أضاعوا علينا الحقّ فيها تعمداً
ولم أر شيئاً كالجرائد عندهم

^١ كافرة الصوى: كناية عن الصحراء التي لا علم فيها يهتدى به. ويدوي: يكون له دوي.

^٢ الذائد: المدافع عن الشيء. والرمي: الرامي.

لهم في مجال القول غير المفسد
وكلُّ له في الحق نفثة مارد
يجر إلى قرصيه نار المواقد
يَضلُّ امرؤ عن غيِّهم غيرُ حائد
مقالة محقود عليه وحائد
فقد أوردتنا اليوم شر الموارد
مع الحق أنى دار بين المعاهد
فتأتى بها مشحونة بالفوائد
وتُنوِّر أفكار وإنهاض قاعد
وتُغضون عن إضرارها ألف واحد؟!
وما جاز في حكم النهى كذب رائد
بها تتجلى رُوحهم للمشاهد
وديوان أخلاق لهم وعوائد
به الصحف في طُرُق العلا والمحامد؟!
كما يهتدي الساري بضوء الفراقد
مع الغرب حتى في شئون الجرائد
فإنى عليكم خائفٌ غير حاقِد
فإن تجدوا منها فلسست بواجِد

يقولون: نحن المصلحون، ولم أجد
وكيف يَبين الحقُّ من نفثاتهم
فإياك أن تغتترَ فيهم فكلُّهم
وكن حائداً عنهم جميعاً فإنما
على رسلكم يا قوم كم تُسمعونا
ألا فارحموا بالصفح عن نهج صُحفكم
وما الصحف إلا أن تدور بنهجها
وأن تنشر الأقوال لا عن طَماعةٍ
وَألا تُعاني غيرَ نشر حقائق
أَتبغون في تليفقها نفع واحد
ألا إن صحف القوم رائد نجهم
لَعَمري إن الصحف مِرآة أهلها
كما هي ميزانٌ لوزن رقيهم
ألا تنظرون الغرب كيف تسابقت
بها يهتدي القراء للحق واضحاً
ولكن أبى الشرق التعيسُ تقدماً
فلا تحمِلوا حِقْداً على ما أقوله
وما هي إلا غيرةٌ وطنية

وقفة في الروض

ناح الحمام وغرَّد الشُّحورُ
في روضةٍ يُشجي المشوق ترقرق
ماءٌ قد انعكس الصفاء بوجهه
قد كاد يمكن عند ظنِّي أنه
وتسلسلت في الروض منه جداولُ
حيث الغصون مع النسيم مَوائِلُ

هذا به شَجَنُ وذا مسرورُ
للماء في جنباتها وخرير
وصَفَا فَلَاحَ كَأَنَّهُ بَلُّور
بالماس يُوشِرُ منه لي مَوشور^١
بين الزهور كأنهنَّ سطور
فكأنهنَّ معاطف وخُصور

* * *

ماذا أقول بروضةٍ عن وصفها
عُنِيَ الربيعُ بوشيتها فتَنَوَّعتْ
مَثَلَتْ بها الأغصان وهي منابر
متعطر فيها النسيم كأنما
للنرجس المطلول ترنو أعين
تخذت خزامها البنفسج خَدْنَهَا
وكأن محمراً الشقيق وحوله

يَعِيا البيانُ وَيَعجز التعبير؟!
للعين أنوار بها وزهور
وتلت بها الخطباء وهي طيور
جَيَّبُ النسيم على الشذا مَزُور
فيها وتبسم للأقحاح ثغور
وغدا يشير لوردها المنثور
في الروض زَهر الياسمين يمور

^١ شبه الماء في البيت الذي قبل هذا بالبلور، ثم زاد في هذا البيت أنه بلور، وأنه يمكن أن يقطع منه بالماس موشور، وهو قطعة مستطيلة ذات أضلاع.

شمع توقد في زجاج أحمر
وتروق من بعد بها فوارة
يحكي عمود الماء فيها آخذاً
ناديت لَمَّا أن رأيت صفاءه
هل ذاك ذوبُ الماس يجمد صاعداً
تتناثر القطرات في أطرافها
ينحلُّ فيها النور حتى قد ترى
كم قد لبست بها الضحى من روضة
فأجلت في الأزهار لحظ تعجُّبي
فنظرتهن تحيِّراً ونظرني
فكأن طرف الزهرِ ثمة ساحر
إن الزهور تُكنهنَّ براعمٌ
وتضوُّع النفحات منها مثله
وبتلك قلب الجهل مصدوع كما
والزهر ينبت السحاب بمائه
إن كان هذا في الحقائق بهجة
أو كان هذا لا يدوم فإنَّ ذا

فغدا حوالياه الفَراش يدور
في الجو يدفقُ ماؤها ويفور
صُعداً عمودَ الصبح حين ينير
والنور فيه مغلغلٌ مكسور
أم قد تجسَّم في الهواء النُّور
فكأنما هي لؤلؤٌ منثور
قوس السحاب لها بها تصويرٌ
فيها علَّتني نضرةٌ وسرور
ولفكرتي بصفاتهم مُرور
حتى كلانا ناظر منظور
لَمَّا رَنا وكأنني مسحور
مثل العلوم تجنُّهنَّ صدور^٢
تبييْنُها للناس والتقدير
ثوب الهموم بهذه مطرور
كالعلم يُنبت غرسه التفكير
يزهو فذلك في النهى تنوير
ليدوم ما دامت تكررُ عصورُ

^٢ تجنهن: تسترهن وتحفظهن.

ما رأيت في بك أوغلي

قالها عندما ذهب إلى حي بك أوغلي في الآستانة سنة ١٨٩٨ وقد كان إذ ذاك معممًا، وذلك قبل أن يستبدل الطربوش.

به الخلقُ حتى قلتُ: ما أكثرَ الخلقا!
إلى التَّلَعاتِ الزَّهرِ في دَرَجِ تَرْقى
بلامعِ نورٍ علَّم السَّحبَ البرقا
فما أحسنَ المبنى وما أوسعَ الطَّرقا!
يمدُّ إلى إدراكِ شرفته العنقا^١
وبين النجومِ الزَّهرِ في حسنِها فرقا
تُضاحك أبراجَ السمواتِ والأفقا
تدورُ بأفُقٍ يجمعُ الغربَ والشرقا
«برانيط» سودًا كالسلاحفِ أو ورُقا^٢
وتلقى العيونُ السودَ والأعينَ الزرقا
ففيه عقولُ الناظرين من الغرقى
وهبَ نسيمُ العشق من بينها طلقا

ذهبتُ لحيٍّ في فَرُوقَ تراحمتُ
ترى الناسَ أفواجًا إليه وإنَّما
يضيءُ به ثغرُ الحضارةِ باسمًا
رأيتُ مبانيه وجلَّتْ بطُرقه
فكم فيه من صرح ترى الدهرُ مُتَلعا
قصورَ علَّت في الجوّ لم تَلَقَ بينها
هنالك للأرضين أفقَ بروجِه
بروجٌ ولكن شارقاتُ شمسوها
بحيث ترى حُمُرَ «الطرايش» خالطت
وتلقى الوجوه البيضُ حُمُرًا خدودها
خدودٌ جرى ماءُ الشبيبةِ فوقها
محاسن كالأزهارِ قد طُلَّها الهوى

^١ المتلع: الذي يمد عنقه؛ ليرى شيئًا عاليًا أو بعيدًا.

^٢ الورق: جمع أوراق أو ورقاء، وهي التي لونها لون الرماد، مع حمرة خفيفة.

فمن ذات دَلٍّ أعجزَ الشعرَ وصفُها وإن كان فيها الشعر ممتلئًا عشقا
ومن ذي دلال رنَّحَ الحسنُ عطفه إلى أن رجا من حسنه عطفه الرفقا

* * *

وكم مسرح فيه الحسان تلاعبت تُمثِّلُ كيف الناسُ تسعدُ أو تشقى
حسان علت في الحسن خُلُقًا وخِلَقَةً وهل خِلقة تعلو إذا سفلت خُلقا
تُمثِّلُ ما قد مرَّ منا وما حلا وما جلَّ من أمر الحياة وما دقا
فتلقني دروسًا لو وعتها حياتنا لبُدِّلَ كِذْبٌ في سعادتها صدقا
إذا مثلت شكوى الحزين بكت لها عيونُ البلايا والزمان لها رقا
وإن صَوَّرتَ حقًا هوى كل باطل على رأسه حتى تجدل مُندَقًا^٣

* * *

وماذا ترى فيه إذا زُرتَ حانة؟! ترى الأُنس يشدو في فمٍ يجهل النطقا
سَكوتٌ على قرع الكئوس مُغرَّد بلحن سرور يترك الهم منشقًا
عليهم سحاب الاحتشام يُظلمهم متى هُم أرادوا سَحَّ من قُبُلٍ ودقا
أوانس قد نادمنَ كل غُرانق فمَنهن من تَسقي ومَنهن من تَسقى
فمن ذا يراهم ثم لم يك واغلا عليهم وإن أمسى يُعدُّ الفتى الأتقى
ألسْتُ بمعذورٍ إذا أنا زرتهم وساجلتهم شوقًا؟! فقل ويحك الحقا
فقد لامني لَمًا رأني بحبهم فتَّى منه قحف الرأس ممتلئُ حمقا
فقال: أفي الحيِّ الذي شاع فسقه تجولُ ألم تمنع عمامتك الفسقا؟!
فقلت: أجل إن العمائم عندنا لتمنع في لوثاتها الفسق والرزقا^٤
ولكنني ما جئتُ إلا توصلا لذكرى شقاءٍ في العراقِ به نشقى

* * *

^٣ تجدل: سقطت على الجدالة، وهي الأرض. والمندق: المنكسر.

^٤ الغرانق: الفتى الشاب التام الحسن.

^٥ لاث العمامة يلوثها لوثًا: لفها حول رأسه، اللوثة: المرة من اللوث.

شقاء تمطى في العراق تمطياً
فإن العراق اليوم قد نشبت به
تمشت به حتى أعادت سواده
فلهفي على بغداد إذ قد أضاعها
جزوها عقوقاً وهي أم كريمة
أدامت لها الأحداث مخضاً كأنها
سأبكي عليها كلما جلتُ سائحاً
وأندبها عند الأغاريد شارباً
وألقى جراناً لا يزحزح واستلقى^٦
نيوب الدواهي فهي تعرقه عرقاً
بياضاً ومدت للبور به ربعا
بنوها فسحاً للبنين بها سحقاً!
والأم أبناء الكريمة من عفا
قد اتخذتها الحادثات لها زقاً^٧
وشاهدت في العمران مملكة ترقى
من الدمع كأساً لا أريد لها مذقاً^٨

^٦ الجران: مقدم عنق البعير، وإلقاء الجران: أن يمس البعير الأرض بمقدم عنقه عند بروكه، وهو كناية عن التمكن والاستقرار.

^٧ الزق: وعاء من جلد يحفظ فيه اللبن والخمر ونحوهما.

^٨ الأغاريد جمع أغرود، وهو الغناء. والمذق: الخلط، مذاق اللبن بالماء: خلطه، يريد أنه إذا تشاغل قوم بسماع الغناء وشرب المدامة، فإن شغله هو أن يصبح باكياً بلاده، شارباً من فيض دموعه كأساً صرفة غير مشوبة بماء.

السد في بغداد

قال يخاطب حازم بك والي بغداد، بعد خروجه إلى سد «الحربوة» من شاطئ الفرات — الذي انكسر فأغرق بغداد — وهذه هي الحادثة التي قال فيها الشاعر قصيدة سوء المنقلب:

نَجَّيْتَ بالسَّدِّ بَغْدَادًا من الغرق	فعمها الأمن بعد الخوف والفرق
قد قمتَ بالحزم فيها والياً فجرتُ	أمورها في نظام منك متَّسق
لقد نجحتَ نجاحًا لا يفوز به	من خالق الحزم إلا حازمُ الخلق
ويح الفرات فلو كانت زواخره	تدري بعزمك لم تطفح على الطُّرق
ولا غدت تجرُّفُ الأسَدَاد قاذفَةً	منها بسيل على الأنحاء مندفق
حيث «الحربوة» أمست منك طالبة	رَتَقًا لسدٍّ بطامي السيل مُنفتق
باتت تجيش بتيَّار وبات لها	أهلُ العراقيين في همٍّ وفي قلق
حتى إذا أيقنت أرض العراق بأن	تفنى من الظَّمِّ أو تفنى من الغرق ^١
شَمَّرَتْ عن هممٍ تعلو النجوم وقد	أمسى الزمان إليها مُتلعِّع العنق ^٢

^١ الظم: المدة التي يعطش فيها الحيوان بين الشربين، والمراد هنا مطلق العطش.

^٢ متلعِّع العنق: ماد العنق من التطلع إليها.

فكدت تملأ فرغ الواديين بما
لما خرجت وكان الخرق متسعاً
قالوا: نحا شُقَّةً قصوى وما علموا
فصدَّق الله ظناً فيك أحسنه
إذ جئت والسدُّ تحت الغمر مكتسحٌ
وثُلْمة السد كالمهواة واسعةٌ
سَلَلت صارم رأيٍ قد أزلت به
فما تموّج ماء النهر من غضب
ثَبَّتَ عزمك في أمرٍ يذلُّ به
تقضي النهارَ برأب الثأني مجتهداً
حتى بنيت وكان النهرُ منفلقاً
أرسيته جبلاً قامت ذراه على
فراحت الناس تمشي فوقه طرباً
وصار مَعْكِسَ فخرٍ أنت مرجعه
وقد ركزت به الرايات خافقةً
من كل أحمرٍ قان وسطه قمر
فضلٌ حاسدك المغبون منطوياً
ودَّ الفرات حياءً منك يومئذٍ

حشرت من طبق يأتيك عن طبق^٣
والناس ما بين ذي شكٍّ ومتثق^٤
بأن عزمك يُدني أبعد الشَّقِّ^٥
قوم وكذَّبَ ظنَّ الجاهل الخرق
والنهر يرغو بموج فيه مُصطَفَق^٦
يهوي بها السيلُ من فوقٍ إلى العمق^٧
ما كان في السيل من طيش ومن نزق
وإنما أخذته رعدة الفرق
عزم الحصيف لما يحوي من الزلق
وتقطع الليل بالتدبير والأرق^٨
سدّاً عليه رَصِيناً غير مُنفلق
أصل مع الموج تحت الماء معتنق
والنهر ينساب بين الغيظ والحنق
كالنور يرجع مَعكوساً إلى الحدق
ما بين طاقين مرفوعين في نسق
يتلوه نجم بلون أبيض يَقْق^٩
على فؤاد بنار الجهل محترق
لو غار يسلك تحت الأرض في نفق

^٣ فرغ الواديين: اتساعهما، والواديان: دجلة والفرات. وحشرت: حشدت وجمعت. والطبق: الجماعة من الناس، وعن طبق: أي بعد طبق. يريد أنه جمع للعمل في إصلاح السد المنكسر جمعاً غفيرة من الناس، يتلو بعضها بعضاً.

^٤ متثق: مفتعل من الوثوق بالشيء.

^٥ الشقة: الناحية، قصوى: شديدة البعد.

^٦ الغمر: السيل الغزير الشديد.

^٧ ثلْمة السد: الموضوع المتهدم منه. والمهواة: الأرض المنهيدة المنخسفة.

^٨ رأب الثأني: إصلاح الفاسد، وهو من الرؤية، وهي الرقعة يشعب بها الإناء المكسور من الخزف ونحوه.

^٩ يقق: بفتح القاف الأولى. أي خالص البياض.

لما اقتدحت زناد الرأي مفتكرًا
فأدبرَ الهمُّ وانشقتْ غياهبه
إن الأمور إذا استعصت نوافرها
وإن تصاممت الأيام عن طلب
تنحلُّ بالرأي منك المشكلات لنا
وكلما زدت تفكيرًا بمعضلة
فالفكر منك كأبعاد الفضاء بلا
يحكي الأثير إذا أجرى تلاطمه
لك الثناء علينا أن نخلده
تالله لو بلغت زهر النجوم يدي
رتبتها حيث كل الناس تقرأها

في الخطب ألهمت منه فحمة الغسق
كما قد انشقَّ سَجَف الليل بالفلق^{١٠}
أخذتهن من التدبير في وهق^{١١}
أسمعتهن بصوتٍ منك صُهلِق^{١٢}
كالنور ينحلُّ ألوانًا من الشرق
زادت وضوحًا لنا حتى على الشفق
حدَّ يسابق خطف البرق في الطلق
أبدى سواطع نور منه مُنبثق
نقشًا على الصخر لا رقمًا على الورق
من كل جرم بصدر الليل مُؤتلق
سَطَرًا بمدحك مكتوبًا على الأفق

^{١٠} السجف: الستر. والفلق: الصبح.

^{١١} الوهق: الحبل المقتول تجعل فيه أنشودة، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان.

^{١٢} الصهلِق من الأصوات: الشديد، ورجل صهلِق الصوت: أي شديده.

الساعة

وخرسَاءَ لم ينطقُ بحرفٍ لسانها
حكّت لهجة التَّمَنَام لفظاً ولم تكن
لها ضَرْبانٌ في الحشا قد حكّت به
جرت حركات الدهر في ضَرْباتها
على وجهها خُطَّت علائم تهتدي
مشّت بين آنات الزمان تقيسه
بها يتقاضى الناس ما يُوعِدونه
غدت كأخي الإيمان تأكل في مَعَى
تدور عليها عقرب دَوَرٍ حائرٍ
ترك مكان الشمس في دورانها
فأعجب بها مصحوبةً جاء صنعها
بنتها النهى في الغابرين بسيطة
تنادي بَنِي الأيام في نقراتها

سوى صوت عِرْق نابضٍ بحشاها
لِتَفصَحَ إلا بالزمان لغاها
فَوَادًا تغشاه الهوى وحكاها^١
وباتت مواقيت الورى بعمائها
بها الناس في أوقاتها لمناها
وما هو إلا مشيها وخطها
وَيُرْشِدُ ضُلَّالَ الزمان هُداها
وما أَكلها إلا التواء مِعاها^٢
بتيها غَمَّت في الظلام صُواها^٣
إذا حجبت عنك الغيومُ ضيها
نتيجة أفكار الورى وحجاها!
فتمَّ على مر الزمان بناها
أن اسعوا بجِدٍّ بالغين مداها

^١ ضربان: أي ضرب وخفق.

^٢ يشير إلى الحديث الذي معناه: «المؤمن يأكل في مَعَى واحد»؛ أي أنه يتقلل من الطعام والشراب.

^٣ تيهاء: صحراء لا يهتدى فيها إلى شيء. وغمت: سترت وحجبت. والصوى: ما ينصب من الأحجار في الصحاري؛ علامة على الطريق.

ديوان معروف الرصافي

ولا تهملوا الأوقات فهي بواترٌ تقطُّعُ أوصالَ الحياة شباها

ذكرى لبنان

هيفاء مُخجلة غصونَ البانِ
مَرَحًا فأجهدَ خَصْرَها الردفانِ
قعدتَ وقامَ بصدرها النهدانِ
دبَّ الفتور بجفنها الوَسنانِ
فيها وتركع دونها العينانِ
ألا تزال مريضَةً الأجفانِ
بسط الزمان لها يَدَيَّ ولهانِ
عقل الحليم وعصمة الصبيانِ
إذ نحن نصعد في ربا لبنانِ
شدوُ الطيور بأطرب الألحانِ
فعلَ الزُّلال بغلة الظمآنِ
غَضًّا يُميد بفرعه الفينانِ
يزهو بنشر غدائر الأغصانِ
يبدي خيال جمالها الفتانِ
تحت البسيطة راسخ الأركانِ
تهفو عليه ذوائبُ النيرانِ
من فوقه دُرُّرٌ على تيجانِ
ضحكت مُغازلةً مع الوديانِ

برزت تَميس كخطرة النشوانِ
ومشت فخفٌ بها الصبا فتمايلت
جال الوشاح على معاطفها التي
تستعبد الحُرَّ الأبيَّ بمقلة
وإذا بدت تهفو القلوب صباية
أخذ الدلالُ موثقًا من عينها
تمشي فتتشر في الفضاء محاسنًا
ويلوح للنظر القريب بوجهها
لم أنس في قلبي صُعودَ غرامها
حيث الرياض يهزُّ عطف غصونها
لبنان تفعل بالحياة جنانه
وتردُّ غُصن العيش بعد ذبوله
فكأن لبنانًا عروس إذ غدا
وكانما البحرُ الخضم سجنجلَّ
جبل سمت منه الفروع وأصله
تهفو الغصون به النهار وفي الدجى
وترى النجوم على ذراه كأنها
لله لبنان الذي هضباته!

يجري النسيم الغض بين رياضه
جَلَّتْ الطبيعة في رُباه بدائِعًا
يا صاحبي أذكُران فإنني
إذ كان يغبطنا الزمان ونحن في
في ليلة حسد الضياء ظلامها
متجاولين من الحديث بساحة
والليل يسمع ما نقول ولم يكن
فكأن جولتنا بصدر ظلامه

* * *

ما كنت أحسب أن أحلَّ ببقعة
حتى نزلت من الشَّوِير بجنة
فهصرت أغصان الأمان ولم يكن
ولقيت شاعرها الذي ارتفعت له
حتى إذا تمَّ اللقاء قصدتُ من
يا يوم بكفيا وبيت شبابها
وسقى زمانك يا ديار بحنّيس
فلقد رأيت ضياء مجدك مشرقًا
أتذكّر اللبكيّ يوم بحنّيس
أم ليس يعلم أنني أحببته
لبست رُبًا لبنانَ ثوبًا أخضرا
نثر الربيع بهنَّ زهرًا مؤنقًا
فبرزنَ من وشي الطبيعة بالجلى

للحسن مُنْبِتة وللإحسان
فيها الحياة كثيرة الألوان
غير السرور بهن قطف دان
كف القريض مشيرة ببنان
ربوات بكفيا ظلال جنان
أفديك من يوم بكل زمان
صوبُ المَسَرَّة دائم التهتان
في وجه كل حُلاحل ديان
حيث اجتمعنا في حمى كنعان
حبًّا أذبتُ بناره سُلواني
وزهتُ بحيث الحسنُ أحمر قان
يُروى بنظم قلائد العقيان
فكأنهنَّ بحسنهن غوان

١ الرصافي يقصد بالريحان «النبات» وبالريحاني «أمين الريحاني» صديق الرصافي الحميم وفيلسوف الفريكة.

٢ يتجاولان في مضمار البيان: أي يتسابقان ويتباريان.

وكأنَّ صَنِينًا أَطْلَّ مَرَاقِبًا
تلك الرُّبَا، أَمَّا الجمال فواحدُ
رجل يسير إلى النجاح وآخرُ
متخاذلين بها وهم أعوانها
ضعفت مباني كلِّ أمرٍ عندهم
وتفرَّقوا دنيا كأن لم يكفهم
وسَّعوا فُرَادَى للنجاح وفاتهم
يا أهل ذا الجبل المنيع مكانه
أما محاسنها فهنَّ بمنزل
ومن الفخامة هنَّ في غُلُوَّائها
فتبَّوْءوا جَنَّاتِهِنَّ أُنَيْقَةً
ماذا يُثْبِطُكُمْ بها أن تنهضوا
إنِّي لأرجو أن أراكم للعلا
وأودُّ لو تمشون مشية واحدٍ
لا تقرنوا بتشتَّتِ آراءكم
أمهاجري لبنان طال غيابكم
هذي مواطنكم تريد وصالكم
أفترحمون أنينها أم أنتمُ
إنِّي أرى هَجْرَ الرجال بلادهم
وإضاعة الوطن العزيز جناية
من كان ذا جِدَّةٍ فأحرَّ بمثله

يرنو لهن بمقلّة الغَيران
فيها وأما أهلها فاثنتان
يسعى وغايته إلى الخسران
ومن البلاء تخاذل الأعوان
ما بين هادمها وبين الباني
في النَّائبات تفرق الأديان
أَنَّ التَّضامَنَ رائد العمران
تُفدَى مواطنكم بكل مكان
تنحطُّ عنه بدائع الأكوان
ومن الشَّيْبَةِ هُنَّ في رِيْعان
وابنوا بهن كأكرم البنيان
نحو الفَخار كنهضة اليابان
متهيِّجين تهَيُّج البركان
متكاتفين تكاتف الإخوان
فالبدر يمحَق عند كل قران
أين الحنين إلى رُبَا لُبْنان؟!
وتئنُّ شاكية من الهجران
لا ترحمون أنين ذي أشجان؟!
شيئًا يُضيع كرامة البُلدان
ضنَّ الزمان بها عن الغفران
أَلَّا يَضنَّ بها على الأوطان^٣

^٣ الجدة: المال والغنى.

لبنان

ولع لبنان بالرصافي، فسارت قصائد شاعر العراق على ألسنة اللبنانيين، وولع الرصافي بلبنان، فجاءته قريحته بقصائد صافية العاطفة كسماء هذه الربوع، عذبة كمائها، عليلة كهوائها، وإلى القراء إحدى فرائد الرصافي بلبنان (الأحرار - بيروت في ٢٦ آب سنة ١٩٣١):

وقارب حتى أمكن الكفَّ لمسُهُ
تنزَّت به في مدرج الحبِّ نفسه
وطاب جنِّي فالسوء ليس يمسُّه^١
فلان بكفِّ العيش منه مَجْسُهُ
بما فيه من غرِّ المحاسن لبسه
وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسهُ
وحُرِّ أهْلوه وبورك أنْسُهُ
فقد جاز في شرع المحبة دَعْسُهُ
فينجاب شؤمُ الدهر عنه ونحسه
فينضحها فوق الرُّبا الخضر همسُهُ
غناء حبيب يطربُّ النفس جَرْسُهُ

أرى الحسنَ في لبنان أينعَ غرسُهُ
إذا ما رآته عينُ ذي اللَّبِّ مشرقًا
زكا مَغْرِسًا فالذامُ ليس يؤمُّه
قسا صخره لكن تفجَّر ماؤه
لقد لبس الجوَّ اللطيفَ فزانه
ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه
وقد عُبِّدَت للسالكين طريقه
فمن كان في طُرُق التواصل عَثْرُهُ
تضيء نجومُ السعد واليُمن فوقه
ويهمس في أذن الطبيعة جوُّه
كأنَّ النسيم الطلق بين جنانه

^١ الذام: العيب.

كأن جبال المتن حَـدْبَة عابِدِ
فقال عن الأضواء في جوف ليله
تزوِّج صُنَيْنِ الفتى بنتَ جاره
ونُبُع الصفا والقاع فيه كلاهما
جرى الماء في واديهما متدفقًا
وإن تَزِرُ الشَّاعورَ يومًا تَجِدْ به
جرى ماءُ العذب الزلالُ محاكيًا
ترى طبع واديه رءوفاً بأهله
فمن زاره مستوحشًا فهو أنسه
فيا لائمي في حبِّ لبنان إنني
إذا كان لبنان كَلَيْلَى مَحاسِنًا
وإن تحمدوا منه الأيادي، فإنني
عجبت لمدفون به بعد موته
فمن لم يزره وهو ربُّ استطاعة
ومن زاره مستشفياً زاره الشفا
ولو جاءه مَنْ فيه مَسٌّ وجِنَّةٌ
وما حلَّه مستوحشُ النفس واجمُ
محل اصطياف الأغنياء من الوري
فمن يبذل الدينار فيما يريده
كمثل الذي لا تصرف الفلَس كفه
كتبت كتاب المدح في وصف حسنه
فما كل ما قالت به شعراؤه
ألا إن في لبنان جوًّا مَرَوِّقًا

هوى ساجدًا شكرًا وبيروتُ رأسُهُ
ببيروتَ إذ يغشى من الليل دَمَسُهُ
فأضواء بيروت الوسيطة عِرْسُهُ
من الحسن ملأى بالبدايع كأسُهُ
بأنشودة الإطراب تنطق حُرسُهُ
من الحُسْنِ ما قد خُصَّ بالفضلِ جنسُهُ
به الماس صَفْواً أو هو الماس نفسه
شديدًا على ما يزعج النفسُ بأسُهُ
ومن جاءه مستنزهًا فهو قُدسه
أحسُّ لعمرى منه ما لا تحسه
فلا تعجبوا من أنني اليوم قَيْسُهُ
أنا اليوم من بعد الأيادي قِسُّهُ^٢
ولم ينتفض حيًّا وينشق رَمسه
تحتَّم في سَجْنِ الحماقة حبسه
وإن كان قبلًا يائسًا منه نطسُهُ^٣
لما حلَّه إلا وقد زال مَسُّهُ
من الناس إلا تَمَّ بالضحك أنسُهُ
يعيش عزيزًا فيه من ذلِّ فلسُهُ
فمأواه محمودٌ وإلا فعكسُهُ
ولو كان دون الفلَس يُقْلَعُ ضرْسُهُ
فضاق ولم يستوعبِ الوصف طرسُهُ
سوى ثلث ما يحويه بل هو خُمسُهُ
إذا ما شفى المسلول لم يخش نكسُهُ

^٢ قس بن ساعدة الإيادي خطيب جاهلي مشهورٌ وحكيم.

^٣ النطس: الأطباء الحذاق المدققون.

في مكتبة الأوقاف

أنشدت في حفلة افتتاح مكتبة الأوقاف التي أنشأها معالي الشيخ أحمد الشيخ داود وزير الأوقاف سنة ١٩٢٨.

لقد جمع الشيخ هذي الكتبُ	فأنقذها من أكَفِّ العَطْبِ
ورَتَّبَها فهُي معروضةٌ	لمن يتناولها من كُتِّب
وكانت لعمرك رهن الغبار	مكدَّسة في زوايا الشَّجَب
يمر بها الدهر مطمورة	تعاني الدمار وتدعو الحرب ^١
نسيج العناكب من فوقها	ومن تحتها السوس فيها انسربُ
يعيث بها أَكلًا طَرسها	كما تأكل النار جَزَلَ الحطبِ
وكانت على علم حرَّاسها	تحفُّ الظنون بها والرَّيبِ
فمد إليها معالي الوزير	يدًا دأبها الغوث عند الكَرَبِ
فأخرج منها كنوز العلوم	لأهل الفنون وأهل الأدبِ
فها إنَّ أرواحَ من أوقفوا	مُرفرفةٌ فوقها من طَرَبِ
كما أن أرواح من أَلَّفوا	قد ابتسمت كالتماع الشهبِ
لقد رضي العلم عن فعله	وإن أخذ الجاهلين الغضبِ
فما بال قوم غدوا يصرخو	نَ صُراخًا به يقصدون الشَّغبِ؟!

^١ تدعو الحرب: أي تنادي: وا حربا، والحرب: النقص والهوان.

يقولون: هذا خلاف لما
فيا للعقول لهذا الغباء
ألسوس أوقفها الواقفو
إلى كم نَظَلُّ لأغراضنا
ونجمدُ في غفلةٍ هكذا
أرى هؤلاء ضعاف العقول
تضيّق عن الحق أرواحهم
فهم يقطعون على المصلحين
فيسرّ في طريقك مُستعليًا
فللشرّ ما صخب الصاخبون
لقد صنتها من طروق البلى
وأعددتها لشفاء العقول
وما كنتَ في الرأي بالمستبدّ
وقد كان عزمك فيما أردت
فمن كان جذلانَ فليبتسم

لدى الناس في وقفها من أرب^٢
ويا لالفحول لهذا العجب!
ن، أم للعناكب، أم للتُّرب؟!
نعارض من دون أدنى سبب؟!
ونمرح في لهونا واللعب
وإن قد نراهم غلاظ الرقب
وإن لبسوا واسعات الجُبب
طريق القيام بما قد وجب
وخلّ ضفادعهم تصطخب
وللخير جمعك هذي الكتب
وخلّصتها من يد المستلب
من الجهل وهو أشدّ الوصب^٣
ولا كنت في الفعل بالمضطرب
يفلّ ظبا المرهفات القُصب^٤
ومن كان غضبان فلينتحب

^٢ من أرب: من قصد وغاية.

^٣ الوصب: الألم.

^٤ يفل: يكسر. والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف. والمرهفات القُصب: هي السيوف المرققة الحادة.

آل الجميل

كهف اليتيم وملجأ المسكين
وتهابهم أساد كل عرين
يدع الخصيم مُجدّع العرنين
فجباهم أنقى من النسرين
أركان عز كالجبال مكين
منهم بحبل في الرجاء متين
كتفاخر الدنيا بفخر الدين
قد زيدَ تمكينًا على تمكين
لأجل نجلٍ بالثناء قمين^١
ظلماً الحياة فجذُ بما يُرويني
وأظنُّ فضلك ناجحًا يشفيني
من طال مُعتلجًا إليه حنيني
بقرُ العذيب ولا مها يبرين
ظبِّي أقام بدار قسطنطين
فيكون ظني في نذاك يقيني^٢

آلُ الجميل سُرور كل حزين
تعنو لهم سروات كل قبيلة
وإذا تماحكت الخصوم فبأسهم
وإذا تلوّثت الجباه بخزية
عزّت بهم دار السلام فهم بها
فإذا تقطّعت المُنَى بك فاعتصم
تتفاخر الأخرى بفضل دفينهم
ذاك الذي مجد الجدود بمجده
إنَّ ابن عيسى بن الهمام محمد
يا ابن الأكابر قد دعوتك ظامئًا
وأنا العليل بحاجة تدري بها
قد عاقني الإملاق عن سفري إلى
وأنا المشوق ولست ممن شاقهم
لكن قلبي لا يزال يشوقه
فأرش جناحي كي أطيّر بريشه

^١ فلان قمين بكذا: جدير به.

^٢ أرش جناحي: أنبت فيه الريش.

واعذر فإني بالحقيقة لم أبخُ إلا إليك وأنت خير فطينِ
إني إذا آوي إليك فإنما آوي إلى ركنٍ أشدَّ ركينِ

البلبل والورد

إِنَّ بليلاً من نَسِيمِ السَّحَرِ
أخبر رِيَّاهُ أَصَحَّ الخَبَرِ
إِذْ هو مُذْ ألقى به ناظرَهُ
صادفَ فيه وردَةً زاهرةً
مضمومة أوراقها الناضرة
لما جرى في المربعِ المُخْمَلِ
عما جرى في الروضِ للبلبلِ
من بعد ما ثغر الصباحِ ابتسمَ
والطلُّ كاللؤلؤِ فيها انتظم
مثلَ فمٍ يطلب تقبيلَ فَمٍ

* * *

فَظَلَّ يرنو مستديمَ النظرِ
وهيَ غدت مما بها من خَفَرِ
ثم تماذى غَرْدًا صادقًا
ينطق بالحب لها بائحًا
وتنشر الطيبَ له نافحًا
حتى غدا البلبلُ منذ الصغرِ
ينشد فيها شعره المبتكرِ
رُنُوَّ ظمآنٍ إلى مَنهلِ
محمرةً من نظر مخجلِ
يُعلن للوردة أشواقه
وهي التي تفعل إنطاقه
كأنها تقصد إنشاقه
في حبِّها منطلق المِقولِ
ولا يَني فمه ولا يأتلي

* * *

أما ترى الأزهارَ كيف اغتدت
لها جناح هي منه ارتدت
فهي إلى الروضة مُذْ وَرَدَتْ
فراشةً الروض عليها تطير؟!
مُلاءة مَوْشِيَّةً من حريرِ
أرسلها البلبلُ نحو الأميرِ

تحمل للورد أمير الزَّهر رسائلَ الشوق من البلبَل
فشاع في الأزهار هذا الخبرُ واستوجب العطف على المرسل

* * *

حتى إذا الورد مضى وانقضى وعادت الروضة كالبلقعة
مسَّت حشا البلبَل نارُ الغضى من حُرقة البين الذي أوجعه
لا تسألِ البلبَل عما مضى في زمن الورد له من دعه
ولكن اسأل في السماء القمر عن خبر الورد مع البلبَل
إذ كان يُصغي منهما للسمر وهو مُطلُّ ناظرٌ من علِّ

* * *

فراشةُ الروضة ظَلَّتْ لَذا تحومُ والأزهار من تحتها
تقبِّل الزهرة ذات الشذا طائرة منها إلى أختها
وتسألُ الأزهارَ عما إذا مرَّ فقيد الورد من سَمْتها
لتخبرَ البلبَل بعضَ الخبر لعلَّه غُمَّته تَنجلي
فإنه بات حليف السهر مُذ نَزَحَ الوردُ عن المنزلِ

أغرودة العنديلِب

سمعت شعراً للعندليب تلاه فوق الغصن الرطيب
إذ قال: نفسي نفسٌ رفيعة لم تهوَ إلا حسن الطبيعة
عشقت منها حسن الربيع أحسن بذاك الحسن البديع!

* * *

فالعيش عندي فوق الغصون لا في قصور ولا حصون
أطير فيها لفرط وجدي من غصن ورد لغصن ورد
وفي فروع الأشجار بيتي فالظلُّ فوقِي والزهرُ تحتي

* * *

فَسَلْ نسيم الأسحار عني كم هَزَّ عطف الأغصان لحني
وسل بشدوي زهر الرياض إني بحكم الأزهار راضٍ
فكم زهور لمَّا أفوه أصغت وقالت: لا فُصَّ فوه

* * *

يا قوم إني خلقت حرًّا لم أرضَ إلا الفضا مقرا
فإن أردتم أن تؤنسوني ففي المباني لا تحبسوني
وإن أردتم أن تُنطقوني فأطلقوني، فأطلقوني

الصيف

جاء المصيف فجفَّتِ الأنداءُ
وتوقدت عند الهجيرة شمسُه
وعلى الديار تراكت من شمسِه
فعلى مَنْ الشمسُ المنيرة أصبحت
مدَّت إلينا في الهجير أشعةً
فحكّت أشعَّتُها جِرابًا أشرعت
حتى استجار الليل من لفحاتها
انظر إلى الحسناء في رَأد الضحى
وتمرُّ لآغبة وفوق جبينها
إن كان حرُّ الشمس لَوَّح وجهها
وشكت يبوستها به الأشياءُ
فتلَمَّظت بلعابها الصحراء
ملءَ الفضاء حرارة وضياء
غضبى تجيش بصرها الشَّحناء؟^١
كالكهرباء نارُها بيضاء
بيضاء، فما بحديدها أصداءُ
رَكِبُ سَروا فهدتْهُمُ الجوزاء
تمشي فتلفح وجهها الرُمضاء^٢
عَرَقَ ووجنة خدها حمراء^٣
فكذاك تُؤذَى الضَّرَّةُ الورهاء^٤

* * *

إني لأغفر للمصيف ذنوبه ولو أن غارة هيفه شعواء

^١ الشحناء: العداوة.

^٢ رَأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء.

^٣ لآغبة: متعبة.

^٤ الورهاء: الحمقاء.

فالصيف أَرَأفَ بالفقير من الشتا	ولذا تحب قدومَه الفقراء
قَلَّتْ به الحاجاتُ فالفقراء في	أيامه والأغنياء سَواء
من كان أعوزه كساء منهم	فالصيف ملحفة له وكساء
والأرض إن طلبوا الرقادَ وطاؤهم	من دون مَنْ والسماء غطاء
ولئن يكنْ كَدِرَ النهار فليله	طَلَقَ وفي وجه السماء صفاء
ولئن قسا عند الهجير فريحُه	هَبَّتْ بحاشيتيه وهي رُخاء
أضحى فطابت في ضُحاه ظلاله	وأتى الأصيل فطابت الأفياء
والصيف أحسن ما به لُمُشاهد	صبح أغرُّ وليلة قمراء
وأجل ما يُرتاد فيه جُنينَةٌ	تَرِفُ الظلالُ بها ويجري الماء
فعليك فيه بسرحة في مَنبعٍ	تحنو عليك غصونها الخضراء °

° السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك لها.

الشتاء

قد كانت الأغصان مخضرةً وكانت الطير بها تسجَعُ
فصارت الأوراق مصفرةً تسقيطها الرّأدة والززعزُع¹
ثم غدت جرداءَ مزورةً² والغيمُ أمست عينه تدمع³

من أجل هذا المشهدِ المحزنِ

والليلُ قد طال على مَنْ شتا وصار ليلاً بارداً مُظلماً
لعلَّ هذا الرعدُ مُذْ صَوَّتَا هَرَبَ منه تِلْكَمُ الأنجما
عَلامَ قد غَيِّمَ ليلُ الشتا فارتاعت الأنجمُ مذ غَيِّمًا

واحتجبت فيه عن الأعينِ

والريحُ من برد الشتا صرصرُ والجوُّ يبدو عابساً مُطرقاً
قد حار فيه التَّربُّ المعسرُ إذ لم يجد فيه له مرفقا³
يا أيُّها الناس ألا فاذكروا من كان منكم في الشتا مُملقاً

وأحسنوا فالفوزُ للمحسنِ

إن الشتا أرحم للمعدم منكم وإن أوجعه برده

¹ الرادة: الريح اللينة الهبوب. والززعز: الريح الشديدة.

² مزورة: معوجة.

³ الترب: الفقير المعدم.

ديوان معروف الرصافي

لأنَّه بالعارض المسجم ينبتُ زرعًا يُرتجى حصده٤
حتى تفوز الناسُ بالأنعم مما لهم أنبته جوده
ويشبع المعدم والمغتني

^٤ العارض: السحاب يعترض في السماء. والمسجم: الهائل المطر.

التلغراف أو الأسلاك البرقية

دقيقة مثل دِقاق الأوتارُ
في عمد قد رُكزت كالأشجار
تحسها في القفر جنُّ البقار^١
ممتدة نحو جميع الأقطار
تنقل في آنٍ كلمح الأبصار
لله من سلكٍ دقيق قد صار
والكهربائيةُ شيء قد حار
أسفر منها الوجهُ بعض الإسفار
في طيها نور مُقاد من نار
تطوي المسافات بهم في الأسفار
ثم تضيء ليلهم بالأنوار
مشرقة مبهجة للأنظار
فالسقم تشفيه بغير عقار
وهي لعمري ذات لفح سيار^٢

للبرق أسلاك تؤدِّي الأخبارُ
فوق الثرى مُدَّت وتحت الأبحار
ما بين كلِّ عشرات الأمتار
شاخصة أشباحها للأنظار
الكهربائية فيها تيار
جوائِبَ الأنباء نحو الأمصار
في الأرض مجرى لجليل الأخبار
في كنهه أهل النهى والأفكار
ولم يزل مُحْتَجِبًا بالأسطار
وكم لها بين الورى من آثار
وتنقل الأخبار ذات الأخطار
فتجعل الأصالَ مثل الأبقار
وقد تداوي كل داء ضرَّار
والجرح تأسوه بغير مسبار

^١ البقار: اسم وادٍ، واسم موضع في بلاد العرب.

^٢ المسبار: ما يختبر به الجرح.

لها نفوذ في جميع الأقطار في الحيوان والثرى والأشجار
وفي رياح الجو ذات الإعصار وفي بحار الأرض ذات التيار
وقد سرت في كل غيمٍ مدرار بها تسُح هاطلات الأمطار
فهي بهذا الكون سرُّ الأسرار

بيروت والتباريس

إن لبيروتَ بعمرانها
لا سيما أربُع لبنانها
فكم كِناسٍ قد حوت للظُّبا
وما التباريسُ سوى مَقمر
يشد بالإفلاس أيامه
معرَّس يقصده من نحَا
ومرقص ترقص في بهوه
ما فيه من باريسٍ إلا الذي
لكنَّ بيروتَ بلبنانها
أمكنة تعلو التباريسا^١
تلك التي تحكي الفراديسا
وكم حوت للأسدِ عرِّيسا^٢
يَقضي على اللاعبِ تفليسا^٣
مَنْ حلَّ في مَلعبه الكيسا
في أخريات الليل تعريسا^٤
أوانس تحكي الطواويسا
يُؤثر عن غادات باريسا
تكشف عنك الهمَّ والبُوسا

* * *

عروس لبنان أما والذي
ما أنت إلا جنَّة، آمِنُ
صَيَّر مِرَاتك قاموسا
أدمُ فيها مَكَرَ إبليسا

^١ التباريس: الأراضي السهلة اللينة، ولعله هنا اسم موضع.

^٢ الكناس: بيت الظبي. والعريس: بيت الأسد.

^٣ مقمر: نادر للقمار.

^٤ المعرس: موضع التعريس؛ أي النزول بالليل.

فـيـك تـجـلّى الله رب العـلـا	بـالـحـسـن مـرئـيـاً وـمـلـمـوسـا
لـولـا جـمـال فـيـك مـسـتـودعُ	مـا شـرـع الحـبّ لـنـا عـيـسـى
كـنـيـسـة لـلـحـسـن فـي حـبـها	قـلوـبُنـا صـارت نـواقـيسـا
مـا الحـسـن فـي شـيـء مـسـتـحـسـن	إـلـا إـذا كـان لـه سـوسـا ^٥
فـأـيـن مـن هـذا تـبـاريسـكـم	وَأَين هـذا مـن تـبـاريسـا؟!

^٥ السوس: الأصل والطبع.

في المستشفى الملكي

عاد الرصافي صديقه الفاضل عبد المجيد بك الشاوي في أثناء مرضه، وقد طال مكثه في المستشفى الملكي ببغداد، فأنشده هذه الأبيات:

أطلت أبا سعدون مكثك ها هنا	فحَتَّى متى تبقى مقيماً بمستشفى؟
فدعْ عنك طباً ها هنا تستطبه	ففي المجد طِبُّ ضامنٌ لك أن تُشفى
أرى مجلسَ النواب أوحشتَ بهوَه	وقد كاد من صمتٍ تغشاه أن يغفى
فها هو مشتاق إليك مزلزل	يكاد إليك الشوقُ ينسفه نسفا
فإن لم تداركه بوصل معجل	تداعت به الجدران أو أَلقت السقفا
وما استظرفت بغداد مذ جئت ها هنا	مجالسَ فيها كنت تملؤها ظرفا
فكم لك في تلك المجالس نكتة	تهزُّ لها الآداب من فرح عطفا!
إذا أنت أرسلت الحديث مخاطباً	فأَيَّة أذن لا تنوط بها شنفا
رأينا صريحَ القول فيك سجية	فلم ترضَ يوماً للحقيقة أن تخفى
إذا عَنَّ تبيان الحقيقة قلتها	ولو أغضبت أهل السياسة والصحفا
هنيئاً لحزب أنت منه فإنه	بمثلك فرداً في النهى يغلب الألفا
تلطَّفت في آدابك الغر ناطقاً	بما قد حوى كل اللطائف واستوفى
فتعرب أحياناً وتلحن تارة	ولكن بلحنٍ أعجب النحو والصرفا ^١

^١ الإعراب هنا: الإبانة عن الشيء، واللحن: الكناية عن الشيء أو التورية عنه بغيره، وليس المراد اللحن الذي هو الخطأ في الكلام.

ديوان معروف الرصافي

أدامك رب الناس للناس معلناً مكارم جلّت أن نحيط بها وُصفا

إلى عبد اللطيف باشا المنديل

خفايا أمور أعجزت كل مُبصرٍ
نظرتَ إليها من ذكاء بمجهرٍ
بأوضح صبح من فعالك مُسفرٍ
بأن بني المنديل أكرم معشرٍ
لكلّ صديق أنها حال مُقترٍ
أتى بيَ إلا أنني في تحيرٍ
وإن شقيت مني بجثمان معسرٍ
لما جئت إلا ساحباً فضلَ مُزريٍ
ونفسيَ في قيدٍ من الذلّ مُقفرٍ
ولكن جرى مجرى القضاء المقدرٍ
لما رضيت نفسي بغيرك مشتري¹
وإنّ مقالِي فيك غير مزور²
بعزيمة لا وان ولا متقهقرٍ
وإن كنتُ أعيّا عن تمام التشكّر
ليجعله أحدىّة كلّ مخبرٍ

أبا ماجدٍ إني عهدتُك مبصراً
إذا خفيت يوماً عليك حقيقة
وإن ليلةَ الخطب ادلهمتْ كشفها
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى
فهل أخفيتُ حالي عليك وقد بدا
أتيتك من بغداد لم أدرِ ما الذي
وأحمل في جنبِي نفساً غنية
ولو كنت في بغداد أرضي بذلة
ولكنني قد عفتُ أن أردّ الغنى
وما عدل السعدون بي عن وفاته
ولو أنني بعُتُ الثناء بنائلٍ
وإن حديثي عنك غير مرجّمٍ
سأرحل عن ديوانك اليوم أو غداً
وسوف ترى مني مدى الدهر شاكرًا
وأكتب للتأريخ ما أنا كاتبٌ

¹ النائل: العطاء.

² الحديث المرجم: حديث الظنون.

يا دار قسطنطين

في الحسن لولا جُوك المتقلبُ
لكن هواؤك عارم متذبذب^١
فأراه يبسم تارة ويقطّب
همم الرجال بها تجف وتنضب
فتكاد من أعصابهم تتحلب
وتشيب أرؤسهم وما هم شيب^٢
حتى يروح لِعَنَّةٍ يتطبّب^٣
صِرًا تهبُّ وتارة تتلهب^٤
وعن الجنوب وذكراها أتجنب
هذي تجمدهم وتلك تذوب
كهوائك القلّاب بل هي أعجب
سبب الطباع من الهواء مسبب
من كان يحسنها فذاك مهذب

يا دار قسطنطينَ أنتِ فريدةٌ
لقد اجتويتك لا لفقْدِ محاسنِ
أبدًا سماءُك وجهها متلوّن
وأرى هواءَك ناضحًا برطوبة
تسري الرطوبة منه بين عروقهم
فتلين شَرَّتْهم وليس بهم ضنّى
وترى الفتى منهم يعود محوّلًا
ريحان تندفعان فيك فتارة
أما الشمالُ فعقرب لسّاعة
لا كانتا من ضرتين على الورى
وأرى بك الأخلاق ذات تلوّن
وطباع كلِّ معاشر كهوائهم
أمسى التصنع في بنيك صناعة

^١ اجتويتك: كرهتك.

^٢ الشرة: الحدة والنشاط.

^٣ المحوّل: الضعيف الذي قلّ أربه في النساء.

^٤ الصر: البرد الشديد.

فإِذَا تَلَأَلَّتْ الثَّغُورُ تَبَسُّمًا	فَالْبَرْقُ فِي تِلْكَ الْمُبَاسِمِ خُلْبُ
وَلرَبِّمَا احْتَرَمَ الْبَغِيضُ بَغِيضَهُ	كَيْمَا يُقَالُ بِأَنَّهُ مِتَادُّبُ
عَجَبًا فَكَمْ حَمَلٍ رَأَيْتُ وَمَذْنُضًا	ثَوْبِي تَصْنَعُهُ إِذَا هُوَ ثَعْلَبُ!
حَلَمْتُ نَمُورَكَ خَدْعَةً وَتَظَاهَرْتُ	بِصَدَاقَةِ الْخِرْفَانِ فِيكَ الْأَذْوَبُ
لَمْ أَلْقَ شَيْئًا فِيكَ غَيْرَ مَغْشَشٍ	حَتَّى الْمِيَاهِ تَغْشَى فِيكَ وَتَكْذِبُ
هَذِي صِفَاتِكَ يَا فَرُوقُ بَرِّغَمٍ مِنْ	أَثْنُوا عَلَيْكَ بِغَيْرِ ذَاكَ وَأَطْنَبُوا°

° فَرُوقُ: هِيَ الْأَسْتَانَةُ، أَوْ دَارُ قُسْطَنْطِينِ.

فلکس فارس

بنا افتقار إلى غنى أدبه
أحرز يوم الفخار من قصبه
فل قس جثا على رُكبه
تبرئ قلب الجهول من وصبه^١
إلا وقد راقه فأعجب به
إذا فزعنا منها إلى خطبه
راحة أهل البلاد من تعبهِ
مجِدِ يَجِدُ الكرامُ في طلبه
منه خطابٌ فماد من طربه
بعد دمشق الشام من حَلَبه
أنارها باليقين من شُهبه
حرٌّ ولو شطَّ عنه في نسبه
فنصره الحق منتهى أربه
محترقًا من جواه في لهبه

إنَّ فِلَكْسَ بَنَ فارس رجلٌ
تمَّ له السبق في العلاء بما
مُقَوِّه لو رآه يخطب في المحـ
ينطق عن فطنة لها حَكَمٌ
لم يُصغِ مُصغٍ إلى خَطابته
تعود كل الخطوب هيئَةً
أتعب في النصح نفسه فأتتْ
يطلب أن تنهض الرجال إلى
سلَّ عنه لبنان كم تَطَرَّبهِ
وسلَّ دمشق الشام عنه وما
كم ليلةٍ للشكوك داجية
حرٌّ يواخي في الحق كل فتى
إن قال قولًا أو انتضى قلماً
فاركنَ إليه وخلَّ حاسده

^١ الوصب: المرض والوجع الدائم.

ملیكة غناء العرب

هَلُمَّ إِلَى ذَوْقِ طَعْمِ الْأَدَبِ هَلُمَّ إِلَى نَيْلِ أَقْصَى الْأَرْبِ
هَلُمَّ إِلَى ذَا الْغِنَاءِ الَّذِي مِنْيرَةٌ مِنْهُ أَتَتْ بِالْعَجَبِ
أَلَيْسَتْ مِنْيرَةٌ فِي عَصْرِنَا مَلِيكَةٌ فَنَّ غِنَاءَ الْعَرَبِ
وَلَا غُرُوَ أَنْ مَلَكْتُ فِي الْغِنَا ء [وَأَنْ] أَحْرَزْتُ فِيهِ أَعْلَى الرَّتَبِ
فَقَدْ أَدْرَكْتُهُ عَلَى رَسْلِهَا وَنَالَتْ أَقَاصِيَهُ مِنْ كَثْبِ^١
وَأَيْدِهَا اللَّهُ مِنْ صَوْتِهَا بِأكْبَرِ عَوْنٍ وَأَقْوَى سَبَبِ
أَرَى فَمَهَا صِيغَ مِنْ حِكْمَةٍ وَأُبْخُسُهُ إِنَّ أَقْلَ: مِنْ نَهَبِ
تَلُوحُ فَتَبْتَزُّ بَدْرَ الدَّجَى وَتَشْدُو فَيَعْتَزُّ فَنَّ الْأَدَبِ^٢
بَلَحْنٍ إِذَا امْتَدَّ هَزُّ الْقُلُوبِ وَخَدَّرَ أَبْدَانَنَا وَالْعَصَبِ
تَرْفُوفٍ أَرْوَاخُنَا تَحْتَهُ كَمَا رَفَرَفَ الطَّيْرُ لَمَّا انْقَلَبِ
وَتَخَفُّقٍ أَحْشَاؤُنَا دُونَهُ كَمَا خَفَقَتْ فِي الرِّيحِ الْعَذَبِ^٣
نَكَادُ إِذَا هِيَ غَنَّتْ نَطِيرَ إِلَيْهَا بِأَجْنَحَةٍ مِنْ طَرَبِ
وَإِنْ هِيَ قَامَتْ لِإِنْشَادِهَا جَثُّونَا لَهَا وَثْنِينَا الرُّكْبِ

^١ أدركته على رسلها: أي في تمهل ورفق.

^٢ تبتز: تغلب وتفوق.

^٣ العذب: الأطراف من كل شيء، وما يسدل إلى الخلف من العمامة.

فلو سمع القوم ألحانها	لشقوا عمائمهم والجُبيب
أرى الهمَّ يُتعب قلب الفتى	وعنه الأغاني تزيل التعب
فبادر إليها ولا تكثرْ	لما جاء من ذمّها في الكتُب

إلي جميع الغواني

وقفتُ عليكِ قلبي الذي يمرُّ به الحُبُّ مرَّ السَّحابِ
ومنكن أحببت هاتي وذي وألفيتُ عذبًا بكنَّ العذابِ

* * *

فمنكن بيضاء ما مثلها «عدا حمرة الخدِّ» إلا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها كما ليلة البدر طاب السمر

* * *

ومنكن حمراء جذابة حكى وجهها الشمسُ عند الطلوع
أرى عينها «وهي خلاصة» فأمسك بالكف منِّي الضلوع

* * *

ومنكن صفراءُ في لونها كأنَّ قد تردَّتْ شُعاعَ الأصيل
إذا ما تمشَّتْ على هونها أصحَّتْ هبوبَ النسيم العليل

* * *

ومنكن سمرء تحكي الدمى وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى فيضرم في الصب نار الجوى^١

^١ اللمى: سواد الشفة وهو محبوب عند العرب.

* * *

وَمَنْكَنْ مَنْ هِيَ مِثْلَ الرِّيحِ لَهَا فِي ذَرَا كُلِّ لَبِّ هَبُوبِ
تَرِيدُ غِلَابَ جَمِيعِ الْمَلَحِ وَتَبْغِي عَذَابَ جَمِيعِ الْقُلُوبِ

* * *

وَمَنْكَنْ مَنْ هِيَ مِثْلَ النُّجُومِ مِنْ الْبَعْدِ نَازِرَةٌ تَبْتَسِمُ
فَتَلِكُ عَلَيْهَا فَوَادِي يَحُومِ وَتَلِكُ إِلَيْهَا الرَّدَى أَقْتَحِمُ

* * *

فَفِيكَنْ طُرًّا بِوَادِي الْهَوَى أَهْيَمُ وَإِنْ لَمْ تَعُدْ عَائِدَهُ
أَلَا إِنْ حَبًّا بِقَلْبِي انْطَوَى كَثِيرٌ فَلَمْ تَكْفِهِ وَاحِدَهُ

قصر البحر

وقال وقد نزل في فندق قصر البحر في بيروت:

لعمرك إن قصر البحر قصر	به يسلو مواطنه الغريبُ
وتمتلئ العيون به ابتهاجًا	إذا نظرت وتنشرح القلوب
تروق الناظرين بجانبيه	مناظرٌ دونها العجب العجيب
فمن شمس يصفحها طلوع	ومن شمس يعانقها غروب
ومن سفن تجيءُ بها شمال	ومن سفن تروح بها جنوب
وأخرى حوله خمدت لظاها	وأخرى في الفؤاد بها لهيب
أطلَّ على المياه فقابلته	بوجهٍ لا يمازجه شحوب
يقبل جانبيه البحر حتى	كأن البحر مشغوف كئيب
أحاط به فكان له رقيبًا	ومغناه الأنيق له حبيب
وما هذا التموُّج من هواه	ولكن من هوى فهو الوجيب
كأنَّ الموج في الدَّأما رجالٌ	وهذا القصر بينهم خطيب ^١
تخاطبهم مبانيه فيعلو	من الأمواج تصفيق مهيب

* * *

تلمُّ به المسرات ازديارًا فتعرفه وتجهله الكروب

^١ الدأماء: البحر.

وما انفردت به بيروت حسناً
تبسمت البلاد بكل أرض
فها هو من تكاسل قاطنيه
إذا تدعو الرجال به لخير
فيا لهفي على بغداد أمست
سأبكي ثم أستبكي عليها
أيا بغداد لا جازتك سحب
تطاول ساكنوك عليّ ظلماً
وكم نطقوا بالسنّة حدادٍ
رمانى القوم بالإلحاد جهلاً
ألا يا قوم سوف يجدّ جدّي
فمن ذا منكم قد شقّ قلبي
فعند الله لي معكم وقوف
يقيني شرّاً فرّيتكم يقيني
ولم تخفر لكم عندي ذمامٌ

ولكن القصور بها ضروب
وما زال العراقُ به قُطوب
تجرُّ عليه كلكلها الخطوب
يجيبك من تخاذلهم مجيب
من العمران ليس لها نصيب
إذا نضبت من العين الغروب^٢
ولا حلت بساحتك الجدوب
فضاق عليّ مغناك الرحيب
يسيل لها من الأشداق حُوب^٣
وقالوا: عنده شك مُريب
وسوف يخيب منكم من يخيب
وهل كُشفت لكم فيّ الغيوب؟!
إذا بلغت حناجرها القلوب
بأن الله مطّلع رقيب
ولكن عادة الريح الهبوبُ

^٢ الغروب: جمع غرب، وهو عرق في العين، أو جانب العين.

^٣ الحوب: الإثم.

محاسن الطبيعة

إلى حضرة الفاضل ندرة بك المطران

البحرُ رهوٌ والسما صاحيه والفخت في الليل شبَّيه السَّديم^١
والبدْرُ في طلعتِه الزاهيه قد ضاحكُ البحرُ بثغرِ بسيمٍ

* * *

والصمت في الأنحاء قد خيما فالليل لم يسمع ولم ينطقِ
والبدْرُ في مَفرقِ هامِ السما تحسبه التاجُ على المفرقِ
أغرق في أنواره الأنجما وبعضها عامَ فلم يغرقِ
والبحر في جبهته الصافيه قام طريق للسنا مستقيم
لم تخفَ في أثنائِه خافيه حتَّى ترى فيه اهتزازَ النسيم
وقفتُ والريح سرت سجسجا وقفَةً مبهوتٍ على الساحلِ^٢
أنظر ما فيه يحار الحجا في الكون من عالٍ ومن سافلٍ
يا منظرًا أضحك ثغرَ الدجى ورد سحُبانَ إلى باقلِ^٣
ما أنت إلا صحف عاليه كم حار في حكمتها من حكيم!

^١ رهو: ساكن. والفخت: ضوء القمر. السديم: الرقيق من الضباب.

^٢ الريح السجسج: المعتدلة اللطيفة.

^٣ سحبان: خطيب يضرب به المثل في الفصاحة، وباقل: يضرب به المثل في العي.

إذا وعتها أذنٌ واعيه فقد وعت خيرَ كتابٍ كريم

* * *

وزان عَرَضَ البحر ما قد بدا	من زورقٍ يجري بمجدافتين
عام بِذُوبِ الماسِ أو قد غدا	يسبح في لجة ذُوب اللجين
في صامت الليل جرى مفردا	وبين جنبيه حوى عاشقين
من عادة في حسنِها غانيه	تبسم عن لَلاءِ دُرٍّ نظيم
ومن فتى أدمعه جاريه	قد صافح العشقَ بجسمٍ سقيم
قابلها والحب قد شَفَّه	وقابلت طلعة بدر السما
وظل يرنو تارة خلفه	وتارة ينظرها مُغرما
ثم تدانى واضعًا كفه	في كفها يطلب أن يَلثما
وخرَّ من وجدٍ على الناصيه	وقلبه يركض ركض الظليم ^٤
وهي غدت من أجله جاثيه	واحتضنته كاحتضان الفطيم

* * *

ثم رمى نظرة مُسترحمٍ	في الكون عن طرفٍ له حائرٍ
وقال قولَ الكلف المغرمِ	في حب ذات النظر الساحرِ:
أيتها الأرض قفي واسلمي	من أجل هذا المشهد الزاهرِ
حتى أرى ليلتنا باقيه	محفوظةً من وصلنا بالنعيم
فإنَّ هذي ليلة حاليه	تزهو ببدرين وطلق النسيم

* * *

وأنت يا بدرُ اللطيف السنا	في الجَوْقِ وقفة غير الرقيبُ
ما أبهج النور وما أحسنا	إذا دنا منك لوجه الحبيب!
كأنه «ندرة» لما دنا	نحو المعالي يبتغيها النصيبُ
فحاز منها جملة وافيه	ما حازها من أحد من قديم
وصار يُدعى الرجل الداهيه	في الفكر والمجد وخلق عظيم

^٤ الظليم: الذكر من النعام.

* * *

يا آل مطران لكم «ندرة»	وأكرم الناس هو النادرُ
لكن معاليكم لها كثرةٌ	يعجز أن يحصرها الحاصرُ
من أجلها أمست لكم شهرةٌ	عمّ البرايا صيتها الطائرُ
حيث معاليكم غدت قاضيه	لكم على الناس بفضل عميم
فراية المجد لكم عاليه	و«ندرة» الشهمُ عليها زعيم

* * *

يا من بنى المجدَ فأعلى البنا	فكان أعلى الناس في مجده
إقبل من العبد جميلَ الثنا	وإن يكن قصر عن حده
ومُرّه ثم أحكم به إن ونى	ما يحكم السيد في عبده
إذ أنت بالمنقبة الساميه	قد خصّك الله العزيز العليم
فاهناً ودم في عيشة راضيه	رغم المعادي وسرور الحميم

ليلة في دمشق

من كان يَأْرُقُ بالهمو
وطربتُ من صوتٍ يجي
صوت كأن الغانيا
ونضحن من ماء الحيا
سرّى الهموم عن الفؤا
والعود ينطق باللحو
يرمي به الصوت الرخيـ
ملاً الظلام توقداً
يحكي الزلال لدى العطا
أصغيتُ منقطعاً إليه
فحسبت نفسي في الجنا
وطفقت أذكر العرا
فرجعت عن ذاك السما
وذكرت من تبكي هنا
تستوقف العجلان ثمَّ
وتقول من مضض الفرا
أبني سِرُّ سير الأما
يا أم لا تخشي فإن

م فقد أُرقت من السرورِ
ءُ إليّ من غُرَفِ القصور
ت أعزّنه هَيْفِ الخصور
ة عليه في شنب الثغور
د بجوف حالكة الستور
ن بلهجتي بَمَّ وزير
م على الدجى لمعات نور
كالكهرباءة في الأثير
ش أو الثراء لدى العقير
عن المواطن والعشير
ن بغير ولدان وحوـ
ق فعاد صفوي ذا كدور
ع وغبت عن ذاك الشعور
ك عليّ بالدمع الغزير
ة بالرنين عن المسير
ق مقالَ ذي قلب كسير:
ن من الطوارق في خفير
الله يا أمي مُجيرِ

ودعي البكاء فإن قلـ	جبي من بكائك في سعيـ
أعلمت أني في دمشق	ق أجراً أذيال السرور
بين الغطارفة الذيـ	ن تخافهم غير الدهور ^١
من كل وضاح الجبيـ	ن أغر كالبدر المنير
حرّ الشمائل والفعا	ئل والظواهر والضمير

^١ الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد السخي السري. وغير الدهور: تقلباتها.

حول البسفور

بجانبي البسفور مشهد أسرار
مجال عقول للأنام وأفكار
إذا الشمس تستعلي وفي ماء خنكار^١
مكللة حافاتهن بأشجار
ويُسْجى بقطريها ترنم أطيّار
تبخر بيضاء الترائب معطار
موشحة فيها برقة أسحار
على منحني الوادي ذوائب أنوار
يوقّع دينارًا لنا جنب دينار
جيوب من الأنوار زرت بأززار
فتأتي بظل في الجوانب موار^٢
نميل بأسماع إليها وأبصار
فنمت لنا من طيبهن بأسرار
فيفتر منها عن منابت أزهار
تجلّت على أطرافها قدرة الباري

خليلي قوما بي لنشهد للرّبا
أجيلا معي الأفكار فيها فإنها
خليلي إن العيش في ماء شرشر
سفوح جبال بعضها فوق بعضها
يروق بجنبها خريز مياها
ويجري النسيم الرطب فيها كأنه
معاهد زُرّها في الهواجر تلقها
نزلنا بها والشمس من فوق أرسلت
وقد ظلّ من بين الغصون شعاعها
كأنّ التفاف الدوح والنور بينها
تميل إذا هبّ النسيم غصونها
ترانا إذا ما الطير في الدوح غردت
رياض تنسّمنا بها الريح ضحوة
يلوح بها ثغر الطبيعة باسمًا
مشاهد في تلك الرّبا ومناظر

^١ شرشر وخنكار: موضعان بالقرب من البسفور.

^٢ الموار: المضطرب المتحرك.

تأثير التربية

قالها في بيروت بعد أن شاهد مسرح الحيوانات.

في مسرح ماج بين الجدّ واللعب
حتى بنوا حاجزاً فيه من الخشب
من الحبال جديد غير منقضب
والنمر يخطر بين الخوف والغضب
منه فيرجع عنه غير مقترب
يرقصن منتصباً في إثر منتصب
مَشْيِ المليحة في أبرادها القشب^١
في الكف فرقة كالرعد في السحب
ما كان يُصدِر من أمر ومن طلب
لو يأمر السوط يغدو مرسل الذنب
مجرى الكلاب بحكم الخوف والرهب
محدّد الناب قذافاً إلى العطب
أنّ الغرائز لم تطبع على الشغب
لا بد فيه سوى الأطباع من سبب

إليك ما شاهدت عيني من العجب
خافوا به أن تقوم الأسد واثبة
وحصّنه من الأعلى بمشتبك
به الأسود تمطى في مرابضها
والذئب يبصر جدّي المعز مقترباً
أما الكلاب فجاءت وهي كاسية
قامت على أرجل تمشي معلّمة
تخشى مؤدبها والصولجان له
ترنو إليه بعين الخوف فاعلة
خضعن للسوط حتى إنّ أعقدّها
وكانت الأسد تجري في إطاعتها
كأنما الليث لم يُخلَق أخا طُفّر
شاهدته مشهداً بدعاً علمت به
وأنّ خُبث البرايا في طبائعها

^١ القشب: جمع قشيب، وهو الجديد.

وَأَنْ لَيْثَ الشَّرَى مَا صِيغَ مَفْتَرَسًا لَكِنْ أَحَالَتْهُ فَرَّاسًا يَدُ السَّغْبِ^٢
وَكَمْ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ رَاحَ مَنْدَفَعًا بَدَافِعَ الْجُوعِ نَحْوَ الْقَتْلِ وَالسَّلْبِ
وَأَنْ تَرْبِيَةَ الْإِنْسَانِ يُرْجِعُهُ إِكْسِيرَهَا وَهُوَ مِنْ تَرْبٍ إِلَى الذَّهَبِ
هَذَا إِذَا حَسُنَتْ أَمَّا إِذَا قَبَحَتْ فَالْمَنْدَلِيُّ بِهَا يَمْسِي مِنَ الْحَطَبِ^٣
فَكُلُّ مَا هُوَ فِي الْإِنْسَانِ مَكْتَسَبٌ فَلَا تَقُلْ: فِيهِ شَيْءٌ غَيْرُ مَكْتَسَبٍ
إِنِّي أَرَى أَسْوَأَ الْأَبَاءِ تَرْبِيَةَ لِابْنٍ أُخْرَى بِأَنْ يُدْعَى أَعْقُ أَبٍ
وَالْمَرْءُ كَالنَّبْتِ يَنْمُو حَسَبَ تَرْبَتِهِ وَلَيْسَ يَنْبَتُ نَبْعٌ مَنِبَتِ الْغَرْبِ^٤
مَنْ عَاشَ فِي الْوَسْطِ الزَّاكِي زَكَ خُلُقًا حَتَّى عَلَا فِي الْمَعَالِي أَرْفَعَ الرَّتْبِ
فَاخْرَصْ عَلَى أَدَبٍ تَحْيَا النُّفُوسَ بِهِ فَإِنَّمَا قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ بِالْأَدَبِ

^٢ السَّغْبُ: الجوع.

^٣ المَنْدَلِيُّ: عود يتبخَّر به ينسب إلى المَنْدَل من بلاد الهند.

^٤ النَّبْعُ: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغَرْبُ: شجر تتخذ منه الأقداح.

يقظة الشرق

أنشدت في مأدبة نادي المعلمين؛ لتكريم وفد الجامعة المصرية مساء ٩ شباط سنة ١٩٣١،
في أوتيل «كارلتون» ببغداد.

أرى — بعد نوم طال — في الشرق يقظةً
نُهوضيةً فيها طموحٌ إلى المجدِ
ففي «مصر» شِيدَتْ للعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد
فلم تتخذ غيرَ التجارب منهجاً
لتحقيقها من جوهر العلم ما يجدي
وفي الأفق «التركي» سارت إلى العلا
جيوش بأعلام التجدد تستهدي
وفي «الهند» قامت للتحرُّر ثورة
سياسيةً عزلاء قائدها «غندي»
و«فارس» حلَّت عقدةً من جمودها
وحنَّت بمسعاها إلى سالف العهد
وفي «الصين» حربٌ نارها وطنية
تزيد بمرَّ الدهر وقدًا على وقْد
و«بغداد» بين الأجنبي وبينها
مزيدُ صراعٍ في السياسة مشد

على أن حولَ «النيل» مثلَ صراعنا
ولكنه بين الحكومة و«الوفد»
ولم تخلُ من أعتابها بتجدد
على جذبها أرضَ «الحجاز» ولا «نجد»
زمان أتى من كل قوم بنهضةٍ
سياسية حتى أنت نهضة «الکرد»
تباشيرُ صبح لاح بعد نُحوسَةٍ
مشيرًا إلى ما نرتجيه من السعد
فيا وفدَ مصرٍ أنتم خير شاهد
على يقظة في الشرق ورَّاية الرُّند
لقد جئتم رَوَّادَ علمٍ وحكمة
فحُيِّيتُم أزكى التحيات من وفد
ترودون أهلَ العلم مرعى ومنزلًا
وتجتنبون الهزل في معرض الجِدِّ
وقد زرتُم «دار السلام» زيارة
ستذكرها الأقلام بالشكر والحمد
ومن ذكرها في كل عصر وموطنٍ
سَتَسْتَنْشِقُ الأيامُ أطيَبَ من ورد
وتمتد بين «النيل» منها و«دجلة»
مدى الدهر أسباب التعارف والودِّ
سلام على «مصر» التي أرسلت بكم
فطاحلَ علم لا تحيد عن القصد
لكم عند أهل «الرافدين» تجلَّة
على قدر ما للرافدين من الرِّفد

إلى القزويني

هو المرحوم أبو العز السيد محمد القزويني العالم المشهور.

قف بالديار الدارساتٍ وحيِّها
وانشد هنالك للمتيِّم مُهجة
وسل المنازل هل علمنَ بأنني
يا قلبُ أيُّ هوى أصابك عندما
رَشاً إذا أبدى ابتسامة شائق
شغلَ القلوب بحبه ولطالماً
من لي بلثم مُقْبَلٍ من شادن
يا عاذلاً صدعَ القلوبَ بلومه
من ذا استطاعَ يردُّ عن غيِّ الهوى
دُعُ يا عدولُ أخا الغرام معظماً
كأفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرت
واقرَ السلام على جآذر حَيِّها^١
فنيثُ من الأهواء في عُذريِّها
قد شفَّ جثمانِي الهوى بظُّبيها
أصميت باللحظات من تُعَلِّيها^٢
أجرى المدامعَ من عيون عصيِّها^٣
فتكت ضعافُ لحاظه بقويِّها
عذب الثنايا الواضحات شهيِّها^٤
مهلاً فليس خَلِيُّها كشجيِّها
فئة ترى كل الرشاد بغيِّها
للدار يلثمها كرامة مِيَّها
بِسَرِيَّها الجَحجاج وابن سريِّها^٥

^١ الجآذر: جمع جؤذر؛ وهو ولد البقرة الوحشية.

^٢ ثعلبيها: رامٍ منسوب إلى بني ثعل وهم حي من طيئ مشهورون بالرمي.

^٣ الرشأ: ولد الظبية.

^٤ المقبل: الفم. والشادن: ولد الظبية.

^٥ هي مدينة الحلة. والسري: السيد الشريف السخي. والجحجاج: السيد المسارع إلى المكارم.

السيد السند الهمام محمد
 كم شاع للفيحاء بين بلادنا
 ذاك الذي كم من مناهل فضله
 يا سيدًا في المجد أحرز شهرةً
 والتك نفسي ترتدي بك سؤددًا
 لم لا أسود بحبكم في أمة
 زهت المكارم فيك حيث لبستها
 فعشقت منك على البعاد خلأً
 فإليكها عذراء عز قيادها
 وافتك في «رمضان» تنشر مدحه
 لتشد معك عرا الوداد وثيقة
 إني لأغبطها إذا هي أنشدت
 وغدت تجيد المدح منك لسيد

فرع النبوة وابن خير وصيها
 شرف حوته بفضل قزوينيها
 فازت محللة النفوس بريها^٦
 ملأت مسامعنا بصوت دويها
 وقد ارتدته فكنت خير وليها
 فرض المهيمن حب آل نبيها
 شيمًا تزيًا الأكرمون بزيها
 شغلت — وحقك — مهجتي عن حيها
 لولا مديحك لم تبح برويها
 عبت تهانيك الحسان بطيها
 بيد، ولاؤك كان خير حليها
 بندي عفا النفس منك ذكيها
 شهم الغطارفة الكرام أبيها

^٦ المحلاة: العطاش المطرودة عن الماء.

إلى حماة الأطفال

سبق لجمعية حماية الأطفال أن اعتزمت إقامة مهرجان كبير حاولت أن يكون الأول من نوعه، وقد تفضل شاعر العرب الخالد المرحوم الأستاذ معروف الرصافي، فأرسل هذه القصيدة العصماء، ووعد أن يلقيها بنفسه، ونحن ننشرها اليوم ليرى القراء جانباً من إحساس الفقيد العظيم نحو أطفال الوطن.

دار السلام تفاخرت برجالٍ	قاموا بأمر حماية الأطفال
وَعُنُوا بتربية البنين عناية	زادوا بها شَمَمًا على الأجبال
وبنوا لهم دارًا بما جادت به	أيدي أكارمهم من الأموال
صانوا بها الأنسال من أمراضها	ومن الحقوق صيانة الأنسال
دار تعيهم بالأواقي كل ما	يُخشى من الأوجاع والأوجال ^١
ضمنت لأيتام الأرامل طِبَّهم	وغذاءهم وبشائر الأبلال
لم يخش فتك السقم فيها رُضِعَ	في البؤس قد وُلدوا من الإفلال
لله تلك الدارُ من متبوءاً	بذّ النجوم بقدرة المتعالي ^٢
هي مفرّج للمعسرّين ومَلجأ	يأتيه كل ضنّى من الأطفال ^٣

^١ الأواقي: أصلها الواقي جمع واقية. والأوجال: المخاوف، جمع وجل.

^٢ يقال: بزه وبذه: أي فاقه.

^٣ الضنّى: المهزول.

أحماءة أطفال الأيامي إنكم
مرت لكم تلك السنون وكلها
كافحتمُ الأدواء في أيتامنا
في حومة الإحسان طال صيالكم
سيدوم مسعاكم ويبقى دأبكم
ولسوف يذكركم ويشكر سعيكم
لله أنتم من أفاضل خلّص
إني أحاول أن أكون مُعينكم
لو أن ذات يدي استطاعت رِفدكم
ولو أن أيامي تجود بصحتي
إن لم أعنكم بالفعال فإنني
فإليكم هذا الثناء مخلدا

جُدراء بالتعظيم والإجلال^٤
غُررَ تزانُ بأنفع الأعمال
دأبا بغير كلاله وملال
حقّا فأنتم أشرف الأبطال^٥
في الدهر غيرَ مُهدد بزوال
من سوف يخلّفكم من الأجيال
فاقوا الأنام بأشرف الإفضال
لولا موانع يعترضن حوالي^٦
ما فاق نولُ الرافدين نوالي^٧
ما جال أقوى العاملين مجالي
ما زلت من أعوانكم بمقالي
من ماح في المدح غير مغال

^٤ الأيامي: جمع أيم، وهي التي لا زوج لها.

^٥ الحومة: موضع القتال. والصيال والمصاولة: المنازلة في الحرب.

^٦ حوالي: حولي.

^٧ الرفد: العطاء، والنول والنوال: العطاء.

شاعر البشر

حيَّهْل يا أخوا مُضر نذكر خيرَ مُذكر^١
نذكر شاعر البشر خير من قال وافتكر

* * *

حيَّهْل أيها المَلّا نحي ذكرى أبي العَلّا
شاعر شعره اجتلى صوراً كلها غُرر

* * *

شاعر يملأ الفضا نفسه صعبة الرضا
دونه كل من مضى دونه كل من غبر^٢

* * *

هو بالفكر مُدّ سما كان من نوره العمى
شاعر الأرض والسما شارف الشمس والقمر

* * *

^١ حيَّهْل: اسم فعل أمر، معناه: أقبل. وأخوا مضر: هو من ينسب إلى مضر، وهم من ولد إسماعيل، أما اليمينيون فأولاد يعرب بن قحطان، ولعل الشاعر هنا يريد جنس العرب مطلقاً.

^٢ من غير: من يأتي في المستقبل، وقد يكون غير بمعنى مضى في غير هذا.

حلّ في ذروة الأدب آتياً منه بالعجب
لا تقل: شاعر العرب إنه شاعر البشر

* * *

جعل الصدق ديدنا تاركاً هذه الدنيا
إن تناءى أو ادّنى فهو للحقّ ينتصر

* * *

عبقري بشعره عالمي بفكره
يعربي بنجره تشرف العُربُ إن دُكر^٢

* * *

جعل الشعر وحيه موقظاً فيه وعيه
ما ورى فيه ورّيه قبله كل من شعّر^٣

* * *

خطّ سفراً به ابتغى غنية الروح بالرّغى^٤
جامعاً أفصح اللّغا حاوياً أكبر العبر

* * *

حكم العقل واجتهد وتغابى عن القدر
هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبر

* * *

شعره شفّ عن دها ما له فيه مُنتهى^٥
بنظام هو النهى وحروفٍ هي الدرر

^٢ النجر والنجار: الأصل.

^٤ ما روى فيه ورّيه أي: لم يُدح زناد فكر، ولا أتى بمثل ما أتى به أبو العلاء من المعاني.

^٥ الرغى: بضم الراء وفتحها، الحديث غير الصريح.

^٦ شفّ عنه: أبان عنه.

* * *

شعره شعر مُتَّقِنٍ فيه شك لموقِنٍ
فيه كفر لمؤْمِنٍ فيه إيمان من كفر

* * *

نفسه وهي ثائره تركت «غيرَ خاسره»
كل دنيا وآخره ونفت كل ما استقرَّ

* * *

جعل الحق ذوقه باذلاً فيه طوقه
شاعر ليس فوقه شاعر من بني البشر

* * *

شاعر الأرض والسما هو بالفكر مُذ سما
أبصر الحق بالعمى لم يضره عمى البصر

* * *

هو بالشعر إن شدا يتجلى لك الهدى
مدرِّكاً أبعد المدى بالمعالي التي ابتكر

* * *

جانب الناس واعتزل قائلاً: إنهم همل^٧
شرُّهم غير محتمل خيرهم غير منتظر

* * *

دينهم من ريائهم وهو في أغبيائهم
ليس في أنكبيائهم غيرُ من مان أو مكر^٨

^٧ الهمل من الحيوان: ما ليس له راع يحوطه ويرعاه.

^٨ مان: من المين وهو الكذب.

* * *

ما بهم غير حاسِدٍ دائب في المكايِدِ
مبتغى كل واحد منهمُ الجورُ إن قدر

* * *

كوكب قد توقَّدا في سماءٍ من الهدى
عندما غمَّه الردى أظلم الجو واعتكر

* * *

ليس للموت عندهُ من تقاريع بعدهُ
إن عرا الحيَّ رَدَّهُ فاقد الحس كالحجرُ

* * *

فيه قد يأمن الفتى كل ما راع أو عتا
لا مصيف ولا شتَا لا نعيم ولا سقر

* * *

نحن أسرى ذواتنا خشية من مماتنا
كم وكم في حياتنا مُبتدا ما له خبرُ

ذكرى المآثر التيمورية^١

«لأحمد تيمور» مآثر لم تزلْ
شوامخ كالأطواد عالية الذرا
تزيدُ على كَرِّ الجديدين جِدَّةً
إذا ذكِرَتْ في القوم حُلَّتْ لها الحُبا
هو العالم الحبر الذي كان علمه
إذا لم يزن عِلْمُ الفتى حسنُ خلقه
به فقدت «مصر» العزيزة فاضلاً
أقام بها ما فاق في الفضل نيلها
مناضدها للتائهين معالم

تشيرُ بتعظيم إليها الأناملُ
ولكنها لا تعترِيها الزلازل
وتبلى الدواهي دونها والغوائل^٢
وقام لها جمع من القوم حافل^٣
كأخلاقه فيه النهى والفضائل
فما هو في شيءٍ على الناس طائل
له في مغانيها مَساع فواضل
خزانة كُتُبٍ تنتحِيها الأفاضل^٤
وأسفارها للظالمئين مناهل

^١ وهي من أواخر شعره.

^٢ الغوائل: جمع غائلة، وهي المهلكة.

^٣ الحبا: جمع حبة، وهو ما يشد به العربي رجله إلى ظهره من شملة أو عمامة أو نحوها إذا جلس في نادي قومه، وحل الحبا: كناية عن الاهتمام بالأمر، يقال للشيء المهم: هذا أمر تحل له الحبا.

^٤ تنتحِيها: تقصدها.

إذا غمَّ أفق العلم أبدت أنارةً تقوم بها للحائرين دلائل[°]
عليه سلام الله ما هيبَ عالم وعيب بإهمال التعلم جاهل
ولا برحت مصر ينير لها الدُّجى رجال عظام من بنيتها أمثال

الأعظمية - ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٤

[°] غم أفق العلم: أظلم. والأنارة: البقية من الشيء، كذا في جريدة «البلاد» ولعلها محرفة عن إنارة، يريد إذا غام الأفق بالشبه ظهر منها نور يوضح أمام الحائرين.

أبو الطيب المتنبي

كان أبو الطيب امرأً قَوْلَهُ
صاحب نفس كبيرة شرفت
كان هو الشاعر الذي انتشرت
أوجدت للشعر دولة عظمت
من كل معنى أغرَّ مؤتلق
وربما رقَّ لفظه فبدت
وربما لم تبْنْ مقاصده
يبتكر الشعر مذكياً شُعْلَهُ
فشرَّفت حله ومرتحله
أشعاره في البلاد منتقله
به فعزت من قبله دوله
في لفظة كالعروس في الحجله
في شعره كل كلمة ثملته
لأنها فيه غير مبتذله

* * *

فسائلن عن قريضه حلباً
خلد ذكراً لسيف دولتها
فاعجب لسيف لم تَبْلُ جِدَّتُهُ
كم قطفت من زهوره خصله
أيام وشَّى بمدحه خلله
وشاعر بالمديح قد صقله

* * *

لو حاز موسى مضاء عزمته
وهو الذي اجتازه ببيعمة
قد بات كافور من جراتها
إذ أعجزته بالسير عن طلب
فَسَلْ به النيل يوم ناقته
ما تاه في التيه عندما دخله
تحمل منه الهمام لا التكله
على الموابي بمهجة وجله
لا خيله تختشي ولا إبله
تغمرت منه وانتحت جبله

كيف أتى مصر كالعقاب لكي يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها ثم وشيكا بهجوه قتله

* * *

في شعره حكمة مهذبة وروعة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحة وصنعة بالفنون متصله
قدرته في البيان واسعة يتيه فيها السؤال والسأله
إذا المعاني بشعره ازدحمت ما ربكت في انتقائها حيلا
كم شاعر قد قفى له أثرا وناقد راح يبتغي زللا
فأخفقوا عاجزين عن درك لبعض ما كُله تيسر له

* * *

قل لابن عبّاد: أي منقصة من أجلها كنت مكثرا عدله؟!
أشعره؟ والعصور ما برحت تسعى بكل استجادة قبله
لكنما رمت من مدائحه ما لم تكن سالكا له سبله
طماعة منك غير واعية وهي لعمري حماقة وبله

* * *

أكبر من أكبر القريض به وأكبر القاتلين من قتله
يا قاتليه لو تعلمون به إذن قتلتم نفوسكم بدله
قتلتم الشعر والإجادة والإبداع فيه يا الأثم القتله
لستم بذا القتل من بني أسد بل أنتم فيه من بني ورله

* * *

لم يزل الدهر بعد مقتله يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عند كل باهية بدائع في القريض مرتجله
يصطاد في الشعر كل شاردة من القوافي ببطنة عجله
فلا تقسّه بغيره أدبا! وهل تقاس المعطار بالنفله؟!

* * *

كم شاعر يدعي وليس له من شعره غير منطق الحجله

رجعت منه كآكل البصله	إن أنت أنشدت شعره هزواً
من هجنة فيه تأنف السبله	ورب شعر إذا لفظت به
فنسقت في بلاغة جمله	الشعر معني ألفاظه حسنت
عن حسن معناه أوسعت خلله	وكلما قصرت قوالبه
كحسن حسناء ثوبها سمله	حسُن المعاني بلفظها شوه

* * *

فأحمد الشاعر الذي أكله	من ذاق في الشعر طعم معجزه
بالشعر يوماً ولم يكن بطله	أيُّ مقام هيجاؤه احتدمت
قرَّ عليه يوماً ولا قبله	كان عزيزاً يأبى الهوان فما

إلى الجواهري

ما أوحته إليّ قصيدتك

كتب المرحوم الشاعر معروف الرصافي تحت هذا العنوان القصيدة التالية؛ ردًا على قصيدة للشاعر الأستاذ محمد مهدي الجواهري نشرها في صحيفة «البلاد» وقدم بين يديها هذه الكلمة:

أردنا عندما ناغينا الشاعر العربي العظيم الأستاذ «الرصافي»، أن يكون لنا شرف تذكّره وهو في عزّته الموحّشة، فكان لنا إلى جانب ذلك أيضًا شرف ابتعاث شاعريته الفذة، التي حالت حوائل المرض والانعزال و«النقمة»، دون تمتع المعجبين في شتّى الأقطار العربية بنتاجها.

أما وقد هزّنا الأسد الرابض الضائق ذرعًا بعرينه، المنطوي على نفسه ألمًا وغضبًا وكبرياء، فليكن لنا شرف الاستماع إلى زئيره.

فليضم المتغنون بشعر الأستاذ «الرصافي» هذه الترنيمة الجديدة إلى مجموعاتهم، وهذه «الزفرة» الحارة إلى السلسلة «المقطوعة» من أخواتها.

وسلام على «عيش» الشاعر المتمرس «بالأولى» والمتفكر في «الأخرى» هذا العيش «الحر الطليق» التي خانتنا كلمه «وفضلت» في التعبير عن مقدار إعجابنا «بطبيعته» واحترامًا لنا ولصاحبه.

وسلام على الشعر «الرصافي» المتفتق نوره عن الذهن المشبوب، والفكر الحائر، والنفس الجائشة والمستجيشة بفيضها، والقلب المرتج بالعواطف الزاخرة والزاج بصاحبه في شتّى المهاوي.

ذلك «الشعر» الرصافي الذي أعجبنا؛ لأنه لم يكن «حبلاً» مرغمة «أوائله أن تلتقي والأواخر» وذلك «العيش» الرصافي بماضيه وحاضره المتراكم بعضه فوق بعض بدون «تنسيق» ولا اختيار بل بوحى من الفكر الروحي و«الصراحة» و«الجرأة» ومحض الطبيعة، وفي بعض الفترات منه بوحى الضرورة، وهذه هي عناصر عظمته عندنا، وفي هذا جواب «الاستعاب الرقيق».

قال الرصافي:

بك الشعر لا بَيَّ أصبح اليوم زاهرا	وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا
فأنت الذي أَلَقْتُ مقاليد أمرها	إليه القوافي شَرَّدًا ونوافرا
إذا قلت شعراً قلته في بداعةٍ	فكان به المعنى بديعاً وباهرا
وإن أنت أطلقت النفوس من الأسى	بإنشاده يوماً أسرت المشاعرا
بلغت من الإبداع أرفع ذروةٍ	هوى النجم عنها صاغراً متقاصرا
وإنك أرقى الناطقين تكلماً	بحقٍّ وأنقى الساكتين ضمائرا
إذا شيءَ ظلمَ قُتِمَ للظلم رادعاً	وإن سيءَ حقٍّ قمت للحق ناصرا

* * *

لئن كنت تنمى للجواهر نسبة	لقد كنت تحلو بالبيان جواهر
نماك أب بالعلم شيد مجده	وخلد منه في الزمان المآثرا
ومد من الآداب فيه سُرَادقاً	وأكثر فيه للبنين المفاخرا
فلا عجب أن تنظم الشعر رائعاً	أنيق المعاني زاهي اللفظ زاهرا
وقد تبصر الماء الزلال به القذى	فتغمض عنه بالغباء النواظرا

ما أوحته إلي قصيدتك

ألا إنني رغم انتباهي لم أزل	بأكثر ما قد قلته أنت حائرا
تحدثت عن ماضٍ حديثاً مُجمِماً	كأنك فيه لم تكن لي عاذرا
وما كنتُ مختاراً كما أنت قائلٌ	من العيش ما لولاه ما كنت شاعرا
ولا اخترت عيشاً بين بين موسطاً	ولا كنت فيما أبتغيه مشاورا

ولكن هي الأقدار تجري بغير ما
فتجعل ليث الغاب يتلو فُرانقًا
وكم أقدرت من كان في الناس عاجزًا
وما المرء إلا مجبرٌ في حياته
وُلدنا وعشنا ثم متنا وكلُّ ذا
يريد الفتى جريًا على الأمر قاسرا
وتترك صقر الجو يخشى القنابرا
كما أعجزت من كان في الناس قادرا
وإن ظنَّ فيها أنه كان خائرا^١
على غير إذنٍ جاء بل جاء دامرا

* * *

أجل كنت من تَيْنِ الحياتين آخذًا
وجادلني قوم بغيرِ دِرايةٍ
وَأَسْأَلُ فامننُ بالجواب تفضُّلاً
أأنت الذي فضّلت عيشًا معيّنًا
فصرت به في القوم شاعر مجدهم
إذا كان هذا هكذا منك واقِعًا
علامَ إذن تشكو وشكواك كلها
ومن ذا الذي قد عاش في الناس راضيًا
ولو كان عيش الناس وفقَّ اختيارهم
بواحدة تأبى القسم المغامرا
ولست أبالي ذا العناد المكابرا
سؤالاً عن استعتابي الخِلِّ صادرا
لنفسك حتى كنت فيه المُشاورا
إذا قلت شعراً جئت بالشعر ساحرا؟!
فقد كنتَ في حسن اختيارك ماهرا
كشكواي تُدَمِّي بالبكاء المحاجرا؟!
ومن ذا الذي قد عاش في الناس شاكرا؟!
لما كنتَ تلقى شاكياً أو مخاطرا

* * *

لَحَا الله دنيا كلنا من جرّائها
ونحن مدى الأيام نشكو بعيشنا
نرى واحداً يقتاد ألفاً لعيشه
ولو وُزنت أعمالهم باقتداره
فما عاش في مَحياه عيشًا مرفّها
شقاء على كر الجديدين آخذ
نخوض الرزايا راكبين الضرائرا
فسادَ نظام يجعل الكد بائرا
وينظر للألف المسخّر ساخرا
لكان بها كينونة الصّفر شاعرا
من الناس إلّا من تحيّل ماكرا
بأعناقنا إلا القليل المماكرا

* * *

وما الشعر بالحبل الذي قد ذكرته
ولكنه برق تموّج دائرا

^١ خائراً: مختاراً.

فما الشعر إلا من بروق دوائر تدور أواليها لتلقى الأواخر
إذا لمعت فوق الطروس فإنها تردُّ إلى التبر المذاب المحابر
وقد برأ الله العوالم كلها دوائر فيها حار من ظل فاكرا
نرى كل شيء عائدًا نحو بدئه إذا نحن حگمنا النهى والبصائر

* * *

إذن لم أكن في عالم الشعر مُرغمًا لأوله حتى يلاقى آخرا
نعم كنت في تلك الأماديح شاتمًا زمانًا يوالي كل من كان جائرا
وكننت بذاك المدح للمدح هاجيًا وكننت بذاك الشعر للشعر حاقرا
إذا الدر أمسى كالسَّخاب مُحَقَّرًا شددت به للنابحات سواجرا^٢
وما العار في هذا عليَّ وإنما على من أضاعوا مجدهم والمفاخرا

^٢ السَّخاب: قلادة تتخذ من قَرْنَفُلٍ. السواجر: جمع ساجور، وهو القلادة التي توضع في عنق الكلب.

الثناء المخلد

أبا الماجدِ النجلِ النجيبِ محمدِ
به الناسِ إلا شاكرًا غير مُجْتَدِ
وأكرمَ من يُنمى لأكرمِ مَحْتَدِ
وأرسله نورًا به الناسُ تهتدي
وأطلق فيه الحمد غير مقيد
بصوت كصوت البلبل المتغرد
قوافيه يومًا أسكتت كل منشد
ومثلك أهل للثناء المخلد
وشوهدت بالإحسان في خير مشهد
بمسعاك زادت جِدة المتجدد

ألا بلغوا عني رسالة مُنْشِدِ
رسالة من لا يُنشد الشعر مادحًا
ألا يا ابن عيسى بنِ الهُمامِ محمد
سأقرض في شكري لك الشعر خالدًا
أقيده بالمدح والمدح مطلق
أرجع في الإنشاد أنغامَ لحنه
وأجعله شعرًا إذا ما تنوشدت
عليك به أثني ثناءً مخلدًا
وقفت من العلياء في [خير] موقف
وجددتَ مجدًا غير بالٍ وإنما

* * *

فيا لك في الإنعام من مُتفقد
نويهم ومن يختصُّهم بالتودد
وأقعدهم للشرِّ في كل مرصد
يروح به ذو الاحتكار ويغتدي

تفقدتني في العيشة الضنك منعمًا
على حين قد أنسى الرجال زمانهم
ومدَّ أحابيل القطيعة بينهم
وأغلى غلاء في المعيشة فاحشًا

الرصاصي يقرّظ كتابًا للزهاوي

هذا كتابٌ فيه يتّضح الهدى علنًا فتسطع للعقول حقائق
يا ظلمة الشبهات والكذب انجلي فلقد بدا للحق «فجر صادق»

الأفول المشرق

أيها الأنجم التي قد رأينا
إن هذا الأفول كان شروقاً
وسياتي منه الزمان بسعد
شنقوكم ليلاً على غير مهل
أفكانوا في ظلمة الليل تجراً
هكذا الخائف المريب يواري
شنقوكم لأنكم قد أبيتم
فاستحقوا اللعن الذي كررته
سيديم الزمان لعناً عليهم

* * *

أيها الأنجم التي تركتنا
في سبيل الأوطان متم ففزتم
وستبقى الذكرى لكم ذات رمز
وسيجري احترامكم في مجاري
إن يوماً به نعيتم إلينا
قد حكاها طولاً وشؤماً وبغياً
فيه أبدت منا الوجوه كلوحاً
إذ سكناً وفي القلوب ارتجاج

في أسى من مصابها محسوس
بأجل التمجيد والتقدیس
هو تعظيمكم بخفض الرءوس
شرف خالد لكم قدموس
يوم بؤس كحرب يوم البسوس
وتلظى بحر نار المجوس
في شحوب وغبرة وعبوس
مثل تيار لجة القاموس

وأطلنا عن الكلام سكوتًا	معربًا عن نشيجنا المهموس
ووجمنا حزنًا وربَّ وجومٍ	يتأتى من صاخبات النفوس
برأت ذمة المروءة منا	إن نُسي يوم شنقكم أو تُنُوسي

وقال هذه الأبيات مترجمًا

فيك يا أغلوطة الفكر حار فكري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
رجعت حسرى وما وقعت لا على عين ولا أثر

* * *

يا واحد الذات كثير السعي ومن تجلى ظاهرًا واحتجب
أنت لدى الفرس تسمى خذا أنت تسمى الله عند العرب

* * *

أول أنت ولكن أول ما له في سانح الفكر ابتداء
آخر أنت ولكن آخر ما له في راجح الحجر انتهاء

إلى طه الراوي

بأيّ سلام أم بأيّ تحية إليك أزين اليوم بدءَ خطابي
فإنك أهل للتحيات كلها وما أنا فيما أدّعي بمُحابٍ

إلى البطل عبد الكريم الريفي

أعبد الكريم وأنت البطل	وفيك الرجاء وفيك الأمل
لئن قرَّ سيفك في غمده	فما ذاك من خورٍ أو ملل
ولكنما دهرنا قُلَّبُ	وأيامه من قديم دُول
تهزُّ البطولة أعطافها	إذا ما جعلناك فيها المثل
سيخلد ذكرك في الناهضين	وتتني عليك الظُّبا والأسل

بداعة لا خلاعة

مثلت في دلالها عريانَه
حيث طارحتها الغرام ببيتِ
فكأنني وقد نظرت لمعرا
وتجلى خيالها في المرايا
فتأملت في تقاطيع جسم
ظلتُ أرنو إلى الجمال بعين
فأريها من الغرام فنوناً
ثم أسلمت للمليحة قلباً
وتقحمت موهج الحب حتى

فأرثني محاسناً فتانه
بالمرايا قد زوّقوا جدرانها
ها من النور مبصر أسطوانه
حاكياً من جمالها أعيانه
جعل الحسن كله عنوانه
تشتيه وتثقي هجرانه
وتريني من حسنّها أفنانه
أوجب الحسن بالهوى إيمانه
أصبح القلب صالحاً معمعانه

* * *

هاك من وصفها وإن شئت فاعذر
هي غمّازة اللحاظ لعوبُ
بضة نعمة لميس رداخُ
ناهد النودلين محطوبة المتد
خذلة ساقها مهفهفة الخص
ذات وجه كأنه بدر تمّ
لو رآها كسرى الملوك لخلّى
عقصت شعرها وقد زينته

أو قلّم مُملك الغرام عنانه
ذات دلّ ظريفة لحّانه
غادة أحورية بهنانه
نزين خود رجراجة وركانه
ر كعاب براقّة سيفانه
وقوام كأنه خوط بانه
ملكه تاركاً لها إيوانه
بحلّى من نقارس مزدانه

فحكى شعرها على الرأس تاجًا
وتدلى قرط بسالفتيها
فحكى قرطها بقرب المحيا
وأظلت جبينها وهو صبح
فكان الجبين باقة نسري
وحكت في جلالها خاقانه
رصعت فيه ماسة بجمانه
زهرة الجو قارنت زبرقانه
طرة غيهبية فينانه
من تدلت من فوقها ريحانه

* * *

وقفت لي عريانة فتقدم
فتمشيت تخلعًا وتثنت
ثم صدت فأدبرت عن دلال
ولقد راعني وزاد فؤادي
ركبًا كعتبًا عضوًا مصوصًا
مشرف السطح رابئًا ذا انتصاب
قد حكى كومة من اللؤلؤ الرط
نعمة العيش أترفته وأخلت
عطر الريح قد تشممت منه
وشربت الرحيق وهو تجاهي
لو رآه العنين يومًا لأمسي
ست إليها بذلة واستكانه
وتلوت كأنها خيزرانه
ثم عادت فأقبلت عن مجانه
ولها ما رأيت تحت المثانه
ناشرًا ذا بضاضة ورزانه
حامي الجوب ضنكه، ريانه
ب وإن كان فائقًا أثمانه
أسكتته من الأذى وعجانه
إذ تشممت شذا أقحوانه
جاثم فاتخذته فنجانه
مبرءًا من رخاوة وعنانه

* * *

شغفتني تلك المليحة حتى
سلس في انقيادها بعد أن قد
فدعتني إلى الكفاح بغمز
وغدت في تجضم واعتلاج
واضعًا فاي [فوق] فيها وكل
فغدت في ارتهازها تتلغًا
ثم قالت وقد ذوت مقلتها
أطعن الطاعنين للضاد، من بالض
علمتني بكر الهوى وعوانه
أظهرت لي تمنعًا وحصانه
كررت من عينها الوسنانه
بشفاه وردية غيسانه
قد أمص الضجيع منه لسانه
بكلام لا تستتم بيانه
وشكت من فؤادها خفقانه
ساد قد أنطق الإله لسانه

في دار النقيب

أما وقد طلع الرجا ء يشع أنوار السرور
في دار مولانا النقيب ب بوجه مولانا الأمير
فاذهب لشأنك أيها الـ يأس المخيم في الصدور

* * *

ماذا يريد المرجفو ن بكل بهتان وزور
من بعد ما بدت المنى للقوم باسمه الثغور
في دار مولانا النقيب ب بوجه مولانا الأمير؟

* * *

ماذا يخاف القوم من ميل الزعانف للنفور؟
بعد اقتران النيّريـ ن الساطعين بكل نور
في دار مولانا النقيب ب ووجه مولانا الأمير

* * *

مد النقيب إلى الأميـ ر يد المعاضد والنصير
فَلْيَخُزْ كل مشاغب في القوم يلهج بالشور
وليحي مولانا النقيب حياة مولانا الأمير

الحق المغتصب

مما كتبه إلى العلامة عبد الوهاب النائب بعد عودته إلى النيابة بالمحكمة الشرعية:

قد أخذ الحق من الغاصب	وعاد ممنوحًا إلى النائب
عالم بغداد وإنسانها	والمنهل العذب إلى الشارب
تختلف الناس إلى فضله	من ذاهب منهم ومن آيب
في علمه ووعظه تهتدي	وتقتدي في رأيه الثاقب
والبشرُ قد لاحت أساريه	بجبهة المطلوب والطالب
ودار شرع الله مزدانة	في جانب تزهو إلى جانب
بعد ظلام دامس أرخوا	أشرق شرع الله بالنائب

تحت تصوير النائب

مذ غاب عنا في المنية شخصه فانظر إلى تصويره من غائب
تلقى المعاني المعربات عن العلا في صورة لأبي الحسين النائب

إلى عبد الكريم العلاف

ومحبّ ذي أدبٍ أتى مستنشداً
فأجبتّه عبد الكريم محلق
فلکم سمعت له قوافيَ جمّة
شعرًا أنوّه فيه بالعلّافِ
من شعره بقوادم وخوافي
كانت لعمر الله خير قوافي

الحريقات

وقفة عند شراغان^١

للرصافي عدة قصائد قالها في وصف ما شاهد في الآستانة من الحريق الذي يكثر وقوعه في تلك المدينة، فرأينا أن نثبت تلك القصائد هنا على حدة تحت عنوان الحريقيات، فمنها القصيدة الآتية:

أصبحتُ أعذلُ نوابًا وأعيانا	عَذْلًا كَنارٍ تَلَطَّطَتْ فِي «شِراغانا»
قصر أطلَّ على البسفور مرتفعًا	إِلَيْهِ يَشَخَّصُ طَرْفُ الْعَقْلِ حيرانا
ذو زخرفٍ يُبْهِجُ الْعَيْنَ الَّتِي نَظَرَتْ	حَتَّى تَراهِ لَهَا نُورًا وَإِنسانا
رَاقَتْ مَبانيهِ إِتقانًا وهندسة	مستوقفاً صُنْعَها مِنْ مَرَّ عَجلانا
كُلُّ القصور عَبيدٌ وَهُوَ سَيِّدُها	إِذْ كانَ أَكرَمُها صَنعًا وَبَنيانا
يمشي المهندسُ فيه وَهُوَ يَناظِرُهُ	مَشيَ المَقيدِ يَستَقصِيهِ إِمعانا
يَضُمُّ كَفِّهِ لِلإِبطِينِ مَنبَهِرًا	مَقلَبًا فِي الأَعاليِ مِنْهُ أَجفانا
عرش به تعرف الناسُ الجلالةَ إِذْ	لَاحَ الجَمالِ عَلى مَبناهِ أَلوانا
لو كانَ عَرشًا لِبَلقيسَ لَما خَضَعَتْ	لِلأَمْرِ حِينَ أَتاها مِنْ سَليمانا

^١ «شراغان»: قصر ملوكي على ضفة البسفور في الآستانة، بناه السلطان عبد العزيز، وهو أعظم القصور فخامة في الآستانة، وأدقها صنعة وأبهجها منظرًا، ولما أعلن الدستور العثماني اتخذ مجلسًا للنواب، وكان ذلك بسعي من أحمد رضا رئيس مجلس النواب، فشب به حريق، وكان الرصافي في الآستانة، فقال هذه القصيدة.

فيه الحوادث أمست وهي ناطقة
فلو رأيتَ وقد شبَّ الحريق به
رأيتَ ملكًا كبيرًا ثمَّ محترقًا
طالتَ به ألسُنُ للنار تلحسُه
بألسن دَلَعَتْها فيه نيرانا^٢
والريح تصْفِقُ للنيران أردانا
يذيب منه لهيبُ النار عَقيانا^٣
لحسًا يدُكُ قوَى البنيان إيهانا^٤

* * *

يا دُرَّةً في ضفاف البحر ضيَّعها
كم قد أضاعت بوجه البحر مشرقة
يا أيها القصرُ مذ أمسيتَ محترقًا
لم يُبقِ منك لهيبُ النار باقيةً
مَعَاوِلُ من شواظ النار هادمة
قمنا أمامك والنيران صائلةً
كم هَدَّةً لك بين النار تفزعنا
يهتَزُ فيك لهيبٌ، حين نبصره
فأنت تملأ صدر الجوّ أدخنةً
ما أشرف القومَ لو كانت مدامعهم
ويلٌ لِمُرْتَثِسٍ قد قام مجتهدًا
حق إذا كنتَ للنوَّاب مجتمعا
للنَّارِ فيك حسيْسٌ كنتَ أحسبُه
أشكو إلى الله قلبًا لا يطاوعني
يا قوم إنَّ بصدر الشعر موجدة
ما بال نوابنا أمسوا نوابنا
أما كفى أنهم لم يعملوا عملاً
هم يطلبون قصورًا يَنعمون بها
قوم وكان بها البسفور مزدانا
ورصَّعت من رءوس الهضب تيجانا
أبكِيتَ في البحر أسماگًا وحيثانا
ولا لدي القوم أبقى عنك سُلوانا
يا للعجائب كالأطواد جدرانا
تدكُ منك على الأركان أركاننا
حتى نخالك منها صرت بركانا
نهتَزُ بالحزن أرواحًا وأبدانا
ونحن نملأ صدر الأرض أحزاننا
مطافئًا لك تجري الدمع غُدراننا!
يسعى بجعلك للنوَّاب ديوانا
بانت عواقبُ ذاك السعي خسرانا
ضُحْكَاً على من بسوء الرأي أبكانا
ألا أكون على الأوطان غيرانا
لا يستطيع لها سترًا وكتمانا
إذ لا يبالون مكروهاً تغشَّاننا؟!
حتى أرادوا اجتماعًا في شراغانا!
ونحن نطلب للأوطان عمراننا

^٢ أي أن الحوادث قد نطقت في هذا بألسن النيران.

^٣ العقيان: الذهب الخالص.

^٤ إيهانًا: أي إضعافًا.

ليس الجلوس بيهو القصر مفخرة
قد ضيّعوا الحزم حتى إنهم ندموا
يعيش ذو الحزم مسرورًا ومغتبطًا
وأحزم الناس مَنْ إن نام بات له
أين الطريق إلى العلياء نسلكتها؟
لا الشعبُ يخلع أثوابَ الخمول ولا
الناس تسعى لدينا نحن نهملها
لمن هم اليوم أشقى الناس أوطانا
على الذي كان منهم بعدما كانا
وتارك الحزم لا ينفك ندمانا
طرفٌ على حدثان الدهر يقظانا
فإننا لم نزل يا قوم عميانا
نوابه يلبسون الصدق قمصانا
ما أسعد الناس في الدنيا وأشقانا!

أم الطفل في مشهد الحريق^١

ما للديارِ تراءى وَهِيَ أطلالُ
كانت بها السَّمَرَاتُ الخضر زاهية
ما بالها وهي أنقاضٌ مبعثرة
هل هُدَّ بنيانها من فوق صاعقة
بل قد عفتها ولم تترك بها أثرًا
شَبَّ الحريق بها ليلًا مشيدة
أثارت النار في أطرافها رهجًا
حتى حكَّت مغرَّكا خَرَّت بساحته
دار السعادة أمست من تحرُّقها
هل خَفَّ بالقوم عنها اليوم ترحالُ؟
واليوم لا سَمَر فيها ولا ضال^٢
تغبر فيهن أبكار وأصال؟
أو هُدَّ بنيانها من تحت زلزالُ؟
ريحٌ لها من لهيب النار أذبال
فما أتى الصبح إلا وهي أطلال
من الدخان كأنَّ النار أبطال^٣
صرعى، بيوت وأموال وأمال
دار الشقاءِ وقد ضاقت بها الحال

^١ هذه القصيدة قيلت في حريق شب في حارة الفاتح من مدينة إسطنبول، وهو حريق هائل اجتاح عدة حارات، فتركها قاعًا صفصفاً.

^٢ السمرات: جمع سمرة بفتح فضم، واحدة السمر: وهو شجر من العضاة. والضال: شجر من الدر، والمراد به هنا مطلق الشجر.

^٣ الرهج: غبار الحرب.

ترنو إلى البحر ترجو نَقْعَ غُلَّتْهَا لحظَّ المهجَّرَ إذ يبدو له الآل^٤
تُهاَل كالرمل بالنيران أدورها حتى تكاد لها الأرواح تنْهاَل
يا ريحُ مهلاً فلا تذري الرماد بها إن الرماد الذي تذرِين أموال

* * *

قد رحْتُ لِلْحَيِّ مذعورًا أُيَمِّمُهُ ولي عن الزُّمَرِ الباكين تَسَال
وفي العِراض ديارُ القوم خاويَّةُ وفي الشوارع نِسوان وأطفال^٥
جلسن والشمس فوق الرأس دانية وللغبار بعُرْض الحيّ تجوال
ولا خِمار فيرددن الغبار به ولا يقيهنَّ حرَّ الشمس سِرْبَال
حتى وقفتُ وقلبي كُلُّه جزعُ وأدمعي لَجَجَ طورًا وأوشال^٦

* * *

ما أنْسَ لا أنْسَ أمَّ الطفل قائلَّةُ وفوق وجنتها للدمع تهطال:
إنني تجرَّدت من دنياي حاسرةً ما لي سوى طفلي الباكي بها مال
أي امرئٍ بعد هذا اليوم ذي جدَّة يعولني حيث لا زوج ولا آل^٧
أودى الحريق بدارٍ كنت أسكنها وكنت من بعضها للقوت أكتال^٨
واليوم أصبحت لا دارٌ ولا وزرُ أوي إليه ولا عمُّ ولا خال
إن الحريق خبت نيرانه ومضت وما خبْتُ في فؤادي منه أوجالُ
يا ربِّ رُحماك إنني اليوم عاجزةُ عما دَهَى وبظهري منه أثقال
يا ربِّ قد ضقت ذرعًا بالحياة فما أدري، حنانيك ربي! كيف أحتال!
وعندما قد شجاني من مقاتلتها لفظ يقطِّعه في البين إعوال

^٤ المهجر: الذي يسير في الهاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة، وتكون شديدة الحر. والآل: السراب.

^٥ العراض: جمع عرصة وهي ساحة الدار، أو كل بقعة ليس فيها بناء.

^٦ الأوشال: جمع وشل، وهو الماء القليل.

^٧ ذي جدَّة: ذي غنى. الآل: هنا بمعنى الأهل.

^٨ أي: ذهب الحريق بدار كنت أسكن في بعضها، وأكري الناس بعضها الآخر، فأكتال بكرائها قوتي.

دنوت منها قليلاً وهي باكيةٌ
حتى وقفت وإيناساً لوحشتها
وقلت: يا أختُ لا تستيئسي جزعاً
أتجزعين ابتئاساً بين أظهرنا
ما لي أراك بعين اليأس باكيةً
ألسيت من أمةٍ أيدي الرجال بها
حتى لقد أصبحوا أبناء واحدةٍ
مستعصمين بحبلٍ من أخوتهم
أمسى التعاضد كالحصن الحصين له
فاستبشري اليوم فيما مس من ظمياً
وإن حقدك عول في مساكنهم

ومن بكاهها بقلبي هاج بلُبال
حنيتُ رأسي وحنيتُ الرأس إجلال
فإنما الدهر إديار وإقبال
وكلُّنا عنك لللبأساء حمال
كأنَّ أَمرك عند القوم إهمالٌ
قد فُكَّ عنهنَّ بالدستور أغلال؟!
في المُزْرِئَاتِ وهم في الحكم أشكالٌ^٩
يسمو بهم للعلا فضل وإفضال
إذا تصادم بالأهوال أهوال
بأنَّ وردك عند القوم سَلْسال
وما هُمُ بأداء الحقُّ بُخَالٌ

* * *

تلك التي قد شجبتني في مقالتيها
فهل يُصدِّق قومي ما ظننت بهم
فالمجد يدرك مرماه البعيد فتى
وأكثر المال حمداً ما يعان به
يا قوم هذي سبيل العُرفِ واضحةٌ
ومن تكُّ الحال فيها لا تساعده

وكم لها في نساء الحي أمثال
حتى تقومَ لهم في المجد أفعال؟
رحبُ الذراعين طلق الكف مفضال
مَنْ عَضَّهم من نيوب الدهر إقلال
فليَمُضْ فيها بكم وخُذْ وإِرقال^{١٠}
«فليُسعد النطق إن لم تسعِدِ الحال»^{١١}

^٩ وهم في الحكم أشكال: أي متشاكلون متساوون.

^{١٠} الوخذ والإرقال: كل منهما ضرب من ضروب مشي الإبل.

^{١١} هذا عجز بيت للمتنبي قاله مادحاً، وصدره: «لا خَيْلٌ عندَكَ تُهديها ولا مالٌ».

ثالثة الأثافي

قالها في الحريق الكبير الذي حدث في حارة إسحاق باشا من مدينة إسطنبول، وكان ثالث حريق كبير حدث هناك في العهد الأخير.

والطفلُ يجذبُ رُدنها ويصيحُ	قعدت بقارعة الطريق تنوحُ
كالبرق يضحك في الدجى ويلوح	تبكي وقد ضحك الحريق بدارها
للشمس في وجناته تلويح	ضحيت وقد قلص الظلال فوجهها
فجري لذلك دمُعها المسفوحُ	جرَّ الحريقُ على الدِّيار ذيولَه
تسخو سوى أن العزاء شحيح	ولقد وقفتُ حيالها ومدامعي
لحظ برِّقراقِ الدموع سَبوح	فغدا يُلقنني الأسى من عينها
بيت بجائحة الحريق مَجوح ^١	يا أيِّمًا أجرى الغداة دموعها
ما للمُلمِّ بأهلها تسريحُ	لا تهلكي جَزَعًا فإنَّ بيوتنا
هذي وأكثرها ديار فيح؟ ^٢	أعليكِ أنت تضييق كل ديارنا
بعض السرور فكلها تتريح ^٣	فاقني عزاءك فالحياةُ وإن أرت

^١ الأيم: المرأة التي فقدت زوجها. والجائحة: النازلة العظيمة التي تجتاح المال؛ أي تستأصله. ومجوح:

أي مستأصل، وهو صفة لبيت، والمراد أنها أبكاها اجتياح الحريق ببيتها.

^٢ فيح: جمع فيحاء؛ أي واسعة.

^٣ قنى: حفظ وادخر. والتتريح: الأحزان.

قف بالديار فقد أناخ بها البلى
نزل الحريق بها فشتت شملها
بكر الشواظ بها ينضض السنأ
نشر اللهب على البيوت ملاءة
فتعبست منه السماء وأمطرت
وعلا الدخان على البيوت سحائباً
أما الشرار فكان وبلاً مُنبئاً
والشمس قد كُسفت بجون دخانه
وانظر فقد قرعت بهنّ السوح^٤
فغدت عراضاً وهي قبلُ صُروح
من هول مطلعها تذوب الروح^٥
حمراء تصفق جانبيها الريح
ناراً وقد أخذ اللهب يسبح
برق المهالك بينهن لمُوح
نُوباً برائحة الدمار تفوح
وبدت عليها سَفعة وكلوح^٦

* * *

يا قومُ ساء مصيركم فإلى متى
هَلَّا أخذتم للخطوب عتائها
هذا الحريق وكل يوم ناره
فالنار ما برحت تفوه بالسن
لِمَ لم تعوا ما قلن قبلُ مكرراً
نمتن إلى نوب الزمان فإن أتت
وأهمكم أدنى الأمور وفاتكم
كم في الحوادث من نذير قد أتى
أما الحريقان اللذان تقدما
قد أنذراكم بالخراب وأنبأاً
لا تسمعون لما يقول نصيح
كي لا يكون لها بكم تبريح؟!
تغدو عليكم تارة وتروح
ذُرْب وإن كلامها لفصيح
أوما كفاكم ذلك التصريح؟!
قمتن كما يتململ المذبوح
نظر إلى الأمر القصي طموح
فيكم بأسرار الزمان يبوح!
فكلاهما شق لكم وسطيح^٧
أن التراخي في الأمور قبيح

^٤ السوح: جمع الساحة، وقرعت السوح: أي خلت من الغاشية.

^٥ بكر الشواظ: أي أتى بكرة، والشواظ لهب النار الذي لا دخان فيه. وينضض السنأ: يحركها، والمراد بالسن الشواظ: ما يمتد في شكل اللسان.

^٦ بجون دخانه: أي بدخانه الأسود. وقوله سفعة: أي لون أسود مشرب بحمرة. وكلوح: أي عبوس واكفهرار.

^٧ شق بدون أل: علم لكاهن من كهان العرب، كان في أيام سطيح، وسطيح: لقب كاهن اليمن المشهور، واسمه ربيع الذئبي.

ثالثة الأثافي

عَجَبِي إِلَى تِلْكَ الْمَصَائِبِ كَيْفَ قَدْ
سُرْعَانَ مَا تَنْسُونَ عُظْمَ مَصَابِكُمْ
لَا تَسْتَنِيمُوا لِلزَّمَانِ فَأَخَذَهُ
نُسَيْتٍ وَلَمْ تَبْرَأْ لَهُنَّ جُرُوحٌ!^٨
وَلَوْ أَنَّ شُقَّةَ مَنْتَهَاهُ طَرُوحٌ^٩
خَلَسَ وَقُوسَ الْحَادِثَاتِ ضُرُوحٌ^٩

^٨ شُقَّة مَنْتَهَاهُ: أَي مَسَافَةٌ مَنْتَهَاهُ. وَطَرُوحٌ: بَعِيدَةٌ.

^٩ قُوسٌ ضُرُوحٌ: أَي شَدِيدَةُ الدَّفْعِ وَالْحَفْزِ لِلْسَهْمِ.

الجزء الثاني

المراثي

واصديقاه!

قالها وهو في الآستانة، عندما بلغه منعى صديقه الشيخ محي الدين الخياط في بيروت.

تفكّرت في كنه الحياة فلم أكن
وكم بتُّ فيها أخبط الليل راميًا
فلا أهتدي من أمرها لمقدّم
على أنني مهما تقدمت نحوها
وهبها كما قد قيل أحلام نائم
تأملت آثار الحياة فلم يُلح
سوى أنني أنستُ شعلةً قابسِ
فبينما سناها يُبهج العين لامعًا
فما هي إلا خبوةٌ ترتمي بها
كذلك محي الدين إذ غاله الردى
عليك العفا بيروتُ هل لك بعدما
فتى كانَ ركنًا فيك للعلم والحجا

لأزدادَ إلا حيرة في تفكّري
إليها بلحظ الطارق المتنور
ولا أنتهي من أمرها لمؤخر
رجعت رجوع الناكص المتقهقر
أما في بني الدنيا لها من معبرٍ
لعينيّ منها وجه ذاك المؤثر
توقد في مُستنّ هُوْجاء صرصر^١
أتته كقطع الليل هموةٌ معصر^٢
إلى ظلماتٍ صُبْحها غيرُ مُسفر
فأطفا منه نيرًا أي نيرًا!
قضى فيك محي الدين من متصبرٍ!
وغرّ القوافي والكلام المحبر

^١ القابس: طالب النار. والمستن: الطريق الواضح. والهوجاء: الريح العاصفة. والصرصر: الشدید البرد أو الشدید الهبوب.

^٢ الهموة: الغبار تثيره في الجو. والمعصر: الريح ذات الأعاصير.

فقدنا به صَلَّتَ الجبين مهذبًا	كريم سجايا النفس عَفَّ المؤزَّر
لقد عاش شيخًا في العلوم مقدَّمًا	فما ضرَّه أن مات غيرَ معمرٍ
وما مات من أبقى له طيِّبُ الثنا	لدى الناس من بادٍ ومن متحضر
نعاه لي الناعي فكان كأنه	لدى نعيه أهوى إليَّ بخنجر
ولو لم يكن شديَّ الحيازيمِ دونه	خَرَّتْ كما خرَّ الصريع لِمَنخَرٍ ^٣
خليليَّ عوجا بي على قبر ماجد	ببيروت يحوي كل فضل ومفخر
قفنا نحتقر دمعَ العيون تجلَّة	لمن فيه من ذاك الجليل الموقر
ونندبُ في مَلحوده المجد والعُلا	ونسقيه غيثَ الدمع من كل محجرٍ
عسانا بذا نقضي له بعض حقه	وإن حلَّ أن يُقضى بدمعٍ محقَّر

^٣ الحيازيم: جمع حيزوم، وهو وسط الصدر.

^٤ المَلحود: المدفون؛ أي الميت. ومحجر العين: العظم الدائر بها.

في الملكوت الأعلى

قالها وهو في الآستانة يرثي بها محمود شوكت باشا الصدر الأعظم، الذي قتله أناس من حزب المخالفين.

تقبلني فوق الفراش يدُ الوجدِ
ويقدح في قلبي الأسى واري الزند
ترقرقُ فيها الدمع منفرداً العقد
يدبُ دبيب السم في العظم والجلد:^١
أليس قميص الليل عنه بمنقذ؟!
كما أسلت السيف الجراز من الغمد^٢
لدى العالم العلوي في ربوة الخلد

لقد بتُ مطروف النواظر بالسُّهد
تساورني رَقشاء من لاعبي الجوى
فأرقبُ تغويرَ النجوم بمقلّة
أقول، وفرعُ الليل أسحم والأسى
متى يُسفر الصبح الذي أنا راقبُ
إلى أن رأيت الفجر قد لاح خيطه
فما أنا إلا غفوة فخيالة

* * *

من النور مرفوع الدعائم ممتدّ
وَخطُّوا على حافاته سورة الرعدِ
قناديل خُصِرُ تستنير بلا وقد
به فوق كرسيّ الجلالة والمجد

رأيت كأنني قمت حول سُرادقٍ
أقاموا لواء الحمد فوق عماده
وقد أشرقت ملء السموات حوله
وقد لاح لي محمود شوكت جالساً

^١ الفرع: الشعر. والأسحم: الأسود.

^٢ الجراز: السيف القطاع.

على أنه من صنعة الله لا الهند
فُوقَ جبين مشرق بسنا الحمـد
ومن تحتها درع إلهية السرـد
مجنحة الأيدي غرانقة مُرد^٣
تحويه بالغض الطري من الورد
عظيم به اصطفت ألوف من الجند

وفي يده سيفٌ أجيدٌ صقاله
وفي الرأس تاج بالثناء مرصع
وقد جلّلتـه بردة سندسية
وبين يديه زهرة من ملائـك
تهنئـه بالفوز طوراً وتارة
وقد قام من حول السرادق موكب

* * *

وقد كنت بين الجند معتزلاً وحدي
نراك وحيداً قد وقفت على بُعد؟!
كما يرجف المقرور من شدة البرد
فقبلت بالتعظيم حاشية البُرد
عهدناك في زوّارنا مخلص الودّ
نزلت قرين الأمن في منزل السعد
سعيّت إلى إعلائه باذلاً جهدي
عليهم فمثلي لا يميل إلى الحقد
بديوان ذي العرش الذي جل عن ند
وقلت له: يا ربّ لا تخزهم بعدي
فحقق لهم يا رب ما كان من قصدي
وإن قتلوني ظالمين على عمّد
حياة به طعم الشهادة كالشهد
فما من مُضِلٍّ في الأنام لمن تهدي
من استشهدوا في حرب أعدائنا اللدّ
تسربل كلُّ لبدة الأسد الورد؟^٤

فلما رأيته واقفاً بـحياله
أشار أن اقرب يا رُصافي ما لنا
فجئت وجسمي قد تغشّته رجفة
فقمّت لديه وانحنيت أمامه
فقال: لقد آنست إذ جئت إننا
ولا ترتجف هوّن عليك فإنما
فأبلغ تحياتي إلى الوطن الذي
وقل لبنية: إنني لست حاقداً
وإنني لمّا أن تمثلتُ قائماً
طلبت لهم عفواً من الله سابغاً
ويا ربّ إنني قد قصدت نجاحهم
وإنني لأرجو منك مرحمةً لهم
فإنني أرى موتي بخدمة أمّتي
ألا فاهدهم يا رب للمجد والعلا
وقال: أتدري من همّ الجند؟ إنهم
ألم ترهم دامين حتى كأنما

^٣ الغرانقة: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل.

^٤ الورد: الأحمر من الأسود.

فسوف بحول الله أرأب صدعهم
وأذن في الحي المؤذن غدوة
فقمْتُ وبني من خشية الله رعدة
وأصبحت لم أملك بواذر عبيرة
سأبكي وأستبكي الجيوش على فتى
فتى كان في أفق الوزارة كوكبا
وقد كان في وجه الخطوب تبسما
وما مات محمود الخصال وإنما
لئن غيبت عنا مرائيه في الثرى
وما هو إلا السيف قد كان مُصلتا
سيبقى له الذكر الجميل مُوبدا

وأغزو العدا فيهم على الضمر الجرد^٥
فأيقظني التكبير من سنة الرقد
وأحسست من رؤياي بردا على كبدي
تخط سطور الدمع في صفحة الخد
فقدناه فقد الغيث في الزمن الصلدا^٦
به في دجى الخطب الخلافة تستهدي
إذا عبست يوما بأوجهها الربد^٧
تنقل من هذا الفناء إلى الخلد
فما غيبت عنا معاليه في اللحد
على الدهر وهو اليوم قد قر في الغمد
تمر به الأيام حالية الأيدي

^٥ رأب الصدع: أصلحه. والضمير: الخيل اللطيفة الجسم الهضيمة البطن. والجرد: القليلة الشعر.

^٦ الصلد: الصلب الأملس، أو الأرض التي لا تنبت شيئا، ويعني به الزمن الشديد.

^٧ الربد: جمع أربد، وهو المغبر اللون.

وا محمداه!

قيلت في رثاء محمد فوزي باشا العظم وكان موته فجأة.

أَيُّ حَظٍّ دَهَى رُبُوعَ الشَّامِ
وَبَأَيِّ الْأَسَى رَمَتْهَا اللَّيَالِي
إِنْ تَكُنْ أَفْجَعْتُ بِشَهْمِ بَنِي الْعَظْ
ذَلِكَ الْمَاجِدُ الَّذِي أَدْرَكَ الْمَجْ
سَلْ دَمِشْقًا تَجْبُكَ عَنْ شَيْمٍ فِيهِ
قَدْ بَكَتْهُ شَجْوًا بِسَبْعِ عَيُونٍ
وَرَثْتَهُ بِالْأُسْنِ مِنْ مَعَالِيٍّ
فَقَدْتِ مِنْ مُحَمَّدٍ خَيْرَ نَدْبٍ
وَعَدْتِ تَشْتَكِي إِلَى بَرَدَاهَا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ سَاعَةَ أَوْدَى
إِنْ قَلْبِي قَدْ اسْتَطِيرَ بِمَنْعَاهُ
فَكَأَنَّ النَّاعِي لَدَى النَّعِيِّ أَهْوَى

يَوْمَ أَمَسْتَ تَبْكِي بِطَرْفٍ دَامِ
فَاكْتَسَتْ لِلْحَدَادِ ثَوْبَ ظِلَامِ
مِمَّا فَعَّظِمَ بِخَطْبِهَا الْمِتْرَامِي!
سَدَّ بِأَيْدٍ إِلَى الْعِلَاءِ سَوَامِ
هَلْ تَعَالَتْ عَنْ أَنْ تَزْنَ بِذَامِ^١
فِي رَبَاهَا تَجُودُ بِالتَّسْجَامِ
هَلْ حَدَادٌ تَفُلُّ حَدَّ الْحَسَامِ
ذَائِدٌ عَنْ حِيَاضِهَا وَمُحَامِ^٢
مِنْ أَحَرِّ الْأَسَى أَحَرُّ الْأَوَامِ^٣
مِنْ كَرِيمٍ غَمَرِ الرِّدَاءِ هُمَامِ
اخْتِطَافًا بِمَنْسَرِ الْأَلَامِ
نَحْوَ قَلْبِي بِمُرْهَفٍ صَمِصَامِ

^١ تَزْنَ بِشَيْءٍ: تَتَّهَمُ بِهِ. وَالذَّامُ: الْعَيْبُ.

^٢ النَّدْبُ: السَّرِيعُ إِلَى الْفَضَائِلِ.

^٣ الْأَوَامُ: الْعَطَشُ.

قد فقدنا منه خلائق تحكي	زَهَر الروض غِبَّ صَوْبِ الغمام ^٤
يا أبا خالدٍ وما هذه الدنـ	يا بدارٍ معدَّةً لمُقام
إن تكن هالكًا فكم لك ذكر	في العُلا خالد مدى الأيام
خطفَتْ عمرك المنون اختلاسًا	كاختلاس المنى يدُ الأوهام
فكأنَّ المنونَ خافت على تلـ	ك المعالي ذبولها بالسقام
فلذا أحرزتك غصًّا طريًّا	وكذاكم يكون موت الكرام
فسقى الله تربةً أنت فيها	ثوبَ وطفاءٍ من غَوادٍ هَوامٍ ^٥

^٤ غب: بعد وإثر. والصوب: المطر.

^٥ الوطفاء: السحابة المسترخية لكثرة مائها. والغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. والهوامي: جمع هامية، وهي المطرة.

واشيخاه!

لما رأيت مُنَاخَ القوم أوحالا
صبحُ فشمَّرت للترحال أذيالا
بحيث تبصرنا للحق خُذالا
لسنا نوُكِّد بالأفعال أقوالا
في معشر صحبوا الأيام جهالا؟!
حتى أقاربك الأذنين والآلا
ولا أردت بها جاهًا ولا مالا
تهدي به من جميع الناس ضلَّالا
للمشكلات بحسن الرأي حلَّالا
إذا تقسَّم فيها كان أجبالا
تقاذف الدرُّ في لجَّيه مُنْهالا
نغصت بالحزن شهر العيد شوالا^١
هزَّت عليَّ به الأيام عسَّالا^٢
أما القلوبُ فقد أجفلن إجفالا

أزمنت عَنَّا إلى مولاك ترحالا
رأيتنا في ظلامٍ ليس يعقبه
كرهتَ طول مُقامٍ بين أظهرنا
ولم ترقُ نفسك الدنيا ونحن بها
وكيف تحلو لذي علم إقامته
لذاك كنت اعتزلت القوم منفردًا
وما ركنتَ إلى الدنيا وزُخْرِفها
لكن سلكت طريقَ العلم مجتهدًا
«محمودَ شكري» فقدنا منك حَبْرَ هُدَى
قد كنتَ للعلم في أوطاننا جبالًا
وبحرَ علم إذا جاشت غواربُه
يا من بشوأل قد شالت نعامته
أعظم برزئكَ في الأيام من حدِّث
أُمسِت لروعته الأبصار شاخصة

^١ شالت نعامته: مات.

^٢ العسال: الرمح المهتز ليئًا.

وكل ميزان علم بالأسى شالا
جننا «أبو الهول» يشكو منه أهوالا
وأوجس «الركن» من مَنعك زلزالا
سَطرين للدمع في خَدَّيه قد سالا
أقواله ضربت في العلم أمثالا
كأنهم نضحوا فيهن جريالا
لم نَقُصْ من حقك المفروض مثقالا
إلا علومًا أضاعت منك مفضالا
يا أكرم الناس أعمامًا وأخوالا
عن أوجه العلم أستاذًا وأسدالا
أهلُ البسيطة أجيالًا فأجيالا
دمع الأنام وإن يبكوك أحوالا
وكن في سَبر جُرح الجهل أميالاً^٣
تهدي إلى العلم رُحالا وقَفَلا
نَحْتُّها لك بعد الموت تمثالا
ألا نرى لك بين الناس أنجالا
قمنا لذكراك تعظيمًا وإجلالا
وإن حملتُ من الأحزان أثقالا
وأبكيَنَّك أبكارًا وأصالا
بها اكتسيتُ من الآداب سربالا
شَفَّتْ من الجهل داء كان قَتَلًا^٤
من علة الجهل أوجاعًا وأوجالا
ولو ملأتُ عليك الدهر إعوالا
شمسُ وما ضاء بذر الليل أو لالا

طاشت حصة العلاما نُعيت لها
إذا نعيك وافى «مصر» منتشرا
وإن أتى البيت «بيت الله» رُجَّ به
أما «العراق» فأمسى «الرافدين» به
بكى الورى فيك حَبْرًا لا مثيل له
بَكوك حتى قد احمرَّت مدامعهم
ولو لفظنا لك الأرواح من كمدٍ
ولا نُخَصِّص في رزءٍ بتعزية
فإن رُزك عمَّ الناس قاطبة
شكرًا لأقلامك اللأى كشفت بها
كتبن في العلم أسفارًا سيدرسها
أمددتها بمدادٍ ليس يعقبه
وكنْتَ أنت نطاسي العلوم بها
يا مطلعًا في سماء الفكر أنجمه
لو أنني بَلَغْتُ زهرَ النجوم يدي
ما ضرَّ من بعد ما خَلَدت من كتبٍ
إذا ذكرناك يومًا في محافلنا
إني أخفُّ لدى ذكراك مضطربًا
لأشكرنك «يا شكري» مدى عُمري
فأنت أنت الذي لَقَنْتَنِي حِكْمًا
أوجرتني من فنون العلم أدويةً
فصحَّ عقلي وقبلًا كنتُ مشتكيًا
أنا المقصر عن نعماك أشكرها
فاغفر عليك سلامُ الله ما طلعت

^٣ الأميال: جمع ميل بكسر الميم، وهو عويد صغير من زجاج يسبر به عمق الجرح.

^٤ أوجرتني: سقيتني.

في موقف الأسي

أما خشيت عليها من يد العطب
خلوًا من الدرس والطلاب والكتب
ولا لمنتابها في الدرس من أرب
لاقاك «محمودُ شكري» خفة الطرب
يُبدي الحفاوة خيرُ ابنٍ لخير أب
فانصبَّ مضطربٌ في جنب مضطرب
علّامتا هذه الأزمان والحقب
تكفيك أدمعُها السقيا من السحب
بل كلُّ من ساد من صَيّابة العرب^١
بل قد رزأت صميم المجد والحسب
بل عمّ مبتعدًا من بعد مقترب
إلى الحجازِ إلى مصرٍ إلى حلب
حوادث الدهر فيه شرٌّ منقلب
فصار رأسًا وصار الرأسُ في الذنب
من كان يشرب رنقُ الماء بالعلب^٢

لمن تركت فنون العلم والأدب
نلك المدارس قد أوحشتها فغدت
ما إن تركت لها في العلم من وطَرٍ
إن «الألوسي» محمودًا عرثه لدنٌ
فاهتنز لابنُ أبٍ قبي قبره وغدا
بحرين في العلم عجّاجين قد ثويا
من فخر أزماننا في العلم أنهما
عليك «شكري» غدت شكرى مدامعنا
ما كنت فخر «الألوسيين» وحدهم
ولا رزأت النهى والعلم وحدهما
ولم يخصّ الأسي دارًا نُعيت بها
من العراق إلى نجدٍ إلى يمنٍ
لقد ترحلت في يوم بنا انقلبت
حتى تقدم ما في القوم من ذنبٍ
وبات يحسو الطلّا بالكأس من ذهبٍ

^١ صيابة القوم: لبابهم وخيارهم.

^٢ الطلا: الخمر. ورنق الماء: الماء الكدر.

من عاش فيه دعا بالويل والحرب
وتُطرب القوم فيه رنة الكذب
لم يلقَ منه سوى المسطور في الكتب
فيهم وهم بين نفاقٍ ومحتطب
لكن تُراوغ بين الجدِّ واللعب
تلقى القوارض فيها ذات مُصطخب
ما شدَّ منها بهم عن خُطة الأدب
كأنما الشتم مدعاة إلى الطرب
كما استلذ بحكَّ الجلد ذو جرب
كأنهم غيرُ مخلوقين من عصب
كأنما القوم منجورون من خشب
يذرْفَن منسكبًا في إثر منسكب
وأَي نفس لداعي الموت لم تُجب!
من فاته السيف منهم مات بالوصب
لكنهنَّ بلا نفع ولا لجب
فيه قضى ربنا للداء بالغلب
ينجون من عَطِبٍ إلا إلى عَطِبٍ^٣
من سدَّ كلَّ طريق عنه للهرب
دمُ الحياة بلا أمٍّ له وأب
ولا يُعيش بلا كَدٍّ ولا تعب
عن أن يُزجَّ بنا في قبضة الشجب^٤
لكل أمرٍ بها لا بد من سبب

فاذهب نجوتَ رعاك الله من زمن
تستثقل الصدق فيه أذن سامعه
والخير قد ضاع حتى إنَّ طالبه
أما الرِّجال فنارُ الشرِّ مُوقدة
أفعالهم لم تكن جدًّا ولا لعبًا
إذا جلست إليهم في مجالسهم
أرقى الصحائف فيما عندهم أدبا
قد يطربون لشمِّ المرء صاحبه
ويستلذون من قوم سبابهم
لا يغضبون لأمرٍ عمَّ باطله
وليس تندى من النكراء أوجههم
يا راحلاً ترك الآفاق سائلةً
أجبت داعيَ موتٍ حمٍّ عن قدر
والناس أسرى المنايا في حياتهم
هذي جيوش الردى في الناس زاحفة
بين الدواء وبين الداء معتركُ
والناس فيه عتاد للحمام فلا
وإن للموت أسبابًا يسببها
لا يخلق الله مخلوقًا يجول به
ولا يُميتُ بلا داء ولا سقم
وليس ذلك من عجز بخالقنا
لكنه جعل الدنيا مسببة

* * *

^٣ الحمام: الموت. والعطب: الهلاك.

^٤ الشجب: الهلاك.

يا من إذا ما ذكرناه نقوم له
لقد تركت يتيم العلم منتحبًا
إن كنت في هذه الدنيا لمنقطعًا
أعرضت عنها مُشيحًا غير ملتفت
أولعت بالعلم تنميه وتجمعه
فعشت دهرًا حليف العلم تنصره
على الأَخامِصِ أو نجثو على الركب^٥
والكُتُبِ راثيةً منه لمنتحب
إليه عن كل موروث ومكتسب
إلى المناصب فيها أو إلى الرتب
منذ الشباب وما أولعت بالنشب^٦
حتى قضيت فقيد العلم والأدب

^٥ الأَخامِص: جمع أخمص، وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

^٦ النشب: العقار أو المال الأصيل.

ذكرى الرجال من حياة الأُمم

أراد شبان فلسطين أن يقيموا حفلة تأبين لروحي بك الخالدي، وكان الرصافي إذ ذاك في القدس، فطلب إليه أحد أصدقائه، وهو عادل أفندي جابر، أن ينشدهم في الحفلة المذكورة ما يناسب المقام، فقال هذه القصيدة:

لعمرك لو كانت حديدًا جسومنا	لأبْلته من كَرِّ الليالي مَباردُ
فكيف وَلَسْنَا بالحديد وإنما	جوارحنا هذي الدماءُ الجواسد؟ ^١
إذا ما افتكرنا في الحياة وأصلها	وغايتها هانت علينا الشدائد
وماذا عسى يُجدي التوجُّع والأسى	من الموت إذ كُلُّ على الموت وارد
تُعِين منايانا علينا بحزننا	فيقرب من آجالنا المتباعدُ
وليس برزءٍ أن نرى المرءَ هالِكًا	إذا حييتُ بالذكر منه المحامد
بل الرزءُ كل الرزءِ أن يذهب الفتى	وليس له من بعده الدهرَ حامدُ
ويُدفن في التُّرْب اسمُه دَفَنَ جسمه	فلم يتفقده من الناس فاقد
ومن تَفَنَ بعد الموت آثار مجده	فآثار رُوحِي الخالديِّ حَوالد
فَتَى أغمدت منه المنون مَهْنَدًا	وأَيُّ حُسامٍ ما لَهُ الدهرُ غامد!
يُعدُّ بألفٍ من رجال زمانه	على أَنه في الألمعيَّةِ واحد
لقد بقيت للخالديين بعده	مناقب غُرِّ دونهن الفراقد ^٢

^١ الجواسد: الدماء اليابسة.

^٢ الفراقد: يقصد بها الفرقد، وهو نجم قريب من القطب يهتدى به.

وكم حَبِرت أعلامه من صحائفٍ
نماه إلى المجد الصراع متمِّماً
دعانا ابن جبرٍ أن نُلِمَّ بذكره
فقمنا لذكرى مجده بعد موته
ونستشهد الدنيا على حسناته
وإني وإن لم أحظَّ منه برؤيةٍ
ألا يا ابن جبرٍ أنت أيقظت للعلا
فقلت: اذكروا يا قومُ فضلَ رجالكم
وسيروا على آثارهم واهتفوا بها
ففي الغرب أمواتٌ أقيمت لذكرهم
أعادلُ قد أنهضت للعلم جُنُماً
أقيمت لذكرى الخالديِّ مَقامة
وجاهدت في إنهاض حيٍّ بميتٍ
ذكرتَ مزاياه وذكَّرتنا به
فسعيك مشكور ورأيك صائب

بجيد العلا من دُرَّهن قلائد
به فخره السيف الإلهيَّ خالد
لدى محفلٍ قد ضمنا وهو حاشد
نباهي به أحياءنا ونماجد
وقد كثرت فيها عليها الشواهد
ليشهد لي من «عادل» فيه شاهد
عواطف كانت وهي فينا رواقد
ففي ذكر فضل الغابرين فوائد
لينشطَ كسلانُ وينهض قاعد
تماثيل في كل البلاد أوابد^٣
فأنت لنا في نهضة العلم قائد
بها حسنت للقوم منك المقاصد
فجهدك في إنهاض قومك جاهد
وهل يذكر الأمجاد إلا الأماجد
وفعلك محمود وسيرك راشد

^٣ الأوابد: الغرائب التي لا مثيل لها.

ذكرى الشيخ الخالصي

أنشدتها في الحفلة التأسيسية التي أقامها نادي الإصلاح في بغداد عند منعى الشيخ محمد مهدي الخالصي، أحد علماء الجعفرية بعدما أخرجته الحكومة العراقية إلى إيران.

من قديم وطاف يسقي أناسه^١
جعل الله عمره أنفاسه
نت لعمري خلافة حسّاسه!
قد أطالت بها على الحيّ باسه
وهو مستثمر بها أغراسه
س مُمداً بفضلّه إيناسه
هُ فقدنا به النُّهى والكياسه
فاس حزناً مضرّجاً بحماسه
حين أجرى إلى الهدى أفراسه
ع مقيماً دليلاً وقياسه
عمر فيه رعاية وحراسه
عندما أطفأ الردى نبراسه
فلأن كان ركنه وأساسه

أدهق الدهر بالمنية كاسه
كيف يُرجى طول البقاء لحيّ
تَعست هذه الحياة وإن كا
قَصَرَتْها يدُ الحوادث لكن
غير أن السعيد من بانَ عنها
والذي عاش مؤنسًا وحشة النا
مثل ذاك الشيخ الذي مَذُ فقدنا
نُعِي الخالصي فارتجت الأنف
هو ذاك «المهدي» أحرز سَبَقًا
هو ذاك الحَبْرُ الذي كان للشر
كان في الدين آية الله أفنى الـ
أفق العلم قد بدا مكفهرًا
إن بكاه الدين الحنيفي شجواً

^١ أدهق الكأس: أي ملأها.

كان رذءاً للحق مرتدي التقى حوى فكانت طول الحياة لباسه^٢
ولقد كان في العلوم إماماً حيث فيها انتهت إليه الرياسة

* * *

أنا أبكي عليه من جهة العلـ لم وأغضي عن خوضه في السياسة
لا لأنني أراه فيها ملوماً بل لأنني أعيب فعل الساسة
ليس في هذه الهنات السياسيـ ات إلا ما ينجلي عن خساسة
قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشاشة الدساسة
رأيت أن تصافح الناس إلا بيد من خديعة فرأسه
كلما مسّت الأمور بكفٍّ لوثتها بما بها من نجاسة
إنّ في هذه السياسة سهمًا جعل الله باطلاً قرطاسه
ما تعاطى غير الخداع «غلايسـ» تون» فيها كلّاً، ولا «دلكاسه»
إن أحسّت بقوة من خصيم كانت الطبي لم يُزائل كِناسه^٣
وهي إن آنست من الخصم ضعفاً كانت الليث مبرزاً أضراسه
لو أردنا إفاضة في هجاها لكتبنا لكم به كرأسه
فلهذا أجلّ عنها رجالاً شغلتهم علومهم بالدراسة

* * *

رحم الله شيخنا إنه كا ن بعيداً عما تريد السياسة
ليت تلك العلوم قد شغلته عن أمور لا تُشترى بنحاسه
أنتجت بعده فأوحش أرضاً في العراقيين عودت إيناسه
فقضى بعد نأيه عن أناس طلبوا علمه وراموا اقتباسه

* * *

أيها القوم إن هذا لرأيي في فقيدي لم تشهدوا إرماسه^٤

^٢ الرء: المناصر والعون.

^٣ الخصيم: الخصم. وكناس الطبي: بيته في أصل شجرة ونحوها.

^٤ الإرماس: الدفن.

فإنبذوا ما أقوله في الكناسه	فإذا كنت قد أصبت وإلا
ظ جُزأفا لكي يصيب جناسه	لست بالشاعر الذي يرسل اللف
ما جرى في سهولة وسلاسه	أنا لا أبتغي من اللفظ إلا
واضح يأمن اللبيب التباسه	إنما غايتي من الشعر معنًى

على ضريح النائب

هي دنيا بقاؤها مستحيلٌ
ليس يُغني فيها عن المرء شيئاً
إنما الراحة المُرجاة فيها
كل شيء في أهلها مستعار
ليس ما قد جنى علينا بها إلا
رتلت ألسن اللذائذ أي الـ
فرجونا طول البقاء وإن كُنـ
وطلبنا تعلّةً لنفوسٍ
قد قتلت الحياة خُبراً ولكن
كل ما قيل في الحياة ظنونٌ
قد وهمنا في البدء منها وأما
إن يك العقل في دجى الشك نجماً
ويك إنَّ المعقول ما صحَّ عندي
كلنا خابطون في ظلماتٍ

فَلْيَقِفْ عند حدّه التأميل
شرف باذخ ومجد أثيل
تعبٌ والهدى بها تضليل
من سواه وكل حالٍ تحول
قار أدهى مما جنى التمويل¹
عيش فيها فغرنا الترتيل
أعلمنا بأننا سنزول
ليس يُشفي غليلها التعليل
أنا منها بحيرتي مقتول
جرّها في افتكارنا التخييل
منتهاها فستره مسدول
فخفيّ مثل السها وضيئل²
فمتى صح عندك المنقول
حائر بائر بهن الدليل

¹ التمويل: الغنى.

² السها: كوكب خفي من بنات نعل الصغرى.

إِنَّ حَبَّ الْحَيَاةِ أَوْهَمَ أَنَّ الـ
 إِنَّمَا هَذِهِ الْجِسْمُ مَبَانٍ
 نَزَلَتْهَا الْأَرْوَاحُ حِينًا فَأُضْحَتْ
 ثُمَّ لَا بَدَّ أَنْ تَرْحَلَ عَنْهَا
 إِنَّمَا هَذِهِ الْجِسْمُ رَسُومٌ
 مَا يَسْقُطُ اللَّوَى مَثْنً وَلَكِنْ
 لَيْسَ يُسْلَى الْفَتَى عَنِ الْمَوْتِ إِلَّا
 مِثْلَمَا مَاتَ شَيْخُنَا «النَّائِبُ» الْحَبُّ
 إِنَّ «عَبْدَ الْوَهَابِ» عَاشَ جَلِيلُ الـ
 وَقَضَى عَادِمَ الْمَثِيلِ فَأَمْسَى
 حَادِثٌ أَظْلَمَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَاسْتَوَى
 إِنَّ أَسِينَا أَسَى عَلَيْهِ كَثِيرًا
 كَانَ فَحْلُ الْفَحُولِ عِلْمًا وَفَضْلًا
 كَيْفَ لَا تَجْزَعُ الْعُلُومُ لِمَنْعَى
 قَدْ بَكَتْهُ مَدَارِسُ عَامِرَاتِ
 وَبَكَاهُ الْكِتَابُ ذُو الذِّكْرِ شَجْوًا
 وَبَكَتْهُ آيٌ بِهِ مُحْكَمَاتِ
 وَبَكَتْهُ أَرَامِلٌ وَيَتَامَى
 إِنَّ يَكُنْ أَغْمَدُ الرَّدَى مِنْهُ فِي الْقَبْرِ
 أَوْ رَمَى حِدَّةَ الرَّدَى بِفُلُولِ
 أَوْ خَلَّتْ مِنْهُ دُورُهُ مَوْحِشَاتِ

مَمُوتٌ نَوْمٌ تَحْتَ الثَّرَى لَا يَطُولُ
 قَدْ بَنَاهَا مِنَ الزَّمَانِ عَمُولُ^٣
 عَامِرَاتِ مَا دَامَ فِيهَا النُّزُولُ
 فَيَسْمَى بِالْمَوْتِ ذَاكَ الرَّحِيلُ
 مُوَحِشَاتِ بَعْدَ الرَّدَى وَطُلُولُ
 بِسُقُوطِ الْبِلَى لَهْنٌ مُثُولُ^٤
 خَلْفُ صَالِحٍ وَذَكَرُ جَمِيلِ
 رُفْسَالَتِ مِنَ الدَّمُوعِ سَيُولُ
 قَدَرُ قَرَدًا وَمَاتَ وَهُوَ جَلِيلُ
 مَا لِمَنْعَاهُ فِي الْخُطُوبِ مَثِيلُ
 حَشْ مِنْهَا حُزُونُهَا وَالسَّهُولُ^٥
 فَكَثِيرُ الْأَسَى عَلَيْهِ قَلِيلُ
 فَلِهَذَا بَكَتْ عَلَيْهِ الْفَحُولُ
 رَجُلٌ بَاعُهُ بِهِنٌ طَوِيلُ
 هُوَ فِيهَا الْمَدْرَسُ الْمُسْتَوِيلُ
 وَعِلُومٌ إِلَى الْكِتَابِ تَتَوِيلُ
 وَبَكَاهُ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ
 جُدَّ عَنْهَا بِمَوْتِهِ التَّنْوِيلُ
 رُحُسَامًا فَذَكَرَهُ مَسْلُولُ
 فَمَعَالِيهِ مَا بِهِنٌ فَلُولُ^٦
 فَذَرَاهَا بِفَضْلِهِ مَأْهُولُ^٧

^٣ العمول: المطبوع على العمل.

^٤ سقط اللوى: موضع، ويشير هنا إلى بيت امرئ القيس الذي ذكر فيه هذا الموضع.

^٥ الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع.

^٦ الفلول: جمع فل، وهو الثلثة في الحد.

^٧ يقال: فلان في ذرا فلان؛ أي في ظله.

كيف لا؟! هؤلاء أبناؤه الغرُّ
كلهم في العلاء مثل أبيه
هل تطيب الفروع في الناس إلا
عذرة يا أبا الحسين بماذا
وإذا طاشت الحلوم بيوم
أُخرسَ الشعْرُ يوم منعك لكن
وإذا أسكت المقاويلَ حزنٌ
فصلتك المنون عنا ولكن
لك في العلم رتبةٌ لن تُسامى
ومحيًّا صُلْتُ الجبين طليق
ويدُّ يجمع الشفاهَ عليها
إنما قد ذكرت بعض مزا
وإذا القول لم يفده اختصار

شهودٌ بما أقول عُدول
حسن الخلق فاضل بُهلول^٨
حيث طابت فيهم لهن أصول
نَصَفُ الرُّزءِ وهو رزء جليل
فيه فارقتنا فماذا نقول؟
ناب عنه تأوُّه وعويل
ترجمت عنهم دموع تسيل
أنت بالحمد والثنا موصول
فاضل القوم عندها مفضول
يتللا كأنه قنديل
كلما قد مددتها التقبيل
ياك وإلا فشرحهن يطول
لم يفده الإطناب والتفصيل

^٨ البهلول: السيد الجامع لكل خير.

دموع الصداقة

أنشدت في المأتم الذي أقيم في بغداد للمرحوم عبد المجيد بك الشاوي.

عبدُ المجيد قضى فَوْاً أَسْفاً	ماذا يُفِيدُ تَأْسُفي جَزَعاً؟!
قم وَيَكْ نَبِكَ المَجْدَ والشرفا	وَنُعَزُّ طَرْفَ العين ما دمعاً
فلقد فقدنا سيِّدَ الظَرْفا	وأَجَلَّ سَاعٍ للعلاء سعى
لم يتخذَ غيرَ العلا هَدَفاً	عن قوسِ هِمته إذا نَزَعاً ^١
خبر طويْتُ حشاي مرتجفاً	من هوله وسقطت مُنصِدياً
ألقي بوجه حياتِنَا كلفاً	أو عاد لون العيش ممتقعا ^٢
فالدمع من عيني إذا وَكَّفا	جَلَلٌ وإن أرسلته دفعا ^٣
صاحبت منه أختا نَهَى ووفاً	يزهو النديُّ به إذا اجتمعا
فسمعتُ من أقواله طَرْفاً	ورأيتُ من أفعاله بَدْعاً
ساء المكارمَ كونه رِنفاً	يشكو إلى عَوَّاده الوجعا
الداء أذهب نفسه تَلْفاً	بُذِلَ الدواء له فما نجعا
بيروت منه أحرزت شرفاً	لَمَّا غدت لِعلاه مُضطجعاً

^١ نزع: رمى بالسهم.

^٢ الكلف: جمع كلفة، وهي اغترار لون الوجه.

^٣ وكف الدمع: سال قليلاً قليلاً.

لكنما قلب العراق هفا حزناً عليه إذ به فُجعا
وكفى بسعدون له خلفا لفعاله في المجد مُتبعاً
يمشي على آثاره الخطفى ويقوم بالأعباء مضطلعا

* * *

«عبدُ المجيد» قضى فوا حرباً ماذا يرد إليّ وا حربي؟!
إن الرزايا قد قضت عجباً مما رُزئنا من ذوي الحسبِ
رزءٌ أثار الحزن ملتهباً في كل قلب أي ملتهب
وأسال غرب الدمع منسكباً من كل عين إثر منسكب
وأمرٌ حلو العيش فانقلباً بمحاوليه شر منقلب
فبكاه من بغداد مُنتحباً في جانبيها كل ذي أدب
يا راحلاً بالداء مغترباً يبغي الشفاء له من الوصب
أوتيت فضلاً في النهى عجباً يأتي من الآراء بالعجب
كم كنت تكشف فيه محتجباً وتنال أقصى الأمر من كُثب
فبنيت مجداً منك مكتسباً من بعد آخر غير مكتسب
وبك العروبة قد زهت نسباً يُزهي بغبطة كل ذي نسب
قد كنت من عربيّة عصباً والحسُّ مصدره من العصب
إنا فقدنا الظرف والأدباً وفقدت يا سعدون خير أب
يا أكرم المتهذبين أبا صبراً لفقدك أكرم العرب
إذ كنت أنت لمثله عَقباً أكرمُ بمثلِكَ أنت من عَقب

هلم نبك

فقد قضى مَنْ بهذا كان مُتَّصِفَا
كمثل قطر الغواذي رِقَّةً وَصفا
بالخير إلا رآه فوق ما وصفا
فَتَّتْ مصيبتهم أكبادنا أسفا
بدر التَّمَامِ بأعلى أفقهم خُسفا
كالرمح دُق على الصفواء فانقصفا^١
لَمَّا رآوه مجدًّا يطلب الترفا
قد سال فاكتسح الآمال واجترفا
ومدَّوا من دواهيهم له كِفَفًا^٢
وكان يبني له من سعيه رَصفا
إذ عطل الموت منه الكف والكتفا
بأنَّهم قد أصابوا المجد والشرفا
كمغرق اليمِّ بعد الانتفاخ طفا
لكان أسقط منها فوقهم كِسفا

هلمَّ نبكِ النُّهى والعلم والشرفا
هلمَّ نبكِ الذي كانت شمائله
هلمَّ نبكِ الذي لم يغُلْ واصفه
عطا الخطيبَ الذي آلَ الخطيب به
نبكي لمَبْكَاهُمْ حزنًا بحيث نرى
قد فاجأته المنايا وهو معتدل
قامت بحسَّاده الأطماع هائجة
فعارضوه بسيل من مكايدهم
وعرقلوا بدعاويهم مساعيهُ
فظلَّ يرسُف في مسعاه مرتطمًا
حتى قضى راسبًا في مكرهم غرقًا
وبعدما قتلوه هكذا علموا
والمرء تظهر بعد الموت قيمته
لو عَجَّلَ الله للحسَّاد لعنته

^١ الصفواء: الحجر الصلد الضخم.

^٢ الكفف: جمع كفة، وهي حباله الصائد وشبكته.

لكن يؤخّرها عنهم إلى أجلٍ
هم جاوزوا العدل والإنصاف في رجل
فتّى رزئناه بالأخطار مضطّلعاً
لمّا رمى عن قسيّ الرأي مجتهداً
ما شبّ إلا على التّقوى وكان له
مذهب الطبع عفّ النفس ذو خلق
إذا تصوّرت في يوم خلّاقه
وإن نظرت بإمعانٍ مساعيّه
بيناه يدرك من دنياه زهرتها
أعظم به طودَ مجدٍ طال طائله
قد شرّفت بقعة الجيليّ حفرته
يُخزي به كل من قد جار واعتسفا
ما كان قطّ عن الإنصاف منحرفاً
بالمجد مشتملاً بالفضل ملتحفاً
لم يتخذ غير أسباب العلا هدفاً
قلب سليم بحب الخير قد شغفاً
قد شابه الورد مشموماً ومقتطفاً
فقد تصوّرت منها روضةً أنفاً^٣
فقد نظرت بعيني رأسك الشرفاً
إن جاءه الموت يمشي نحوه الخطفَى^٤
فكيف في ساعة بالموت قد نسفاً!
كما ضريح عليّ شرف النّجفاً

^٣ الروضة الأنف: الجديدة النبات لم يرعها أحد.

^٤ الخطفَى: مشية سريعة.

دمعة على صديق

قالها في رثاء صديقه الحميم عبد الوهاب المحمد أغا.

فَلِلَّهِ مِنْ ماضٍ إِلَى رَبِّهِ حُرٌّ
له عندنا آثار أخلاقه الغُرُّ
نديم له ذكراه بالحمد والشكر
نبجله في السر منا وفي الجهر
فأمسى الأسى فينا له مالى الصدر
فننشق من تذكراها أطيب النشر
ونفزع من بعد البكاء إلى الصبر
وإن كان منك الشخص غيب في القبر
تحدثنا عمّا أهمّ من الأمر
إلى الجدّ تُغري بالحقيقة مَنْ تغري
فتطرب من ذكر الحقيقة في شعري
بذكراك بعد الطيّ متصل النشر
مدى العمر نصب العين في سانح الفكر
فلا فرق عندي بين شخصك والذكر
وأنظم شعري في رثائك من درّ
وإن كان لا يُقضى بنظم ولا نثر

مضى عبدٌ وهَّابِ الهبات لربِّه
مضى وهو محمود الخصال مخلِّقاً
مضى وله في كل قلب مكانةٌ
كذلك كنا معه قبل وفاته
وما زادنا إلا أسى بفراقه
إذا ما ذكرناه تفوح خلّاه
ونلجأ عند الإدّكار إلى البكا
أخا سالم ما زلت عنديّ سالمًا
تمثّلك الذكرى لعينيّ جالسًا
وتمزح طورًا ثم تنصاع ذاهبًا
فتغضب أحيانًا وتطرب تارة
طواك الردى عني وشخصك لم يزل
فما أنت ميثًا إذ خيالك سانح
ولا عجب، إن الحياة خيالة
سأنثر دمعِي فيك نثر لآلي
لعلّي بذا أقضي إخاءك حقه

ميتة البطل الأكبر

أنشدت في دار المرحوم عبد المحسن بك السعدون في اليوم الثالث من انتحاره.

هكذا يُدرَك في الدنيا الكمالُ	هكذا في موتها تحيا الرجالُ
هكذا يشرف موت المبتغي	شرفاً ليس إذا ريم ينال
من كعبد المحسن الشهم الذي	حفه بالموت عزٌّ وجلال؟!
ما بعبد المحسن السعدون إذ	رام قتلَ النفسَ مَسُّ أو خبال
بل رأى أوطانه يُرهقها	من بني الغرب انتدابٌ واحتلال
فانتضى الهمة كي ينقذها	كانتضاء السيف ما فيه كلال
مارس الأحوال حتى إنه	شاب في إصلاحها منه القَذال ^١
أعمل الرأي وقد جادله	فيه بعض القوم واشتد الجدل
خذلوه فاغتدت آراؤه	كسهام كسرت منها النصال
كم غدا ينصحهم حتى إذا	راء أن الداء في القوم عُضال ^٢
ورأى أن الذي يرجوه من	طلب استقلالهم شيء محال
جاد للأوطان منه بدمٍ	لسوى أوطانه ليس يُسال
والفتى الحر له في موته	سَعَةٌ إن ضاق بالنفس المجال

^١ القَذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

^٢ راء: رأى.

إنه لما أرادت نفسه
ميتة الأبطال فيها شمم
نال بالموت حياة ما لها
هو حيُّ أبد الدهر فما
إن يكن قد زایل القوم فما
أو يكن عن أعين القوم اختفى
وإذا التاريخ أجرى ذكره
فاندبوا يا قوم منه بطلاً
وأقيموا عاليًا تمثاله
واقصدوا مرقده حَجًّا فلا
واتركوا الغرب وأهليه ولا
وعلى أنفسكم فاتكلوا
فالمواعيد التي قد وعدوا
كلما قال لنا ساستهم
هكذا كونوا وإلا فاعلموا

ميتة حمراء ما فيها اعتدال
طأطأت من دونه الشم الجبال
أبد الدهر فناء وزوال
ضره من هذه الدنيا انتقال
لمساعيه عن القوم زيال
فله في أنفس القوم خيال
أخذ التاريخ بالفخر اختيال
هو للأبطال حُسن وجمال
فهو للأوطان عز وجلال
غرو إن شدت لمتواه الرجال
تسمعوا منهم إلى ما قد يقال
خاب من فيه على الغير اتكال
كلها منهم خداع واحتيال
نقضت أقوالهم منهم فعال
أنما استقلالكم شيء محال

منظر الرافدين

شب الأسى في قلوب الشعب مُستعرا
يوم به كل عين غير مبصرة
يوم به البرق رجَّ الرافدين أسى
فلو ترى القوم قاموا في ضفافهما
خلت العراقين خدي ثاكل وهما

يوم ابنُ سعدون عبد المحسن انتحرا
إذ كان إنسانها في الدمع منغمر
غداة أدَّى إلى أقصاهما الخبرا
واستنزفوا من شئون الدمع ما غُزرا
سَطران للدمع في الخدين قد سَطرا

الشعر والدمع

لِلَّهِ يوم فقدنا فيه مُضْطَلَعًا
يوم قد انهلَّ فيه الشعر منتظمًا
فبالدموع بكت في يومه شَيْعُ
فالشعر قد قَرَّطَ الأسماع مندَفِقًا
والدمع والشعر ممَّن قد بكى بهما
كلاهما انسجما حتى كأنهما
فالشعر من هذه الأكباد بلَّ صدى
بالأمر يُمعن في تدبيره النظرا
كما قد انهلَّ فيه الدمع منتثرًا
وبالقوافي بكت في يومه الشعرا
والدمع قد قَرَّحَ الأجفان منحدرًا
كلاهما حَكِيا في يومه الدرا
تسابقا في انسجام عندما انهما
والدمع من هذه الأوطان بلَّ ثرى

أبو علي وعزائمه

أبو علي قويُّ في عزائمه
أخلاقه كالخضمِّ الرهو تحسبه
إذا أتاه شكِّي القوم قابله
ويهزم الجمع مجتثًا مكايده
لما رأى الوطن المحبوب محتِمَلًا
سعى لإنقاذه بالرأي مجتهدًا
كم بات سهران في تحقيق مُنيته
وكم سعى راجيًا تخليص موطنه
حتى إذا لم يجدْ للأمر مَتَسَعًا
أرْمَى مسدسه في صدره بيد
فيا لها رمية حمراء دامية
قد كان يحيا حياة غير خالدة

لو رام بالعزم دحرَ الجيش لاندحرا
سهلًا ولكنه صعب إذا زخرا^٣
بكالنسيم جرى في روضة عطرا^٤
بكالعواصف هبَّت تقلع الشجرا
من الأجانب ما قد عمه ضررا
بالعزم متشحًا بالحزم مؤتزرا
وفي الأمانِي ما يستوجب السهرا
والشعب كان لما يرجوه منتظرا
ولم يجد عن بلوغ العز مُصْطَبِرا
لا تعرف الضعف في المرمى ولا الخورا
قد مات منها ولكن بعدها نُشْرا
واليوم يحيا حياة تملأ العُصْرا

^٣ الخضم: البحر العظيم. والرهو: البحر الساكن.

^٤ الشكي: المشتكي.

لو نَقْتَرِي صحفَ التاريخ نَسألُها
لما رأينا كبيرًا مات ميتته
ما كان أشرفها من ميتة تركت
كنّا نقاسي ضللاً قبلها فإذا
عمن يساويه في الدهر الذي غبرا^٥
ولا وجدنا وزيرًا مثله انتحرا
في نفس كل فتى من غبطة أثرا
بها الطريق إلى استقلالنا ظهرا

يا أهل لندن

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم
إن انتدابكم في قلب موطننا
وللمشورة في أوطاننا شبح
يجول في طرقات البغي محتقبًا
لم يكفه أنه للحكم مغتصب
إذا رأى نهضة للمجد أقعدها
فكم ضغائن بين القوم أوجدها
في كل يوم لنا معكم معاهدة
جفت بها سرحة استقلالنا عطشًا
تقسو قلوبكم لما نفاوضكم
أما مواعيدكم فهي التي انكشفت
لا تفخروا أن كسرتم غرب شوكتنا
لا تستهينوا بنا من ضعف قوتنا
هذي البلاد اغرسوا فيها مودتكم

أهل العراقيين لا بدؤوا ولا حَضرا
جُرح نداويه لكن لم يزل غبرا^٦
تخيف صورته الأشباح والصورا
للغش خلف ستار النصح مستترا
حتى غدا يقتل الآراء والفكرا
وإن رأى فتنة مشبوبة نعرًا
وكم بذور من التفريق قد بذرا!
نزداد منها على أوطاننا خطرا
حتى إذا ما مَسْنَا عودها انكسرا^٧
كأنما نحن منكم ننقرُ الحجرا
عن مَيْنَ مَنْ مانَ أو عن غدر مَنْ غَدرا^٨
لا فخر للصقر في أن يقتل النغرا^٩
فكم ذبابة غابِ أزعجت نَمرا!
ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرا

^٥ اقترى: تتبع واستقصى.

^٦ الجرح الغبر: الذي اندمل على فساد ثم انتقض.

^٧ السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك بها.

^٨ المين: الكذب.

^٩ الغرب: الحدة. والنغر: البلبل أو فرخ العصفير.

نكن لكم جلفَ صدقٍ في سياستكم
لسنا بقومٍ إذا ما عاهدوا نكثوا
ولا نحالف أحلافًا فنخذلهم
فنحن أوفى الورى بالعهد شنشنة^{١٠}
نمشي إلى الموت من جرائكم زُمرًا
ولو جرى الدم حتى أشبه النهرًا
ولو لبسنا المنايا دونهم أزرًا
ونحن أرفعهم في المكرمات ذُرًا^{١١}

سعد وسعدون

سعد وسعدون محمودٌ مقامها
كلاهما قد فدَى بالنفس أُمته
فكان بينهما بونٌ وإن غدوا
فإن سعدون دانى الشمس منزلة
هذا هنا قد سعى للمجد مُبتدِرًا
يا أهل مصر وأنتم مثلنا عرب
إن كان قد أرخص الأموال سعدكم
هذا بمصر وهذا ها هنا اشتها
لكنَّ سعدون لا سعدًا قد انتحرا
في الشرق أعظم مذكورين ما ذكرا
وإن سعدًا بمصرٍ قارن القمرًا
وذا هناك سعى للمجد مقتدرا
ما قلتُم عندما أعلمتم الخبرا؟!
فإن سعدوننا قد أرخص العُمرًا

أيها البطل

نم أيها البطل الفادي بمهجته
نم نومة تجعل التاريخ محتفياً
فليعتبر بك هذا الشعب مفتدياً
فسوف تحمدك الأوطان شاكرةً
أيتركون الذي قد كنت تطلبه
فالشعب منهم مريدٌ ما أردت له
يا من له ميته بكر معظمة
أوطانه نومةً تستيقظ العبرا
بها لنهضة أهل الشرق مدكرا
إن كان شعبك بعد اليوم معتبرا
ماذا ستفعله من بعدك الوُزرا؟
أم هم سيقضون من مطلوبك الوطرا؟
وليس يقبل عذراً ممن اعتذرا
لا غرو أن قلتُ فيك الشعر مبتكرا

^{١٠} الشنشنة: الخلق والطبيعة. والذرا: جمع ذروة، وهي القمة.

ذكرى فتى السعدون

إذا ما الفتى في دهره أحسن الظنًا
فما أدرك المَغزَى ولا فهم المعنى
وما الحزم إلا أن نرى الدهر هاجمًا
فنبني من تدبيرنا دونه حصنا
وما الدهر إلا مُبهرٌ في طباعه
يغرّر بالآقوام يفتنهم فتنا^١
يروع بنيه صائلًا بنباته
فقد ضلَّ مَنْ من دهره يطلب الأمانا^٢
يذفُّ عليهم بالظبا من خطوبه
فكم جدعت أنفًا وكم صلمت أذنا!^٣
وما شُهبه إلا مخالب كيده
تُمدُّ بجوف الليل داميةً حجنا^٤

^١ المبهر: اسم فاعل من أبهر؛ إذا جاء بالعجب.

^٢ بنات الدهر: حوادثه.

^٣ ذف عليه: أجهز عليه. والظبا: جمع ظبة، وهي حد السيف أو سنانه.

^٤ الحجنا: العوجاء، جمعها: حجن.

إذا ما تشمَّمت الزمان وطبعه
تشمَّمت من أعماق طينته نتنا

* * *

إليك فتى السعدون جيئُ مهنئًا
بما نلَّته عند الإله من الحسنى
إذا ما زممنا الدهر يومًا وأهله
فإنك من تلك المذمَّات مُستثنى
أتى يومُك الدامي بذكراك حافلًا
فجدد في كل البلاد لنا حُزنا
ففي مثل هذا اليوم بتَّ مضرِّجًا
وبتنا نحاكي في مدامعنا المزنا
وفي مثل هذا اليوم في حفرة البلى
جعلنا بك الآمال مدفونة هنا
عشية أطلقت المسدس ناره
على قلبك الخفاق من يدك اليمنى
فلله نارٌ قد بردت بحرَّها
وإن سال منها دمعنا بالجوى سُخنا
لئن أفقدت بالموت قلبك نبضه
فكم أنبضت بالحزن أفئدة منا
وكم أنطقت دمع المحاجرِ بالأسى
على أنها بالهول أخرست اللسنا
فيا طليقة ريع العراق بصوتها
فبانَّت به الآفاق عابسة دُكنا
وردد مجرى الرافدين لصوتها
صدى الحزن من أقصى العراق إلى الأدنى
لقد جمع الأموال باسمك معشر
لتخليدهم ذكراك في معهد يُبنى

وما علموا أن المباني كلها
وإن قويت تفنى وذكرك لا يفنى
وأعظم تخليدًا لذكراك منهم
فعائلُك الغراء والخلق الأسنى
سعت إلى استقلال قومك مخلصًا
وما كنت في يوم على القوم ممتنا
وقمت بأعباء السياسة ناهضًا
بهمة لا وإن ولا ناكص جبنا
وأبديت في تلك المواقف كلها
أصالة رأيٍ قط لم يعرف الأفتاء^٥
فإن كنت لم تنجح فليس لعل
سوى أن خصم القوم في كيده افتنا

* * *

زكت لك نفس بين جنبيك حرة
فلا أظهرت كبرًا ولا أضمرت ضغنا
لنا المثل الأعلى بحلمك والندى
فكم بهما أثنى عليك الذي أثنى
فأحنف ربَّ الحلم بالحلم فقتَه
وفي الجود قد فتَّ ابنَ زائدة مَعْنًا
ألسن الذي قد رام قتلك قاتل
فأطلقته عفواً وأوسعته مَنًا
سيبقى على الأيام ذكرك خالدًا
به صحف التاريخ قاطبة تُعنى

* * *

^٥ الأفتن: ضعف الرأي.

فيا بطلًا بالنفس ضحَى وإنما
بِذَلِكَ لاسْتِقْلَالِنَا سُنَّةً سَنَّا
فَعَلَّمَنَا أَنَّ التَّفَادِيَّ وَاجِبٌ
على كل قوم حاولوا شرف المَغْنَى
سنسعى إلى ما قد سعت من العلا
بصادق عزم ينكر الضعف والوهنا
وإنَّا لقومٌ مستقلُّونَ فِطْرَةً
إذا أنكر استقلالنا منكرُ ثرنا
فلو جُعِلَتْ تَبْرًا سَبِيغًا بيوتنا
ولسنا بحكام أبينا بها السُّكْنَى
يهون علينا في السياسة أننا
نصلِّب في الأعواد أو ندخل السجنا
ولسنا نبالي دون إحياءِ مجدنا
أعشنا على وجه البسيطة أم مُتْنَا
إذا أدرك المجدَ المؤثِّلَ معشرُ
أَحَادَ، فإنَّا نحن ندركه مَثْنَى
نفوسًا ورثناها كبارًا أبية
أبت في الدنا أن تحمل الضيم والغَبْنَا

ابن جبران

على الربا الخضر من جنّات لبنان؟
بالحسن يصبو إليه كل إنسان
والشمسُ تعنو لوجهٍ منه نوراني
يفترُّ عن عَقْدِ دُرٍّ وسط مرجان
أو انثنى ينثني من عطفِ نشوان
من صِبْغَةِ المجد قد زينت بألوان
والدر منتثرًا في الجانب الثاني
جادت بها ريشة في كفِّ فنان
كما تفاوح أزهار ببستان
أن الغرام الذي يُخفيه رُوحاني
توحي إلى كل قلب وحي أحزان
تهفو بأفئدةٍ منا وآذان
نهتزُ منهنَّ أرواح بأبدان
بغير وزن وأحيانا بميزان
بروعة الحزن أشجاني فأبكاني
مستعبرين وكلُّ نحوه ران^١

مَنْ سامع قصة لي كنتُ شاهدها
فقد رأيتُ غلامًا صيغَ منفردًا
البدرُ يبدو حقييرًا عند طلوعته
في عينه حَوْرٌ في ثغره شنبُ
إذا رَنا ناظرًا يرنو بساحرة
عليه ثوب بديع النسج طُرتَه
في جانبٍ منه تلقى الدرَّ منتظمًا
وللعواطف في أثناؤه صور
تفاوح الطيبُ من أردانه عبْقًا
تستخلص النفسُ من فحوى ملامحه
أبصرته واقفًا يبكي وأدمعه
يبكي وألحانُ موسيقاه مُشجية
يبكي وأنغامُ موسيقاه مطربة
يبكي فيرفضُ عقد الدمع منتثرًا
لما أراني جلالَ الحسن ممتزجًا
فقمّت بين أناسٍ حوله وقفوا

^١ المستعبر: الباكي.

وكلهم وقفوا مستسلمين إلى	تنهّدتِ وأهاتِ وإرنان
حتى سألت عن الباكي وقصته	فقيل: هذا هو الشعر ابنُ جبران
أبوه جبران أفناه الردى فغدا	من بعده رهنَ يُتمّ حلفَ أشجان
فقلت: لم يفنَ جبران بميتته	من خلفَ ابنًا كهذا ليس بالفاني
بل أصبحت بابنه ذكراه خالدة	ما دام لبنان مأهولاً بإنسان
إني أرى روحَ جبرانٍ مُرفرفةً	على الربا الخضر من جناتِ لبنان

جبر ضومط

وليس لكسر الموت في طبنا جبر
لغُرّ المساعي كان في عيشه نشر
تبسّم فيها العلم والفضل والفخر
يطيب له مدّ الزمان بها ذكر
وآثاره في نشر آدابها غُرّ
ولكن له الإبداع والفكرة البكر
ولكنه في العلم كان له فكر
كما شقَّ بُرد الليل مذ طلع الفجر
تلاميذه من بعده فهم كُثر
ومَن لفظه درٌّ ومَن علمه بحر
يضيء به للعلم في أفقها بدر
ويرثيه من أبنائها النظم والنثر
وأفجعها أن يُفقد العالم الحَبْر
يمثلها في كل يوم لنا الدهر
ممثلة ما كان آخرها القبر

بكى الفضلُ لَمَّا أن قضى نحبه جبرُ
طوى الموت من جبر بن ضومط فاضلاً
مضى بعدما أمضى حياة سعيدة
وخلف آثاراً خوالدَ بعده
على اللغة الفصحى أياديه جمّة
وما كان يبدي الرأي فيها مُقلداً
وما كان في استقرائه العلم جامداً
يشقُّ حجاب المشكلات برأيه
ومن شكَّ فلينظر بكل مدينة
ليبصر منهم مَن حِجَاه مثقف
رزئناه في كلية العلم هادياً
سيبكيه في كلية العلم منبرُ
فواجعنا في ذي الحياة كثيرة
ألا إنما هذي الحياة رواية
ولو لم تكن للفاجعات فصولها

أبو الملوك

بدا وجه العروبة في حُلوكِ
قضى متنازلاً بعد اعتلاءِ
قضى في المجد ليس بذي نظير
مليكٌ واصل الإقدام حتى
لقد سلك الطريق إلى المعالي
وجدد للعروبة غرس مجدٍ
وأحدث نهضة في العرب هزّت
وأثبت بالسيوف لهم حقوقاً
ولكن غشّه الحلفاء حتى
وخانوا لم يفوا بعد انتصار
خطبنا ودّهم فتقبّلونا
غداة قضى الحسين أبو الملوك
كذاك الشمس تجنح للدلوك^١
وفي العزّات ليس بذي شريك
أتاه بهلكه يوم الهلوك
إلى أن مات محمود السلوك
قديمٍ كان كالعِذق التريك^٢
جنوب الأرض كالريح السّهوك^٣
مؤيدة بكل دم سفيك
أتوه من الثعالب في مسوك^٤
بما كتبوه في بطن الصكوك
بعاطفةٍ كعاطفة الفُروك^٥

^١ الدلوك: الغروب.

^٢ العِذق: عنقود العنب، أو ما يشبهه من النخلة. والتريك: المتروك؛ أي الذي أكل كل ما عليه أو بقي فيه شيء قليل.

^٣ الريح السّهوك: العاصفة الشديدة.

^٤ المسوك: جمع مسك بفتح الميم، وهو الجلد.

^٥ الفروك: المبغضة للناس عامة، أو التي تبغض زوجها.

وكم وعدوا بني قحطان وعدًا
لقد ستروا شنيع الغدر منهم
فساستهم إذا وقعوا بضنك
وأبدوا في الرخاء لنا عبوسًا
ونحنُ العُزْبُ نأبى غيرَ عزٍّ
ويومَ الروع تنتظم المنايا
ونمضغ في الهياج الموت دون الـ
وما عاب الفتى جسمٌ هزيل
وما الشرف الحميد سوى فعّالٍ
قرينَ القبلتين عليك نبكي
فقدنا منك خير زعيم قوم
لقد ناح العراق عليك حزنًا
لقد نُزّهتَ من غمزٍ ولمزٍ

به انقلب اليقين إلى شكوك
بثوبٍ من سياستهم مَحوك
أرونا الودَّ في وجه ضحوك
وهذا عُدٌّ من شيم الهلوك^٦
ونطمح في الحياة إلى السُّموك^٧
ولم تكن السيوف سوى سلوك
عُلا مضغ الأوانس للعلوك^٨
إذا ما كان ذا شرفٍ وديك^٩
حميد من معادننا سبيك
دمًا بالدمع من طَرف مَسِيك^{١٠}
وخير نضيج تجربة حنيك
وضجٍّ من الخليج إلى تبوك
كما نُزّهتَ من شعرٍ ركيك

^٦ الهلوك: الفاجرة ذات الشهوة الشديدة.

^٧ السموك: جمع سمك، وهو السقف أو أعلى الشيء.

^٨ العلوك: جمع علك، وهو اللبان.

^٩ وديك: سمين.

^{١٠} الطرف المسيك: العين التي لا تدمع كثيرًا.

الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية

جواهرُ فضِّل ما لها الدهرَ قاسمُ
وحسن السجّايا والعُلا والمكارم
فماجت لمَنعاه البحارُ العيالمُ^١
من العلم منشور على الدهر دائم
به اتضحت للسالكين المعالم
وكانت به منها تقام الدعائم
بإثم ولا مرت عليه المحارم
تضيء من الدنيا بهن المواسم
ويحيي الليالي وهو لله قائم
دلائل من نور الهدى وعلائم
«لقد بات في أعلى الفرديس قاسم»

على قاسم شيخ الطريقة قد بكت
بكاه التُّقى والعلم والحلم والنُّهى
فقدنا الذي قد كان في العلم عيِّلًا
لئن قد طواه الموت عنا فذكره
رُزئناه حَبْرًا في الطريقة مرشدًا
عفت أَرْبُع الإرشاد بعد ارتحاله
حليف التُّقى ما دنس الدهر ثوبه
ترحَّل للأخرى وأبقى مناقبًا
يصوم نهار الصيف لله طائعًا
إذا ما بدا للقوم لاحت بوجهه
ولما مضى للخلد قلت مؤرخًا:

^١ العيلم: البحر، أو البحر الزاخر.

غريق دجلة

أذكى فراقك في القلوب حريقا
تَخَذَ الْجِمَامُ لك المياہ طريقا^١
ما دام ذكرك في الحياة عريقا
لله في أعلى السماء رفيقا^٢
من بعد ما ملأ السماء شروقا
أُسْكِنْتَ طي قلوبنا موموقا^٣
لله دُرُّكَ عاشقًا معشوقا
تهتز في رَوْضِ العلاءِ وريقا^٤
أَمْسَى بفقدك يابِسًا معروقا
أعيا البليغَ وأخرس المنطيقا
فجميل ذكرك لا يزال طليقا

يا من قضى بين المياہ غريقًا
قد كُنْتَ فينا دُرَّةً فلأجل ذا
سَعْدَيْكَ يا «توماس» إنك لم تمت
لكن رَقِيتَ إلى السماء لتُجْتَبَى
يا كوكبًا عجل الردى بأفوله
إن كنت غبت عن العيون فإنما
عشقتك كل فضيلة وعشقتها
هَصَرْتَ أَيْدِي الموت غصنًا ناضرًا
إن العراق على بضاضة قطره
لِلَّه مَنَعَكَ الْجَلِيلُ فَإِنَّهُ
إن كان شخصك بات في قيد الثرى

^١ تخذ: اتخذ.

^٢ اجتباه: اصطفاه واختاره.

^٣ ومقه: أحبه.

^٤ الوريق: المورق.

شهداء الطيران

قضوا شهداء ليس لهم بواء^١ قضوا لعزیزِ موطنهم ضحايا
فهم لعزیزِ موطنهم فداء لهم في موتهم هذا حياة
مخلّدة يجلّلها الثناء تباشرت الجنانُ بهم فأمست
بها من حسنٍ مقدّمهم بهاء وحيّا «جعفر الطيار» منهم
نسورًا في الجنان لها اعتلاء

* * *

وطائرة مرفّعة الذنابى تجول بها من البنزين روحٌ
بأجنحة الرياح لها ارتقاء بعصر الكهرباء أتت فأمسى
كما جالت بأوردّة دماء تمرُّ كأنها في الجوّ نسر
لعصر الكهرباء بها ازدهاء وتختبط الهواء بساعديها
إلى زُهر النجوم له انتماء فتعصف منهما الريحُ الرخاء
عن القوس الشّروح له ارتماء^٢ فيبصرُ كالنجوم لها علوٌّ
ويسمع كالرعود لها رغاء وقد ترمى الصواعقُ محرقات
بها في الأرض يندكُّ البناء

^١ البواء: المثل والند.

^٢ الشروح: الشدید الدفع للسهم.

قد امتطَوْا الرياحَ بها فطاروا إلى حيث احتفت بهم السماء
سَمَوْا فتضاءلوا فحكَّوا نجومًا يُصغِّرها بأعيننا السَّناء
وفيهم كان للأوطان حبُّ وفي أوطانهم منهم رجاء

* * *

ألا يا طائرين قد استقلتُ بهم في الجوّ ريحُ جَرَبِيا^٣
لقد نزل القضاء بكم أليماً ولا مَنجاة إن نزل القضاء
فمتم ميته بيضاء منها بأعيننا قد اسودَّ الفضاء
لقد عَظمت مَناحتكم فقامت تنوح بها الحرائر والإماء
وَشَقَّقت الجيوب لكم رجال ولطَّمت الخدود لكم نساء
غبطنا ميتةً قد أعقبتمكم حياة ليس يدركها الفناء
لكم بسقوطكم شرفٌ ففيه لموطنكم نهوضٌ واعتلاء
ولا تأسَوْا على الوطن المفدَّى ففي شَبَّانه لكم الكِفَاء
فهم خلفٌ لكم فيما أردتم ولولا ذَلِكُمْ عَزَّ العزاء

^٣ الريح الجربياء: ريح الشمال أو بردها.

إلى أمين نخلة

حُقَّ للدمع أن يكون نشيدا
ألمعِي تبوَّع المجدَ حتى
وتعالى إلى أعاليه حتى
أنجبتَه أصولُ «نخلة» حتى
فنما في بواسقِ المجدِ فردًا
في رثائي أبا أمينٍ رشيدا
حاز منه قريبَه والبعيدا
نال منه قديمه والجديدا
أطلعتَه للمجدِ طَلْعًا نضيدا
مستظلًّا منهن ظلًّا مديدا

* * *

كان شهْمًا، إن جئته في المُلما
وشجاعًا إن جئته يوم هيْجٍ
وكريمًا زكت سجاياه حتى
وفصيحا إن أنشد القوم شعرا
كان أطروفة الزمان ظريفا
رقّة فاقت النسيم إلى شد
إن شدا بالقريض لم تبصر الأد
ت وقيدا، أويّت ركنًا شديدا^١
تلقَ في الهيج بُهمة صنديدا^٢
كان بدعا في المكزّمات فريدا
كان في الشعر مفلّقا ومجيذا^٣
فكِها مازحا رفيقا سديدا
ة بأس نُفتت الجلمودا
مع إلا مستحسا مستفيدا

^١ الوقيز: الشديد المرض، المشرف على الموت.

^٢ الهيج: الحرب. والبهمة: الشجاع.

^٣ الشاعر المفلق: المبدع.

ساد في الناس يافعاً ثم كهلاً
جُبلت نفسه من المجد حتى
بلغ المنتهى من المجد حتى
يا سليل الفقيد أعظم بمجد
أنا شاطرتك الأسى بدموع
وتأملت منك حرّاً كريماً
عازماً في الفعال أن يتسامى
فلهذا أقول قول مُعَزَّ
يا أمين الرشيد أودعك الوا
كيف لا نرتجي وأنت أمين
إن يكن مُبدئين أبأوك الغُرُّ
ثم شيخاً في التجربات عميدا
لم نجده إلا لخيرٍ مريدا
ليس في المستطاع أن يستزيدا
قد رُزئناه في أبيك مَجيدا
كنَّ للحزن في الفؤاد وقودا
خَلَفًا للفقيد ضاهى الفقيدا
قادراً باجتهاده أن يسودا
لك يرجو عمراً طويلاً سعيدا
لد مجداً في الماجدين تليدا
أن تعيد المجد القديم جديدا؟
فكن أنت يا أمين مُعيدا

٤ ضاهى: شاكل ومائل.

في يوم أبي غازي

القصيدة العصماء التي ألّفها شاعر العرب الكبير الأستاذ معروف الرصافي في حفلة تأبين فقيد العرب العظيم المغفور له الملك فيصل الأول طيب الله ثراه.

فأنطقنا التهاني والتعازي	أبو غازي قضى فأقيم غازي
بإنشاءٍ لهنَّ وبارتجاز ^١	وأطلقنا المدائح والمراثي
حكى يومٍ عكاظ وذو المجاز	وجئنا حاشدين بصدر يوم
وحزنًا يجريان على التوازي	غداةً قلوبنا امتلأت سرورًا
خوافق في جوانحنا نوازي ^٢	فهنَّ بعاملي فرح وحزن
وكنَّ من اهتياجٍ في اهتزاز	فكنَّ من ابتهاجٍ في هدوءٍ

* * *

وحيّدة المعارك والمغازي	قضى بدرُ المكارم والمعالي
لمرزئةٍ محت كل المرازبي	فيا لله يوم نعاه ناع
برزء للحسين أولو اجتياز	رزئنا ابن الحسين فنحن منه
يفرّق في البكاء ولا امتياز	فما مَيّز المحرّم من جُمادى

^١ الارتجاز: قول الرجز.

^٢ النوازي: الواثبة الخافقة.

له كفُّ تفيض ندَى ونبلاً لها بهما غنى عن حَزو حاز^٣
 بنى مجدًا عراقياً جديداً فأأسسه على المجد الحجازي
 وسار من السياسة في طريق بحسن الرأي مُعلّمة الطراز
 فما ترك الجهود بلا نجاحٍ ولا فُرصاً تمر بلا انتهاز
 إذا اعتزم الأمور مضي وأمضى وإن سلَّ المهند قال ماز^٤

* * *

أبا غازي فقدنا منك قرماً يُناجز دوننا يوم النجاز^٥
 حللت من العراق وأنت ركُزٌ بحيث الأرض جيدة الركاز^٦
 فحلَّ اليُمن منذ حللت فيه وقبلًا كان عنه ذا انحياز
 لقد وُفقت بالقلم المسلي كما وفقت بالسيف الجُراز^٧
 ومهدت الأمور لنا ففزنا من الآمال بالغرر العِراز
 ودُرَّت ذات أيدينا وكانت كحلب النوق أيام الغراز^٨
 ولولا سعيك المشكور كنا كذي سفرٍ يسير بلا جواز
 إذا المكاء أوتي منك حظاً يطير إلى العلا بجناح باز^٩

* * *

لأهل الرافدين عليك حزنٌ له بقلوبهم فضل ارتكاز
 فأنت هديتهم سبُل المعالي كما جنَّبَهم طرق المخازي

^٣ حزو حاز: تبصر متبصر، والحازي الخبر بالأمور.

^٤ المهند: السيف من صنع الهند. وماز الشيء: فرزه عن غيره.

^٥ القرم: السيد. ويناجز: يقاتل.

^٦ الركز: الرجل الحكيم الكريم، والركاز: ما ركزه الله؛ أي أحدثه ودفنه في المعادن من ذهب وفضة وغيرهما.

^٧ السيف الجراز: القاطع.

^٨ درت ذات يده: اتسعت حاله واغتنى. وأيام الغراز: التي لا لبن فيها.

^٩ المكاء: طائر من القنابر، له تصعد وهبوط في الجو، أبيض اللون وله صفير حسن. والبازي: من الطيور الجارحة.

في يوم أبي غازي

لئن لبسوا الحداد عليك حزناً فقد ألبستهم ثوب اعتزاز
وما هو بالبكاء جزوك شيئاً ولكنَّ الإله هو المجازي

* * *

لقد قوَّيتنا من بعد عجزٍ به كنا نحيد عن البراز^{١٠}
وكنا كالبغاث فقمّت فينا بما صرنا به مثل البوازي^{١١}
فنحن اليوم إذ دهمت خطوب نظرنا للخطوب بطرف هازي
نقوم إلى الهياج بلا توانٍ ونبتدر الأمور بلا احتراز
فلسنا من صروف الدهر نخشى عوادي ذات سلب وابتزاز
ونحن من الألى في كل عصر عزا لهم المكارم كلُّ عاز
نراعي الحق في سلم وحرب ونترك في مغارمنا التجازي
ولو شكت الحقيقة لانتزعنا شكايتها بتضحية المجاز
وقد علمت بنو آثور أنا أولو بأس يعرقب كل ناز
فنحن بسيفك الماضي جَزَنا نواصي جمعهم أيَّ اجتزاز

* * *

أفَيْصَلُ نَمْ بقبرك مستريحاً فإن الملك بعدك ملكُ غازي

^{١٠} البراز: المباراة والقتال.

^{١١} البغاث: طائر أغبر أصفر من الرخم، بطيء الطيران، يضرب به المثل في الضعف.

ذكرى الكاظمي

أنشئت في حفلة أقيمت في بغداد سنة ١٩٣٥ لتأبين شاعر العراق الشيخ عبد المحسن الكاظمي، وكان قد توفي بمصر.

ليس في غاية الحياة البقاء	فلذا خاب في الخلود الرجاء
غير أن الحياة بالعز عند الرّ	جل الحرّ غاية غراء
أيّ فخرٍ للناعمين بعيش	لم تجلّله عِزة قعساء؟!
حسب من رام في الحياة خلودًا	أنه بعد موته علواء
وكفى المرء بعد موتٍ حياةً	أنّ ذكراه حلوة حسناء
قد قضى الكاظمي وهو جديرٌ	أن تعزّي في موته الشعراء
عاش منسيّ عارفه ولمّا	مات فاضت بنعيه الأنباء
ذكرته نُعاته بنعوتٍ	قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقًا	أفهم بالذي نسُوا لؤماء؟
كيف ينسون في الحياة أديبًا	عبقريًا عنت له الأدباء
أفيُنسى حيًّا ويذكر ميتًا	إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هذا أمرٌ يتيه ضلالًا	في بوادي تفسيره الحكماء
ضحكوا منه في الحياة ومذ ما	تَ تعالى نحيبهم والبكاء

أيها النادبون

أيها النادبون غرُّوا
يُكرم الميت بالثناء وتحيا
كلُّ من يخبر الأناسيَّ خبري
أنا جرَّبتهم إلى أن تساوى الـ
غرِّي الناس بالهوى فضلاً
قد تمادى في القائلين غلوً
أيها الكاظميَّ نَمْ مستريحاً
عشت في مصر باحترام يؤدِّي
إنَّ للنيل من جزائك شكراً
لم تعش عيشة الرفاه ولكن
أيُّ حر في الشرق عاش سعيداً
وهنيئاً إذ لم تعش في العراق
من شقاء العراق أنَّ ذوي النعم
إن جفتنا بلادنا فهي حبُّ
لم نحل عن عهدنا مذ جفتنا
قد بكينا شجواً عليها ومنها
كم أردنا سخطاً عليها ولكن
إنما هذه المواطن أمُّ
إن خدَمنا فلا نريد جزاء

بَرَخَ اليومَ لِلْبَيْبِ الخفاء^١
عندكم في المهانة الأحياء
لا يبالى أأحسنوا أم أساءوا
يومَ عندي سبَّابُهم والثناء
كلُّ ما يفعلونه أو رياء^٢
وتوالى في الفاعلين رياء
حيث لا مبعض ولا إيذاء
هـ إليك الأمثال الفضلاء
ستؤدِّيهِ دجلة اللسنة
لك في العيش عزة وعلاء
لم تشب صفو عيشه الأقداء
من مضاعاً تنتابك الأرزاء
مة فيه أجانِبُ غرباء
ومن الحبِّ يُستلذُّ الجفاء
بل لها الودُّ عندنا والوفاء
وعنانا سقامها والشقاء
غلب السخطَ في القلوب الرضاء
مُستحق لها علينا الولاء
ومن الأم هل يُراد جزاء؟!

^١ برح الخفاء: زال اللبس والغموض.

^٢ غري الناس بالشيء: أولعوا به.

رثاء شوقي شاعر مصر الأكبر

ألقيت في الحفلة التأبينية الكبرى في نابلس سنة ١٩٣٢.

الشعر بعد مصابه بكبيره	في مصر جل مصابه بأميره
بيناه يبكي حافظاً بشهيقه	إن قام يبكي أحمدًا بزفيره
لم يقض بعض حداده لنصيره	حتى أحدَّ أسَى لفقد مجيره
ما إن خبت في الأفق شعلة نوره	حتى انطوت في الجو لمعة نوره
بالأمس ظل مرزاً بمبينه	واليوم بات مفاجئاً بمنيره
أخذت فرزدقه المنون وضاعفت	جلى مصيبته بأخذ جريره
رزآن ملتهبان قد نضحتهما	عين العلا من دمعها بغزيره
فالشعر بعدهما استطال بكاؤه	وتموّجت بالحزن كل بحوره
وهزاره ترك الصداح وليثه	أمنت أعاديه سماع زئيره

* * *

يا نيراً فجع القريض بموته	فبكته عين وزينه وكسيره
وخلت سماء الشعر بعد أفوله	من مشرقات شموسه وبدوره
ومؤمراً لم تنتفض بوفاته	في الشعر بيعته على تأميره
إن لن يقوم نظيره من بعده	هيهات أن تأتي الدُنا بنظيره
لك في الخلود مكانة ما نالها	فرعون في ديماسه وحفيره
إن الدفين مضمخاً بحنوطه	دون الدفين محنطاً بشعوره
إن المتوّج فوق عرش ذكائه	يعلو المتوّج فوق عرش سريره

ما مات من تركت لنا أقلامه
صورًا تمثل ذاته وصفاته
فكأنه وهو الدفين بقبره
وكأنه في القوم ساعة حفلهم
لأبي عليٍّ من قريحة شعره
كم قد رمى الغيب الخفي فؤاده
وتصور المعنى الدقيق فردّه
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى
فالشعر قد دكت جبال فنونه
يا راحلاً ترك القوافي بعده
لهفي على ذيّالك القلم الذي
الشعر كنت أميره وسميره
حرّرتّه من رق كل تصنع
سخرت من أوتاره ما لم يكن
ولكم شدوت بنغمة من بُمّه
تتمايل الأبدان في إنشاده

صورًا خوالد من بنات ضميره
حتى يقمن لنا مقام نشوره
حيّ يعيش بحزنه وسروره
متكلم بنظيمة ونثيره
وحيّ أتى من جبرئيل شعره
بذكائه فأصاب كشف ستوره
كالصبح مفتلقًا أوّانَ ظهوره
من وشي سندس لفظه وحريره
إذ موت شوقي كان نفخة صوره
محتاجة المحيا إلى تفكيره
يتطرب الأرواح لحن صريره
فمن المسامر بعد فقد سميره
فبدت فنون الحق في تحريره
ليطيع غيرك قط في تسخيره
ولكم صدحت بنغمة من زيّره
طربًا وليس يمل من تكريره

* * *

يا أهل مصر عزاءكم فمصابكم
الشعر قد ثلّت بمصر عروشه
علمان من أعلامه كنا به
لكليهما الهرمان قد خشعا أسى

أمر قضاه الله في تقديره
بوفاء سيده وموت أميره
يتنازعان السبق في تحبيره
والنيل مدّ أنينه بخيريه

نسائيات

المرأة في الشرق

يعيشون في ذُلِّ به وشقاء^١
بمنزلة الأقياد للأسراء^٢
حياة تخطت خُطة السعداء
أَبَوْا أن يسيروا سيرة العقلاء
عليهن في حبسٍ وطول ثواء
عليهن إلا خَرْجَةً بغطاء
يغارون من نورٍ به وهواء
فما هن في أمرٍ من الخُلطاء
لغير قرارٍ في البُيوت وباء^٣
وأن صِنَّ عن بيعٍ لهم وشراء
بما فعلوا من أَلَم اللُّؤماء
لكانوا بما أبَقوا من الكرماء
على الذل شَبُّوا في حجور إماء

ألا ما لأهل الشرق في بُرحاءٍ
لقد حَكَّموا العادات حتى غدت لهم
إذا تختبرهم في الحياة تجدُ لهم
وما ذاك إلا أَنهم في أمورهم
لقد غمطوا حق النساء فشَدَّدوا
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم
قد انتبذوا عنهنَّ في العيش جانبًا
وقد زعموا أن لَسُن يصلحن في الدُّنا
فما هنَّ إلا متعة من متاعهم
أهانوا بهنَّ الأمهات فأصبحوا
ولو أَنهم أبَقوا لهن كرامةً
ألم ترهم أمسوا عبيدًا لأنهم

^١ البرحاء: الشدة والأذى، أو الشر.

^٢ الأقياد: القيود.

^٣ الدنا: جمع دنيا.

تَحْمُلُ جور الساسة الغرباء
سواكم من الأتوام حَبْل بقاء
وهل سعدت أرضٌ بغير سماء؟!
تمثل حالي عِزَّة وإِباء
على مسرح التمثيل زِيَّ نساء
وإن كان قولي مُسَخِّط السفهاء
فبُعْدًا لهم في الشرق من كبراء
يسمُّون أهل الجهل بالعلماء
فقد يدَّعيه أَجهل الجهلاء
لَصَبَّ عليهم منه سَوَطُ بلاء
ونادى عليهم مؤذنا بفناء^٤
فعاشوا ولو في ذلة وشقاء
وخاطوا لهم منها ثيابَ رياء
إلى كل شغبٍ بينهم وعداء
رمت جهلاء العلم بالقوِّباء^٥
لداعٍ فهل من يستجيب دعائي
لإدراك مجدٍ وابتغاء علاء
وقلَّ اضطباري واستطال بكائي
من اليأس مسدودًا طريقُ رجائي
وإن كنت معدودًا من الشعراء

وهان عليهم حين هانت نساؤهم
فيا قوم إن شئتم بقاءً فنازعوا
أيسعد محياكم بغير نساءكم
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح
ولكنَّ عارًا أن تزَيَّا رجالكم
أقول لأهل الشرق قول مؤلَّب
ألا إن داء الشرق في كبرائه
وأقبح جهل في بني الشرق أنهم
وأكبر مظلوم هو العلم عندهم
لو اقتصَّ أهل العلم للعلم منهم^٤
ولاستأصل الموتُ الوحيَّ نفوسهم
ولكنَّ حلم الله أبقى عليهم^٥
لقد مزَّقوا أحكام كل ديانة
وما جعلوا الأديان إلا ذريعة
فما علماء الجهل إلا مساقم^٥
ألا يا شباب القوم إني إلى العلأ
أما آن للأوطان أن تنهضوا بها
فقد بَحَّ صوتي واستشاطت جوانحي
على أن لي فيكم رجاءً وإن يكن
وما أنا في وادي الخيال بهائم

^٤ الموت الوحيُّ: السريع.

^٥ القوِّباء: داء معروف.

نساؤنا

إلى صاحبة مجلة الخدر

ولا تجريا في القول إلا على الطبع
وإلا فما يجدي لسمعكما قرعي
لمستمع إلا لتغرب في السمع
أكان بخفض لفظ ما قلت أم رفع^١
به فضل عقل كان أجدر بالصفع
ففيمَ اهتمامي بعد ذلك بالفرع
أكان بجذب ذلك السير أم دفع
وما الأرض إلا من سمواته السبع
على خلقه جورًا إلى الحزن يستدعي
وإن لم نعد اليوم منها سوى تسع
رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
تعيش بجهل وانفصالٍ عن الجمع
يعدون تشديد الحجاب من الشرع
وإسكانها فوق الغصون عن السجع!

ألا خلياني في الكلام من السجع
وإن أنا أرسلت الحديث فأصغيا
فإني ما أطلعتُ شمسَ حقيقة
ولست أبالي بعد إفهام سامعي
وإني إذا قبلت رأسًا ولم أجد
إذا كان علم الأصل عندي حاصلًا
فإن بان لي سير الكواكب لم أبل
شكوت إلى رب السموات أرضه
فقد جار في الأرض البسيطة خلقه
وإن السموات العلا لكثيرة
وإني لأشكو عادةً في بلادنا
وذلك أنا لا تزال نساؤنا
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها

^١ الخفض والرفع: من مصطلحات النحو ومراد الشاعر أنه لا يتأنق ولا يعرب في عبارته.

وقد أطلق الخلاق منها جناحها
فتلك التي ما زلت أبكي لأجلها
بكيْتُ بلا دمع ومن كان حزنه
فيا ربَّه الخدر اسمعي ما أقوله
أيا ابنة «فندي» إن للمجد غايةً
وإني أرى في القوم بعض مخايل
فقد لا يُروينا السحاب بمائه
يقولون لي: إن النساء نواقصُ
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدي
إذا النخلة العيطاء أصبح طلعا
ولكن على الجذع الذي هو نابتُ
ووالله ما أن ضقتُ ذرعاً بقولهم
أمزقُ دعواهم إذا ما طعننها
ألا فاصدعي يا ربَّه الخدر بالذي
فأنتِ مثالٌ للكمال الذي حوى
أدامك ربُّ الناس للناس حجة

وعلمها كيف الوقوع على الزرع
بكاء إذا ما اشتد أدّى إلى الصرع
شديداً بكى من غير صوتٍ ولا دمع
لعل مقالي فيه شيءٌ من النفع
وإنِّي في إدراكها باذلٌ وسُعي
وأحذر من أن ينقشعن بلا همع^٢
وإن كان فيه البرق متصل اللمع
ويُدلون فيما هم يقولون بالسمع
وما أنا في إنكار ذلك بالبدع
ضعيفاً فليس اللوم عندي على الطلع^٣
بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع
ولكنما قد ضاق من فعلهم ذرعي
ولو أنها كانت من الدين في درع
ترين من الآراء في الرد والردع
من العلم أسباباً تجلُّ عن القطع
على من نَمى نقص النساء إلى الطبع

^٢ المخايل: جمع مخيلة وهي السحابة المبشرة بالخير، ضربها مثلاً للصفات التي تنبئ عن حسن

الاستعداد في الإنسان. والهمع: الأمطار.

^٣ العيطاء: المرتفعة. والطلع: الثمر.

حرية الزواج عندنا

إذ أكرهوك على الزواج بأشيّبا
بفضول هاتيك المطامع أشعبا
من سعد أخبية الغواني كوكبا
عارٌ وإن هاج الوليُّ وأغضبا
والحر يأبى أن يعيش مذبذبا
بالمال لكن بالمحبة يُجتبى^١
بعض المتاع وهن في عهد الصبا
من عاش ذا شرف وكان مهذباً
بالمال لا بالحب عاد مخرباً
ويميل في أمر الزواج إلى الحب^٢
من منزل الرجل الغنيّ بها نبا
بسوى المحبة كان شيئاً متعباً
فحبّبها كان القِران محبّباً
مهرًا وأكثرها إليه تحبباً

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا
أفكوكبٌ نحسٌ يقارن في الورى
فإذا رفضتِ فما عليك برفضه
إن الكريمة في الزواج لحرّة
قلب الفتاة أجلُّ من أن يُشتري
أتباعُ أفئدة النساء كأنها
هذا لَعَمْرُ الله يأبى مثله
بيت الزواج إذا بنوه مجدداً
يا من يُساوم في المهور مغالياً
أقصرُ فكم من حرة مذ أنزلت
إن الزواج محبة فإذا جرى
لا مهرَ للحسنة إلا حبّها
خير النساء أقلّها لخطيبها

^١ يجتبي: يختار ويصطفى.

^٢ الحب: المهر، وأصله: الحباء، ممدود.

وتحبُّبٍ فالخير أن نترهبها
أُتصِبُ أخْبَثَ أم تصادف أطيبا
أيدوسُ أفعى أم يلامس عقربا
زدتُ افتكارًا فيه زدت تعجبا
وقَضُوا عليها بالحجاب تعصبا
أفتعلمون بما جرى تحت العبا؟
وحجابها في الناس أن تتهذبا
أغنى فتاة الحي أن تتنقبا
مثل النعاج وأن نكون الأدُّبا
تعلو إذا ربَّى البنات وهذبا
فيها وعلمها العلوم وأدبا
أدنى النساء من الرجال وقربا
جاء التأخر في النساء مكذبا
يشكو السقام بفالج متوصِّبا؟^٣
والدهر خصص بالبقاء الأنسبا؟
حتى يكون عن الحقيقة مُعربا
ولها أقيم من القوافي موكبا

وإذا الزواج جرى بغير تعارفٍ
هو عندنا رمي الشباك بلُجَّة
أو مثل محتطبٍ بليل دامس
ولقومنا في الشرق حالٌ كلما
تركوا النساء بحالة يرثى لها
قل للألى ضربوا الحجاب على النساء:
شرفُ المليحة أن تكون أديبةً
والوجه إن كان الحياء نِقابه
واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا
هل يعلم الشرقي أن حياته
وقضى لها بالحق دون تحكُّم
فالشرق ليس بناهض إلا إذا
فإذا ادَّعيت تقدماً لرجاله
من أين ينهض قائماً من نِصفه
كيف البقاء له بغير تناسُبٍ
والشعر ليس بنافع إنشاده
تلك الحقيقة للرجال أزفها

^٣ المتوصب: المريض.

المرأة المسلمة

لم أرَ بين الناس ذا مَظْلَمٍه
منقوصةٌ حتى بميراثها
قد جعلوا الجهل صوانًا لها
والعلم أعلى رتبة عندهم
ما تصنع المرأةً محبوسةً
ضاقت بها العيشة إذ دونها
أحق بالرحمة من مُسلمه
محجوبة حتى عن المكرمه
من كل ما يدعو إلى المأثمه^١
من أن تلقاه وأن تعلمه
في بيتها إن أصبحت مُعديه!
سُدت جميع الطرُق المُعلمه

* * *

كم في بيوتِ القوم من حُرّة
قد لوّحت نارُ الطوى وجهها
عاب عليها قومها ضلّة
من أيّ وجه تبتغي رزقها
وكيف والقوم رأوا سعيها
تبكي من البؤس بعيني أمه
وأعمل الفقرُ به ميسمه
أن تكسب القوت وأن تطعمه
وطرقها بالجهل مستبهمه
في طلب الرزق من الملامه

* * *

وكم فتاة فقدت بعلها
من بعد ما قد ولدت توعمه

^١ الصوان، بتثليث الصاد: ما يسان به الشيء ويحفظ.

فانقطعت في العيش أسبابها	وأصبحت للبؤس مُستسلمه
تبیت لم تحمد لفرط الجوى	لا قمر الليل ولا أنجمه
من حيث لا تملك من دهرها	ما جلّ أو دقّ ولو سمسمه
جفّ على مُرضعها ثديها	فاضطرها ذلك أن تفضمه
فعاش عيش الأمّ لم يوفيه	ملبسه الدهر ولا مطعمه
فشب منهوك القوى مثلها	يشكو من الدهر الذي أيتمه

* * *

فهذه حالة نسواننا	وهي لعمري حالة مؤلمه
ما هكذا يا قوم ما هكذا	يأمرنا الإسلام في المسلمه
فهل بكم من راحم للنسا	فهنّ أولى الناس بالمرحمه؟

التربية والأمهات

هي الأخلاق تنبت كالنباتِ
تقوم إذا تعهد لها المربي
وتسمو للمكارم باتِّساق
وتنعمش من صميم المجد رُوحاً
ولم أرَ للخلائق من محلٍّ
فحُضِنَ الأمُّ مدرسة تسامتُ
وأخلاقُ الوليد تقاسُ حسناً
وليس ربيبٌ عالية المزايا
وليس النبت ينبت في جنانٍ

إذا سُقيتُ بماء المَكْرُماتِ
على ساق الفضيلة مُثْمِراتِ
كما اتسقت أنابيبُ القناة¹
بأزهار لها مُتَضَوِّعاتِ
يُهدَّبُها كحِضْنِ الأمهاتِ
بتربية البنين أو البناتِ
بأخلاق النساءِ الوالداتِ
كمثل ربيبٍ سافلة الصفاتِ
كمثل النبت ينبت في الفلاة

* * *

فيا صدرَ الفتاة رَحُبَتْ صدرًا
نراك إذا ضممتَ الطفل لَوْحًا
إذا أَسْتَدَّ الوليدُ عليك لاحتِ
لأخلاق الصبيِّ بك انعكاسُ
وما ضَرَبَانُ قلبك غير درسِ

فأنت مَقَرُّ أسنى العاطفاتِ
يفوق جميع ألواح الحياةِ
تساوِيرُ الحنانِ مصوِّرَاتِ
كما انعكس الخيالُ على المرأةِ
لتلقينِ الخصالِ الفاضلاتِ

¹ القناة: الرمح وكل عصا مستوية.

فأول درس تهذيب السجايا يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظنُّ بالأبناء خيراً إذا نشئوا بحضن الجاهلات؟!
وهل يُرجى لأطفالٍ كمالٌ إذا ارتضعوا تُدِيَّ الناقصات؟!
فما للاممَّهات جهلنَ حتى أتَيْنَ بكل طيَّاشِ الحِصاة؟!^٢
حنُونٌ على الرضيع بغير علم فضاع حنُونُ تلك المرضعات

* * *

أأمُّ المؤمنين إليك نشكو مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أمُّ منها «نكاد نغصُّ بالماءِ الفراتِ»
تخذنا بعدك العادات ديناً فأشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنَّ سبيلَ خُسِرٍ وصدُوهُنَّ عن سبل الحياة
بحيث لزمُن قعرَ البيت حتى نزلنَ به بمنزلة الأداة^٣
وعدُوهُنَّ أضعف من ذبابٍ بلا جنح وأهون من شذاة^٤
وقالوا: شرعةُ الإسلام تقضي بتفضيل «الذين على اللواتي»
وقالوا: إنَّ معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا: الجاهلات أعفُ نفساً عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشمُّ منه مزَلَزلات
أليس العلم في الإسلام فرضاً على أبنائه وعلى البنات
وكانت أُمُّنا في العلم بحرّاً تحل لسائلِها المشكلات
وعلمها النبيُّ أجلُّ علمٍ فكانت من أجلِّ العالمات
لذا قال: ارجعوا أبداً إليها بثلاثي دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقيناً فأُمسى يُحصَل بانتياب المَدَرَسات
وبالتقرير من كتبٍ ضخامٍ وبالقلم الممدَّ من الدواة
ألم ترَ في الحسان الغيد قبلاً أوانس كاتباتٍ شاعراتٍ

^٢ الطيَّاش: الذي لا يقصد وجهها واحداً لخفة عقله. والحِصاة: العقل والرأي.

^٣ الأداة: الآلة، يريد بها ما يستعمل في البيوت كالأتية، والشاعر يقرع بذلك بعض من لا أخلاق لهم.

^٤ الشذاة: كسر العود.

وقد كانت نساء القوم قَدْماً
يكنّ لهم على الأعداء عوناً
وكم منهن من أُسرت وذقت
فماذا اليوم ضرٌّ لو التفتنا
فهم ساروا بنهج هُدًى وسرنا
نرى جهل الفتاة لها عَفافاً
ونحتقر الحلائل لا لجرِّمٍ
ونلزمهن قعر البيت قهراً
لئن وأدوا البنات فقد قَبِرنا
حجبناهن عن طلب المعالي
ولو عَدمت طباع القوم لَوْماً
وتهذيب الرجال أَجلاً شرط
وما ضرَّ العفيفة كشفُ وجهِ
فَدًى لخلائق الأعراب نفسي
فكم برزت بحبِّهم الغواني
وكم خَشِفَ بمربعهم وظبي
ولولا الجهل ثَمَّ لقلتُ مَرَحَى

يُرْحَنَ إلى الحروب مع الغزاة
ويضمِّدن الجروح الداميات
عذاب الهُون في أسر العُداة
إلى أسلافنا بعض التفات!
بمنهاج التفرق والشتات
كأنَّ الجهل حصن للفتاة
فنؤذيهن أنواع الأداة
ونحسبهن فيه من الهَنات^٥
جميع نساءنا قبل الممات
فعشن بجهلهن مُهَتَّكات
لما غدت النساءُ محجَّبات
لجعل نساءهم مُتهذبات
بدا بين الأعفَاء الأباة
وإن وُصفوا لدينا بالجُفاة
حواسِرَ غير ما متريّبات
يَمُرُّ مع الجداية والمهابة^٦
لمن أَلفوا البداة في الفلاة

^٥ الهن: كناية عن كل جنس، ومعناه شيء ومؤنثة هنة، وجمعها هنوات وهنات، يريد بذلك أننا نحسب المرأة من جهلنا شيئاً من أشياء البيت.

^٦ الخشف والظبي: الغزال. الجداية والمهابة: الغزاة، وفي الكلام مجاز لا يخفى.

المهجور أو مشهد الحسد في الحزن

بِسْمَطِينَ مِنْ دَرٍّ مُضِيِّينَ فِي الثَّغْرِ^١
فَعُدْنَا مِنَ الْأَمَالِ فِي أَنْجَمِ زُهرٍ
بَصْبَحِينَ مِنْ ثَغْرِ وَضِيٍّ وَمِنْ نَحْرِ
ذَوَائِبٍ تُرْخَى مِنْ أَشْعَتِهَا الصَّفَرِ
وَأَمَّا مَحْيَاها فَكَالْكوكَبِ الدَّرِّيِّ
يُغْضِ عَلَى وَجِدٍ وَيُفْتَحِ عَنْ سِحْرِ
غَدَاةٍ أَمِيطِ السَّجْفُ مِنْ جَانِبِ الْخَدْرِ^٢
وَلَا عَجَبَ أَنَّ الدَّجَى مِنْ جِلَى الْبَدْرِ
فَمَنْ لَوْلُو تَبْدِي وَمَنْ لَوْلُو تَذَرِي^٣
بَقَايَا ظِلَامِ اللَّيْلِ فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ
تَمَوَّحُ بَحْرِ الْحَبِّ مِنْ عَاصِفِ الْهَجْرِ
فَيَبْعَثُ بِي شَجْوًا يَمُوجُ بِهِ صَدْرِي
كَمَا ذَبَلَتْ فِي بَيْتِهَا بَاقَةُ الزَّهْرِ

وَبِيضَاءَ أَغْنَاهَا عَنِ الْحَلِيِّ ثَغْرُهَا
إِذَا ابْتَسَمَتْ فِي ظِلْمَةِ الْيَأْسِ أَشْرَقَا
نَرَى وَجْهَهَا بَدْرًا مُحَاطًا مِنَ السَّنَا
يَذْكُرْنِي مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ شَعْرُهَا
تَرَاءَتْ فَأَمَّا نَفْسُهَا فَحَزِينَةٌ
بَدَتْ فِي جِدَادٍ تَرْسِلُ الطَّرْفَ وَانِيًّا
رَأَيْتُ بِهَا بَدْرًا تَرْدَى دُجْنَةً
فَكَانَتْ لَهَا سُودُ الْجَلَابِيْبِ حَلِيَّةً
تَبَسَّمَ حِينَئِذٍ ثُمَّ تَجَهَّشَ بِالْبُكََا
كَأَنَّ تَلَامِيحَ الْأَسَى فِي جَبِينِهَا
وَكَمْ أَبْصَرْتُ عَيْنَايَ لَمَّا تَنَهَّدَتْ
فَقَدْ كَانَ مِنْهَا الصَّدْرُ يعلو وَيَرْتَمِي
وَمِمَّا شَجَا نَفْسِي ذَبُولٌ بِخَدِّهَا

^١ السمط: العقد.

^٢ الدجنة: الظلمة.

^٣ أذرى الدمع: أسقطه.

أسائل عما ناب من نُوبِ الدهر
تشد ضلوْعًا يَنْطوين على جمر:
شكت هجر بَعْلٍ لم يكن بالفتى الحر
ولم أدرِ أن الحب ضرب من الخمر
صحا قلبه من حيث لم أضح من سكري
وإن مالَ بعلي في هواي إلى الغدر
كما فزعت قُمرية الروض من صقر
ألا لا آمالَ الله قلبي إلى الصبر
وإن جَنَّ ليلي بت منه على ذِكْرِ
لأقنع منه بالخيال الذي يَسري
ترقرق دمع العين في خدها يجري
فأحسبها الياقوت رُصع بالدرّ
تكفكف أسرابًا من الدمع بالعَشر
عن القول إلا عن كلام لها نَزَر:
من الوجد حتى يحملوني إلى القبر
على كل حكم جاء من ظالم الدهر
وعاقبت منهم من يميلُ إلى الهجر

ولما انقضى صبري وقفت تجاهها
فقالت وقد أَلقت على الصدر كَفَّها
لك الخير من حُرٍّ يسائل حرّة
سقاني بكأس الحبّ حتى شربتها
فلما رأيته قد سَكِرْتُ بحبه
ألا إنَّ قلبي اليوم إذ مسّه الجوى
ليفزغُ ممن يدّعي الحب قلبه
على أن قلبي لم يعد عنه صابرًا
إذا أشرقت شمسي تناسيت ذكره
وإنني على ما نابني من جفائه
ولما شكت لي حُرقة في فؤادها
أرى قطراتِ الدمع في وجناتها
هنالك أَلقت راحتِها بوجهها
وقالت وقد كان النشيجُ يصدُّها
سأحمل ما قد حمّلتني يد الهوى
فقلّت: أما والله لو أنَّ لي يدًا
لشدّدت في زَجَرِ المحبين إن جَفّوا

إلى الحجابيين

لمناسبة كتاب «السفور والحجاب» للآنسة نظيرة زين الدين.

قل للحجابيين كيف ترونكم
كشفتُ به ما كان من حُجْب العمى
سفر أقام على السفور أدلّة
يا لاجئين إلى العناد خصومة
هل من نظير بينكم لنظيرة
هدمت «نظيرة» ما بنت عاداتكم
أفتمكثون على العناد وقد بدا
نحن — السفوريين — أعلم بالذي
أكون ما شرع النبي محمد
إنّ اعتزالكم النساء ترفعاً
حتى رجال الصين تحترم النساء
كلا ولكن عادة همجية

من بعد سفر للسفور مبین؟
عنكم «نظيرة» بنت «زين الدين»
تركت ذبابكم بغير طنين
ما كان حصن عنادكم بحصين
أو من فقيه مثلها وفطين
من كل سجن للنساء مهين
من بعد ليل الشك صبح يقين؟
شرع النبي محمد من دين
شيئاً يخالف شرعة التمدين؟
أمرٌ يناقض حكمة التكوين
أفنحن ننقص عن رجال الصين
جعلتكم حرباً لكل حسين^١

^١ الحسین: الحسن.

هوان المرأة عندنا

ما أهون الأنثى على دُكراننا!
ضَعَفَتْ فحجتها البكاء لخصمها
هي مُتَعَةٌ المستمتعين وَلَيْتَها
فولِيَّها عند الزواج يبيعها
وكلاهما متَحَكِّمٌ في أمرها
فلقد شجاني ذُلُّها وخضوعها
وسلاحها عند الدفاع دموعها
كانت لزامًا لا يجوز مبيعها!
وحليلها عند الطلاق يُضيعها
هذا يعرِّيها وذاك يُجيعها

التاريخيات

ضلال التاريخ

أقولُ، وطرفي في المحال مُحدِّقُ: أما لِلْغَيَزاءِ الزمان مفسَّرُ
لقد خامرتني في الزمان وأهله أرى الدهرَ في أمرين يعمل دائماً
يُجدِّد للموتى مناقبَ لم تكن فكم من قبور عظمَّ الناس أهلها
ورُبَّ امرئٍ قد عاش يستقطر الثنا سقى الدهر للأموات غرس مناقبٍ
أرى كلَّ ميتٍ ما تقادم عهده فأقربهم عهداً أقلُّ غُضاضة
أبالدهر مسُّ أم بأهليه أولقُ؟!^١
فقد حار فيها الألمعي المدقُّ؟!^٢
شكوكٌ عليها يُعذر المتزندق صنَّاعَ اليدين فيهما يتأنق^٣
لديهم وللأحياء يُبلي ويخلق بما لم يكن عند النهي يتحقق
فلما قضى سال الثنا يتدفق بمينَ فظل الغرس ينمو فيبسقُ^٤
تُقَام له سوقُ الثناء فتنفُقُ^٥ وأقدمهم عهداً أغضُّ وأسمقُ^٦

^١ الأولق: الجنون.

^٢ لغيزاء: تصغير لغز.

^٣ رجل صنع اليدين وصناع اليدين وصنيع اليدين: حاذق ماهر في العمل بهما.

^٤ المين: الكذب.

^٥ تنفق: تروج.

^٦ الغضاضة: مصدر الغض، وهو الطري من النبات واللحم ونحوها.

كأن كرامات الفقيد بواسق
إذا شطَّ جيلٌ خط من جاء بعده
فما كتب التاريخ في كل ما روت
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا
وما صدقتنا في الحقائق أعين
وهل قد خُصصنا دون من مات قبلنا
يؤبِّرها كر القرون فتعذق!^٧
أكاذيب عنه بالثناء تُزوّق^٨
لقرائها إلا حديثٌ ملفّق
فكيف بأمر الغابرين نصدّق؟
فكيف إذن فيهن يصدق مُهرق؟^٩
بخُبت السجايا؟ شدّ ما نتحمّق!^{١٠}

* * *

لعمرك أقصاني الزمان المفرّق
خليلي هل منّ بالرصافة عالم
بلاد إذا ما هبّت الريح نحوها
أبيت على شوق وقلبي موثّق
إذا ما تذكّرت العجوز بكيئتها
وما شرّقي بالدمع يا أمّ وحده
ويهفو بقلبي الشوق حتى كأنما
فيا أمّ صبراً إن لابنك همّة
تضايق عنها الدهر مستعظماً لها
أكلف منها الدهر ما لا يطيقه
لقد صغرت بغداد عن أن تضمّها
فهل أنا من بعد التشاؤم مُعرق؟^{١١}
بأنّي إلى من بالرصافة شيق^{١٢}
تمنيت لو أنّي بها أتعلق
بهميّ ودمعي فوق خديّ مُطلق
بدمع به الأهداب تطفو وتغرق^{١٣}
ولكن بروحي عند ذكراك أشرق
تخطّفه من بين جنبيّ سوذّق^{١٤}
إلى المجد ترمي أو إلى المجد تسبق
وأهلوه عنها يا أميمة أضيّق
فليس بعار أنني فيه مخفق
وما وسعتها بعد بغداد جلق^{١٥}

^٧ يؤبِّرها: يلقحها. وتعذق: تثمر.

^٨ تزوّق: تخلط وتموه.

^٩ المهرق: نوع خاص من الصحف، كانوا يكتبون عليه كتب المعاهدات ونحوها.

^{١٠} شدّ ما نتحمّق: ما أشد حماقتنا!

^{١١} التشاؤم هنا: الذهاب إلى الشأم، ومعرق: داخل العراق، ويقال: أشأم: فهو مشئم، وأعرق: فهو معرق.

^{١٢} شيق: مشتاق.

^{١٣} يريد بالعجوز أمه.

^{١٤} السوّذق: الصقر أو الشاهين.

^{١٥} جلق: دمشق.

ومنها:

أبت كتب التاريخ للحق مُلتقى
فإن شَرِّقت في الحق فهو مغرَّبٌ
تجور بها الأهواء جورًا وإنما
فيا أيها التاريخ أغرقِ مُغالِيًا
قتلت الورى خُبرًا فليس بخادعي
ولي في بني الدنيا حِصاةٌ رزينة

فبينهما من زُخرف القول مَوْبِقٌ^{١٦}
وإن غرَّبت في الحق فهو مشرِّقٌ
على مُزَلِّقات المَين تمشي فتزَلُّقُ
فما ضرَّ بعد اليوم أنك مُغرِقُ
حديثٌ مُطرَّى أو كلامٌ مُنمَّقُ
إذا طاش حِلْمٌ لا تطيشُ وتُنزَقُ^{١٧}

ومنها:

هذاذِيكَ لا تجفِلَ مقالَ مؤرِّخٍ
كذابٌ على وجه الطروس مسطَّرٌ
فدع عنك لغو الناطقين وخذ بما
فإن ذكروا النعمانَ يومًا فلا تثقُ
فأصدقُ منهم في المسامع لهجةٌ
تنورَتْ وجهَ الحق في ظلماتهم
ملكْتَ من الدنيا حقيقة أهلها

ولا يستفزَّنكَ الكلامُ المشققُ^{١٨}
يَغصُّ به العقل السليم ويشرقُ
رواه من الآثار ما ليس ينطقُ
بأكثَرُ مما قال عنه الخورنقُ^{١٩}
ضفادع في المستنقعات تُنقِنُقُ
فلم أرَ نورًا غيرَ ذا يتألقُ
وإني على الدنيا بها أنصدَّقُ

^{١٦} الموبق: الحاجز بين الشيئين.

^{١٧} حِصاة: عقل. وتنزق: تطيش وتضل.

^{١٨} هذهذ: أسرع، وهذاذيك: إسرَاعًا بعد إسرَاع. الكلام المشقق: الفصيح الذي ذهب فيه القائل مذاهب

التجميل والتحسين.

^{١٩} الخورنق: من آثار ملوك الحيرة، يريد لا تثق بأخبار الكتب، وعوّل على ما ينطق به البناء من عظمة صاحبه.

جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي

فَنَغِيْطُ مِنْ أَسْلَافِنَا كُلِّ مَفْضَالٍ!
وَكَمْ عِبْرَةٍ فَيَمُنْ تَقْدَمُ لِلتَّالِيِ!
فَقَدْ دَرَسْتَ إِلَّا بَقِيَّةَ أَطْلَالِ
بِجَهْلِ، وَهَلْ تَصْفُو الْحَيَاةَ لَجُهَّالِ
تَحْسَى مِنْ الصُّهْبَاءِ عَشْرَةَ أَرْطَالِ^١
يَقُومُ وَأُخْرَى يَنْهَوِي فَوْقَ أَوْحَالِ
فَتَقْذِفُهُ الْجِدْرَانِ قَذْفَةَ عَذَالِ

أَلَا لَفْتَةً مَنَا إِلَى الزَّمَنِ الْخَالِيِ
تَلَوْنَا أَنَاسًا فِي الزَّمَانِ تَقْدَمُوا
أَلَا فَاذْكُرُوا يَا قَوْمَ أَرْبَعِ مَجْدِكُمْ
تَطْلُبْتُمْ صَفْوَ الْحَيَاةِ وَأَنْتُمْ
وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَسُكْرَانَ طَافِحِ
مَشَى بَارْتَعَاشٍ فِي الطَّرِيقِ فَتَارَةٍ
يَمْدُ إِلَى الْجِدْرَانِ كَفَّ اسْتِنَادَةٍ

* * *

وَأَوْسَعْتَهُمْ عَذْلًا فَلَمْ يُجِدِ تَعَذَالِي^٢
بِدَمْعِي حَتَّى بَلَ دَمْعِي سِرْبَالِي
كَأَنَّ عَلَى أَمَاقِهَا نَضَحَ جُرْيَالِ^٣
عَلَى أَفْقٍ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَنِ الْخَالِيِ^٤

رَمَى الدَّهْرُ قَوْمِي بِالْخُمُولِ فَلَمْتَهُمْ
فَهَاجَ الْبُكَاءُ يَأْسِي فَلَمَّا بِكَيْتَهُمْ
نَظَرْتُ إِلَى الْمَاضِي وَفِي الْعَيْنِ حُمْرَةٌ
فَشَمْتُ بِرُوقِ الْأَوَّلِينَ مَنِيرَةٌ

^١ تحسى: شرب. الصهباء: الخمر.

^٢ العذل والتعذال: اللوم.

^٣ الآماق: جمع مؤق، وهو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين. النضح: رشاش الماء

ونحوه. الجريال: صبغ أحمر.

^٤ شمت: نظرت، والوشيم: هو النظر إلى البرق خاصة.

«تَنَوَّرَتْهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلَهَا
وَقَلَّبْتُ طَرْفِي فِي سَمَاءِ رَجَالِهَا
فَأَنَسْتُ أَثَارًا وَهَمَّ سِلْكِ دَرْهَا
وَلَمَّا طَوَيْتُ الدَّهْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
قَعَدْتُ بِأَوْسَاطِ الْقُرُونِ فَجَاءَنِي
فَتًى عَاشَ أَعْمَالًا جَسَامًا وَإِنَّمَا
حَكِيمٌ رِيَّاضِي طَبِيبٌ مَنْجَمٌ
أَتَى فِيلَسُوفًا لِلنَّفُوسِ مَهْذَبًا
لَقَدْ طَبَّبَ الْأَرْوَاحَ مِنْ دَاءِ جَهْلِهَا

بِثَرَبٍ أَدْنَى دَارِهَا نَظْرُ عَالٍ^٥
وَهُمْ فَوْقَ عَرْشِ الْجَلَالَةِ مُحَلَّلٍ^٦
وَأَبْصَرْتُ أَعْمَالًا وَهَمَّ جِيدِهَا الْحَالِي
عَلَى بَعْدِ أَزْمَانٍ هُنَاكَ وَأَجْيَالٍ
«أَبُو بَكْرٍ الرَّازِي» فَقَمْتُ لِإِجْلَالِ
تَقْدِيرِ أَعْمَارِ الرِّجَالِ بِأَعْمَالِ
أَدِيبٍ وَفِي الْكَيْمِيَاءِ حَلَّالٍ إِشْكَالِ
بِأَفْضَلِ أَفْعَالٍ وَأَحْسَنِ أَقْوَالِ
كَمَا طَبَّبَ الْأَجْسَامَ مِنْ كُلِّ إِعْلَالِ

مولده

تولد عام الأربعين الذي انقضى
إلى زكريا ينتمي، إنه له
على حين كانت بلدة الري عادة
مدارس بالشبان تزهو ودونها
بها جل درس القوم طب وحكمة
وكانت نفيسات الصنائع عندهم
وما كان هذا الحال في الري وحدها
فإن هدى الإسلام أنهى فتوحه

لثالث قرن ذي مآثر أزوال^٧
أب تاجر في الري صاحب أموال^٨
إلى العلم تعطو جيدها غير معطال^٩
كتاتيب للتعليم تزهو بأطفال
وفلسفة فيها لهم أي إيغال
يحاولها ذو الفقر منهم وذو المال
بل الحال في البلدان طرا كذا الحال
وأصلها للحد أحسن إيصال

^٥ تنورتها: تبصرتها. أذرعَات: بلد بالشام. يثرب: اسم المدينة المنورة.

^٦ المحلل: المكان الذي يحل كثيرا، وهو صفة لعرش.

^٧ أزوال: جمع زول، وهو العجب.

^٨ الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن.

^٩ تعطو: ترفع، المعطال: التي ليس في جيدها حلي.

وبدَّلَ أبطال الحروب من الورى
فدارت رحى تلك العلوم وقطبها
وكانت يد المأمون في ذاك أخجلت
بأبطال علم للجّهالة قُتال^{١٠}
ببغداد مركزاً بريوة إجلال
لسان العُلا في شكره أيّ إخال

منشؤه

تدرّج في تلك المدارس ناشئاً
تعلم فنّ الصوت بادئ بدئه
فكانت بموسيقى اللحون دروسه
وقد جاوز العشرين سنّاً ولم يكن
فرام أبوه منه تحويل عزمه
فقال له: دعني مع العلم إنني
وهل يستطيع المرء شغلاً إذا غدا
هناك استقى الرازي من العلم شربه
ثنى سعيه نحو التعلم بادئاً
وقد كان مفتاح العلوم تفلّسُفُ
فزاوّل أنواع العلوم تنقلاً
نضا همّة في العلم مشحودة الشبا

مُترجمُنّا يسعى بجِدٍ وإقبال^{١١}
ومارس تفصيلاً به بعد إجمال
تَغَنَّى بإهزاج وتشدو بإرمال^{١٢}
لشيءٍ سوى فنّ الغناء بميال
بجذب إلى شغل التّجار وإدخال
إذا ما أمتّ الجهل أحييتُ آمالي
له شاغل بالعلم عن كل أشغال؟!
فجاد بإعلالٍ له بعد إنهال^{١٣}
بعلم لدى أهل التفلسف ذي بال
تُفكُّ به من جهلهم كلُّ أغلال
بأبين أوضاع لها غير أغفال^{١٤}
جلت ما لحرب الجهل من ليل قسْطال^{١٥}

^{١٠} قتال: جمع قاتل.

^{١١} مترجمنا: يعني أبا بكر الرازي.

^{١٢} الإهزاج: مصدر أهزج المغني إذا أتى بالهزج. الإرمال: مصدر أرمل المغني إذا أتى بالرمل، وهو لحن من ألحان الموسيقى.

^{١٣} الإعلال: السقي بعد السقي. الإنهال: السقي الأول.

^{١٤} الأوضاع: جمع وضع، وهو الضوء، وبياض الصبح. الأغفال: جمع غفل، وهو ما لا علامة فيه توضحه وتبينه، طريقاً كان أو غيره.

^{١٥} نضا: جرّد. مشحودة: مسنونة. الشبا: جمع شباة، وهي حد السيف. القسْطال: الغبار، أو هو خاص بغبار الحرب.

وقد أكمل الطب المفيد قراءةً على الطبري الحبر أحسن إكمال^{١٦}

سياحته

ومذ جاوز الرازي الثلاثين واغتنى
رأى من تمام العلم للمرء أنه
وما العلم إلا بالسياحة إنها
فقام وشدّ الرحل والغرز وامتطى
فجاء بلاد الشام تَوًّا وجازها
وخاض عُبَاب البحر للغرب قاصداً
ففيها احتلاه العز مذ لاح طالعا
وحلّ حلول البدر في السعد نائلاً
وهبَّ هبوبَ الرِّيح ثَمَّةً ذكره
وودَّعها من بعد ذلك راجعاً
ومنها إلى بغدادَ سافر قاطعاً
فألقي عصا التسيار من عرصاتها
وبغدادُ كانت وهي إذا ذاك جنة
كأن رجالَ العلم في غُرُفاتها
فكم محفل للكتب فيه خزانة

مُدلاً على أقرانه أيّ إدلال^{١٧}
يسيح بضرب في البلاد وتجوال
لمن عملوا في علمهم درس أعمال
لقطع الفيافي متن هُجاء شملال^{١٨}
إلى مصر في وخدٍ حثيث وإرقال^{١٩}
مواطن للإسلام لم يسّله السالي
لها كهلال يُجتلى عند إهلال
بقُرطبة آماله ناعم البال
يطيرُ على صيتٍ من العلم جَوّال
إلى مَصْرٍ لا توديع مُستكره قال^{٢٠}
إليها الفلا ما بين حلّ وترحال
بمغرس عرْفان وَمَنِبِت إفضال
بها العلم أجرى منه أنهارَ سلسال
بَلابلُ تشدو غُدوة بين أدغال
وكم مرصد دانٍ وكم مَرَقَب عال^{٢١}

^{١٦} الحبر: العالم.

^{١٧} أدلّ على أقرانه إدلالاً، فهو مدل: بمعنى تاه عليهم وتعال.

^{١٨} الرحل: مركب للبعير. الغرز: ركاب الرحل من جلد، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب. امتطى: ركب. الفيافي: الأراضي المقفرة. المتن: الظهر. الهجاء: الناقة السريعة السير. الشملال: الناقة السريعة الخفيفة.

^{١٩} الوخذ: سير البعير السريع، حثيث: سريع. الإرقال: الإسراع، أو هو نوع من سير الخب.

^{٢٠} قال: مبغض.

^{٢١} المراد بالمرصد والمرقب هنا: المكان الذي ترصد فيه النجوم وترقب.

ولما غدا الرازي ببغدادَ باسطاً
أقيمَ لمارستانها عن كفاية
فرتب مرضاه وأصلح شأنه
وظل به يسعى طبيباً مُمرّضاً
ويُلقي السريريّات وهي مسائلٌ
فقد كان يلقيها على القوم ناطقاً
من العلم أبواعاً له ذات أطوال^{٢٢}
رئيساً بتطبيبٍ وتدبير أحوال
بما كان لم يخطر لسابق أجيال^{٢٣}
ويبذل جهداً لم يكن فيه بالآلي^{٢٤}
لدى سرُّ المرضى تقرّر في الحال
بأوضح تبيانٍ وأحسن إملال^{٢٥}

مآثره العلمية

لقد أشغل الرازي ببغدادَ شغلَهُ
فَقَضَى بها أيّامه في تجاربٍ
فلُقب فيها بالمجرّب حرمةً
وأصبح مشهوراً بأسنى مآثرٍ
فإن أبا بكرٍ لأوّل مفصح
وأوّل من أبدى لهم كيف يُبتنى
وألّف في المستشفيات مؤلّفاً
ولا تنس للرازي الكحول فإنه
ومن عمل الرازي انعقاد لسكّرٍ
عدا الطب في الكيمياء أعظم إشغال
وواصل أبكاراً لهم بأصال^{٢٦}
تفرّد مخصّصاً بها بين أمثال
من العلم لم يُسبق إليها وأعمال
إلى الناس بالدرس السريريّ مقوال
ويُفرش مارستانهم قصد إبلال^{٢٧}
تقصى به في وصفها دون إغفال
يجدّد طول الدهر ذكره في البال
وما كان في محصوله غير سيّال

^{٢٢} الأبواع: جمع باع، وهو قدر مد الذراعين، ويكنى به عن الشرف والفضل، كما هنا. ذات أطوال: ذات أفضال، وهو جمع طول.

^{٢٣} إن أبا بكر الرازي هو أول من وضع نظاماً لترتيب المستشفيات وبنائها.

^{٢٤} الآلي: المقصر.

^{٢٥} الإملال: الإملاء.

^{٢٦} الإبكار: هو من طلوع الشمس إلى الضحى.

^{٢٧} مصدر أبل المريض بمعنى شفي من مرضه.

أخلاقه

وليس سوى حُسن الخلاق من جالِ
وذو الجهل إن أخلاقه حسنت غالِ
له حسنُ خلقٍ لم يزن وزنُ مثقالِ
لأقبح منها وهي في خلق جهالِ
بأحسن أخلاق وأشرف أفعالِ
بدأت بحرف الحاء والميم والdal
بكل هزيل الجسم من سُقم إقلالِ
ويفتقد المرضى بفحص وتسألِ
لتطبيب أوجاع وتأمين أوجالِ^{٢٨}
لتعليم علم أو لإعطاء سُؤالِ
بدحض خصوم العلم من كل هزالِ
سعى كاذباً في طَبِّه سَعْيٍ إضلالِ
بعيداً عن الإلحاد ليس بختالِ
لزيغ فقد أغناك عنهن إجمالي

أرى العلم كالمرآة يصدأ وجهه
أخو العلم لا يغلو على سوء خلقه
ولو وازن العلم الجبال ولم يكن
وإن المساوي وهي في خلق عالم
ولكننا الرازي قد ازدان علمه
خلائق غرٌّ إن أردت بيانها
فتى كان مملوء الجوانح رحمة
يزور بيوت البائسين بنفسه
ويأتيهم بالمال والعلم مُسعداً
وما كان يقنو المال إلا لبذله
وكان حليف الجد لم يألُ جهده
فكم راح مخذولاً به متطببٌ
وكان سليماً في العقيدة قلبه
وخلُ تفاصيل الألى ينسبونه

عودة إلى الريّ

مضى قافلاً للريّ شوقاً إلى الآلِ
طبيباً لدى المنصور صاحبها الوالي
كتاباً حوى في الطب أحسن أقوالِ
وعاد أخوا همّ شديدٍ وبَلبالِ
يجول من الفقر الشديد بأسمالِ

ولما قضى الرازي ببغداد بُرْهة
فلما أتى تلك البلاد غدا بها
وألف للمنصور إذ ذاك باسمه
ولم تصفُ للرازي أواخرَ عمره
فقد عميت عيناه من بعدُ واغتدى

^{٢٨} الأوجال: جمع وجل، وهو الخوف.

وإنِ عِدَاءَ الدهرِ شَنِشْنَةً له
ولما انتهى نحو الثمانين عمره
ولكنه في الناس خَلَفَ بعده
فكم كتبَ أبقى بها الذكر في الوري
وما ضرَّ من أحيا له العلمُ بعده
وإني وإنِ طَنَّبْتُ في بحرِ علمه
وها أنا أنهي القول لا لتمامه
وأجعل هذا الشعر مسكًا ختامه
«لعمري وما أدري وقد آذن البلى
«وأيّن محل الروح بعد خروجها

يصول بها قهراً على كل مفضل^{٢٩}
قضى نحبه من غير مالٍ وأنسال
من العلم آثاراً قليلة أمثال
وألّفها نسجاً على خير منوال
على الدهر ذكرًا أنه مَيِّتٌ بال
لمقتصر منه على بعض أوْشال^{٣٠}
ولكن بعجزي عن نهوضِ بأجيال
بما قال في بيتين معناهما حال:
بعاجل ترحالٍ إلى أين ترحالي»
من الهيكل المنحلّ والجسدِ البالي»

^{٢٩} الشنشنة: العادة.

^{٣٠} الأوشال: جمع وشل، وهو في الأصل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

الحرب في البحر أو وقعة توشىما بين الروس واليابان

سَعَرُوهَا فِي الْبَحْرِ حَرْبًا ضَرُوسًا
قَرَّبَ «جُوشِيمَ» قَدْ تَصَادَمَ أُسْطُو
يَوْمَ «طُوغُو» دَهَا بِأُسْطُولِهِ الرُّو
فَحْدَاهَا بِوَارِجًا تَمْلَأُ الْبَحْرَ
كُلَّ مَخَّارَةٍ إِذَا حَرَّكَتْ دُفًّا
مَذْ بَنُوها لَهُمْ كُنَيْسَةٌ حَرْبٍ
عَرْشُ بَلْقَيْسٍ فِي الْمَنَاعَةِ لَكِنْ
أَلْبَسُوهَا مِنَ الْحَدِيدِ وَشَاحًا
وَإِذَا تَنْشَرُ الْبَنُودَ النَّصْبَ
وَإِذَا جَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ لَيْلٌ
قَدْ أَبَى بِأَسْهَى الشَّدِيدِ سِوَى الْفَوْ
سَيَّرُوا الْبَرْقَ بَيْنَهُنَّ رَسُولًا

تَأْكُلُ الْمَالَ نَارُهَا وَالنَّفُوسَا
لَنْ أُرْدَى الْيَابَانَ فِيهِ الرُّوسَا
سَ قَتَالًا وَكَانَ يَوْمًا عَبُوسَا
رَ وَقَارًا طَوْرًا وَطَوْرًا بُوْسَا
عَهَا خَضَخَضَتْ بِهِ الْقَامُوسَا^١
تَخَذَتْ كُلَّ مِدْفَعٍ نَاقُوسَا
قَدْ حَكَتْ فِي احْتِشَامِهَا بَلْقَيْسَا
فَتَهَادَتْ عَلَى الْعِبَابِ عَرُوسَا^٢
رَ فِيهَا تَخَالَهَا الطَّائُوسَا
أَطْلَعَ الْكَهْرِبَاءَ فِيهَا شَمُوسَا^٣
لَا ذِرْعًا لَجَسْمِهَا وَلِبُوسَا
صَادَقًا لَيْسَ يَعْرِفُ التَّدْلِيْسَا

^١ الدفاع: الشيء العظيم يدفع به مثله؛ وأراد به ما يكون في مؤخرة الباخرة ليدفعها للسير. خضخضت:

هيجت وحركت. القاموس: البحر.

^٢ العباب: معظم الماء.

^٣ جنَّها: سترها.

فهو فيها لسان صدق يؤدّي دون سلكِ كلامها المأنوسا
إنما سلكه الأثير الذي را حَ بطيٍّ اهتزازَه مَدسوسا
جَهزوها مَدافعًا فغرت أفـ سواه نار قد التقمّن الشّوسا^٤
دلّعت ألسنًا من النار حُمرا ويلَ من قد غدا بها ملحوسا
ترسلُ الموتَ في قنابلٍ كالشَّهـ ب ذريعًا مستأصلاً عتريسا^٥
طالما بانفجارها انفلقَ البحـ ر انفلاقًا مُذكّرًا عهدَ موسى

* * *

بث أسطوله فلبّسه «طو غو» بأسطول خَصمه تلبيسا
حيث قد أجفلت من اللجج الحيـ تان تخشى من اللهب مَيسا
وعلا البحرَ مكفهزُ غمام من دُخانِ همى ولكن بُوسى^٦
ثارَ طرأدهم يَجيشُ بنسا فات سُفنٍ لهم سجرنَ الوطيسا^٧
كجبالٍ قرى البراكينَ فيها تقذف الموت جارقًا والنحوسا
فأباحوهم هُنالك قتلاً واغتنامًا نفوسهم والنفيسا
فسلِ اليمَّ كم تضمّن منهم مُغرّقًا في عُبابه مغموسا!
هاجموه وللهاج سعيـ ملأت واسعَ الخضمِّ حسيـ
فكسوهم من الهوان لبوسًا وسَقوهم من المنون كُوسا
صرعت في الوغى ليوث من اليا بان أسطولَ خصمها مفروسا
فانتضوها عزائمًا ماضيات طأطأ الروسُ دُونهنَّ الرءوسا
وجلوها في الروع بيضَ فعالٍ أقرأتهم كُتُبَ الفخار دروسا
إنَّ يومًا لهم تقضى بجوشيـ ما ليومٌ بالذكر زان الطروسا

^٤ الشّوس: جمع أشوس. يطلق على الذي ينظر بمؤخر عينه تكبرًا أو تغيظًا، وعلى الجريء على القتال الشديد.

^٥ الذريع من الخيل: الخفيف السير والواسع الخطو، ويقال: موت ذريع: أي قاسٍ. العتريس: من معانيه: الجبار الغضبان، والغول الذكر، والداهية، والضابط الشديد.

^٦ البوسى: ضد النعمى.

^٧ سجرن: أشعلن.

بات «طوغو» يجني الأمانى إذ با	ت قنوطاً عدوّه ويئوسا
قائد لم يرد لظى الحرب إلا	مُصدرًا رأيه لها جاسوسا
تاه أسطوله على اليمّ عجبًا	حين أضحى لمثله مرءوسا
إنّ شهمًا تقلد العقل سيفًا	لحريّ بأن يكون رئيسا
ومليگًا ولّى الأمور ذويها	لجدير بملكه أن يسوسا
وسل البر عنهم كم سعوا فيـ	ه خميسًا عرمرمًا فخميسا ^٨
رَجَلَةٌ يملأ الفضاء وخيلًا	حملت للوغى الكمأة الشُّوسا ^٩
صوّبوها بنادق تطلق المو	ت رصاصًا به أبادوا النفوسا
هكذا شيّدوا بناء المعالي	هكذا أحسنوا لها التأسيسا

^٨ الخميس: الجيش.

^٩ الكمأة: جمع كمي، وهو الشجاع.

هولاكو^١ والمستعصم^٢

ولم يتَّدد إما تمخض بالخطبِ
فيظهر في بُردين لِلجِدِّ واللُّعْبِ
ولا هو في حرب فنقعد للحربِ
فيهجم زحفًا في زعازعة النكبِ
ويهبط بالموزون ذي الثمن المربي^٣
أدالَ بني عباسها من بني حَرْبٍ^٤
لعمرك من ملك العلوج على العرب^٥
زمانًا وعادت بعدُ مخرقة الشرب^٦

هو الدهر لم يرحم إذا شدَّ في حربِ
يُزمر أحيانًا ويضحك تارة
فلا هو في سلْم فناءً من بطشه
يسالم حتى تأخذ القومَ غرةً
أرى الدهر كالميزان يصعد بالحصى
أدالَ من العُرب الأعاجم بعدما
ولم أرَ للأيام أشنع سُبَّة
صفت لبني العباس أحواضَ عزهم

^١ هولاكو: هو الذي أسر المستعصم بالخدعة، ثم قتله وامتلك بغداد بعد أن قتل ما لا يحصى من العلماء والصحاء وعامة الأهليين.

^٢ المستعصم: هو آخر خلفاء بني العباس وكان ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته؛ لسوء تدبيره.

^٣ المربي: الزائد.

^٤ يقال: أدال الله بني فلان من عدوهم؛ أي جعل الكرة لهم عليهم، وأدال الله زيدًا من عمرو؛ أي نزع الدولة من عمرو وحولها إلى زيد.

^٥ السبّة: العار. العلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفّار الأعاجم.

^٦ مخرقة: فاسدة ذات حمأة.

عنت لهم الدنيا فساسوا بلادها
فكانوا طفاح الأرض عزاً ومنعة
لقد ملكوا مُلكاً بكت أخرياته
تشاغل بالذات عن حَوط ملكه
أطال هجوداً في مضاجع لهوه
لقد غرّه أنّ الخطوبَ روابضُ
فكان كمروانَ الحمارِ إذ انقضت

بعدل أضاء الملك في سالف الحُقب
خلائف ساسوا بالسيوف وبالكُتب
بدمع على المستعصم الشهم مُنصبٌ
فدارت على ابن العلقميّ رَحى الشَّغب
على ترفٍ والدهر يقظانُ ذو ألبٍ
ولم يدر أن الليث يربض للوثب
به دولةٌ مدّت يدَ الفتح للغرب^٧

* * *

جرت فتنةٌ من شيعة الكرخ جلّحت
فقامت لدى ابن العلقميّ ضغائنُ
فأضمرَ للمعتصم الغدر وانطوى
وخادعه في الأمر وهو وزيره
فأبعد عنه في البلاد جنوده
ودسّ إلى الطاعي هُلاكو رسالةٌ
وقال له: إن جئت بغداد غازياً
فثار هُلاكو بالمغول تؤمه
وقاد جيوشاً لم تمرّ بمخصب
جُيوش ترد الهضب في السير صفصفاً
فما عتّمت حتى بنت بغبارها
ولما أبادت جيشَ بغداد هالكا

على شيعةٍ في الكرخ بالقتل والذهب^٨
تحجّرُن من تحت النياط على القلب^٩
على الحقد مدفوعاً إلى الغش والكذب
مواربة إذ كان مستضعف الإرب
وشتتهم من أوب أرضٍ إلى أوب^{١٠}
مُغلغلةً يدعوه فيها إلى الحرب^{١١}
تملكتها من غير طعنٍ ولا ضرب
كتائبٌ خضرٌ تضرب السهل بالصعب
من الأرض إلا عادَ ملتهب الجذب
وتعركُ في تسيارها الجنبَ بالجنب
سماءً على أرض العراق من الترب
على رَغم فتح الدين قائده النذب

^٧ مروان الحمار: وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم.

^٨ جلع عليه: أي أقدم عليه إقداماً شديداً وكاشفه بالعداوة.

^٩ النياط: الفؤاد، وعرق نيط به القلب إلى الوتين، فإذا قطع مات صاحبه. وابن العلقمي هذا وزير

المعتصم: هو الذي كاتب هولاء بأن يحضر ويغزو بغداد انتقاماً من الخليفة وابنه أبي بكر.

^{١٠} الأوب: الجهة.

^{١١} الرسالة المغلغلة: المحمولة من بلد إلى بلد.

أقامت على أسوار بغداد بُرهةً
فضاق عليها بالحصار خناقها
وقد حُمَّ فيها الأمن بالرعب فانبرت
هناك دعا المستعصم القوم باكيًا
فأبدى له ابن العلقمي تحزنًا
وقال له: قد ضاق بالخطب ذرعنا
فكم نحن نبقي والعدو محاصرٌ
وماذا عسى تجدي الحصون بأرضنا
فدع «يا أمير المؤمنين» قتالهم
ولسنا «وإن كانت كبارًا قصورنا»
فهادنه واخرج في رجالك نحوهُ
وإلا فإنَّ الأمر قد جدَّ جدّه

تعض بها عَضُّ الثقاف على الكعب
وغصت بكرب يا له الله من كرب!
له رُحضاء من عيون أولي الرعب^{١٢}
بدمع على لَحْيَيْهِ منهملٍ سكب
طوى تحته كَشْحًا على المكر والخب
وأنت ترى ما للمغول من الخطب
نُذْلٌ ونشقى في الدفاع وفي الذَّبِّ
وهم قد أقاموا راصدين على الدرب
على هُدْنَةٍ تبقيك ملتئم الشعب
نردُّ هُلاكو بالقتال على العقب
وصاهِرُهُ واشدد منه أزرِك بالقرب
وليس سوى هذا لصدعك من رأبٍ

* * *

فلما رأى المستعصمُ الخرقَ واسعًا
مشى كارهاً والموتُ يُعجل خطوه
وراح بعقد الصُّلح يجمع شمله
فأمسكه رهناً وقتلُ صاحبه
وأغرى ببغدادَ الجنودَ كما غدا
فظلَّت بهم بغدادُ تُكلى مُرْنَةً
وجاسوا خلال الدور ينتهبونها
وأمسى بهم قصر الخلافة خاشعًا
وباتت به من واكف الدمع بالبكا

وأن ليس للداء الذي حلَّ من طِبِّ
يَوْمٌ لَفيفًا من بنينَ ومن صحب
كمن راح بين النُّون يجمع والضَّبَّ!^{١٣}
هُلاكو ولم يسمع لهم قط من عتب
بأدماء يغري كلبه صاحب الكلب
تفجَّع بين القتل والسَّبي والنَّهبِ
وصبوا عليها بطشهم أيما صبَّ
مهتكة أستاره خائف السُّرْبِ
عيون المها شتراء منزوعة الهُدْبِ

^{١٢} الرحضاء: عرق يتصبب عقيب الحمى، ومعنى البيت: أن الأمن لما صار محمومًا بالرعب، كانت
رحضاؤه الدموع المنسكبة من عيون المرعوبين.

^{١٣} النون: الحوت. والضَّبُّ: حيوان يعيش في البر، والمعنى أنه راح يجمع بين الضدين.

وراحت سبايا للمغول عقائل من اللأء لم تمدد لهن يد الثلب
لقد شربوا بالهون أوшал عزها وما أسأروا شيئاً لعمرك في القعب
فقلص ظلّ كان في الملك وارقاً وأمحل ملك كان مغلولب العشب

* * *

لقد بات إذ ذاك الخليفة جائئاً على الخسف مرقوباً بأربعة غلب
وخارت قواه بالسُّعار لمنعه ثلاثة أيام عن الأكل والشرب^{١٤}
فقال، وقد نقت ضفادع بطنه: ألا كسرة يا قوم أشفي بها سغبي؟
فقال هلاكو: عاجلوه بقصعة من الذهب الإبريز واللؤلؤ الرطب
وقولوا له: كل ما بدا لك إنها لآلئ لم تعبت بهن يد الثقب
ألست لهذا اليوم كنت أدخرتها؟ فدونك فانظر هل تنوب عن الحب!
وكنّت بها دون الممالك معجّباً وفاتك أن المقت من ثمر العجب
ولو كنت في عز البلاد أهنتها وأنزلت منها الجند في منزل خصب
لما أكلتك اليوم حربي وإن غدت تذيب لظاها عنصر الحجر الصلب
سأبذلها دون الجنود أزيدهم صيلاً بها فوق المطهّمة القُب^{١٥}
وسوف وإن لم يبق إلا حديثنا تميز ملوك الأرض دأبك من دأبي

* * *

هنالك والطوسي أفتى بقتله فروه بقتل أدب أفجع الأدب
أشار هلاكو نحو علج فتلّه فخر صريعاً لليدين وللجنب
فأدرج في لبّد وديس بأرجل إلى أن قضى بالرّفس ثمة والضرب^{١٦}
وقد أثخنّت بغداد من بعد قتله جروح بوار جاء بالحجج الشهب^{١٧}
وما اندملت تلك الجروح وإنما ببغداد منها اليوم ندب على ندب

^{١٤} السعار: الجوع.

^{١٥} صيلاً: شدة واستطالة. والمطهّمة: يريد الخيل المطهّمة، وهي الخيل البارة الجمال. والقب: جمع أقب، وهو الضامر، وهو من صفات جياد الخيل، وخاصة جياد الحرب.

^{١٦} أدرج: لف.

^{١٧} الحجج: السنون. والشهب: جمع شهباء، وهي البيضاء، كناية عن سنة الجذب والقحط والجوع.

أبو دلامة والمستقبل

قضت المطامع أن نطيل جدالا
في كل يوم للمطامع ثورة
ما ضرَّ من ساسوا البلاد لو أنَّهم
أمنَ السياسة أن يقتل بعضنا
لا درَّ درُّ أولي السياسة إنهم
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها
نثروا الدماء على البطاح شقائقا
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها
قالوا: كرهت الحرب؟ قلت: لأنها
وأجلت فكري في الحروب فلم أجد
طاشت منافعها الصغار عن الورى
ما أجشع الحرب الضروس، فإنها

وَأَبَيْنَ إِلَّا بَاطِلًا وَمِحَالًا^١
باسم السياسة تستجيش قتالا
كانوا على طلب الوفاق عيالا^٢
بعضًا ليدرك غيرنا الآمالا
قتلوا الرجال وَيَتَّمُوا الأطفالا
بدم هريقٍ على الثرى سيالا
وتوهموها الروضة المحللا^٣
سبقًا ولا ترةً ولا أنحالا^٤
دارت لتغتصب الحقوق ألا^٥
أبدًا لهنَّ سوى الخمر مثالا
ورست مآثمها الكبار جبالا
تحسو النفوس وتأكُل الأموال!

^١ المحال: المكر والكيد والاحتيال.

^٢ عيالًا: جمع عيل، يريد متكلمين.

^٣ الروضة المحلل: التي يحلها الناس كثيرًا، ويطلبونها.

^٤ الأنحال: جمع نحل، وهو بمعنى الترة؛ أي الثأر والحقد والعداوة.

^٥ الألال: كسحاب؛ الباطل، وهو هنا نائب عن المفعول المطلق؛ أي اغتصابًا باطلاً.

كم سَحَّ من رهج الحروب على الرُّبَا وبل الدماء فَزَادَهَا إِحْلالاً
لولا الحروب ومحرقات صواعق منها لأَبْقَلَتِ الرُّبَا إِبْقَالاً
قَبَحَتْ بنا الأرض الفضاء وما حوت في غير ما زَمَنِ الْفِطْحَلِ جَمَالاً^٦

* * *

أَبْنِي السياسة إن سَلَكتُم بالورَى طُرُقَ الرشاد فَعَلِمُوا الْجُهْلَالاً
إن جرت الحربُ الكَمالَ لأمّةٍ فالعلم أحرى أن يَجِرَّ كَمالاً
إن الحياة كثيرة أعمالها فدَعُوا الأَنام وحاربوا الأَعْمالاً
وتقَحَّمُوا حرب الحياة فإنها للحرِّ أَضيق مَأزِقاً وَمَجالاً
واستلثمُوا زَرَدَ الوفاق وأُشْرَعُوا فيها تعاونكم قَنّاً ونصالاً^٧
واقنُوا لكم بيضُ المساعي شُرْباً تجري رَعالاً لِلْمُنَى فرعالاً^٨
واعلُوا على صَهواتهنَّ رواكضاً للمَكْرَماتِ تُسابقُ الأَجالاً
ودعُوا صيالاً في المَلاحمِ إنَّ في هذي الحياة مَلاحمًا وصيالاً
أَوَكَلَّمَا طمع القويُّ شِراهُةً أكل الضعيفَ تحيِّفًا واغْتالاً؟!
لا غَرَوْ أن يلدَ الزمانَ بمرِّه كأبي دُلَامَة من بنيهِ رجالاً
إذ راح يقتل بالعواطفِ قِرْنَهُ قتلاً أدام حياتهِ وأَطالاً
إذ جَهَّزَ «المنصور» جيشاً قَادَهُ «رَوْحٌ» يريد من «الشِراة» قتالاً^٩
فمضى وفيهِ أبو دُلَامَة مُكْرَهًا للحرب أخرج كي يُصِيب نكالا
حتى إذا التقت الجيوشُ وعُبِّئَتْ صفًا وصفًا يَمْنَةً وشمالاً
برزَ الكميُّ من الشِراة مُجَرِّدًا للسيف يطلب من يُطِيق نزالاً
فأجال رَوْحٌ في الجنود لحاظه والقوم ينتظرون منه مَقالاً^{١٠}

^٦ زمن الفطحل: زمن قديم قبل أن يخلق الناس على الأرض.

^٧ استلثموا: البسوا اللأمة، وهي الدرع.

^٨ شزبا: جمع شازب، وهو الضامر من الناس أو الخيل من غير هزال. والرعال: جمع رعيل، وهو الجماعة من الخيل.

^٩ الشراة: هم الخوارج، وروح: قائد من قادة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

^{١٠} لحاظه: نظره بلحاظ عينه، وهو في مؤخرها.

فدعا إليه أبا دُلَامَة قائلًا: يا ليثُ دونك ذلك الرُّبَالَا^{١١}
فجرى إليه أبو دُلَامَة هازلًا ثم استقال فلم يكن ليقلًا
فشكا لِرُوحِ جِوَعَه فأزاده بدججتين، وحثه استعجالًا
فانصاع عن عَجَلٍ وسمط زاده ومضى يُخَبُّ لقرنه مختالًا^{١٢}

* * *

فأتى وقد شَهر الكميُّ بوجهه سيفًا يَرُوع غراره الأغوالا^{١٣}
فدنا إليه أبو دُلَامَة قائلًا: مَهْلًا فَأَغْمِدْ سيفَكَ القصالا
إني أتيت وما أتيت مقاتلًا من لَسْتُ أَطْلُب عنده أذخالا
فاسمعُ مقالة من أتك ولم يكن فيما يقول مُخَادَعًا محتالا
واعلم بأنني لا أخاف مَنِيَّتِي جُبْنًا ولا أَتَهَيَّبُ الأبطالًا
لكن أرى سفك الدماء محرَّمًا وأعيذ رأيكَ أن تراه حلالًا
أمن المروءة أن نُريق دماءنا سَفَهًا لمطمع طامع وضلالًا؟
هل كنتَ من قبل اللقاء رأيتني يومًا؟ وهل منِّي لقيتَ نكالا؟
أم هل طرقتُ خيام قومك جانبيًا؟ أم هل خربتُ بحيهم آبالًا؟^{١٤}
ماذا جرى بيني وبينك قبل ذا مما يجزُّ خصومة وجدالا
حتى شَهرت عليَّ سيفك تبتغي ضربًا يُقَطِّع منِّي الأوصالا؟
فاربأ بنفسك أن تكون من الألى زحفوا جنونًا للوغى وخبالًا
فرأى الكميُّ مقالة متعاليا حَقًّا وكل حقيقة تتعالى
فعنا وأذعن للحقيقة مغمِدًا سيفًا أجادته القيون صقالًا^{١٥}
ولوى العنان من المَطْهَم قائلًا: رُحْ بالأمان فلا لقيتَ وبالا

^{١١} الرُّبَال: الأسد.

^{١٢} انصاع عن عجل: انفتل راجعًا. وسمط زاده: من التسميط، وهو التعليق، يريد أنه علق الزاد على حصانه. والخبب: ضرب من السير متقارب الخطو في سرعة خفيفة. والقرن: الذي ينازلك في الحرب.

^{١٣} الكمي: البطل. والغرار: حد السيف. والأغوال: جمع غول، وهو حيوان منكر الخلقة.

^{١٤} خربت: سرقت، والخارب: اللص.

^{١٥} القيون: جمع قين، وهو صانع السيوف وكل شيء من حديد.

فمشى إليه أبو دلامة مُخْرِجًا زادًا تعلَّق بالسُّمُوط مثالا
ودعاه يا ابنَ أولي المكارم راشداً أكرم أخاك بوقفة إمهالا
إنني لأرجو أن تكون مؤكلي في ذا الشواء ألا تحبُّ إكالا
فتدانيا متخالفين وأقبلا وهما على فرسيهما إقبالا
حتى إذا أكلنا شواءاً أدبرا بعد الوداع وولّيا الأكفالا^{١٦}

* * *

رجعا فसार أبو دلامة ظافراً والمهرُ يجفل تحته إجفالا
حتى اذا وافى الأمير وقام عن كَثِبَ ترَجَّلَ دونه إجلالا
وغدا يقول وكان رَوْحٌ ضاحكاً: إنني كفيْتُكَ قِرْنِي الرُّبَّالا
وقتلته بالقول لا بمهنّدي والحربُ أحرى أن تكون مَقالا
وأخذتُ في الهيجا عليه موثقاً ألا يعود يُنْازلُ الأبطالالا

* * *

إن الهواتف لا تزال بمسمع مِنِّي تقول إذا شكوت الحالا:
لا تياسَنَّ فللزمان تنفسٌ فارقبه أن يتبدَّل الأبدالا
والدهر طاهٍ سوف يُنضجُ أهله بالحداثِ يزيدها إشعالا
إن الدهور وهنٌ أمهر سابك ستردُّ أضداد الوري أشكالا
حتى كأني بالطَّبَّاع تبدَّلت غيرَ الطَّبَّاع وزُلزلت زلزالا
وكأنني ببني الملاحم أصبحوا لأبي دُلامة كلهم أمثالا

^{١٦} الأكفال: جمع كفل، بتحريك الفاء، وهو مؤخر الحصان عند ذيله.

أطلال العلم أو المدرسة النظامية في بغداد

قَوَّضَ الدهرُ بالخرابِ عمادي
كم أنادي وليس لي من مجيبٍ
ضعضع الدهرُ من بنائي أركا
طالما رفرفت من العلم رايا
كنتُ للعلم روضةً باكرتُ أز
وجميع الأنام تضرب أكبا
فالعزالي سَلُهُ بي، وأبا إسـ
سَلُهُ إذ في طلابي الإبلُ النُّجـ
فرمتني صواعق الدهر فانهـ
فبكتني من السماء دَراريـ

وَرَمَتْني يداه بالأنكادِ
وا ضياعاه جهرةً كم أنادي!
نَا شِدَادًا طالت على الأطوادِ
ت فخارٍ مني على بغدادِ
هارها الغرَّ بالعِهادِ الغوادي^١
د المطايا كي تجتني أوراـ^٢
حاق عما حويت من إرشاد^٣
بُ تُحَقِّى مَضْرُوبَةَ الأكبادِ
بنائي وصرت بعض الوهادِ
ها وكانت تَعُدُّ من حُسادي

* * *

أهل بغدادَ ما لأعينكم تغـ مِض عني كأنكم في رُقادي؟!

^١ العهد: جمع عهد، وهو المطر بعد المطر.

^٢ الأوراد: جمع ورد، والمراد به هنا: الجزء الذي يقرؤه العالم من العلم، أو القارئ من القرآن في المرة الواحدة.

^٣ أبو إسحاق: كان من مشيخة بغداد، وإمام المذهب الشافعي بها.

أهلَ بغداد هل ترقُّ قلوبُ
رقَّ حتى قلبُ الجُمادِ لفقدي
أفلا تنجدون مدرسة العِلـ
أين ما شيدَ من نظامي رُبُعي؟
أين تلكِ العلومِ وهَيَّ التي كا
كيف قضتْ خيامها زعزُعُ الدهـ
أقفرْتُ سوحها وقد نعي العِلـ
وتوارت بالجهل ظلمًا وكانت
أيها الدهر كلما شئت فافعل
ورعاني من راح من ظلمه العُد
فرّقوا جمع أمة قبلهم كا
منكم راعها انقضاصُ عِمادي؟!
فلتكوننَّ قلوبكم من جَماد
م وعهدي بكم أولي إنجاد؟!
فلقد كان نُجعة المرتاد
نت ربوعي تُذيعها في البلاد؟
ر وكانت رصينة الأوتاد؟!
م فلاحت تجرُّ ثوبَ الجِداد
خافقًا فوقها لواء الرِشاد
إن حدا في ركائبي غيرُ حاد
ل فقيدًا ميعاده في المَعاد
نت لعمري وحيدة الإتحادِ

في سلايك

قالها عندما زحف جيش سلايك إلى الآستانة بقيادة محمود شوكت باشا؛ وذلك لقمع الحركة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس سنة ١٩٠٨.

لقد سمعوا من الوطن الأنيثا	فضجوا بالبكاء له حنيثا
وناداهم لنصرتِه فقاموا	جميعًا للدفاع مسلّحين
وثاروا من مرابضهم أسودًا	بصوت الإتحاد مُزمجرين
شبابٌ كالصوارم في مضاء	يُروّن، وكالشموس مُنورينا
سلايك الفتاة حوت ثراء	بهم فننّصت عن الوطن الديونا
لقد جمعوا الجموع فمن نصارى	ومن هود هناك ومسلمينا
فكانوا الجيش أُلْف من جنود	مجنّدة ومن متطوعينا
تراهم فيه متّحدين عزماً	وما هم فيه متّحدين ديناً
هي الأوطان تجعل في بنيتها	إخاء في محبتها رصينا
وتتركهم أولي أنفٍ كباراً	يرون حياة ذي ذل جنونا
وأن الموت خير من حياة	يظل المرء فيها مستكيناً

* * *

مشوا والوالدات مشيَّعات	خرجن وراءهم والوالدينا
يقلن وهن من فرّج بواك	وهم من حزنهم متبسمونا
على الباغين منتصرين سيروا	وعودوا للديار مضفرينا
ولا تبقوا الذين قد استبدوا	وراموا كيدنا وتخونونا

فإن لم تنقذوا الأوطان شرًّا بدار الملك كي يستعبدونا
هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا في المواطن مُفسدنا
فما تركوا من الدستور «شورى» ولا أبَقُوا لنُغمته «طنينا»^١

* * *

وكم قد قلن من قول شجِّي لهم فتركهنم متهيِجنا
ومذ حان الوداع دنون منهم فقبَّلن الصوارم والجفونا^٢
وما أنس التي برزت وقالت وقد لفتوا لرؤيتها العيونا:
ألا يا راحلين لحرب قوم لئام ضيعوا الوطن الثمينا
خذوني للوغى معكم خذوني ممرضة لجرحاكم حنونا
وإن لم تفعلوا فخذوا ردائي به سُدُوا الجروح إذا دميना

* * *

ولما جدَّ جدُّهم استقلُّوا على ظهر القطار مسافرينا
فطاروا في مراكبه سراعًا بأجنحة البخار مرفرفينا
وظل الجيش صُبْحًا أو مساءً تسير جموعه متتابعينا
فلم يتصرَّم الأسبوع إلا وهم برُّبا فرُّوق مخيِّموننا^٣
هنالك قمتُ مرتحلًا إليهم لأبصر ما أوْمَل أن يكوننا

* * *

وباخرةٍ علت في البحر حتى حكَّت بعُبابه الحصن الحصينا
يؤثر جريها في البحر إثرًا تكادُ به تظنُّ الماء طينا
فتترك خلفها خطًّا مديدًا بوجه البحر يمكث مستبيننا
ركبت بها على اسم الله بحرًا غدا بسكون لجَّتِه رهيِنا
فرحنا منه ننظر في جمال يعز على الطبيعة أن يهونا

^١ يشير إلى ما حل بجريدة طنين إذ ذاك وبمحل إدارتها من الهدم والتخريب في تلك الحادثة.

^٢ الصوارم: السيوف. والجفون: جمع جفن، وهو الغمد.

^٣ لما حدثت حادثة ٢١ مارس في الآستانة، كان الرصافي في سلاطيك؛ فلذلك قال: هنالك قمت ...

ومرأى البحر أحسن كل شيء إذا لبست غواربه السكوناء
كأنك منه تنظر في سماء وقد طلعت كواكبها سفينا

* * *

أتينا دار قسطنطين صُبْحًا وظل الجيش جيش الله يشفي
فأزهق أنفُس الطاغين حتى وردَّ الخائنين إلى جزاءٍ
وَحَطُّوا قَصْر يلدز عن سماء وأصبح خاشع البنيان يُغضي
خلا من ساكنيه وحارسيه هوى عبد الحميد به هويًا
وأنزل عن سرير الملك خَلْعًا فسيق إلى سلاتيك احتباسًا
ولكن كيف راحة مستبدٍّ يراهم حول مسكنه سياجًا
وموت المرء خير من مقام له بين الذين سَقَوْه هُونا

* * *

لقد نقض اليمينَ وخان فيها وقد كانت به البلدان تشقى
فكم أذكى بها نيران ظلم وكان يُدير من سَفَه رَحَاها
وقد كانت به الأيام تمضي ولمَّا ضاق صدر الملك يأسًا
فذاق جزاء من نقض اليمين شقاءً من تجبُّره مهينا
وكم من أهلها قتل المئينا بجعجةٍ ولم يُرها طحينا
شهورًا والشهور مضت سنينا وصار يردُّ الوطن الأئينا

٤ الغوارب: جمع الغارب، وهو في ذوات الخف ما بين السنام والعنق وفي الكلام استعارة.
٥ قطيئًا: أي قاطنًا وساكنًا.

أتى الجيش الجليل له مغيثاً	فصدّق من بني الوطن الظنونا
وأضحى سيف قائده المفدّى	على الدستور محتفظاً أميناً
حمّاه من العداة فكان منه	مكان الليث إذ يحمي العرينا
وأسقط ذلك الجبّار قهراً	وأنبأه بصارمه اليقيناً
فقرّت أعينُ الدستور أمناً	وشاهت أوجه المتمرّدين

وقفة عند يلدز

قالها عقب خلع عبد المجيد وإرساله إلى سلا نيك سجيناً.

لَمَنْ القصر لا يجيب سؤالي	أَهْلَاتُ رُبُوعِهِ أَمْ خِوَالِي؟
مَشْمَخِرُ البناء حيث تراءى	بَالِيًا مجده بلى الأطلال
لم تصبه زلازل الأرض لكن	قد رمته السماء بالزلازل
وكستهُ الأيام بالصمت لَمَّا	نطقَتْ فيه حادثات الليالي
فتراءت أبكاره شاحبات	باكيات بأعين الآصال

* * *

أَيُّهَا القصرُ إِيهِ بعضُ جواب	لا تكن ساكتًا على تسألِي
ليت شعري والصَّمتُ فيك عميق	ذاكرًا أنتَ عهدهم أَمْ سَال؟
ما تداعى منك البناءُ ولكن	قد تداعى بناء تلك المعالي
كنتَ كل البلاد في الطول والعمر	ض وكل العباد في الأعمال
كنتَ مأوى العُلا، مثار الدُّنايا	مَهبط العز، مصدر الإذلال
كنتَ جُبًّا وأَيُّ جُبٍّ عميق	بالعَا للنفوس والأموال!
موردَ الخائنين كنتَ وكانت	منك تدلي مطامع العمال
قصرُ عبد الحميد أنتَ ولكن	أَيْنَ يا قصر أينَ عرش الجلال؟!
أَيْنَ خاقانك الذي كان يُدعى	قاسمَ الرزق، باعثَ الآجال؟!
ما أرى اليوم ذلك المجد إلا	كخيال يمر بعد خيال
هل وقوفي على مبانيك إلا	كوقوفي على الطلول البوالي؟!

* * *

قد تخوّنتنا ثلاثين عامًا جئت فيها لنا بكل محال^١
تلك أعوام رفعة للأداني تلك أعوام حطة للأعالي
يثب العدل طافراً كلما مرّ عليها مشمّر الأذيال
ملأت خطة الزمان شناراً فأبتها كلّ العصور الخوالي
وكأنني أرى اضطراب نفوس كنت تغتالها وأيّ اغتيال!
أسمع الآن فيك ما كان يعلو من أنين لها ومن إعوالم
حائطات على الذي فيك أبقى من دفيناً على الرُفات البالي
تلك يا قصر أنفُس أنفت من لك فطارت إلى سماء المعالي
وترقّت إلى ذؤابة أعلى كوكب في سمائه جوال
وهي اليوم أحرقتك بشهب قذفتها عليك ذات اشتعال
لم يضع مجدها وإن هي أمست ضائعات الأشلاء والأوصال

* * *

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي لقحت منك حربها عن حيال؟^٢
يوم كنّا وكان للجهل حكم خاذل كل عالم مفضل
أمر من عتوه كلّ أمر يغرس البغض في قلوب الرجال
أفأصبحت نادماً أيها القص رُ تبالي بالقوم أم لا تبالي؟
لم تفدك الندامة اليوم شيئاً قُضي الأمر فاصطبر باحتمال
وعزاءً فلسست أول قصر نكّس الدهر من ذراه العوالي
قد تداعى من قبلُ إيوان كسرى بعد أن طال شاهقات الجبال
وكأنيّ من قصر ملك تزامي ساقطاً بالملوك والأقيال^٣

^١ تخوّننا: تعهدتنا.

^٢ لقحت الناقة: ضربها الفحل فحملت. والحيال: عدم الحمل، يريد إنك هيجت تلك الحرب بعد أن كانت ساكنة.

^٣ الأقيال: جمع قيل، وهو الملك الصغير يتبع الملك الكبير، كبعض ملوك الولايات في إمبراطورية كبيرة.

فابق يا قصر عابس الوجه كيما
وتعتّر فلا لعا لك الحق
إنما نحن أمة تدرأ الضيـ
أمة سادت الأنام وطابت
فإذا ما غلا الغشوم نهضنا
نملأ الأرض إن مشينا لحرب
وإذا ما غلا المليك رددنا
نحن من شعلة الجحيم خلقنا
يا ملوك الأنام هلا اعتبرتم
ليس عبد الحميد فردًا ولكن
فاتركوا الناس مُطَلِّقين وإلا
هل جنيتم من التجبر إلا
يصبح الملك باسم الآمال
ينهض العدل ناشطاً من عقال
م وتأبى أن تستكين لوالي
عنصرًا من أواخر وأوالي
فقدفناه سافلاً من عال
بزئير الغضنفر الرئبال
ه زليلاً يقاد بالأغلال
لأولي الجور لا من الصلصال
بملوك تجور في الأفعال
كم لعبد الحميد من أمثال
عشتّم مُوثّقين بالأوجال
كل إثم عليكم ووبال؟!

٤ لا لعا له: لا أنعشه الله إذا سقط.

تموز الحرية

واحفل بتمُّوز إن أدركت تمُّوزا
قد كان للشرق تكريماً وتعزيذا
مَنْ رَق مَنْ كان يقفوا إثر جَنكِيزا
يوماً به كان مشهوداً لباريزا
بسالة هَدَّت البستيل مبزوزا^١
على البقاع لواء العزِّ مركوزا
بيض الصوارم بالدستور تنجيذا
فضلاً لبعض على بعض وتمييزا
حُكماً وكانت على عِلَّاتها ضيزى^٢
من قائدين ولم نملك عكاكيزا
عصابة برَّزت في المجد تبريزا
أو هَجَّتْهم للمنايا هُجَّت راموزا
قصاعهم من قحوف القوم لا الشَّيزى^٣

إذا انقضى ما رُت فاكسرْ خلفه الكوزا
أكرم بتمُّوزَ شهراً إنَّ عاشره
شَهْرُ به الناس قد أضحت محررة
سَل أهل باريز عن تمُّوز تلقَ لهم
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم
وإن تمُّوز شهر قام فيه لنا
في شهر تموز صادفنا لما وعدت
هي المساواة عمَّتنا فما تركت
أمست لنا قسمة بالملك عادلة
كنا من الجور عمياناً وليس لنا
حتى نهضنا إلى العلياء تقدمننا
إن تلقهم تلقَ منهم في الوغى جبلاً
قوم إذا طَعِموا في حومة تخذوا

^١ مبزوزاً: مغلوباً، وفي المثل: من عزَّ بَزَّ: أي من قوي تغلب وانتصر.

^٢ قسمة ضيزى: أي جائرة.

^٣ القحوف هنا: عظام الجماجم. والشيزى: نوع من الخشب تصنع منه الجفان.

قمنا على الملك الجبار نفرعه
حتى تركناه في هيجاء معضلة
إنا لنأبى على الطاغي تهضمنا
ونأكل الموت دون العز نمضغه
لا عاش من لا يخوض الموت مرتضياً
راعت سلانك دار الملك فانتبعت
حتى غدت وهي في تموز ناكسة
فالشاه في شهر تموز هوى وكذا
يا شهر تموز لا راعتك رائعة
يا شهر تموز قد زينت رايتنا
من لي بأنجم هذا الأفق أنظمها
أو أنحت الماس أقلماً مُعرّضة
وأجعل الجو في تموز أمدحه

بالسيف مُنصلتاً والرمح مهزوزاً^٤
ألقت ضراماً على الطاغين مأزوزاً
حتى نهوژ في الهيجاء تهويزاً^٥
كمضغنا التمر برنياً وسهريزاً^٦
بقاءه بعصي الذل موكوذا^٧
من ذاك طهران تخشى أمر تبريزا
رايات شاه رماه الخلع مجنوزاً^٨
عبد الحميد هوى في شهر تموزا
ولا لقيت من الأحداث إرزيزاً^٩
بالعدل توشية فيها وتطريزا
قصائدًا فيك مدحاً أو أراجيزاً؟
أمدّها ذهباً في الطرس إبريزا
طرساً أجادته كف النور ترزيزاً^{١٠}

^٤ نفرعه بالفاء: نعلو فرعه، وهو رأسه، وفي الأصل: نقرعه.

^٥ هوز تهويزاً: مات موتاً.

^٦ البرني: ضرب من التمر أصفر مدور. والسهريز بالسين والشين، بضمهما وكسرهما: نوع من التمر، معرب.

^٧ موكوذاً: مدفوعاً مطعوناً.

^٨ المجنوز: المحجوز المستور.

^٩ الإرزيز: الرعدة.

^{١٠} يقال: رززت لك الأمر ترزيزاً: أي وطأته لك.

المجلس العمومي

وزال عنك وعن آفاقك الحلكُ
من النجاة بحبلٍ ليس يَنْهتك^١
والحق متبع والأمر مشترك
لهنَّ يمتد من نسج النهى شرك
كالماء يصطاد في ضحاحه السمك
ما لم يكن للقوى فيهن مُعترك
قوم بمستنقع الآراء قد بركوا
أحكامه الناس من عاشوا ومن هلكوا
تبدو من العدل في آفاقها حُبك^٢
حرية العيش برج والنهى فلك
على الرعية لا يستأثر الملك
أديانهم، ما بهم حقد ولا حسك^٣
وحياً من الله مبعوثاً به الملك

يا شرق بُشراك أبدى شمسك الفلكُ
أضحى بك القوم أحراراً قد اعتصموا
نادٍ به القولُ عن أهليه مستمع
نادٍ إذا نفرت عنا الأمور به
يصطاد فيه شروءُ الحق عن كذب
إن السحائب لم تظهر بوارقها
وللتدابير حرب لا يخيب بها
هذا هو المجلس الرحب الذي وسعت
هو السماء التي نعلو السماء بها
دارت بها شمس عزُّ الملك حيث لها
قد أصبح الأمر شورى بيننا فبه
وأصبح الناس في قُربى وإن بعدت
هذا الذي جاءنا الدين الحنيف به

^١ ينهتك: ينقطع.

^٢ حبك جمع حبيكة، وهي الطريقة.

^٣ حسك الصدر: حقد العداوة، يقال: إنه لحسك الصدر.

من قبلُ إذ قامَ يستولي ويمتلك
ممن بكم سَخِرُوا من قبلُ أو ضحكوا
يحيا امرؤ لم يكن في السعي ينهمك
كلُّ به سائرٌ طَلَقًا ومُنسلِك
ولم تجدْ حُرمة للعلم تنتهك
مَن في القبور فهل في سمعكم سَك؟^٤
حجابها عند أهل الغرب منتهك
ولا أحاول منكم ترك ما تركوا
ثم اسلكوا في المعالي أيَّة سلكوا
سبًگًا على قالب العلم الذي سبكوا
إن لم يتمَّ له من شأوه الدرك^٥
في حومة العيش تبلى دونها الشك^٦
حتى تقوم وطود الجهل مؤتفك^٧
فاضت بسيل الدواهي حولها برك
سجنًا لمن أفسدوا في الأرض أو فتكوا
تَهطالهنَّ دم في الأرض منسفك
هذا الفسوق وذاك الفوز والنسك
وهل تُرى يتساوى النورُ والحلْك؟!
يا قومُ ساهون حيث الأمر مرتبك
حتى لقد ملَّ من مضغ لها الحنك
للناس قد وضحت من رشدهم سكك
«حرية المُلْك أهدى شمسها الفلك»

هذا به نهض الإسلام نهضته
يا قوم قد حان حينٌ تسخرون به
مات الزمان الذي من قبلُ كان به
هلا نظرتم لما في الغرب من سَنَن
لم تَلَقَ للحق وجهًا فيه محتقرًا
في الغرب أصوات علم يبعثون بها
فشمروا يا رجالَ الشرق عن همم
ولست أطلب منكم فعلَ ما فعلوا
بل فاذكروا أوليكم كيف قد سلفوا
واستخلصوا عسجد المجد الذي بلغوا
لا عذر للشرق عند الغرب بعدئذٍ
واستنجدوا العلم إنَّ العلم شِكته
أما المدارس فلترفع قواعدها
منابع العلم إن غاضت بمملكة
من شاد مدرسة للعلم هدَّ بها
وكم أثارت رياح الجهل من سُحبٍ
فالعلم والجهل كل البون بينهما
ضدان ما استويا يومًا ولا اجتماعا
نادوا: البدارَ البدارَ اليوم إنكم
كم رُدَّدت كلمات الناصحين لكم
يا قوم قد طلعت شمس الهدى وبها
وأنشد الشرق مسرورًا يؤرِّخها:

^٤ السك، بوزن سبب: الصمم.

^٥ الدرك: اللحاق.

^٦ الشك: جمع شكة، وهي السلاح.

^٧ مؤتفك: منقلب، يقال: اتفكت بهم الأرض: انقلبت.

يوم العروس

زفت إلينا العروسُ	وزوجُها الأنكليس ^١
زفت إلينا زفافاً	فيه الشقا والنحوس
المهر منا دماء	والعرس حرب ضروس
كم مُزَّقت حرُمات	وكم أضيعت نفوس
وكل هذا لتحظى	بالبعل تلك العروس
يوم العروس لعمري	يوم كرية عبوس

^١ الأنكليس والأنقليس، بفتح الهمزة: سمك شبيه بالحيات رديء الغذاء.

السياسيات

إلى الأمة العربية^١

هو الليلُ يغريه الأسى فيطولُ
أبيتُ به لا الغارباتُ طوالُ
وينشر فيه الصمت لبداً مضاعفاً
ولي فيه دمع يلذع الخدَّ حره
بكيت على كل ابن أروغٍ ماجدٍ
يليح من الضيم المذلُّ بغرة
من العرب: أما عرضه فموفر
له سلفٌ عزُّوا فبزُّوا نباهةً
ويُرخي وما غيرُ الهموم سُدُولُ^٢
عَلَيَّ ولا للطالعات أفول
فتَطويه منِّي رنةٌ وعويلُ^٣
وحزن كما امتدَّ الظلامُ طويل
له نَسَبٌ في الأكرمين جليل
لها البدر ترَبُّ والنجوم قبيلُ^٤
مصون، وأما جسمه فهزيل
ولم تعتورهم فترة وخمولُ^٥

^١ مثلُ شبان العرب في الأستانة رواية وفاء السموءل في مسرح «نبه ماشي» الكبير، الكائن في حي «بك أوغلي»، وطلبوا إلى الرصافي أن يحضر وينشدهم شعراً، فقال هذه القصيدة يعارض بها لامية السموءل المشهورة، وقد أنشدهم إياها في المسرح المذكور، وكان المكان غاصاً بمن كان في الأستانة من رجال العرب، وكثير من رجال الترك.

^٢ يغريه: يحضه؛ أي أن الأسى يحض الليل على الطول فيطول.

^٣ اللبد، بكسر فسكون: كل شعر أو صوف متلبد.

^٤ يليح: أي يخاف ويحاذر، والباء في قوله بغرة للمصاحبة، أو هي للتعدية، على تضمين يليح معنى

يحيد ويعدل، فيكون المعنى: يحيد مليحاً من الضيم بغرة.

^٥ عزُّوا فبزُّوا: أي غلبوا فسلبوا.

وساروا بنهيج المكرّمات تقلُّهم
وكانوا إذا ما أظلم الدهر أشرقت
أولئك قوم قد ذوى روض مجدهم
وقد أعطشته السحب حتى لقد علت
رعى الله من أهل الفصاحة معشرًا
ترامى بهم ريب الزمان كأنما
فألمست من العمران خلًّا بلادهم
وعادت مغاني العلم فيها دوارسًا
وقوَّضت الأيام بنيان مجدها

قلائص من سَغِي لهم وخلول
به غرّر من مجدهم وحجول
ولم تَسْرِ فيه نسمة وقبول
على الزهر منه صُفرة وذبول
لهم كان فوق الفرقدين مقيل
له عندهم دون الأنعام نحول
فهنَّ حُزون قفرة وسهول
تجرُّ بها للرامسات ذيول
فَرَبَعَ المعالي بينهن مَحول

* * *

نظرت إلى عرض البلاد وطولها
ولم تبدُ لي فيها معاهد عزها
نظرت إليها من خلال ذوارفٍ
فكننت كراءٍ من وراء زجاجة
ولم أتبيّن ما هنالك من عُلا
هناك حنيت الظهر كالقوس رابطًا
وأوسعتُ صدري للكآبة فاغتدت
وأرسلت دمع العين فانهلَّ جاريًا
أأمنع عيني أن تجودَ بدمعها
فإن تعجبوا أن سال دمعِي لأجله
وما عشتُ أني قد تناسيت عهده
وإن امرءًا قد أثَّلَ الهم قلبه

فما راقني عرض هناك وطول
ولكن رسوم رثَّة وطلول
من الدمع طرفي بينهنَّ كليل
بعينيه كيما يَسْتَبِينُ ضئيل^٦
لكثرة ما قد دبَّ فيه نحول
بكفي على قلبٍ يكاد يزول
بأرجائه تحت الضلوع تجول
له بين أطلال الديار مسيل
على وطني؟! إني إذن لبخيل
فإن دمي من أجله سيسيل
ولكنَّ صبري في الخطوب جميل^٧
كقلبي ولم يلق الردى لحمول

^٦ شبه نفسه وهو ناظر إلى الديار من خلال الدموع الذوارف برجل وضع على عينيه زجاجة ينظر من

ورائها، والمراد بالزجاجة ما تسميه العامة اليوم بالمنظرة أو بالعينات.

^٧ وما عشت أني: أي لأنني، فحذف الجار، وحذفه قبل إن وأن قياس.

وما ليَ عنها في البلاد بديل؟
تهيج به أشجانه فيقول:
فتذهبَ عنكم غفلة وذهول؟!
فيسكتَ عنكم لائم وعذول!
إليها وأنتم جاهلون سبيل؟!
على الكون فيكم والحياة دليل
يَجُودُ على تشييدها ويطول؟
أَكول شروب للحياة قتول
ولكن كثير الجاهلين قليل
لهان عليكم للمَرام وصول
تلقاه منكم بالعِناد جهول
فريق طلبوب للمحال خذول
فعول وألفُ في مداه قَتُولُ
إلى اليأس أحياناً أكاد أُميلُ
به كل جهل في الأنام قتيل؟
وإن كان منها في الطبابة فلولُ
فتنعش أرواح بها وعقول؟
وينشط للمسعي الحثيث كسول
فعتبي عليكم والملام فضول

أفي الحق أن أنسى بلادي سلوة
أقول لقومي قول حيران جازع
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم
وينطق بالمجد المؤثل سعيكم
تريدون للعليا سبيلاً؟ وهل لكم
أناشدكم أين المدارس؟ إنها
وأين الغني المرتجى في بلادكم
بلاد بها جهل وفقر كلاهما
أجل إنكم أنتم كثير عديدكم
ولو أن فيكم وحدة عصبية
ولكن إذا مستنهض قام بينكم
وأَيُّ فريق قام للحق صده
وإن كان فيكم مصلحون فواحد
على أن لي فيكم رجاءً وإن أكن
ألستم من القوم الألى كان علمهم
لهم هممٌ ليس الطبابة تفلُّها
ألا نهضة علمية عربية
ويشجع رعديد ويعتز صاغر
فإن لم تقم بعد الأناة عزائم

شكوى إلى الدستور^١

إلى قائم الدستور والعدل والحق
لها الحكم دون الناس في الفتق والرتق^٢
مطيعة ولو من أجلها ضربت عنقي
بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق؟
علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
هتفنا جميعًا بالوفاق وبالرفق
ولكن تراخي الأمر متسع الخرق
لديهم فيا لله للمسعد المشقي
وأنت عليهم حُجة لا على الخلق
وسدُّوا على من حولهم منبع الرزق
وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق^٣

شكاية قلب بالأسى نابض العرق
ملوك على كل الملوك ثلاثة
وأقسم أنني لا أكون لغيرها
فهل أيها الدستور تسمع شاكيًا
لقد جئت من أفق الصوارم طالعًا
فصادفت منا أمة قد تعشقت
ولم نبدِ عنفًا حين جئت وإنما
وظلنا نرجي منك للخرق راقعًا
بك اليوم أشقانا الألي أنت مُسعد
نراك بأيديهم على الخلق حُجة
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به
كأننا لهم شاء فهم يحلبوننا

^١ نشرت هذه القصيدة في المؤيد بمصر سنة ١٣٢٧ هجرية، قالها لما سقطت وزارة حلمي باشا، وقامت بعدها وزارة حقي باشا، ينتقد خطة الاتحاديين عقب الدستور.

^٢ أي لا طاعة إلا لهذه الأمور الثلاثة: الدستور، والعدل، والحق؛ فهي الملوك ولها الحكم في كل أمر.

^٣ قوله: «مخضوا أوطاننا»: أي استغلوا خيرها بمخضها.

ولم يتركوا للسَّاكِنِيَّهَا سوى المذق^٤
وتصبح للباقيين حبراً على ورق؟!
سوى نغبة من بعض سؤرهـم الرنق^٥
كساق يُرينا الماء عذباً ولا يسقي
نسابق أهل المجد في حلبة السبق؟!
أنحن من الأحرار أم نحن في رق؟!
وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وساروا بمنهاج التبصر والحدق؟
فإن طريق العدل من أوضح الطرق؟
إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق
كما جرى حقي فمثلهما حقي^٦
وإن كان يشجيني ويدعو إلى الزعق
تزعزع من شئت عن الأمر أو تبقي
لبحث بسر كالشجا هو في خلقي^٧
وأبرق ولكن لا تكن خلْب البرق
ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
وبينكم في الجِلِّ منه وفي الدَّق^٨
وإلا فيا سُحق المعاند من سحق
وشيب وشبان على ضمّر بُلُق
بعزم من السيف المهند مشتق
بوجه يُلاقي الموت مبتسم طَلُق
بدمع معاني الحسن في الخلق والخلُق

وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها
أترضى بأن تختص بالحكم مَعشراً
وهم يَرِدون الصفو منك ولم نرد
فما نحن إلا كالظماء وإنهم
ألم تر أننا طولَ عهدك لم نقم
ولم نك ندري لاهتضام حقوقنا
ولم نستفد إلا سقوط وزارة
وما ضرهم لو أسقطوا نهج سيرهم
ألم يُبصروا للعدل غير طريقهم
وماذا عسى يُجدي سقوط وزارة
مضى كامل من قبل حلمي وإن جرى
وما الهمُّ عندي بالذي قد ذكرته
ولكن وراء الستر كفّ خفية
ولولا يدُ شدت لسانِي بنسعة
فيا أيها الدستور فاقض بما ترى
ولسنا نريد اليوم حُكماً عليهم
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا
فإن يفعلوا هذا فيا مرحباً بهم
سنطلب هذا الحقّ بالسيف والقنا
بكل ابن حرب كلما شدّ هزها
تراه إذا ما عبّس الموت وجهه
من العُرب مطبوع الطباع على العلا

^٤ المذق: هو اللبن الممزوج بالماء، المستخرج منه زبده.

^٥ النغبة: بفتح النون وبضمها: الجرعة. والسؤر بالضم: بقية الماء التي يبقّيها الشارب في الإناء.

^٦ كامل وحلمي وحقي: أسماء وزراء في الدولة العثمانية.

^٧ النسعة، بالكسر: حبل من آدم. والشجا: عظم يعترض في الحلق، وهو عندهم مثل للأمر المزعج.

^٨ الجِل والدق، وكلاهما بالكسر: الجليل والدقيق؛ أي العظيم والحقير.

في معرض السيف^١

هي المُنَى كَثُغُور الغِيد تَبْتَسِم
دَع الأَمَانِيَّ أَوْ رُمَهْنَ مِنْ ظُبِيَّةٍ
والمجد لا تَبْنِيهِ إِلَّا عَلَى أُسُسٍ
لو لم يَكُ السيف رَبَّ الملك حارسَه
من سَلَه في دُجَى الآمال كان له
والعلم أَضْيَع من بَذَرٍ بمسبِخَة
إِن الحَقِيقَة قالت لي وقد صدقت
والحق لا يُجْتَنَى إِلَّا بِذِي شُطْب
إِذَا تَطَرَّبَها الصمصامة الخَدِم
فإِنما هُنَّ مِنْ غير الظبا حُلَم
من الحديد وَإِلَّا فهو منهدم
ما قام يسعى على رأس له القلم
فَجَرًّا تَحُلُّ حُبَّاهَا دونه الظلم^٢
إِن لم تُجَلِّله من نَوءِ الظبا ديم^٣
لا يَنفَع العِلْم إِلَّا فوقه عَلم
ماء المنيَّة في غريبه منسجم^٤

^١ لما قام الإصلاحيون في بيروت يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح، قال الرصافي هذه القصيدة يؤيدهم بها.

^٢ «تحل حباها» بضم الحاء: جمع حبة، وهي اسم بمعنى الاحتباء، وتطلق على ما يحتبى به الرجل من ثوب أو عمامة، ويقال: «حلَّ فلان حبوته»؛ إذا قام، كما يقال: عقد حبوته؛ إذا قعد، والمراد بكون الظلم في هذا البيت تحل حباها، أنها تزول دون ذلك الفجر.

^٣ قوله: «بمسبخة»: صفة لمحذوف؛ أي بأرض مسبخة وهي الأرض التي تحرث ولا ينمو فيها زرع.
^٤ «بذي شطب»: صفة لمحذوف؛ أي بسيف ذي شطب، والشطب: جمع شطبة، وهي طريقة السيف في متنه، وقوله: «في غريبه»: أي في حديثه.

إن أسمعَتُ ألسُنُ الأَقلامِ ظالمها
فللحسام صليل يرتمي شرراً
هَبِ اليراعة رِداءَ السيف تَأْزَرِه
فالعلم ما قارنته البيض مفخرة
وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت
والعجز كالجهل في الأزمان قاطبة
والمجدُ يَأْتُلُ حيث البأس يدعمه
وإنَّ شأوَ المعالي ليس يُدرِكه

بعض الصرير كمن يبكي وينظلم
مفتقاً أذنً من في أذنه صمم
فهل على الناس غير السيف محتكم
والحق ما وازرته السمُرُ محترم
أركانُه فهو في الثاوين مختَرَم
داءً تموت به أو تَمسُخُ الأُممُ
حتى إذا زال زال المجد والكرم
عزمُ تسرَّب في أثنائِه السأمُ

* * *

أها فاهًا على ما كان من شرف
أيام كانوا وشملُ المجد مجتمع
كانوا أجلُّ الورى عزًّا ومقدرة
وأربط الناس جأشًا في موافقة
قومٌ إذا فاجأتهم غمة بدروا
على الحصافة قد ليثت عمائهم
قضوا أعاريبَ أقحاحًا وأعقبهم
جار الزمان عليهم في تقلُّبه
دب التباغض في أحشائهم مرضًا
فأصبح الذل يمشي بين أظهرهم
فأكثر القوم من ذلٍّ ومَسْكَنَة
كم قد نحتُ لهم في اللوم قافية
وكم نصحتُ فما أسمعُ من أحدٍ

لليعرُبِيِّينَ قد ألوى به الإقدام
والشعب ملتئم والملك منتظم
إذا الخطوب بحبل البغي تُحتَرَم
من شدَّة الرعب فيها ترُجف اللمم
وأوفزتهم إلى تكشيفها الهممُ
وبالحزامة شُدَّت منهم الحُزُمُ
خلف هم اليوم لا عُرب ولا عجم
حتى تبدلت الأخلاق والشيم
به انبرت أعظمُ منهم وجفَّ دم
مَشْيِ الأمير وهم من حوله خَدَم
تُلَفِّي الذبابَ على آنافهم يَنَمُ^٦
من الحفيظة بالتقريع تحترم
حتى لقد جفَّ لي ريقٌ وكَلَّ فَمُ

* * *

^٥ بدروا: أسرعوا. وأوفزتهم: أعجلتهم.

^٦ ونم الذباب ينم: إذا سلح، ومصدره الونيم.

يا راكبًا مَتَن مُنطاد يطيرُ به
يمرُّ فوق جَنَاح الريح مخترقًا
يعلو إلى حيث يستجلي العيانُ له
حتى إذا حط منقضًّا على بلد
أبلغ بني وطني عني مُغلغلةً
ما بالهم لم يُفبقوا من عمايتهم
إلى متى يخفرون المجدَ ذمته
ومن يَعِشْ وهو مضياغٌ لفرصته
وكل من يدَّعي في المجد سابقةً
كما يطير إذا ما أفزع الرخم^٧
عرض الفضاء ويعدو وهو مُعتزم
ما غمه الأفقُ أو ما وارت الأكم
ينقض والبلد الأقصى له أُمم
في طيها كلّم في طيها ضرم
وقد تبلَّج أصباحُ المنى لهم؟!
أليس للمجد في أنسابهم رحم؟!^٨
ذاق الشقاء وأدمى كفه الندم
وعاش غير مجيد فهو متهم

^٧ الرخم: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة، والواحدة منه رخمة.

^٨ خفر فلانًا: أي نقض عهده وغدر به.

ما هكذا^١

أصبحتُ أوسّعهم لومًا وتثريبًا
وألهبتُ منهم الأهواء جارية
وأرسلوهم مُرخاة أعنتها
فأرهبوا الشر حتى إن هبوته
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة
قد كلّفوا شططًا فيها حكومتهم
عدّوا النصارى وعدّوا المسلمين بها
قد حكّموا الدين فيها فهي مُعربة
من مُبلغُ القوم أن المصلحين لهم
لما امتطوا غارب الإفراط مركوبًا
إلى التفرق ألهوبًا فألهوبًا^٢
يُوغلن في الأمر إحضارًا وتقريبًا
مدت سرادقها في اللوح مضروبًا^٣
خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبًا
وخالفوا الحزمَ فيها والتجاريبا
ونحن نعهدُهم طرًا أعاريبا
عما يكون لدعوى القوم تكذيبا
أمسّوا كمن لبس الجلباب مقلوبًا؟

^١ لما اطلع الشاعر على لائحة الإصلاحيين في بيروت ورأى فسادها، قال هذه القصيدة يؤنبهم ويفند رأيهم في ذلك، وفي عقدهم مؤتمراً في باريس.

^٢ ألهبتُ منهم الأهواء: في الكلام استعارة بالكناية، حيث شبّه الأهواء بالخيال العادية، ومعنى ألهبت: اجتهدت في عدوها حتى أثارت الغبار، والألهوب: اسم بمعنى الإلهاب.

^٣ أرهبوا الشر: أي أثاروا رهج الشر؛ أي غباره. والهوبة: الغبرة، واللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض.

ما بالهم وطريق الحق واضحة
أو في مصالح دنياهم وهم عربٌ
ما ضرهم لو نحوًا في الأمر جامعةً
لكنهم أمة تأبى مشاربهم
قد حاولوا الحق واشتطوا بمطلبه
قد يطلب الحق طيَّاش فيبطله
قاموا يريدون إصلاحًا فقمّت لهم
ورحت أحنَّتْهُمْ حدوا بقافية
حتى إذا محضوا آراءهم ظهرت
ساروا وسرت فكان السير مختلفًا
كانوا أحق البرايا مطلبًا فغدوا
راموا انشقاق العصا بالشغب ملتهبًا
إني لأبصر في بيروت قائبة
أو أكرة من «دناميت» إذا انفجرت
وقد رأيت أناسًا واصلين بها
وآخرين بمصر يطلبون لها
ويترك الناس في دهياء مظلمة
قل للعريسي، والأنباء شائعة
علام تعقد في باريز مؤتمرًا

لا يسلكون إلى الإصلاح ملحوبًا؟^٤
جاءوا على حسب الأديان ترتيبًا؟
تنفي الكنائس عنها والمحاربا
إلا التعصب للأديان مشروبا
حتى بدا وجهه كالليل غريبًا^٥
ما كل طالب حق نال مطلوبًا
أستنطق الشعر تأهيلًا وترحبا
غازلت في صدرها الآمال تشببًا
للناس زبدتها ثأيا وتخبيبا^٦
يرمي لوجهين تشريقًا وتخريبا
من أبطل الناس في الدنيا مطالبا
والحدق مضطربًا والضغن مشوبا
للشر موشكة أن تخرج القوبا^٧
فنارها تنسف الشبان والشبا
وهم بباريز ملبارود أنبوبا^٨
تفرقعا يجعل المعمور مخروبا
يرتد منها بياض الشمس حلوبا^٩
والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا:
ما كنت فيها برأي القوم مندوبا؟

٤ ملحوبًا: أي واضحًا، وهو صفة موصوف محذوف، أي: طريقًا ملحوبًا.

٥ الغريب: الأسود.

٦ الثأى: الضعف والركاكة. والتخبيب: الغش والإفساد.

٧ القائبة: البيضة. والقوب: الفرخ.

٨ ملبارود: أصله: من البارود، فحذف نون من الجار، واتصلت بالمجرور خطأ، وقد جاء استعمالها كذلك في شعر الأقدمين. وجملة: «وهم بباريز» معترضة. وأنبوبا: مفعول لواصلين. وملبارود حال من أنبوبا.

٩ الحلوب: الأسود الحالك.

وهل تعمّد «حقي العظم» فعلته
إذا راح يستنجد الإفرنج منتصفاً
لما نمى خيراً «للطان» مكذوباً؟^{١٠}
كأنه حملٌ يستنجد الذيبا

* * *

خافوا التذبذب في أعمال دولتهم
وكان خوفهم حقاً لو أنّهم
لكنّهم جاوزوا نهج الصواب إلى
ولم يُبالوا بما أبدوه من جَنَفٍ
فهم كمن فرّ من قَطَرٍ يبُلُّه
لو كان في غير باريز تَأْلُبُهُمْ
لكنّ باريز ما زالت مطامعها
ولم تزل كل يوم من سياستها
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم
من أن يُجرّ على الأوطان تخريباً
لم يعدلوا عن طريق الحق تنكيبا
وادي تُهْلِكُ فاستقصوا به الحوبا^{١١}
أن يمسي الوطن المحبوب محروبا
ثم انتحى السيل أو جاء الميازيبا
ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا
ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
تلقي العراقيل فيها والعراقيبا
جيش يدُك من الشام الأهاضيبا؟

* * *

يا أيها القوم لا يغرركم نفر
جاءت رسائلهم بالشر مُغرية
فطالعوهم بالأيدي مطالعة
إن يصدقوا إنهم لا يلبسون سوى
فسوف يقرع كلُّ سنّه ندماً
ضجُّوا بباريز إفساداً وتشغيبا
تفتنُّ في المكر أسلوباً فأسلوبا
تسطو عليهن تمزيقاً وتأريباً
مَحْضُ النصيحة في الدعوى جلابيبا
ويُسْبَلُ الدمع في الخدين مسكوبا

^{١٠} لما عقد المهوسون من العرب في باريز، أرسل حقي العظم إذ ذاك بمصر تلغرافاً إلى جريدة الطان الباريزية، يطلب فيه من الحكومة الفرنسية أن تتدخل في أمر سورية، ففي هذا البيت وما بعده إشارة إلى هذا التلغراف الذي أرسله حقي العظم.

^{١١} وادي تهلك، بضم التاء والهاء وتشديد اللام المكسورة: هو الباطل، ويستعمل ممنوعاً من الصرف.

في ليلة نابغة^١

خاض الدجى وظلام الليل مختلطُ
يَبُثُّ في الليل حزناً لو أحس به
أبديه منقبضاً منه على شَجَن
أرسلت منه أنيناً فات أوله
والليل أرسل وحُفّاً من غدائره
والنجم في القبة الزرقاء تحسبه
كم قلت والليل جَثْلُ الشعر فاحمه
ينجاب ليلُ العمى عن قلب سامعه

صوت به الوجدُ مثلُ السيف مختَرطُ^٢
لبان في لَمْتِيهِ الشيبُ والشمطُ^٣
فيملأ الليلَ إرناناً وينبسط
سمعي وآخره بالقلب مرتبط
كأنه بثُرياً الأفق يمتشطُ^٤
فرائداً وهي من فيروزج سَفَطُ^٥
شعرًا به كاد فرع الليل ينمعط^٦
كالفجر إن لاح فالظلماء تنكشط

^١ لما نشر الرصافي قصيدته «ما هكذا» ضج له ضجيج القوم، وأخذت صحفهم تشنع عليه الأمر، وترميه بما هو براء منه وخلاء، فبلغه الخبر وهو إذ ذاك في الآستانة فبات له قَلِقَ الحشا، فكتب هذه القصيدة وكأنه كان في ليلة نابغة.

^٢ مختَرط بصيغة المفعول: أي مسلول.

^٣ الشمط: بياض الشعر، فعطفه على المشيب من قبيل عطف التفسير.

^٤ الوحف، بفتح فسكون: الشعر الأسود الحسن.

^٥ السفط بفتحتين: وعاء مقعر مستدير كالقفة، أكثر ما تستعمله النساء لوضع حليها.

^٦ الجثل من الشعر: الكثير اللين. والفرع: الشعر التام. وينمعط: يتساقط ويتمرط، والمراد بفرع الليل: ظلامه، وبانمعاطه: انجلاؤه وإضاءته.

لَهْفِي عَلَى حِكْمٍ مَا زِلْتُ أَنْثَرُهَا دِرًّا ثَمِينًا وَمَا فِي الْقَوْمِ مَلْتَقَطُ!
ضَاع الدَّوَاءُ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَوْجِرُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْرَبُ أَوْ مَنْ لَيْسَ يَسْتَعِطُ^٧
تَقُولُ لِي - إِنْ غَبِطْتُ الْقَوْمَ - تَجَرَّبَتِي: لَا تَغِيبُطَنَّ فَمَا فِي الْقَوْمِ مَغْتَبِطُ

* * *

قُلْ لِلْأَلَى نَطَقُوا بِالضَادِ مُدْغَمًا: لَمْ يَدْغِمِ الضَادَ أَبَاءُ لَكُمْ فَرَطُوا^٨
أَيَحْسُنُ اللَّحْنَ إِذْ أَبَاؤُكُمْ فَصَحُوا أَمْ يَحْسُنُ الْعَجْزُ إِذْ أَبَاءُكُمْ نَشَطُوا؟!
فِيكُمْ غَلَوُ وَتَقْصِيرُ وَبَيْنَهُمَا ضَاعَ الْمَرَادُ أَأَنْتُمْ أُمَّةٌ وَسَطُ؟!
إِنِّي ابْتُلِيتُ بِقَوْمٍ يَبْعُرُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَإِذَا عَنَّفْتَهُمْ ثَلَطُوا^٩
شَطُّوا بِأَقْوَالِهِمْ حَتَّى لَقَدْ غَضِبُوا إِذْ قُلْتُ: يَا قَوْمُ فِي أَقْوَالِكُمْ شَطَطُ
فَبَدَّلُوا الْقَوْلَ إِنْ صَحَّتْ عَزَائِمُكُمْ فَعَلًّا وَإِلَّا فَإِنِّي يَأْتِسُ قَنِطُ
قَدْ جَرَتْ فِي الْأَمْرِ؛ إِنِّي حِينَ أَسْخِطُهُمْ يَرْضَوْنَ عَنِّي وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ سَخَطُوا
فَازَ الَّذِي كَانَ فِي أَحْوَالِهِ وَسَطًا فَالْمَرْءُ يُعْقَى وَإِنْ الْحَلَوُ يُسْتَرَطُ
قُلْ لِلْأَعَارِبِ: قَدْ هَانَتْ مَكَارِمُكُمْ حَتَّى ادَّعَاهَا أَنْاسُ كُلِّهِمْ نَبِطُ^{١٠}
بَرَأْتُ لِلْعُرَبِ الْعَرَبِيَّاءِ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْمُونُ لِلْعُرَبِ إِلَّا أَنَّهُمْ سَقَطُ
أَيْنَ الْمَكَارِمِ إِنْ هُمْ أَصْبَحُوا عَرَبًا فَإِنَّهَا فِي طَبَاعِ الْعُرَبِ تَشْتَرَطُ؟
إِنْ يَغْمِطُونِي لِأَنِّي جِئْتُ أَنْهَضَهُمْ فَأَيُّ مُسْتَنْهَضِ ذِي نَجْدَةٍ غَمَطُوا
هُمْ كَالضَفَادِعِ فَاسْمِعَهُمْ إِذَا رَطَنُوا فَمَا هُنَاكَ إِلَّا اللَّغْوُ وَاللِّغْطُ
يَسْتَنْثَرُونَ صَغَارًا مِنْ مَعَاظِهِمْ وَلَا يَبَالُونَ أَنْ قَالُوا وَأَنْ ضَرَطُوا
الْعَارُ يَرْحَلُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا رَحَلُوا وَالْخَزِي يَهْبِطُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا هَبَطُوا
مِنْ كُلِّ أَشْوَةٍ لَاحَتْ مِنْ مَغَامِرِهِ فِي وَجْهِ كُلِّ حَيَاةٍ حَوْلَهُ نَقَطُ

^٧ قوله: «أوجره» نقول: أوجرت المريض الدواء؛ إذا صببته في فيه، ويستعط: يُدخل السعوط في أنفه.

^٨ فرطوا: أي سبقوا وتقدموا.

^٩ يبعرون: أي يرمون رجييعهم بعراً، وهو رجييع ذات الخف. وقوله: «ثلطوا» أي: سلحوا سلحاً رقيقاً، يقال للإنسان إذا رق نحوه: هو يثلط ثلطاً. ومعنى البيت: إني إذا لمتهم على خطيئتهم الصغير، فبدل أن يكفوا عنه يأتون بخطأ أكبر.

^{١٠} النبط بالتحريك: جيل من العجم، ويستعمل أيضاً في أخلاط الناس وعوامهم.

قد رثَّ عرضاً وإن جدَّت مآزره
تراه يشخر عند الأكل من جشع
الخلق كالخَطِّ لا تقرأ لئامهم
إن رُمت تشبع من مجد فكلُّ همماً
نفسى تجيش لأمر لو صدعت به
من كلِّ مخزية في وجهه شَرَط^{١١}
كأنما هو عند الأكل يمتخط
واشطب عليهم بنعل إنهم غلط
كأكلك السمن ملبوگًا به الأقط
لزلزلت دونه البلدان والخطط

^{١١} الشرط، بالتحريك: العلامة.

إلى السلطنة

هم يَعدُّونَ بالمئات ذكُورًا
ولهم أَعْبُدُ بها وإماء
تركوا السعي والتكسب في الدنـ
يتجلى النعيم فيهم فتبكي
يأكلون اللَّبَاتَ من كدِّ قوم
فكأنَّ الأنعام يشقونَ كدًّا
وكانَ الإله قد خلق النـ
نعموا في غضارة الملك عيشًا
فإذا صاولَ العدوَّ خرجنا
وإذا هم جرُّوا الجرائرَ يومًا
وإذا ما استهلَّ فيهم وليد
قد رضيـنا بذاك لولا عتوُّ
ما بهم ما يميزهم عن بني السـ

وإنَّا لهم قصور مُشـاله
ونعيم ورفعة وجلاله
يا وعاشوا على الرعية عـاله
أعين السعي من نعيم البطاله
أعوزتهم سَخينة من نخاله^١
كي تنال النعيم تلك السُّلاله
س لَمَحْيا آل السلاطين آلـه
وحملنا من دونهم أثقاله
دونهم للوغي نردُّ صياله
فعلينا تكون فيها الحمـاله^٢
فعلينا رِضاؤه والكفـاله
أظهروه لنا على كل حاله
قة إلا رسوخهم في الجهـاله

^١ سَخينة: طعام أو حساء يتخذ من دقيق وتمر، ويؤكل أيام الجهد. والنخالة: ما يبقى في المنخل بعد الدقيق من قشر الحب.

^٢ الحمالة: ما يتحملة المحاربون من ديات القتلى.

هم من الناس حيث لو غُرِبِلِ النا	س لكانوا نفايةً وحثاله
ومن الجهل حيث لو صوّر الجـهـ	ل لكانوا بين الوري تمثاله
حملونا من عيشهم كل عبء	ثم زادوا أصهارهم والكلاله ^٣
فكفينا أصهارهم مؤنة العيـ	ش فكانوا ضغثاً على إِبَّاله ^٤
تلك والله حالة يقشعرُّ	الحقُّ منها وتشمئزُّ العدالة
هي منهم دناءة وشنارٌ	وهي منا حماقة وضلاله
ليس هذا في مذهب الإشتراكيـ	ة إلا من الأمور المُحَاله
وهو في الملة الحنيفية البيـ	ضاء كفرٌ برَّبنا ذي الجلاله

^٣ الكلالة: ذو القرابة غير الوالد والأولاد؛ يريد من ليسوا شديدي القرابة.

^٤ الضغث: ما يملأ الكف من قضبان أو حشيش أو شماريخ. والإبالة: الكومة الكبيرة منه.

الوطن والأحزاب^١

متى نرجو لُغْمَتَنَا انكشافا	وقد أَمسى الشُّقَاقُ لَنَا مَطَافَا؟!
ملأْنَا الجوَّ بِالْجَدَلِ اصْطِخَابًا	وَكُنَّا قَبْلُ نَمْلُؤُهُ هُتَافَا
وما زلْنَا نَهِيمُ بِكُلِّ وَاِدٍ	مِنَ الْأَقْوَالِ نرسلها جُزَافَا
ونرجفُ فِي الْبِلَادِ بِكُلِّ رَعْبٍ	يَهْزُ فَرَائِصَ الْأَمْنِ ارْتِجَافَا
ونَتَّهَمُ الْحُكُومَةَ بِاعْتِسَافٍ	ونحنُ أَشدَّ ظَلَمًا واعتسَافَا
وكم من نَاعِبٍ فِي الْقَوْمِ يَدْعُو	بِوَشْكِ الْبَيْنِ تحسبه الْغُدَافَا
تَبَاكِينَا عَلَى الْوِطَنِ اخْتِدَاعًا	فَأُنْبِتْنَا بِأَدْمَعِنَا «الْخِلَافَا»
أَجَاعَتْنَا الْمَطَامِعُ فَاخْتَلَفْنَا	لِنَمْلَأَ فِي مَوَائِدِنَا الصَّحَافَا
ولكنَّا مِنَ الْوِطَنِ الْمُفْدَى	نَخِيطُ عَلَى مَطَامِعِنَا غِلَافَا

* * *

أرى أَنفَ الْحَوَادِثِ مَشْمُخَرًّا	غَدًا يَتَشَمَّمُ الْحَدَثَ الْجَرَافَا ^٢
ويوشكُ أَنْ يَمْزِقَ مَنْخَرِيهِ	عِطَاسٌ يَمْلَأُ الدُّنْيَا رِعَافَا

^١ قال الرصافي هذه القصيدة عندما سقطت وزارة الاتحاديين، وقامت وزارة أحمد مختار باشا الغازي، وذلك قبل الحرب البلقانية، وكان الخلاف بين الاتحاديين والائتلافيين في أشد حالاته.

^٢ الجراف: الجارف.

فهل لوزارة «الغازي» اقتدارٌ تردُّ به الهزاهز والنِّقافا^٣

* * *

أقولُ، ولو يسوء القومَ قولي
قد اختلف البرية واختلفنا
فلا تغررك أحزاب شداد
فإن بواطن القوم احتراضٌ
وما اختلفوا لمصلحة ولكن
هو الدينار مُنية كل راجٍ
نَحُجُّ لأجله بيت المخازي
ترى كل الأنام به سُكاري
فحبُّ سواه في الأفواه جارٍ
هو الحرب التي زحفت إليها
وكم قد رنَّ في أمل مُخافٍ
إذا خطب الوضع به المعالي
أرى الأحزاب من طمع وحرصٍ
يجانف بعضهم في الرأي بعضاً
لئن خطأت من راموا «اتحاداً»
فإن مشارب العدوان منها
وهم كأولي الديانة كل حزبٍ
وماذا نفع أقوال سمانٍ
وأنى يُصلِح الأوطان قومٌ
فكن منهم على طَرَفٍ بعيداً
فهم كالبحر يهلك راكبوه

بياناً للحقيقة واعترافاً:
فكنا نحن أسوأها اختلافاً
بأن لهم أقاويلًا لطافاً
وإن أبدت ظواهرهم عفاًفاً
ليأكلَ أقوياءُهم الضُّعافاً
وُبُغية كل من دأب احترافاً
ونكثر حول كعبته الطوافاً
وغيرَ هواه ما ارتشفوا سلافاً
ولكن حبه بلغ الشغافاً
كتائب كل من طلب الزحافاً
فأمَّن صوته الأمل المُخافاً
أقام له بنو الشرف الزفافاً
قد اخترقوا إلى الفتن السَّجافاً
وبئس الرأي ما التزم الجنافاً
فما صوّبت من راموا «ائتلافاً»
كلا الحزبين يرتشف ارتشافاً
يراه أحق بالحق اتصافاً
إذا أفعالهم كانت عجافاً؟!
بها أشتى تدابرهـم وصافاً؟!
وحاذر أن تكون لهم مضافاً
ويسلم منه من لزم الضُّفافاً

^٣ الهزاهز: الحروب والفتن التي تهز الناس. والنقاف: هو المضاربة بالسيوف على الرؤوس. ووزارة الغازي: هي وزارة أحمد مختار باشا الغازي.

عند سياحة السلطان^١

قل للحكومات في البلقان: هل علقت
إن الذي تضمرون اليوم من طمع
لم تعرفوا مُدَّ لِمَسْتَم عرق نخوتنا
إننا لنعرف لغزًا في سياستكم
ألم تروا أننا مستوفزون لكم
زار المليك بلاد الروم حيث غدا
فزال كل فساد كان منتشرًا
حتى اطمأنت قلوب الناس هادئة
وأصبح المترجّي من مطامعكم

آمالكم من مواعيد بإنجاز؟
أمسى لأشعب يعزو مثله العازي
إذ قد لمستم بكفّ ذات قفّاز
وما السياسة إلا بيت ألغاز
إذ نحن منكم على جذر وأوفاز^٢
يُلقي الدسائس منكم كل همّاز^٣
من عندكم بين إغراء وإيعاز
وكل قلب لكم من غيظه نازي^٤
يرنو إليكم بطرف ساخر هازي

^١ لما أخذت حكومات البلقان تشتغل بإيقاد الفتن السياسية في مقدونيا وبلاد الألبان، وخرج السلطان رشاد إلى البلاد المذكورة سائحًا سياحة سياسية، قال الرصافي هذه القصيدة، وقد رفعها إلى السلطان فأجازها عليها بساعة من ذهب، ذات سلسلة ذهبية.

^٢ مستوفزون: متهينون للوثوب عليكم، نحن على أوفاز: أي حد عجلة، أو على سفر قد أشخصنا، والأوفاز: جمع وفز وهو العجلة.

^٣ الهمّاز، كشّدَاد: العيّاب الطّعَان.

^٤ نازي: أي واثب.

ولاعبتْ نسمات الحب ألوية
يا أيها الملك السامي بحكمته
قد عَيَّ في وصف ما أوتيت من حكم
غزوت غزو سلام دون غايته
ملككت بالعفو والإحسان أفدَّة
وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم
فاغمد سيوفك إن العفو منصلت
بالترك بالروم بالألبان قاطبة
أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم
إذ هم عمادٌ لعرش أنت ماسكه
ورض بهم كل صعب، إنهم فئة
وهم ركاز العُلا لو زرت أرضهم
إن يعجز الأمر عن مشي فهم سندٌ
وإن خشيت على البلدان جنتها
وسيفٌ مُلكك إن رثت حمائله
زر أيها الملك المحبوب موطنهم
وانظر إليه بعين منك شافية
أشتم وأغرق ورُح من بعد محتجراً
ماذا على ملك الدستور من وطن

من الرشاد أقيمت فوق أنشاز^٥
والمبدل الناس من ذلِّ بإعزاز
كلا كلامي: إطنابي وإيجازي
غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
بصارم لنواصي القوم حَزَّار
والعفو أفضل ما يجزي به الجازي
واهناً بشعبٍ مُحَبٍّ غير منحاز
بالأرمنيين بالبلغار باللاز
إلى مقامٍ على الأقوام ممتاز
فاضرب بغاث العدا منهم بأبواز
تبغي الصدور ولا ترضى بأعجاز
يومًا لأركزت فيها أيَّ إركاز^٦
لو كنت مُسنده منهم بعُكاز
فَنُطُّ بها من نُهاهم بعض أحرار^٧
أغْنوك في رأبها عن كلِّ خرَّاز^٨
ولو زيارة عَجَلانٍ ومجتاز
ما نابه اليوم من جهل وإعواز
وأيمننَّ بعزم غير هَزْهاز^٩
لو جال منه بأطراف وأجواز

^٥ أنشاز: جمع نشز بالتحريك، وهو المكان المرتفع.

^٦ الركاز: ما ركزه الله في المعادن من ذهب وفضة.

^٧ الأحرار: مفردها الحرز؛ ما يتخذ لدفع الشر والجنون.

^٨ في رأيها: أي في إصلاحها. والخرَّاز: فعال من الخرز، وهو خياطة الجلود.

^٩ احتجز الرجل: أتى الحجاز، وأيمن: أتى اليمن. وقوله: «بعزم غير هَزْهاز»؛ أي غير مضطرب.

الحق والقوة

مشى ضاربًا في الأرض تلفظه الطُّرُقُ
وحيثُ فما يئويه غربٌ ولا شرقُ
إلى حيث لا إنس ولا طائر يزقو
ويظهر أحيانًا كما أومض البرق
وهم من قديم الدهر أعداؤه الزُّرق
إذا ظهرت ينسدُّ من دونها الأفق
قذائف من نارٍ كما أمطر الودق^١

أرى الحق لم يغش البلاد وإنما
فيصبح في أرض ويُمسي غيرها
توطن قفر الأرض مبتعدًا بها
وقد يهبط الأمصار وهو محجَّب
ومن عجب أن الورى يدعونه
أعدوا له في البر والبحر قوةً
وطاروا بطياراتهم يُمطرونه

* * *

تُذل لها الأعناق قهراً وتندق
ولا يتحاشى عن ظلامته الخلق؟
تعارض في أوصافها الكذب والصدق
بأشياء من بطلانها ضحك الحق
أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق
من الأسر مشدودًا بأعناقها ربق؟
من العنف لم يمرر بساحتها رفق

يقولون: إن الحق في الخلق قوة
فما باله يُمسي ويصبح شاكيًا
إلى الله نشكو الأمر من مدنيّة
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي
فهم منعوا رق الأسير وإنما
ألم تر في القطر العراقي أمة
قد اختط فيه السيف للقوم خطة

^١ الودق: المطر كله؛ شديده وهينه.

وأوجرهم سَمًّا من الذل ناقعًا
فدجلة من وقع الشوائب أصبحت
وإن الفرات الغمر أمسى وماؤه
بكأس من العُدوان ليس لها مذق
تُعاف؛ لأن الماء في حوضها رَنق
من الضيم غَوْرُ ما لأوشاله عمق

* * *

رعى الله بين الواديين مَواطنًا
قضيت بها عصر الشباب فلي بها
فلا تعجبوا من أنني عند ذكرها
وإني إذا أبصرتها مستضامة
ألم ترها قد أصبحت من إسارها
تجر قيود الذلّ راسفَةً إلى
ويحلب شطريها العدو ضرائبًا
سلامٌ على وادي السلام الذي به
سنفديه حتى لا حياة عزيزة
وندرك فيه ثأرنا بكتائب
وإن الليالي بالخطوب حوامل
فتنتج حربًا ما يبوخ سعيها
بكل أخي عزم كأنّ مضاءه
تلَقَّفَ رايات العلا بسواعد
فإما المنايا نستطبُّ بطبها
إذا نحن لم نملك على الدهر أمره
إذا ذكرت يهتز بي نحوها عشق
خاطر لم يسمح بإفشائها النطق
أنوح عليها مثلما ناحت الورق^٢
يكاد لها قلبي من الحزن ينشق
تليح بطرف في لوحظه العتق؟
تكاليف حكم في سياسته المحق
ويمخضها درًا كما يُمخض الزُّق
تفاقم هول الخطب واتسع الخرق
ونبذل حتى لا نفيس ولا علق
لها نسب من صلب يعرّب مشتق
ولا بدَّ يومًا أن سيأخذها الطلق
وتستنّ في ميدانها الدُّهم والبلق
مشطّبة بيض ومسنونة زُرُق
لهنّ بتصريف القنا في الوغى حذق
وإما مُنَى فيها يتم لنا السبق
فلا دام فينا نابضًا للعلا عرق

^٢ الورق: الحمام، مفردها الورقاء.

صبح الأماني^١

تبَلَّجَ أفقُ الشرق من بعد ما اغبراً
ولو كان صُبْحًا ناصع اللون سرنى
ولكنه صُبْحٌ يلوح لناظري
أراه كوجه الغادة الخود راقنى
لمحت تباشير المنى من خلاله
ولم أدِرْ لما استبهمت أخرياتهُ
ولو كنتُ أدري ما وراء احمراره
ولكنه وَرَى عواقب أمره
يهامسني بالوعد قولاً مجمماً
وإنى لأخشى أن أكون بوعدهِ
وما كل صبح يرتجى الناس خيرهِ
فإن كنت يا صبحَ الأماني صادقاً
وكشَّرَ عن صبح الأماني مُفْتَرَاً^٢
وبَرَّدَ حرّاً كان في كبدي الحرّى
بحاشية الزرقاء كالدم مُحَمَّرَاً
بحسن ولكن قد تجهم وازوراً
ضئلاً كمنهوك غدا يشتكي الضراً
أأطمع أم أستشعر اليأس مضطراً؟
تسرّى عن النفس الكئيبة ما سرّى
فزادت شكوك النفس من أجل ما ورّى
كأنّ هُوَ يخشى أن أذيع له سرّاً
وإن أسفرت أوضاحه الغرُّ مُغْتَرَاً
ولا كل ليل مظلم يُضمّر الشرّاً
بوعدٍ فحيا الله طلعتك الغرّاً

^١ نشرت الجرائد مقالاً لشكري غانم ببarris صرح فيه بالتبرؤ من الأمة العربية، قائلاً: «إننا — معاشر السوريين أو اللبنانيين — لسنا بعرب، وإن تكلمنا بالعربية، وإنما نحن فينيقيون، فقال الرصافي هذه القصيدة؛ يرد على شكري غانم.

^٢ يشير بقوله: «تبليج أفق الشرق» إلى حكومة دمشق، وكنى عنها بافترار الشرق عن صبح الأماني.

* * *

خليلي هل من عاذر في قصيدة
أرى هبوة سوداء في الجو أسبلت
وأرخت بأرض الشام منها على الربا
ومدت على بيروت منها غيابة
وما هي إلا عارض من تناكر
ترى القوم فيه نوءهم متخاذل
أقول بها حقاً وإن قلته مُراً!^٣
حجاباً بأفاق العراقيين مُمتراً^٣
سُدولاً بها جو السماء قد اغبراً
بها عاد وجه الأفق أسفع مكدراً^٤
به مربع الآمال أقفر واقوراً^٥
وآمالهم أمست كتيبتهما فُرّى^٦

* * *

عجبت لقوم أصبحوا يُنكروننا
همُ أسمعونا نعة عربية
فكم من خطيب قام فيها مثرثراً
وكم شاعر قد أرخص الشعرَ دونها
وكنّا أجبناهم إليها إجابة
رجاء اتحاد في طريق سياسة
فمذ حان أن يخضّل غصن اعتزازنا
نصبنا خياشيم الرجاء لريحهم
وقد عرفونا في الزمان الذي مرّاً
فدوّى صداها في المسامع مضطراً
فطرّى لنا من يابس القول ما طرّى
وكم قلم فوق الطروس بها صرّاً
بها قد تركنا جانب الدّين مزوراً
تعمُ مراميهما بني يعرب طراً
ويرجع بعد اليّيس رطباً ويخضراً
فهبت لنا نكباء عاتية صرّاً

* * *

لعمري لقد ساء الكرام ابنُ غانم
بباريس إذ قد قال ما يُخجل الحرّاً

^٣ يقال: امترّ به؛ أي مرّ به.

^٤ الغيابة: كل ما أظّل الإنسان من فوق رأسه، كالغبرة والسحابة ونحو ذلك. وأسفع: ذو سواد وشحوب. ومكدراً: أي كدر.

^٥ اقورّ: ذهب نباته.

^٦ قوله: «نوءهم متخاذل»: أي ضعفاء. وقوله: «أمست كتيبتهما فُرّى»، بضم الفاء وتشديد الراء: أي منهزمة.

نَفَى عن مَنَامِيهِ العُروْبَةَ وادَّعى
 وهل حَسِبُوا أن العُروْبَةَ في الْوَرَى
 كأن لم يَقم من بَينهم نَاعِرٌ بها
 فما أَحَدٌ مِنْهم وَفى بعهوده
 وكان غَرورًا كل ما حالفوا به
 وعاد الذي كُنا نَوْمُلُ مِنْهُمْ
 وقد صَوَّحت تلك الْأُمَانِي كُلُّهَا
 وأصبح فينا شامِتًا كُلُّ من غدا
 جُزَافًا وَخَلَّى مِنْهم القوم وابتَرَا^٧
 من الْعَرِّ حَتَّى أَنْكروا ذلك الْعَرَا؟^٨
 ولم يكْ ضَرَانَا بها أَمْسَ مَنْ ضَرَا^٩
 ولا أَحَدٌ مِنْهم بما قال قد بَرَا
 وشر الحَلِيفِينَ الذي خان أو غَرَا
 إلى غير ما كُنا نَوْمُلُ مِنْجَرَا
 فحَاكت نَبَاتَ الْأَرْضِ إِذْ هَاجَ مَصْفَرَا
 لِأَبْنَاءِ قَنْطُورَاءَ يَغْضِبُ مَمْقَرَا^{١٠}

^٧ نفى عن مناميه: أي عن مناحيه. ابتتر: من الابتتر، وهو الاعتزال والانفراد عن الأصحاب.

^٨ العر بالفتح: العيب.

^٩ قوله: ضرانا بها: أي أغرانا، يقال: ضراه بكذا تضرية؛ أي ألجه به وأغراه وعوده إياه.

^{١٠} أبناء قنطوراء: الترك. وقوله ممقرا: أي ناتئا عرقه، ويكون ذلك عند الغضب.

نواح دجلة

قالها بعد سقوط بغداد في أثناء الحرب العامة؛ جوابًا عن قصيدة الشاعر التركي الشهير سليمان نظيف.

كُلُّ حُزْنٍ لِمَائِهَا يَمْتَحُ
بِيدِ الذِّلِّ هَالِكٌ مَجْتَحُ؟!
جَلَلٌ مَا لِلَّيْلَةِ إِصْبَاحُ
ظُلُمَاتٌ تَخْفَى بِهَا الْأَشْبَاحُ
شَرَفٌ فِي مَوَاطِنِي وَضَاحُ
يَمُّ عَنِّي وَلَا ظُبًّا وَرِمَاحُ
لَا شِرَاعٌ لَهَا وَلَا مَلَّاحُ
قَيْدٌ شَبْرٌ لِي الْفِجَاجُ الْفَسَاحُ
أَلْسُنُ الدَّمْعِ فِيهِ ذُلُّقُ فِصَاحُ
وَاعْتَرَانِي مِنَ الْعَوِيلِ بُحَاخُ
وَخَرِيرِي هُوَ الْبُكَاءُ وَالنُّوَاحُ
خَفَقْتُ فِي جَوَانِبِي الْأَرْوَاحُ؟!
هُوَ مَنِّي تَنْهَدُ وَصِيَاخُ
أَدْمَعِي أَحْرَقَتْ نَيَّ الْأَتْرَاحُ
مَنْ أَسَى جَفَّ مَائُهُ الضَّخْضَاحُ
هُوَ بَاكِ وَدَمْعُهُ سَفَّاحُ

هِيَ عَيْنِي وَدَمْعُهَا نَضَّاحُ
كَيْفَ لَا أَذْرُفُ الدَّمُوعَ وَعِزِّي
قَدْ رَمَتْنِي يَدُ الزَّمَانِ بِخَطْبِ
حَيْثُ غَمَّتْ عَلَيَّ وَجْهَ سَمَائِي
وَتَوَارَى عَنِّي أَعْيُنِي مَضْمَحَلًا
يَوْمَ أَمْسَيْتُ لَا حُمَاةَ تَذُودُ الضَّ
فَأَنَا الْيَوْمَ كَالسَّفِينَةِ تَجْرِي
ضَقْتُ ذَرْعًا بِمَحْنَتِي فَتَرَاءْتُ
أَخْرَسَ الْحُزْنَ مَنَظْقِي بِنَحِيْبِ
نُحْتُ حَتَّى رَثَى الْعَدُوَّ لِحَالِي
فَمِيَاهِي هِيَ انْسِكَابُ دَمُوعِي
أَوْ مَا تَبَصَّرُ اضْطِرَابِي إِذَا مَا
لَيْسَ ذَا الْمَوْجِ فِيَّ مَوْجًا وَلَكِنْ
إِنْ وَجَدِي هُوَ الْجَحِيمُ وَلَوْلَا
لَوْ دَرَى مَنبَعِي بِمَا أَنَا فِيهِ
عَلَّهْ قَدْ دَرَى بِذَاكَ فَهَذَا

* * *

أين أهل الحفاظ هل تركوني
برحوا وادي السّلام عجالاً
ما لهم يبعدون عني انتزاحاً
أوما يعلمون أن حريمي
فلئن يبعدوا فإن فؤادي
تركوني من الفراق أقاسي
لو رأوني سبياً بأيدي الأعادي
لا مسائي بعد البعاد مساءً
أتمنى بأن أطيّر إليهم
أنا أدرى بأنهم بعد هجري
بل هم اليوم عازمون على الزح
إن تأنّوا فربضة الليث تأتي
كيف يُغضون عن إغاثة وإد
فعليه من فخر عثمان تاج
أنا باقٍ على الوفاء وإن كا
فإليهم ومنهم اليوم أشكو

نهباً في يد العدو وراحوا؟
أفجدّ برأحهم أم مُزاح؟
وعزيز منهم عليّ انتزاح؟
للمُعادين بعدهم مستباح؟
لأليّهم بوّده طمّاح
ألما ما تطيقه الأرواح
لبكوا مثلما بكيت وناحوا
يوم بانوا ولا الصباح صباح
بجناحٍ وأين مني الجناح!
لم يذوقوا غمضاً ولم يرتاحوا
ف بجيشٍ به تَغصُّ البطاح
بعدها وثبّةً له وكفاح
زانه من وداهم أوضاح؟!
وله راية الهلال وشاح
نت بقلبي ممن أحبُّ جراح
بلّغيهم شكايّتي يا رياح

بعد براح الشام

قد صحَّ عزمك والزمان مريضُ
ما بال همك في الفؤاد كأنه
كم بتَّ مُعتلجَ الهموم بليلة
طنتُ بمسمعك الهواجس في الدجى
تنبو جُنوبك عن فراشٍ ناعمٍ
وكأن جنبك بالجوى متقرَّحٍ
كُبرتَ لنفسك في الحياة لُبانة
ما زلتَ تقتحم المهالكَ دونها
لله أنت فأَيُّ هولٍ تمتطي
حتَّامَ تذهبُ في المنى وتئيضُ؟^١
عَظم يقلقل في حشاك مَهيض؟
ما للظلام بفجرها تقويض!
فنفت كراكَ كما يَطنُّ بَعوض
فكأن مضجعك الدميثَ قضيض
وكأن قلبك بالهموم رضيض
ضاقت سموات بها وأروض
فالهول يركب والصعابُ تروض
أم أي معترك الخطوب تخوض؟!

* * *

ولربَّ قافيةٍ كمؤتلق السنا
صرَّحتُ في إنشادها بحقيقة
يجلو الشكوكَ يقينها المحوض^٢
فات الأنامَ بمثلها التعريض

^١ آض يئيض أَيضاً: رجع.

^٢ المحوض: من المحض، وهو الخالص.

ولقد أَجَرَنِي القَريضُ عَنانَهُ
وَأَتَى المَدَى يومَ السِّباقِ مَجَلِّيًا
قد كُنْتُ أَنبِطُ لِلقَريضِ قَريحَةً
ولَكم وَقَفْتُ مِنَ السِّياسَةِ موقِفًا
مستَنهضًا بِالشَّعرِ قَومِي لِلعِلا
أَيامَ لَم يَنطِقْ بِذلك شاعِر
حَتى إِذا دارَ الزَّمانُ مَدارَهُ
وَعِدا يَنازَعَنِي الحُرورَةَ شاعِرٌ
ويَبزُنِي ثوبَ الأمانَةِ خائِنٌ
كَم مَدَّعٍ دَعوايَ فِي وَطَنِيَّةٍ
مِن كُلِّ عَبدٍ فِي السِّياسَةِ باعُهُ
تَعَسَّ المَخاصِمُ إِنَّ لِي لِقِصائِدًا
فإِذا ادَّعَيْتُ فَهَنَ فِي دَعوايَ لِي
وَسَلَّ اليراعُ يُجِبُّكَ عَنِّي ناطِقًا

ونَحا بَيَ المِضمارِ وَهُوَ مَروضٌ^٢
يَجري سَبوحُ خَلْفَهُ وَرَکُوضٌ
بِمَفاخرِ العَربِ الكَرامِ تَفَيضُ
مَحيايَ فِيهِ عَلى التَّوى مَروضٌ^٤
إِذ كانَ فِيهِم فَترةٌ وَرَبُوضٌ
قَبلِي وَلَم يَنشُدْ هَناكَ قَريضُ
خابَ القَريضُ وَعادَ وَهُوَ جَريضُ^٥
ما كانَ حَرا شَعرُهُ المَقَروضُ^٦
كَأبَي بَراقِشَ طَبَعَهُ المَرفُوضُ^٧
أنا كُنْتُ أَبنِيها وَكانَ يَاقُوضُ!
وَشَراهُ هَذا الدَرمُ المَقبُوضُ
طَرَفُ المَعايدِ دَونَهُنَّ غَضِيبُ^٨
حُججَ دَواِمُ ما لَهَنَ دُحُوضُ
بِمقالِ صِدقٍ لَيسَ فِيهِ غَمُوضُ

* * *

لَمّا تَكرَّهَنِي الأَراذلُ سَرَّني
ولقد بَرَّنتُ إِلى الوِفاءِ مِن اَمري
وَجَزيتُ كُلَّ صَنيعةٍ بِمِثالِها
أَني إِليهِم يا أُميمَ بَغيضُ
عَهدَ الصِّداقةِ عَندَهُ مَنقُوضُ
إِن الصِّنائِعَ فِي الرِّجالِ قَروضُ

^٢ أَجَرَنِي الفَرسُ عَنانَهُ: أَسَلَسَ لِي قِياَدَهُ. والمِضمارُ: المِيدانُ الَّذي يَضمُرُ فِيهِ خيلُ السِّباقِ. والمَروضُ: المَدربُ عَلى الجَريِ فِي السِّباقِ.

^٤ تَوَى يَتَوَى تَوًى مَن بابُ فَرَحٍ: هَلَك، يَريدُ: وَقَفْتُ فِي السِّياسَةِ مَواقِفَ كَثيرَةٍ تَعَرَّضْتُ فِيها لِحياتِي لِلحِمامِ.

^٥ الجَريضُ: غِصصُ المَوتِ.

^٦ الحُرورَةُ: بَفتَحَ الحاءِ، كالحَريَّةِ والحُروريةِ، والحَراةُ والحَرا، وَهِيَ العَتَقُ والنَّفاسَةُ.

^٧ يَبزُنِي: يَسْلُبُنِي. وَأَبو بَراقِشَ: حَيوانٌ لا يَزالُ جِلَدُهُ يَتَلَوَّنُ ألوانًا فِي ضَوءِ الشَّمسِ.

^٨ غَضِيبُ: مَغْضُوضٌ، أَي مَكْسُورٌ.

لا تطلبين من الزمان حقيقة
وإذا مخّضت من الليالي صرفها
وحوادث الأيام مثل نساءها
ولربّما أنتجن كلّ كريهة
قد ساء منقلب البلاد بأهلها
ذهب الحياء فكم رأينا صاغراً
وقح تعامى عن مدانس عرضه
غلب الشقاء على الأنام فخيرهم
كيف السعادة في الحياة وللورى
أم كيف تبتدع المعالي أمّة
لن تعدم الدنيا الشقاء بأهلها
ويح الذكاء فقد تأخّر أهله
أخزى البلاد مفاسداً بلد به
وإذا الفتى قعدت به أفعاله
والمرء إن عدمت سجيته العلا

ما للحقيقة في الزمان وميض
أبدى العجائب صرفها الممخوض^٩
في الحكم تطهر تارة وتحيض
سوداء تقناً في وغاها البيض^{١٠}
فانحطّ أوجّ واشمخّر حضيض
قد جاء وهو لمذرويه نفوض^{١١}
فزهاه عجباً ثوبه المرحوض^{١٢}
دثّ وقطر شرورهم إغريض^{١٣}
في قوس كل ضغينة تنبيض؟!^{١٤}
في العلم قلّ نصيبها المفروض!
ما دام ملك في البلاد عضوض
حتى تقدّم من قفاه عريض
مقت الأديب وأكرم العريض
أعياء بالنسب الرفيع نهوض
لم يبتعثه إلى العلا تحريض

^٩ وضع اللبن في السقاء وتحريكه لاستخراج الزيت منه.

^{١٠} تقناً: تحمر. والوغى: الحرب. والبيض: السيوف، جمع أبيض.

^{١١} المذروان: مثنى مذرى، وهو طرف الألية. ونقوض: محرك؛ أي كم حقيق ذليل جاء يستطيل على غيره ويهدده.

^{١٢} زهاه: ملأه. والمرحوض: المغسول.

^{١٣} الدث: أضعف المطر وأخفه، جمع دثاث. والإغريض: قطر كبار.

^{١٤} التنبيض يقال: نبض قوسه نبضاً؛ إذا جذب وترها.

تجاه الريحاني

شكواي العامة

هذه هي القصيدة التي أنشدتها الرصافي في حفلة أقامها المعهد العلمي؛ تكريماً لأمين الريحاني عند قدومه بغداد في أيلول سنة ١٩٣٣.

وبرافديه وباسقات نخليه
ويَبْشُ مبتسماً بوجه نزيله
ومؤهلاً والحمد في تأهليه
بكبير معشره، بفخر قبيله
بأديب أمته، بداهي جيله
في فكره وبفعله وبقيله
تبجيل كل الفضل في تبجيله
ما فيه من غرر العلا وحجوله
والقوم مُحْتَرَبُونَ بعد أُوله
قد فاق مُقْفِرُهُ على مأهوله
لكنْ مَسِيلُ الماء غير مَسِيلِهِ
من جهل ساكنه اشتداد مُحْوله
عن قطر مصر وعن موارد نيله
برغيد عيش تحت ظل نخيله
يشفي من المشتاق حَرَّ غليله

إن العراقَ بعرضه وبطوله
يهتَزُّ مبتهَجاً بمقدَم ضيفه
ومُرحَّباً والشكر في ترحيبه
بربيبِ لبنان، بريحانيِّه
بالعبقريِّ، بفيلسوف زمانه
بأصحِّ أحرار الأنام تحرُّراً
إننا نبجلُ منه خيرَ مَبْجَلٍ
أأَمِينُ جئتَ إلى العراق لكي ترى
عفواً فذاك النجم أصبح أَفْلاً
أوما ترى قطر العراق بحسنه
أما الحيا فيه فذِيَاكَ الحيا
وربيعه ذاك الرِّبيع وإن شكا
فأقم به ولك الغنى بفرااته
وانزل على وادي السلام ممتَّعاً
والثَّمْ به ثَغَرَ الطبيعة باسمًا

وترقَّبَنْ أَسْحَارَهُ حَتَّى إِذَا
وَانْظُرْ مُحَاسِنَ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
فَالْجَوُّ فِيهِ مُنِيرَةٌ أَوْضَاحُهُ
وَاللَّيْلُ فِيهِ مَكْلَلٌ بِمِرْصَعٍ
وَتَرَى النَّهَارَ بِهِ كَذَهْنِكَ وَاقْدًا
وَتَرَى ضِيَاءَ الشَّمْسِ فِيهِ مَغْلَفًا
وَإِذَا وَقَفْتَ بَدَارِسٍ مِنْ مَجْدِهِ
وَانْحَبْ كَمَا نَحَبَ الْحَزِينُ مُكْفِكِفًا
فَلَقَدْ عَفَا الْمَجْدُ الْقَدِيمُ بِأَرْضِهِ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى قُلُوبِ رِجَالِهِ
تَجِدُ الرِّجَالَ قُلُوبَهَا شَتَّى الْهَوَى
مُتَنَاقِرِينَ لَدَى الْخُطُوبِ تَنَاقَرًا
فَالْجَارُ لَيْسَ بِأَمْنٍ مِنْ جَارِهِ
وَالدِّينُ فِيهِ يَقُولُ ذُو قُرْآنِهِ
وَإِذَا تَأَوَّلَ قَوْلَهُمْ مَتَأَوَّلُ
وَإِذَا تَكَلَّمَ عَالِمٌ فِي أَمْرِهِمْ
حَالٌ لَوْ افْتَكَرَ الْحَكِيمُ بَكْنَهُ
مَنْ ذَا يَبْذُلُهُ فَإِنْ قَوَارِعِي
وَالْجَهْلُ لَا يُبْقِي عَلَى أَرْبَابِهِ
أَأْمِينٌ لَا تَغْضَبُ عَلَيَّ فَإِنَّنِي
مَنْ أَيْنَ يُرْجَى لِلْعِرَاقِ تَقْدِمُ
لَا خَيْرَ فِي وَطَنِ يَكُونُ السِّيفُ عِنْدَ
وَالرَّأْيُ عِنْدَ طَرِيدِهِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ
وَقَدْ اسْتَبَدَّ قَلِيلُهُ بِكَثِيرِهِ

هَبَّ النِّسِيمُ فُجِسَ نَبْضُ عَلَيْهِ
وَانْشَقَّ أَرِيحُ شِمَالِهِ وَقَبُولُهُ
وَالْحَسَنُ فِيهِ دَقِيقُهُ كَجَلِيلِهِ
وَكَوَاكِبُ الْإِكْلِيلِ مِنْ إِكْلِيلِهِ
بِالشَّمْسِ تُشْرِقُ فِي وَجْهِهِ سَهُولُهُ
بِنَظِيرِهِ وَمُسْلَسَلًا بِمَثِيلِهِ
فَكَوْقِفَةُ الْبَاكِينَ بَيْنَ طُلُولِهِ
غَرْبِ الدَّمُوعِ بِجَانِبِي مَنَدِيلِهِ
وَعَلَيْهِ جَرَّ الدَّهْرُ ذَيْلَ خُمُولِهِ
فَانْظُرْ حَدِيدَ الطَّرْفِ غَيْرَ كَلِيلِهِ
مَدَّ الشَّقَاقِ بِهَا حِبَالَةَ غُولِهِ
يَعْيَا لِسَانَ الشَّعْرِ عَنْ تَمَثِيلِهِ
وَالْخَلُّ لَيْسَ بِوَائِقٍ بِخَلِيلِهِ
قَوْلًا يُحَازِرُ مِنْهُ ذُو إِنْجِيلِهِ
صَرْفُوهُ بِالتَّفَكِيرِ عَنْ تَأْوِيلِهِ
خَفَرُوا ذِمَامَ الْعِلْمِ فِي تَجْهِيلِهِ
طُولُ الزَّمَانِ لَعَيٍّ عَنْ تَعْلِيلِهِ
يُئْسَتْ لِعَمْرِ اللَّهِ مِنْ تَبْدِيلِهِ^١
كَالسَّيْفِ لَيْسَ بِرَاحِمٍ لِقَتِيلِهِ
لَا أَدْعِي شَيْئًا بِغَيْرِ دَلِيلِهِ
وَسَبِيلُ مَمْتَلِكِيهِ غَيْرُ سَبِيلِهِ؟
دُجْبَانُهُ، وَالْمَالُ عِنْدَ بَخِيلِهِ
دُغْرِيْبُهُ، وَالْحَكْمُ عِنْدَ دَخِيلِهِ
ظُلْمًا، وَذَلَّ كَثِيرُهُ لِقَلِيلِهِ

^١ قوارعي: جمع قارعة، وهي الكلمة الشديدة، تفرع الأذان بشدتها.

فَضَّلْتُ مُجْمَلَهُ عَلَى تَفْصِيلِهِ	إِنِّي إِذَا جَدَّ الْمَقَالَ بِمَوْقِفٍ
أَغْنَى اخْتِصَارَ الْقَوْلِ عَنْ تَطْوِيلِهِ	وَإِذَا الْمَخَاطَبُ كَانَ مِثْلَكَ وَاعِيًا
وَالنَّاسَ مَجْمَعَةً عَلَى تَفْصِيلِهِ	يَا مَنْ يَكْتُمُ فَضْلَهُ مَتَوَاضِعًا
شَكَاوَى الزَّمِيلِ غَضَاضَةً لَزْمِيلِهِ	شَكَاوَى بَحْتُ بِهَا إِلَيْكَ وَلَيْسَ فِي
مِمَّا بِهِ لَطِيبِيهِ وَخَلِيلِهِ	إِنَّ الْمَرِيضَ لِيَسْتَرِيحَ إِذَا اشْتَكَى
يَبْكِي فَيَسْكُنُ حُزْنَهُ بِعَوِيلِهِ	وَكَذَا الْحَزِينَ إِذَا تَهَيَّجَ حَزْنُهُ
إِلَّا لِمَقْتَدِرٍ عَلَى تَحْصِيلِهِ	إِنِّي لَأَنْفُ أَنْ أَبُوحَ بِمُضْمَرِي
بِالْعَزِّ يَمْنَعُ فَايَ مَنْ تَقْبِيلِهِ	وَلَدَيَّ إِنْ وَصَلَ الْحَبِيبَ تَمَسُّكُ

بعد النزوح

قالها في بيروت سنة ١٩٢٢، وكان قد خرج من بغداد على ألا يعود إلى العراق.

مثلُ الحوادث أبلوها وتبليني
أما أصادفُ حُرًّا فيه يُشكيني؟!
نزلتُ منها ببيت غير مسكون
نوائب الدهر بالأنياب تدميني؟!
وتارةً في الطوامي فوق مشحون^١
فَعُمْتُ فيهنَّ من صبري بدلفين^٢!
وإن يك الماء منها ليس يُرويني
أشجى الأناشيد في أشجى التلاحين
بالورد ما بين أزهار البساتين
أستنشق الطيبَ من نفح الرياحين
وكان تنعابه بالبين يؤذيني
وما غدوت طريدًا للشواهين^٣

هي المواطن أدنيها وتقصيني
قد طال شكواي من دهر أكابده
كأنني في بلادي إذ نزلتُ بها
حتى متى أنا في البلدان مغتربُ
فتارة في المواصي فوق موقرة
كم أغرقنتي الليالي في مصائبها
أنا ابن دجلة معروفًا بها أدبي
قد كنت بلبلها الغريد أنشدها
حيثُ الغصون أقلتني مكللة
فبينما كنت فيها صادقًا طربًا
إذ حلَّ فيها غرابٌ كان يُوحِشني
حتى غدوت طريدًا للغراب بها

^١ المواصي: جمع موصاة، وهي الصحاري المقفرة. والموقرة: الناقة التي حملت عليها الأوقار، وهي الأحمال

الثقيلة. والطوامي: جمع طامي، وهو البحر. والمشحون: صفة لمحذوف؛ أي الفلك المشحون.

^٢ الدلفين: حيوان بحري يحمل الغرقى إلى الشواطئ، ولعلّه هنا يريد سفينة تشبه الدلفين في صورتها.

^٣ الشواهين: جمع شاهين، وهو من جوارح الصيد.

فطرتُ غير مبالٍ عند ذاك بما تركت من نرجسٍ فيها ونسرين

* * *

ويل لبغداد مما سوف تذكره
لقد سقيتُ بفيض الدمع أُرْبَعَهَا
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها
أفي المروءة أن يعتزَّ جاهلها
وأن يعيش بها الطُّرطور ذا شَمَمٍ
تالله ما كان هذا قطُّ من شيمي
ولست أبذل عرضي كي أعيش به
أغنت خشونة عيشي في ذرًا شرفي
عاهدت نفسي والأيام شاهدة
ولا أصادق كذابًا ولو ملَّكًا
أما الحياة فشيءٌ لا قرارَ له
سيان عندي أجاء الموت مخترمًا
ما بالسنين يقاس العمر عندي بل
لو عشت ستين عامًا لاستعضت بها
فإنما أطول الأعمار أجمعها
إن اللئيمَ دفينٌ قبل ميته

* * *

ما كنت أحسب بغدادًا تحلُّني
عن ماء دجلتها يومًا وتظميني^٧

^٤ الجدع: القطع. والعرنين: مقدم الأنف.

^٥ تأدمت: اتخذت إدامي، والإدام ما يؤكل بالخبز. والزقوم: شجرة يطعم منها أهل النار المعذبون.

والغسلين: ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه.

^٦ ذرا شرفي، بفتح الذا: ظله وجانبه.

^٧ تحلُّني: تمنعني وتطرديني.

حتى تقلّد فيها الأمر زعنفة
 ما ضرّني غير أنني اليوم من عرب
 تالله ما ضاع حقي هكذا أبداً
 علام أمكت في بغداد مضطرباً
 لأجعلنّ إلى بيروت مُنتسبي
 خابت ببغداد آمالٌ أوُمّلها
 فليت سورّيّة الوطفاء مزنتها
 قد كان في الشام للأيام مُدّ زمن
 إذ كان فيها النشاشيبيّ يُسعفني
 وكان فيها ابن جبر لا يقصّر في
 إن كان في القدس لي صحبّ غطارفة

من الأناس بأخلاق السراحين^٨
 لا يغضبون لأمر ليس يرضيني
 لو كنت من عجم صُهب العثانين^٩
 على الضّراعة في بُحبوحة الهون^{١٠}
 لعلّ بيروت بعد اليوم تُؤويني
 فهل تخيب إذا استذرت بصنّين؟
 عن العراق وعن واديه تغنيني
 ذنبٌ محته الليالي في فلسطين
 وكنت فيها خليلاً للسكاكيني
 جبر انكسار غريب الدار محزون
 فكم ببيروت من غرّ ميامين!

^٨ الزعانف: جمع زعنفة، وهم أراذل القوم. والسراحين: جمع سرحان، وهو الذئب.

^٩ الصهب: جمع أصهب، وهو أصفر اللون. والعثانين: جمع عثنون، وهو شعر الذقن.

^{١٠} الهون: الذل والهوان.

إلى هرب صموئيل

ألقى يهودا محاضرة تاريخية، ذكر فيها مدنية العرب في الغرب والشرق، ولما أتمها قام هرب صموئيل، المندوب السامي من قبل إنكلترة في فلسطين، وألقى على القوم كتاباً مؤنقاً، وعدهم فيه مواعد سياسية سر بها الحاضرون الذين كانوا قد حضروا بدعوة من راغب بك النشاشيبي رئيس بلدية القدس، فقال الرصافي هذه القصيدة مسجلاً بها ما قاله المندوب، وشاكراً له على ذلك.

وذكّرنا ما نحن منه على نُكْر
وما لبني العباس في الشرق من فخر
تبوّاه هِرْبَر صَمُوئِيلَ في الصدر
إليه فلبّوا دعوة من فتّى حُرّاً
يَحْفُون من هِرْبَر صَمُوئِيلَ بالبدر
تكون على عِلاتها ليلة القدر
وقد سَرَّنا من حيث ندرى ولا ندرى
بسحر مقالٍ جَلَّ عن وصمة السحر
وما لهم في العلم من خالد الذكر
على صخرة البيت المقدّس من إثر^١

خطابُ يهودا قد دعانا إلى الفكرِ
ومجّد ما للعُرب في الغرب من يدٍ
لدى محفل في القدس بالقوم حافل
دعاهم رئيسُ القدس ذو الفضل راغبُ
فأمسوا وفي ليل المحاق اجتماعُهم
فيا ليلةً كادت وقد جَلَّ قدرُها
ولمّا تناهى من يهودا خطابه
تصدّى له هرب صموئيل ناطقاً
فصدّق ما للعُرب من تالد العُلا
وزاد بأن أوما إلى ما لصنعهم

^١ أوما: أصله أوما؛ أشار برأسه.

وقال وقد أصغى له القوم: إننا وننْهَضُكم في مَنْهَج العلم نهضةً فكانت لهذا القول في القوم هزة

سنرأب ما أَثَّأَتْه منكم يدُ الدهر مقوِّمةً ما اعوجَّ فيكم من الأمر سرورية من دونها هزة السكر

* * *

حنانيك يا هربز صموئيل كم لنا لنا قلبَ الدهرُ الخئون مجنَّه وأغرى بنا الأحداث مبتكرًا لها وقد أفنت الأيام كل عتادنا فلسنا وإن عضَّت بنا اليوم نابُها فمن سامنا قسرًا على الضيم يلقنا لنا أنفسُ تحيا بثروة عزَّها إذا نحن عاهدنا وفينا ولم نكن فإن شئتَ يا هربز صموئيل فاختر

على الدهر من حقِّ مُضاع ومن وتر! وكَرَّ علينا لابسًا جِلْدَةَ النَّمْرِ^٢ فلم يأتنا إلا بحادثة بكر سوى ما ورثنا من إباءٍ ومن صَبْر نَقَرُ على ذلٍّ وننقادُ عن دُعر مصاعيب لا نعطي المقادة بالقسر وإن نشأت بين الخِصاصة والفقر إذا ما ائْتَمْنَا جانحين إلى الختر خلائق منا لا تميلُ إلى الغدر

* * *

وعدتَ فأمسى القوم بينُ مشكِّك فكذب — وأنت الحرُّ — مَنْ ساء ظنُّه ولسنا كما قال الألى يتهمُوننا وكيف وهم أعمامنا وإليهم وإنِّي أرى العُرْبِيَّ للعُربِ ينتمي هما من ذوي القُربى وفي لغتيهما ولكننا نخشى الجلاء ونتقي وهل تثبت الأيامُ أركان دولة وها أنا قبل القوم جئتُك معلناً

ومنتظر الإنجاز منشرح الصدر فقد قيل: إن الوعدَ دينٌ على الحر نعادي بني إسرائيل في السرِّ والجهر يمتُّ بإسماعيلَ قَدَمًا بنو فِهْر؟! قريبًا من العِبرِيِّ يُنمى إلى العِبر دليل على صدق القرابة في النَجْر سياسة حكم يأخذ القوم بالقهر إذا لم تكن بالعدل مشدودة الأزر لك الشكرَ حتى أَمَلَّ الأرض بالشكر

^٢ المجن: الترس يتقي به المحارب قرنه، وقلب المجن كناية عن الاستعداد للمنازلة في الحرب.

مظاهر التعصب في عصر المدنية

قالها بعدما ألقى غورو على المسلمين خطابه المشهور في بيروت.

فقد آلمتنا من خطابك أقوالُ
قد اضطربت في المسلمين بها الحال
يكيل لك الودَّ الصميمَ ويكتال
لقومك تكريمٌ بهن وإجلال
تجرُّ ذيول الفخر عجبًا وتختال
إذ انبعثت منهم إلى الشرق أبطال
لأبطالِ هاتيكِ المعارك أنسال
وجددت عهدًا منه في الشرق أوجال
من الأمر فاستاءت عصور وأجيال
بها اليومَ قد تَمَّت لقومك آمال
بما قلته فاهتاج بالشرق بلبالُ
تشابه كردينالها والجَنيرال
لأنحي علينا بالتعصُّب عذال
وإن خالفوا وجه الصواب بما قالوا

رُويَدك «غورو» أيهذا الجَنيرالُ!
أتيت بلاد الشرق من بعد هدنةٍ
فجاء إليك ابن الدنيا وهو مسلم
وقام خطيبًا معربًا عن عواطفٍ
فقمتم له في محفل القوم خاطبًا
فذكَّرتُه أهل الصليبِ وحربهم
وقلّنت عن الإفرنج قومك: إنهم
فحرَّكت حزنًا كان في الشرق ساكنًا
أسأت إلينا بالذي قد ذكرته
ذكرت لنا الحربَ الصليبية التي
وتلك لعمرى قرحة قد نكأتها
فيا عجبًا من أمة قدت جيشها
ولو أننا قلنا كما أنت قائل
وقالوا لنا: أنتم أولو جاهليةٍ

فلا تصمّن الحرب بعد انقضائها
ولا تنس فضل الشرق إذ كان ناصراً
فقد قادت الأعراب نحو عدوكم
وقامت لكم منهم بمكة راية
لقد أغضبوا البيت الحرام وربّه
ولو أنّ عهد المسلمين كعهدهم
ولكنهم باعوا الديانة بالدّنا
لذلك قام ابن «الدنا» عن دناءة
ولا تحسبّنه مخلصاً في مقالته
فكان قتيلاً بالمطامع عزّه

بما هو للدنيا وللدين إخال^١
لقومك فيما أحرزوه وما نالوا
خيولاً لها في حومة الحرب تجوال
لكم فتحت فيها من القدس أقفال
وهم بمقام البيت لا شكّ جهال
قديمًا لحالت دون ذا النصر أهوال
فحالت لعمرى منهم اليوم أحوال
يحابيك فيما فيه للقوم إذلال
ولكنه في مكسب المال محتال
فذل وإن الحرص للعزّ قتال

* * *

خليليّ قوما بي نطأطيّ رءوسنا
لدى الحدث الفرد الذي فيه قد ثوى
فنبكي على الأوطان حول رجائه
ونستنزف الدمع الغزير لتربه
حنانيك يا قبر ابن أيوب فانصدع
إليك صلاح الدين نشكو مصيبة
ودارت رءوس القوم فيها توجّعاً
وقطّبت الأيام حتى تشابهت
وأمسى حمى الإسلام تنتاب روضه

لدى جدث تعنو لمن ضمّ أجيال
من الملك الفرد ابن أيوب رثبال
كما قد بكت من فقدها الأمّ أطفال
كما استنزفت دمع المحبّين أطلال
لينهض ثاو في مطاويك مفضل
أصيب بها قلب العُلا فهو مُغتال
وحُزنًا كما دارت بسكران جرّيال^٢
بها غدوات كالحات وأصال
فترعاه من سرح المعادين آبال^٣

^١ فلا تصمن: فلا تحدث وصمة، وهي العيب.

^٢ الجرّيال: الخمر.

^٣ آبال: جمع إبل.

ولسون بين القول والفعل

قال قولاً به استحقَّ احتراماً
رجل قد تنكَّب الحق قوساً
كان منه المقال نوراً فلمّا
خاض حربَ العدا بِمَقُولِ حرٍّ
وبذا عرّف الورى أن قول الـ
إذ غدا ناطقاً بمرقد واشنـ
معرباً عن مبادئ محكمات
قال: حرية الأنام هي الغا
فاشرأب الورى إليه وظنُّوا
واطمأنت له القلوب بفوز
شام منه الورى بوارق غيم
فتصدّى لغيثه كل قوم
ثم خابت ظنونهم فيه لما

وتعدّاه فاستحق مَلاماً
ومن البُطل ظلٌّ يرمي سهاماً
حان حين الفعّال كان ظلاماً
فاق فيها المهتد الصمصاماً
مرء في الحرب قد يفوق الحساما
طون نطقاً شفى به الأسقاما
ساميات تحرر الأقواما
ية لي في الوغى فغرّ الأناما^١
أنهم سوف يبلغون المراما
يغتدي في فم الزمان ابتساما
من وراء البحر المحيط ترامى
قد شكوا غلة بهم وأواما
مر في الجو حُلُباً وجهاما

* * *

مدّ ولسون في السياسة حبلاً جمع النقض فيه والإبراما

^١ غر الأنام: خدعهم وغشهم.

فلبعض الأنام كان عصامًا وللبعض الأنام كان خصامًا
 ملأ الدهر في فيومة فخراً وبأزميرٍ أخجل الأياما
 إن أزميرَ صيرت ما لولسو ن من الفخر في فيومةً ذاماً^٢
 فهل الحق عنده في سوى الغر ب حقيراً أقلُّ من أن يُحامي؟!
 أو هل الشرق وحده في الأقا ليم مُباحٌ أن يُستبى ويضاماً؟!
 أم هل القوم عاهدوا الله في أن لا يُراعوا للمسلمين ذاماً؟!
 ما لهم أرهقوا بني الشرق ظلماً وعلى الترك أشلوا الأرواما؟^٣
 فاستباحوا حريم أزمير نهباً واستحلوا من الدماء حراماً
 حيث جاسوا خلالها بجنود ركبَت في عُتوها الآثاما

* * *

أيها المجلس الرباعي مهلاً فلقد جُرَّت في الأمور احتكاما
 أنت سكرانُ خمرة النصر فاحذر حين تصحو ندامة ولواما
 لك عينٌ ترى السها في الدياجي وعن الشمس في الضحى تتعامي^٤
 أولم تذر أن للدهر عيناً إن تنم عين أهله لن تناما؟
 لا تكن تابعاً هوى النفس فيما أنت فيه تقرّر الأحكاما
 فهوى النفس قد يُضللُ ذويه فيطيشون في الورى أحلاما
 ويرون الجُسامَ أمراً صغيراً ويرون الصغيرَ أمراً جُساما
 لا يغرّنك الزمان إذا ما لك أبدى بشاشة وابتساما
 كم أشال الزمان أعلام قوم في الذرا ثم نكس الأعلاما
 مثلما دار للفرنَج على الجرْمين حرباً فأدركوا الانتقاما

* * *

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحالٍ تستوجبون احتراما

^٢ الذام: العيب.

^٣ أشلى الكلب على الصيد: سلطه عليه ليصيده.

^٤ السها: نجم صغير لا تكاد تراه العين لبعده.

إنما أنتم لدى الغرب قوم
 فإذا ما وسعتم الناس حِلماً
 وإذا ما ملأتم الأرض عدلاً
 وإذا ما فعلتم الخير يوماً
 وإذا زلّة لكم دفن الدهـ
 وإذا ما افترى عليكم عدو
 وإذا ما جنى عليكم أناس
 كم بأرض البلقان منكم قتيل
 نثر الظالمون في الأرض منهم
 لو أتينا تلك البلاد رأينا الـ
 ما نضا للدفاع عنهم بنو الغر
 إن تكن هذه السياسة عدلاً
 رحم الله أمة أصبح الغر

خلّقوا عن سوى الشرور نياما
 عدّه الغرب شرّة وعُراما^٥
 عدّ جوراً، أو مفخرًا عدّ زاما
 حسبوه جناية وأثاما
 ر أمّلوا بنبشها الأقلاما
 أيدوه وصدقوا الأوهاما
 سكتوا عنهم ومروا كراما
 وأيامى مضاعة ويتامى
 جُبْنًا تملأ الفضاء وهاما
 يوم منهم جماجمًا وعظاما
 ب حسامًا ولا أचारوا كلاما
 فإلى الظلم نشتكي الآلاما
 ب يرى كل ذنبها الإسلاما

^٥ عراما: عتوّاً وطغياناً.

يا محب الشرق

أنشدت في حفلة كبيرة أقامها الحزب الوطني في بغداد لتكريم المستر كراين الثري
الأمريكي الشهير لمناسبة مجيئه إلى بغداد سنة ١٩٢٩.

يا محبَّ الشرق أهلاً	بك يا مستر كراينُ
مرحباً بالزائر المشـ	هور في كل المدائن
مرحباً بالقادم المشـ	كور في هذي المواطن
فضلكم بادِ على الشر	ق وشكر الشرق عالينُ
كم لكم من وقفاتٍ	دونه ضدَّ المشاحن

* * *

جئت يا مستر كراينُ	فانظر الشرق وعَـاينُ
فهو للغرب أسيـرُ	أُسـر مَديونٍ لدائن
إن هذا الشرق والغـر	ب لمغـبونٍ وغـابنُ
فترى الشرق تجاه الـ	غرب يسعى سَـغْيَ ماـهِن
وترى الغرب عليه	واقفًا موقف خائـن
منكرًا منه المزايا	مُوجدًا فيه المطاعـن
غاصبًا منه المواني	شاحنًا فيه السفائن

حافرًا فيه المعادن	نابشًا فيه الدفائن ^١
فهو يمتصّ دماء الشـ	رق من كل الأماكن
باذرًا من كيده في	أهله بذر الضغائن
حاکمًا فيه على أهـ	عليه حكم المتهاون
جاعلاً في رجله قيد	د الونى والقيد شائن ^٢
فترى الشرق لهذا	ماشياً مشية واهن
أفهذي يا محب الشـ	رق أفعال المهادن؟!
أين ما قد قاله ولـ	سنّ يا مستر كراين؟ ^٣

* * *

لم يكن ولسنُ فردًا	إنّ في الغرب ولاسن
فعلام الغرب لا ينـ	فكٌ للشرق مضاعن؟
كم يسوم الغربُ أهلَ الشـ	رق خسفًا ويخاشن!
وإلى كم ساسة الغر	ب تُداجي وتداهن؟
كم وكم نسمع منهم	قول خداع ومائن! ^٤
إن في الشرق تجاه الـ	غرب نيرانًا كوامن
سوف ينشق حجاب الد	هر عنها بالدواخن ^٥
وإذا قامت حروب	من بني الشرق طواحن
فمن المسئول عن ذ	لك يا مستر كراين؟

* * *

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن

^١ المعادن: المناجم.

^٢ الونى: الفتور والخمول.

^٣ الرئيس ولسن: كان رئيس حكومة الولايات الأمريكية.

^٤ مائن: كذاب مخادع.

^٥ الدواخن: جمع دخان على غير قياس.

يا محب الشرق

فهو حكم مشرقى الضـ	ـرع غربى الملابن
وطنئى الإسم لكن	إنكليزى الشناشن ^٦
عربى أعجمى	معرب اللهجة راطن
فيه للإيعاز من لنـ	ـدن بالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجه	ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيء	نحن فى الظاهر لكن
نحن فى الباطن لا نمـ	ـلك تحريگًا لساكن
أفهدا جائز فى الـ	ـغرب يا مستر كراين؟

^٦ الشناشن: جمع شنشنة، وهى الطبيعة والخلقة والسجية.

إلى بطل الشرق الأكبر

قالها عقب انتصار الغازي مصطفى كمال على اليونان سنة ١٩٢٣.

سميَّ المصطفى لا زلت تعلو
فدُر كالشمس في فلك المعالي
نُصرتَ على بني يونان نصرًا
وأطلع في سماء الشرق شمسًا
فسرَّ المخلصين وكل حرَّ
وما اليونان كفؤك في نزال
ولكن قد غلبت جيوش قوم
تركت جيوشهم من فرط رعب
إذا ذكروا سُمَاك ولو منامًا
لئلا يسمعوه فيعتريهم
هم اليونان الأُم كل قوم
أرقُّ شجِيَّة منهم وأرقى
فلا تغررك أوجههم بياضًا

إلى أوجٍ يطاول كلَّ أوجٍ
وحُلَّ من الكمال بكل بُرجٍ
أقام الغربَ في هرج ومرجٍ
تفيض عليه أنوار الترجي
وساء الخائنين وكل سمجٍ
وإن ملئوا السهول وكل فجٍ
أنلوا بالبوارج كل لجٍ
تَعاهد للهزيمة كل نهجٍ
تحاموا ذكره بسوى التهجي^١
ضنى دائين من شللٍ وفلجٍ
وأخوف في الوغى من فرخ قُبجٍ^٢
حمير الوحش سارحة بمرجٍ
فإنَّ طباعهم كطباع رنجٍ

^١ سَمَاك بضم السين: اسمك.

^٢ القَبِج: نوع من الطير يسمى الحجل والكروان.

وجوهٌ قد حكين الثلج لونًا
فيا أمضى الورى رأيا وسيفا
لقد أنقذت من أزمير خودًا
وقمت على البلاد مقام عيسى
فعالجت الفتوق بحسن رتق
ورحت إلى التجدد في المعالي
وتخطب في الجموع بيوم حفل
وتأتيك الوفود من الأفاصي
فقودك للعقول بيوم سلم
لقد جددت للأوطان عهدًا
لتبتدر الشعوب إلى المعالي
وتنهج منهج العمران فيما
وأنت اليوم حارسها المفدى
وتبتدر الملم إذا عراها
إذا ذكر الهبوط فأنت مغل
وتشرب أنت كأس المجد صرفًا

ولكن فاتهن نقاء ثلج
وأعرفهم بمصعد كل أوج
تسام الخسف في يد كل علج
على مرضاه من عمي وعرج
ولاءمت الخروق بحسن نسج
تقود الناهضين بها وتزجي
كما خطب النبي بيوم حج
لتسمع قول مدرها المثج^٣
كقودك للجيش بيوم هيح^٤
تجاري فيه أوطان الفرنج
وتبلغ ما تريد وما ترجي
بها للناس من دخل وخرج
تحوط أمورها من كل هرج
فتعزوري الجواد بغير سرج^٥
وإن خيف الحبوط فأنت منج
ويشربها سواؤك ذات مزج

^٣ مدره أقوم: المحامي عن أحسابهم. المثج: الفصيح الغزير المادة.

^٤ الهيح: الحرب.

^٥ تعزوري الجواد: تركبه عريانا من غير سرج ولا أداة.

تجاه الريحاني

هي النفس

أنشدها في حفلة أقيمت في بيروت لأمين الريحاني، بعد رجوعه من سياحته في بلاد العرب.

وأحمل منها بين جَنبيّ قاضبا ^١	هي النفس أغشى في رضاها المعاطبا
وأن أمتطي فيه من الهول غاربا ^٢	تكلفني أن أخبط الليل بالسُرى
وبالهمّ مقلّقا وبالرأي صائبا	وتنهضني للمجد بالعزم ماضيا
ولم تهوّ إلا كالشموس مناقبا	ولم ترضَ إلا كالجبال معزة
أبتهنّ إلا أن يكنّ ثواقبا	إذا أنا أنزلت النجوم لأرضها
إذا ازورّ ذاك العيش بالذل جانبا	وترفضُ مني كل عيش منعم
ولم ترضَ لي إلا الكريم مصاحبا	ولم تبغ لي إلا الحقيقة بغية
ردّ البحر بي غمرا وخلّ المذانب ^٣	تقول إذا أوردتها ماء مذنب
فأرجع عنها بعد شكواي خائبا	وإنني لأشكوها إليها تظلمّا
قتلت بها كل الأمور تجاربا ^٤	على أنّ لي منها حصاة رزينة

^١ المعاطب: المهالك. وأصل القاضب: السيف القاطع، شبه نفسه بالسيف في مضائه.

^٢ غارب البعير: ما بين سنامه وعنقه.

^٣ المذانب: جمع مذنب كمنبر، وهو كهيئة الجدول.

^٤ الحصاة: العقل.

لقد تعبت فيما تروم من العلا
ألم ترَ ما لاقى ابن لبنان في العلا
تيمّم من بعد الحجاز تهامة
وجاء إلى أرض العراقيين مبحراً
ليجمع من أبناء يَعْرَبَ شملهم
أخو همة لو مدّ باعاً إلى العلا
له قلم عزّ القرائح شاعراً

* * *

لقد زرتَ نجدًا يا أمينٌ فقلّ لنا
فما حالة الإخوان فيها فإننا
فهل كفّروا من ليس يرسل لحية
وما أنا من قوم يدينون باللّحي
ودعّ عنك أخبار العراق فإنني
فويحاً لأهل الرافدين إذ انطوا
ألا عدّ عمّا في العراق فإنني
معايبٌ لو أني هتكت سِتارها
فلا تحسبَنه أنه ذو حكومة
لئن ألّفوا بالكذب فيه وزارةً
وإنّي لأهوى الفجر إن كان صادقاً

أتذكر من أخبار نجدٍ جوائبا؟^٧
نرى الناس عنهم يذكرون الغرائب؟
وهل فسّقوا من ليس يحفي الشواربا^٨
ولم يقبلوا إلا من الحلق تائباً
لأعلم منها ما يفوق العجائب
على اليأس من نور يشقّ الغياهبا^٩
أراه بأخلاق الزمان معايباً
لأرسلتُ منها للمعاند حاصباً^{١٠}
ولو ضربوا ظلماً عليه الضرائب
فإن بها للكاذبين مآرباً
وتنكر عيني الفجر إن كان كاذباً

* * *

^٥ السباسب: جمع سبسب، وهو القفر والمفاضة.

^٦ عزّ القرائح: غلبها. وابتز: فاق وغلب.

^٧ الجوائب: جمع جائب، وهي الأخبار تجوب الأرض من بلد إلى بلد.

^٨ إحقاء الشارب: الأخذ منه.

^٩ فويحاً: رحمة. والرافدان: دجلة والفرات. والغياهب: جمع غيب، وهو الظلمة.

^{١٠} الحاصب: الريح تحمل الحصباء، وهي صغار الحجارة.

تجاه الريحاني

تبسّم لبنانُ بَعُودَ أَمِينِهِ	وأضحى لأذيال المَسَرَّةِ صاحباً
أخا الفضل قد آنستَ لبنانَ حاضراً	كما كنت قد أوحشتَ لبنانَ غائباً
وما أنت إلا البدرُ يُبهِجُ طالِعاً	ويُحزِنُ آفاقَ المواطنِ غارباً
مُحَيِّيكَ في بغدادٍ إذ جئتَ قادماً	يحيِّيكَ في بيروتَ إذ جئتَ آتياً

فِي الْمَدْرَسَةِ الْحَرْبِيَّةِ

أَوَمَا يَسْتَفْزِكُمْ تَفْنِيدِي؟
عُدْتُ مِنْكُمْ بِقَسْوَةِ الْجُلُودِ
مِثْلَمَا طَالَ مَطْلُهَا بِالْوَعْدِ
وَإِلَى كَمْ أَحْتُكُمُ بِالنَّشِيدِ؟
أَفَلَمْ يُشْجِكُمْ بِهَا تَغْرِيدِي؟
أَبْتَغِي الْحَثَّ بِالثَّنَاءِ الْحَمِيدِ
وَاقِفِ فِي مَوَاقِفِ التَّنْذِيرِ
جَعَلَ الْحَرْبُ فِي طَرَاظِ جَدِيدِ
مَغْنِيًّا عَنْ شَجَاعَةِ الصَّنْدِيدِ
رَ لِبَاسًا يَفُوقُ بَأْسَ الْحَدِيدِ
كُلُّ بَأْسٍ مِنَ الْحَدِيدِ شَدِيدِ
بَيَّ طَوْعًا وَانْضَوْا ثِيَابَ الْجُمُودِ
أُنْكَرُ الْحَقَّ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ
بِجُنُودِ مَبْتُوثَةٍ فِي الْحُدُودِ
دَعْوَةَ الْأَمْرَيْنِ بِالتَّجْنِيدِ
نَبْتَغِي الذُّودَ عَنْ تَرَاثِ الْجُدُودِ
إِنَّمَا الْمَلِكُ قَائِمٌ بِالْجُنُودِ
مَا بِهِ مِنْ طَرِيفِكُمْ وَالتَّلِيدِ

أَيُّهَا الْقَوْمُ مَا لَكُمْ فِي جُمُودٍ
كَلِمَا قَدْ هَزَزْتَكُمْ لِنَهْوِضِ
طَالَ عُتْبِي عَلَى الْحَوَادِثِ فَيَكُمُ
فَمَتَى سَعِيكُمْ وَمَاذَا التَّوَانِي
أَنَا غَرَّيْدُ شَارِدَاتِ الْقَوَافِي
كَنْتُ قَبْلًا أَتْنِي عَلَيْكُمْ لِأَنِّي
فَاتَّقُوا الْيَوْمَ صَوْلَةً مِنْ يِرَاعِ
أَيُّهَا الْقَوْمُ نَحْنُ فِي عَصْرِ عِلْمِ
جَعَلَ الْحَرْبُ تُدْرَسُ الْيَوْمَ فَنَّا
إِنْ لِلْعِلْمِ فِي حُرُوبِ بَنِي الْعَصْرِ
إِذَا بَدَأَ بِأَسْهُ الْأَشَدُّ فَأَنْسَى
أَيُّهَا الْقَوْمُ فَادْخُلُوا الْمَعْهَدَ الْحَرَّ
وَاسْتَعِدُّوا لِرَدِّ كُلِّ عَدُوٍّ
وَأَعِزُّوا الْمَلِكَ الَّذِي نَبْتَغِيهِ
قَدْ دَعَاكُمْ أَوْطَانُكُمْ فَأَجِيبُوا
نَحْنُ لَا نَقْصِدُ الْحُرُوبَ وَلَكِنْ
أَرَأَيْتُمْ مُلْكًا بِغَيْرِ جُنُودٍ
فَاجْمَعُوا الْجَيْشَ فِي الْعِرَاقِ لِيَرْعَى

عِشْكُمْ مِنْ شَوَائِبِ التَّنْكِيدِ	وَيَرِدُّ الْعَدُوَّ عَنْكُمْ وَيَحْمِي
عَرَبٌ مِنْ بَنِي الْأَبَاةِ الصَّيْدِ	لَا تَقْرُؤُوا عَلَى الْهَوَانِ وَأَنْتُمْ
ذَاتَ عَزٍّ بِبَأْسِهِمْ صَيُّهُودًا ^١	يَكْرَهُونَ الْحَيَاةَ إِلَّا حَيَاةَ
فِي صُهَا الْخَيْلِ تَحْتَ خَفَقِ الْبُنُودِ ^٢	أَشْرَفِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمْ هُوَ مَوْتٌ
تَحْتَ ظِلِّ مِنَ السِّيُوفِ مَدِيدِ	وَأَعَزُّ الْأَعْمَارِ عَمَرٌ قَصِيرٌ
قَدْ أَهَيْنَتْ حَقُوقَهَا بِجُحُودِ	وَأَذَلُّ الْحَيَاةِ عِنْدِي حَيَاةَ

^١ أصل الصيهور: الشديد الحر، والمراد هنا الحياة القوية.

^٢ صها الخيل: جمع صهوة، وهي الظهر.

الْعِلْمُ وَالْعَلَمُ

والهَمُّ مِقْدَارُهُ مِنْ أَهْلِهِ الْهَمُّ
مِنْ فَوْقِهَا أَسْفُ مِنْ تَحْتِهَا أَلَمُ
نَارٍ تَفْوهُ بِهَا لِلنَّاسِ أَمْ كَلِمٌ؟!
يَذْكُو، عَلَى أَنَّهُ كَالْمَاءِ مَنْسَجِمٌ؟
نَارًا وَلَمْ يَحْتَرِقْ فِي كَفِّكَ الْقَلَمُ
وَالْعِزْمُ مَتَقَدُّ وَالْهَمُّ مُحْتَدِمُ
وَاسْتَصْغَرَ الْخُطْبُ مَنْ فِي نَفْسِهِ عِظَمُ
مَنْ بَاتَ فِي نَفْسِهِ الْأَمَالُ تَزْدَحِمُ؟!

لَوَاعِجُ الْهَمِّ فِي جَنْبِي تَضْطَرُّ
كَمْ قَدْ أَذَاقْتَنِي الْأَيَّامُ مِنْ حُرْقٍ
أَكْلَمَا قَلْتُ شَعْرًا قَالَ سَامِعُهُ
مَا بَالُ شَعْرِكَ مِثْلَ النَّارِ مَلْتَهَبًا
إِنَّا لَنَعْجَبُ مِنْ شَعْرِ تَوَجَّجِهِ
لَا تَعْجَبُوا فَالْأَسَى فِي النَّفْسِ مَلْتَهَبُ
اسْتَبْرَدَ النَّارَ مَنْ حَرَّتْ عِزَائِمُهُ
وَكَيْفَ يَصْبَحُ مِنْ دُنْيَاهُ فِي دَعَاةٍ

* * *

هُمَا عَلَى مَا أَرَاهُ الْعِلْمُ وَالْعَلَمُ
هَذَا لَهُ الْحُكْمُ أَوْ هَذَا لَهُ الْحُكْمُ
فَلَيْسَ يُجَدِّهِمُ الْعِلْمُ الَّذِي عِلِمُوا
أَنْ يُنْشِرَ الْعَلَمُ الْخُفَّاقَ فَوْقَهُمْ
كَالسَيْفِ يَحْمِلُهُ فِي الْحَرْبِ مَنْهَزِمُ
إِنْ لَمْ تَقُمْ مِنْ سَيُوفٍ تَحْتَهُ دَعَمُ
بِهِ تَشِيرُ إِلَى اسْتِقْلَالِهَا الْأُمَمُ!

أَمَّا الْمُعِزَّانُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمَا
كِلَاهُمَا ضَامِنٌ لِلنَّاسِ حُرْمَتُهُمْ
مَنْ لَمْ يَكِ الْعَلَمُ الْخُفَّاقَ شَارْتَهُمْ
وَلَيْسَ يَنْفَعُ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ
فَالْعِلْمُ فِي أُمَّةٍ لَيْسَتْ بِحَاكِمَةٍ
وَالْعِلْمُ أَوْهَنُ مَنْ أَنْ يَسْتَظِلَّ بِهِ
مَا أَحْسَنَ الْعَلَمُ الْخُفَّاقَ مُنْتَصِبًا

* * *

أن الموفق فيها السيف لا القلم
برق تبسم عنه الصارم الخنم
إلا من النقع في يوم الوغى ديم
فليس يكذبني أن الحياة دم
يدور في الجسم أو في الأرض ينجم
كمثله وهو تحت الجوف منتظم
إلى عبيط دم المحيا به قزم
من حيث تعترك الأبطال والبهم^١
أن ليس يضحك إلا حين تبسم

قد علمتني الليالي في تقلبها
وأن أصدق برق أنت شائمه
وأخصب الأرض أرض لا تسح بها
من كان يكذبني أن الحياة منى
وأنه في كلا الحالين منبعا
وأنه وهو فوق الأرض منتثر
إني أرى المجد في الأيام قاطبة
فالمجد ينبت حيث العلم منتثر
والمجد أعطى الظبا ميثاق معترف

* * *

إني بحبل رجائي اليوم معتصم
يسعى وأرجله بالخوف تصطدم
فيها يرف عليك المجد والكرم
إذا تسرب في أثنائه السام
تعص منك بعود ليس ينجم^٢
عزم وحزم وإقدام ومقتحم
إلا الإباء وإلا العز والشمم
عند اللئام وأن الوغد محترم
وما يعيبك أن الدهر متهم
منها إلى كلم في طيها حكم
فهل وعى ما أردت السامع الفهم؟

فليذهب اليأس عني خاسئا أبدا
ولست ممن إذا يسعى لحادث
لا تسأمن إذا حاولت منزلة
فالعيش تستبشع الأذواق مطعمه
وكن صليبا إذا عصتك حادث
إن الخصال التي تسما الحياة بها
لا يكسب النفس ما ترجوه من شرف
لا يؤنسك أن الحر محتقر
فالعقل يتهم الدهر المسيء بذا
هذي ملامتكم يا قوم فاستمعوا
قد أنشد الشعر تعريضا بسامعه

^١ البهم: جمع بهمة، بوزن غرفة، وهو البطل الذي لا يعرف قرنه من أين يناله؛ لقوته وشدة حذره.

^٢ ينجم: يتأثر بالعجم، وهو العض بالأسنان.

السجاياء فوق العلم وفوق العالم

وقد نظم الشاعر الكبير الأستاذ الرصافي هذه القصيدة الاجتماعية الجبارة؛ جواباً عن قصيدة الشاعر الأمير عادل أرسلان، وقد كان الأمير عادل أرسلان قد اطلع على قصيدة الأستاذ الرصافي «العلم والعلم» التي ينصح بها الأمة العربية، ويحضها على الجهاد في سبيل الحرية فنظم قصيدة يعارضها بها.

عِلْمٌ يُعَزِّزُهُ مِنْ دَوْلَةٍ عِلْمٌ
ودولة القوم لم تثبت قواعدها
فليس للعلم مهما اعتزَّ جانبه
إذا استحالَتْ سجايا القوم فاسدةً
وليس يَخْتَلُ حَبْلُ الْمَلِكِ مُضْطَرَبًا
لولا سجايا على حُبِّ العلا جُبِلَتْ
لا خَيْرَ في العيش يغدو فيه صاحبه
ما بالُ قَوْمِي على الإرهاق قد صبروا
قد أنهضتهم إلى العلياء وَحَدَّتْهُمْ
كان التعاون غررًا في غرائزهم
ثم اغتدوا بعد حينٍ في جوانحهم

في كل عصر به قد سادت الأممُ
إلا بأنَّ سجاياهم لها يعمُ
نفع إذا ما السجايا الغرُّ تنعدم
فليس ينفعهم علم ولا عِلْمُ
إلا إذا اخْتَلَّتِ الْأَخْلَاقُ وَالشَّيْمُ
ما سادت الناسُ لا عُربٌ ولا عجم
وأنفه باحتمال الذلِّ مُزْدَلِمٌ
كأنَّ أَشْهُرَ قَوْمِي كلها حُرْمٌ!
واليوم أقعدهم عنها أن انقسموا
حازوا به الشَّرَفَ الوضاح واغتنموا
نارُ التخاذل بالشحناء تضطرم

قد زال روح التفادي منهم ونما رُوح التعادي إلى أن ماتت الهمم
ألقى التخاذل ضَعْفًا في عزائمهم فالأجنبي عليهم ظلّ يحتكم
تعاضموا لعظامٍ يفخرون بها وهل يكون بعظمٍ رَمَّةٍ عِظَمٌ

* * *

داء التأخر منا في خلائقنا فقد فشا الداء حتى استفحل السقم
كانت خلائقنا للعز ضامنةً حتى فسَدَنَ فزال العز والشمم
وأصبحت عندنا الغايات تابعة إلى هوى النفس، فيما شأنه عَمَمٌ^٢
نمشي من الجهل في ظلماء ظالمة بليّاتها علينا الظُّلم والظُّلُم
حرية الفكر فينا غير جائزة والحرُّ منا مُهانٌ ليس يحترم

* * *

لا دَرَّ دَرُّ رجال الدين إنهم قد أظهروا فيه مِنْهُمْ غير ما كتموا
واستعملوه كما تهوى مآربهم كأنَّه ليس إلا آلَةٌ لَهُمْ
تالله ما كان في الإسلام من حَرَجٍ على الأنام ولا في نهجه غَمَمٍ
بل كله جاء تيسيرًا وتبصرة للعاملين وأحكامًا بها حِجَمٍ
لكنما القوم ظلوا جامدين على ما منه قَدَّ وهموه، بنس ما وَهَمُوا!
إذا سلكت إلى الإصلاح مسلكه فأنت في رأيهم بالكفر مُتَّهَمٌ
وإن تصادمت بالعادات تُنكرها فأنت في رَعْمهم بالدين تصطدم
وإن أتيت ببرهان فأعجزهم لم يحسنوا الردَّ، بل من عجزهم شَتَمُوا
وإن ثَقُلَ لَهُمْ قولًا لتقنعهم شدُّوا عليك وردُّوا قبلما فهموا
خلائق كظلام الليل من يَرها يقل بأمثال هذي تُمَسِّخُ الأُمم

* * *

لله دَرُّ بني معروف إذ صَبَروا على التجالد ما كُتُّوا ولا سئَمُوا
أخلوا منازلهم للكَرِّ ثانية كالأسد ترتدُّ خلقًا ثم تقتحم
ولازموا القفر، عاشوا في مجاهله عيش القناعة لا حلو ولا دَسَم

^٢ أمر عمم: تام عام.

بذاك حُبهم الأوطانَ يأمرهم
باتت دمشق لهم ترنو نواظرها
أيام لم يبق من بيتٍ بغوطتها
ثم انضوى بعدما اجتاحت معالمها
فاستقتلوا في سبيل الدود عن وطنٍ
كانوا أشدَّ مضاءً من صوارمهم
عند الهجوم كموج البحر تبصرهم
صلت سيوفُ بأيديهم يسْلن دماً

إذ همُ بسيماء حب الموطنِ اتسموا
كما رنا للطبيب المدنف السقم
إلا ذكت فيه نارٌ أو أريق دم
منها إلى جمعهم أبطالها البهم
صينت له من قديم عندهم ذمم
فليس يثنّيهُم ثانٍ إذا هجموا
وكالجال الرواسي هم إذا التحموا
حتى حكين الغواذي حين تهتزم^٣

* * *

من مبلغُ للأمير الشَّهم مألُكَةً
إلى فتى آل رسلان الألى رَسختْ
لبعضهم شهرةٌ بالسيف واحدة
كعادلٍ وشكيبٍ في أكفَّهما
صبراً فديتك بالعُقْبَى وإن بعدتْ
ولم يفتكْ نجاح في محاربةٍ
يا عادلاً كاسمه لا تنسَ مَظلمتي

كالشمس تشرق إلا أنها كليمٌ
في معدنِ المجد من قديمٍ لهم قديمٌ
وبعضهم شهرةً بالسيف والقلم
جال اليراع وصال الصارم الخدمُ
للصابرين وعُقبى الخائن الندم
أقلُّ ما حزت فيها المجد والكرم
عندي خصوم وما عندي لهم حكم

^٣ صلت صليلاً: صوتت. والغواذي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ فقط غدوة. تهتزم: من الهزيم وهو صوت الرعد.

^٤ المألُكة والألوكة: الرسالة يؤديها الرسول بلسانه.

^٥ سيف خذم: ومخزم: بكسر الميم: أي قاطع.

الحرية في سياسة المستعمرين

يا قوم لا تتكلموا
ناموا ولا تستيقظوا
وتأخروا عن كل ما
ودعوا التفهم جانباً
وتثبّتوا في جهلكم
أما السياسة فاتركوا
إن السياسة سرها
وإذا أفضتم في المبا
والعدل لا تتوسموا
من شاء منكم أن يعي
فليمس لا سمع ولا
لا يستحق كرامة
ودعوا السعادة إنما
فالعيش وهو منعم
فارضوا بحكم الدهر مه
وإذا ظلمتم فاضحكوا
وإذا أهنتم فاشكروا
إن قيل: هذا شهدكم

إن الكلام محرم
ما فاز إلا النوم
يقضي بأن تتقدموا
فالأخير ألا تفهموا
فالشئ أن تتعلموا
أبداً وإلا تندموا
لو تعلمون مطمئسم
ح من الحديث فجمجموا
والظلم لا تتجهموا
ش اليوم وهو مكرم
بصر لديه ولا فم
إلا الأصم الأبكم
هي في الحياة تؤهم
كالعيش وهو مذمم
ما كان فيه تحكم
طرباً ولا تتظلموا
وإذا لطمتم فابسموا
مر، فقولوا: علقم

أَوْ قِيلَ: إِنْ نَهَارَكُمْ	لَيْلٍ، فَقُولُوا: مَظْلَم
أَوْ قِيلَ: إِنْ ثَمَادَكُمْ	سَيْلٍ، فَقُولُوا: مُفْعِمٌ ^١
أَوْ قِيلَ: إِنْ بِلَادَكُمْ	يَا قَوْمَ سَوْفَ تُقْسَمُ
فَتَحْمَدُوا، وَتَشْكُرُوا	وَتَرْنَحُوا، وَتَرْنَمُوا

^١ الثماد: جمع ثمَد بالتحريك، وهو الماء القليل.

غادة الانتداب

دُعْ مَزْعَجَ اللُّومِ وَخَلَّ الْعَتَابُ
مِنْ قَصَّةٍ وَإِقْصَةِ غَصَّةٍ
فِي الْكُوخِ مِنْ بَغْدَادَ مَرَّتْ بِنَا
لَبَّتْهَا مُوقِرَةٌ بِالْحَلَى
وَوَجْهَهَا يَطْمَسُ سَحْنَاءُهُ
تَمْشِي الْعِرْضُنَى فِي جَلَابِيبِهَا
تَخْتَلِبُ النَّاسَ بِأَوْضَاعِهَا
قَدْ وَضَعْتَ تَاجًا عَلَى رَأْسِهَا
يُحْسَبُ مِنْ دُرٍّ بَتَمُويِهِ
كَاسِيَةِ الْجِسْمِ أَرْقَ الْكَسَى
قَدْ غُولَطَ النَّاسَ بِأَثْوَابِهَا
وَهِيَ لِعَمْرِي دُونَ مَا رَيْبَةٍ
فَالْغَشَّ فِي لِحْمَتِهَا وَالسَّدَى

واسمع إلى الأمر العجيب العُجَابُ
تضحك بل تدعو إلى الانتخاب^١
يومًا فتاة من ذوات الحجاب
وكفُّها مشبعة بالخضاب^٢
عنا ظلامٌ من سواد النقاب
مشية إحدى المومسات القحاب
وكل ما يصدرُ منها خِلاب
يلمع في الظاهر لمع الشهاب
وهو إذا حَقَّقْتَهُ مِنْ سَخَابِ^٣
موشية الثوب بوشى كِذاب
في أنها من معمل الانتخاب
منسوجة في منسج الاغتصاب
وكل ما يدعو إلى الارتياب

^١ واقصة: اسم فاعل من وقصه؛ إذا دق عنقه، والمراد أنها مؤلة أشد الألم.

^٢ اللبة: موضع القلادة. وموقرة: محملة.

^٣ السخاب، ككتاب: خيط ينظم فيه خرز، تلبسه الصبيان والجواري.

قال جليسي يوم مرّت بنا:	مَن هذه الغادة ذات الحجاب؟
قلت له: تلك لأوطاننا	حكومة جاد بها الانتداب
نحسبها حسناء من زيّها	وما سوى «جنبول» تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة	والويل في باطنها والعذاب
مصابنا أمسى فظيماً بها	يا ربّ ما أفزع هذا المصاب!
تالله قد حق لنا أننا	نحتو على الأروُس كلّ التراب

الفيل والحمل

أنشدها يخاطب بها الزعيم الهندي محمد علي، وقد كان مدعوًا معه في مأدبة أقامها له الأستاذ الثعالبي عند مروره ببغداد سنة ١٩٢٩.

سؤالاً له أرجو الجواب تفضلاً
فلم يخشَ فيه الحرُّ أن يتقوَّلاً
تخيَّلت فيلاً بالحديد مُكبلاً
فيمضي بأعباء الأجانب مثقلاً
له أنَّة من ثِقَل ما قد تحملاً
فيمضي على رغم القيود مهرولاً
تكون له، لو شاء من ذاك موثلاً
لهزَّ بها شم الجبال وقلقلاً
لما رمتُ عن هذا جواباً مفصلاً
غدا من وراء الفيل للذئب مأكلاً
نجونا وإلا أصبح الأمر معضلاً
ترون سوى هذا عليه المعوَّلاً؟
أحييك باسم الناهضين إلى العلا

إليك زعيم الهند أورد ها هنا
فنحن هنا في مجلس ذي أمانة
إذا ما سمعت الهند في قول قائل
تزجَّيه كف الأجنبيِّ مُسخَّراً
ويبرك أحياناً على الأرض رازحاً
ويُنخَس أحياناً فتعلوه رَجفة
وإني أظن الفيلَ صاحبَ قوَّة
فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى
ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة
لنا حَمَلٌ وهو العراق نظنَّه
فإن يَنْجُ هذا الفيل من قيد أسره
فإن لم يكن هذا صحيحاً فما الذي
ومن بعد هذا يا محمد إنني

دمشق تندب أهلها

أنشدها في حفلة أقيمت في بغداد لجمع الإعانات لمنكوبي سورية سنة ١٩٢٦.

بكت في ظلام الليل تندب أهلها	بصوت له الصخر الأصم يلين
وباتت وقد جلّ المصاب حزينه	لها في مناحي الغوطتين أنين
تئن وقد مدّ الظلام رواقه	وخيم صمت في الدجى وسكون
إذا هي مدت في الدجّة صوتها	تميد له في الغوطتين غصون
وتلهب منه في الفضاء شرارة	فتبصرها في الرافدين عيون
وتهبو له في ساحل النيل هبوة	أبو الهول منها واجد وحزين

* * *

ومن بعد وهن أشرق البدر طالعا	فأسفر منها عارض وجبين
فأبصرت منها الوجه أزهَر مُشرقاً	بخديّه سر للجمال مصون
جمال بديع بالجلال متوج	له سبب في المكرمات متين
وبرقعتها حزن فكان لوجهها	مكان من الحسن المهيّب مكين
فتاة جثت في الأرض تبكي وحولها	صرير على وجه الثرى وطعين
فضمت إلى الصدر اليبين وعينها	تقاذف منها بالدموع شئون
وقد شخصت نحو السماء بطرفها	لها كلّ آن زفرة وحنين
وما أنس لا أنس العشية أنها	تورم منها بالبكاء جفون
وأن غزير الدمع خدد خدها	فلاحت من الأشجان فيه فنون
ولما انقضى صبري تراميت نحوها	كما ترتمي بالعاصفات سفين

وقلت لها: مَنْ أَنْتَ رحماك إنني
فقلت وقد أَلَقْتُ إِلَيَّ بنظرة
أنا البلدة التَّكَلَّى دمشقُ ابنة العُلا
ألم ترَ أبنائي يُساقونَ للرَّدى
فأين أباة الضيم من آل يَعربٍ
فقلت لها: لبيك يا أُمُّ إنهم
سندرك فيك الثَّارَ من أنفُسِ العدا
لك اليوم خِلُّ صادق وأمين؟
عن القصد فيها مُعَرِّبٌ ومبين
أما أَنْتَ في مغنى دِمَشقِ قطين
فمنهم قتيل بالظُّبا وسجين
ألم يأتِ منهم ناصر ومعين؟
سيأتيك منهم بارز وكمين^١
ونوقد نار الحرب وهي زَبون^٢

* * *

فهذي دمشقُ يا كرام وهذه
أحاديث عنها كلهنَّ شجون

^١ بارز وكمين: أي ظاهر وخفي.

^٢ الزبون: الدفوع، يقال: ناقة زبون، وحرب زبون: أي تدفع الناس إلى الهلاك.

معترك الأهواء

قالها يمثل حالة الصحف في الآستانة عقب الهدنة للحرب العامة.

أرى الأتراك في دار الخلافه	تمادوا في الخصومة والسخافه
غدوا يتطاعنون بكل هُجْرٍ	من القول المخالف للشرافه ^١
فما عملت رماح الخط فيهم	كما عملته أقلام الصحافه ^٢
ترى كلاً تهياً للترامي	وشمّر عن سواعده لحافه
وأترع كفه حمأً نتيئاً	ليُكلّخ وجه من يُبدي خلافه ^٣
تراهم مُزبدين لهم شدوقُ	كشدقي حالبٍ شربِ النشافه ^٤
لهم صَحْبٌ كعريدة السكارى	وقد شربوا المطامع كالسلافه
على حين العدوُّ بهم محيطٌ	يذيقهم المذلة والمخافه
سفينة ملكهم فيها خروق	وهم لا يحسنون لها القلافه ^٥
وقد وقفتْ بِدُرْدُورٍ شديدٍ	ولم تأمن من الموج انقذافه ^٦

^١ الشرافة: الشرف، وكلاهما مصدر شرف الرجل؛ إذا علا في الدين أو الدنيا.

^٢ الخط: بلد في البحرين تصنع فيه الرماح الجيدة.

^٣ الحمأ: الطين.

^٤ المزبد: البعير الذي خرج الزبد حول فمه. والنشافة: الرغوة التي تعلق لبن الإبل والغنم إذا حلب.

^٥ قلف السفينة: خزن ألواحها بالليف، وجعل في خللها القار، والقلافة اسم تلك الصناعة.

^٦ الدردور: موضع في وسط البحر يجيش ماؤه، لا تكاد تسلم منه سفينة.

وليس لها هنالك من عريفٍ	يُقوِّمها بسكان العَرافه
عجبت لهم إذ اختلفوا بملكٍ	يكون الإختلاف عليه آفه
كأنني إذ أراهم في احترابٍ	بملكٍ يطلب الغرب انتسافه
أرى كبشين ينتطحان جَهْلًا	لدى الجزَّار في دار الضيافه
خِصامٌ يضحك السفهاءُ منه	ويبكي منه أرباب الحَصافه
وإنَّ تدابِرَ الأقوامِ شيءٌ	يئول إلى الندامة والأسافه

نفثة مصدور^١

خليلي هل من مُنصتٍ فأبئته
فإني سئمت العيش في عُنفوانه
أقول، وليل الغرب ليس بنائم
لقد جاح هذا الشرق بعد اعتزازه
فساء من الإملاق والجهل خلقه
وعاد هزيراً مجده مُتلفعاً
وهبت به هوج الرياح فلم تدع
أرى غثياناً في النفوس وهل ترى
فيا قومنا أين المساواة عندكم
وأين موثيق الأخوة إنني
وإنَّ بصدري للمقريض لفورة
شجونَ فتى يشكو الأليم من البئ؟
ويسأم مثلي كلُّ محترثٍ حرثي
أما لنيام القوم في الشرق من بعث؟
جوائح أودت منه بالكِرش والفَرث^٢
وصار سمين القوم يبطش بالغث
بسحق دريس من مفاقره رث^٣
من العلم جذراً فوقه غير مُجتث
نفوساً على خُبث المطاعم لا تُغثي
فقد طال عنها في مواطنكم بحثي؟
أرى حبلها في كل يوم إلى النكت؟
يزيد بها من طول غفلتكم نفثي^٤

^١ قال الرصافي هذه القصيدة وهو في الآستانة، وأنشدها بشبان العرب في المنتدى الأدبي.

^٢ أودت منه بالكِرش والفَرث: [يريد] أنها ذهبت منه بما عز وبما هان.

^٣ متلفعاً: متلحفاً. وسحق في قوله: «بسحق» صفة لمحذوف؛ أي بثوب سحق، وهو البالي من الثياب.

والدريس: الخلق، وكذلك الرث. والمفاقر: وجوه الفقر، لا واحد لها.

^٤ نفثي: أي نفخي من الغضب.

أراكم فأهجو ثم أطرق ذاكرًا
وأبكي على المجد الذي كان دونه
يقولون: إنّ الإرث في الخلق سُنَّةٌ
فهلّا ورثتم ثلثَ ذاك الذي بنوا
قعدتم وقاموا واستكنتم وفاخروا
وما أتعب المستنهضيكُم فإنهم
أما والعُلا، وأها لها من أليَّةٍ
لأحتقرنَّ الموتَ في معرك المُنَى
وأركبُ متنَ الهول دون لبانتي
وأجري بمستنّ الخطوب مشمّرًا
ولولا إبائي أن أخاطب ماجنًا

أوائلكم قبلاً فأندب أو أرثي
على ركبتيه الدهر من خشية يُجثي
فهل بطلت في خَلقكم سنة الإرث؟
من المجد، لا لا، بل أقل من الثلث!
بعزّ على وجه البسيطة مُنبثّ
يَحْتُون منكم للعلا غير محتثّ!
عدمتُ العُلا إن بتُّ منها على حنثٍ
وأستُرّ أفق اليأس بالرهج الكثّ^٥
ولستُ أبالي بالكوارث من كرت
وأخبط ليلَ المزعجات بلا لبث
كتبْتُ هجاء الدهر بالقلم الثُلث^٦

^٥ الرهج: الغبار.

^٦ القلم الثُلث: أصله قلم الثلث، وهو الذي يكتب في ثلث الطومار، والطومار: نوع من الورق، متفق على مقدار طوله وعرضه، وهذا من اصطلاح كتاب الدواوين، وقد جرى الشاعر على أسلوب عامة المتكلمين، فجعل الثلث وصفًا للقلم العريض.

إخفار الذم أو عبد العزيز شاویش

قالها في الآستانة عندما أسلمت وزارة أحمد مختار باشا الغازي الشيخ عبد العزيز شاویش إلى الحكومة المصرية.

إني عهدتك لا تكون يئوسا
كم قد صَدَمَتِ النائبات بهمةٍ
غدروك يا عبدَ العزيزِ وإنما
ما أسلموك إلى الخديو إنما
هدموا بأيديهم قواعدَ مجدهم
وأحق شيءٍ بالرثاء لدى الورى
وأقل أبناء الزمان حَمِيَّة
قد أخللوا عَلمَ الهلال بفعلهم
وغدا بنوه وإن تقادم فخرهم
ما هنت أنتَ وإنهم بفعالهم
جارتُ سياستهم عليك فأغضبت

مهما لقيت مصائبًا ونحوسا
جعلتُ لها الصبرَ الجميل لبوسا
غدروا الشهامة فيك والناموسا^١
قد أسلموا شرفًا لهم قُدْموسا^٢
فهوى وأصبح رسمه مطموسا
شرف بأرجل أهله قد ديسا
من كان بيت نزيلهم مَكْبوسا^٣
هذا فأصبحَ رأسه منكوسا
عند الفخار يُطأطئون رءوسا
هانوا لدى أهل الحِفاظ نفوسا
أهل العدالة سائسًا ومَسوسا

^١ الناموس: وعاء العلم.

^٢ القدموس: القديم.

^٣ المكبوس: الذي يهجم عليه ويفتش.

لو كان هذا الشعب يعرف نفسه
ولو أنّ أخلاق الرجال صحيحة
إن العلا همست إليك بسرّها
فنهضت بين المسلمين تلمّهم
فرماك منهم حاسدوك بتهمة
إن يمقتوك فإن حبّك لم يزل
والشمس تشهد أنّ فضلك مثلها
يا ليت شعري أي كأس مرة
وبأيّ سلسلة رَموك مكبلًا
قد بت من جزعي عليك منجمًا
إن يسجنوك فإن ذكرك مطلق
أو يوحشوك بقعر سجنك مفردًا
ولئن لقيت أذى فكم من مصلح
ضحكت وجوه الترهات ولم يزل

لأقام حربًا من جراك ضروسا
ما كان حَقك عندهم مبخوسا
ولقد فهمت كلامها المهموسا
وتجدّ منهم مُخلَقًا ودَريسًا^٤
ملئوا الفضاء بزورها تدليسا
في قلب كل مؤحّد مغروسا
يحي النفوس ويقتل الحنديسا^٥
لك أدهقوا إذ جرّعوك البوسا!^٦
وبأي سجن غادروك حبيسا
في الليل عنك أسائل البرجيسا^٧
يَجني الثناء ويقطف التقديسا
فالحق عندك قد أقام أنيسا
لقي الأداة مفعجًا متعوسا
وجه الحقيقة في الأنام عبوسا

^٤ وتجد: تجدد. والمخلوق: البالي. الدريس: الدارس البالي.

^٥ الحندس: الظلام، والحنديس؛ الحندس وقد أشبع كسرة الدال، فوجدت الباء.

^٦ البوس: البؤس.

^٧ البرجيس: نجم، قيل: هو المشتري.

ياسين باشا

قالها بلسان أحد المتظاهرين، وكان إذ ذاك في دمشق، لما دبرت حكومة الشام العربية بواسطة رجال الإنكليز مكيدتها المعلومة لياسين باشا الهاشمي فأخذه واعتقلوه في الرملة، وكان ذلك قبل دخول الفرنسيين بلاد الشام.

ياسينُ إنك بالقلوب مَشِيْعُ	أفأنت للوطن العزيز مودُّعُ؟!
أخذوك يا بطلَ المعامعِ غيلةً	بيدَ الخداعِ ومثلهم من يَخْدَعِ
ولو أنهم تركوا الخداعِ وحاولوا	لقياك أعجزهم إليك المطلعِ
أوليس يدري أخذوك بأنهم	هاجوا بمأخذك الخطوب وززعوا؟!
أينَ الذمام ونحن من خلفائهم؟!	سرعان ما نَقضوا العهد وضيعوا!
أفيجهلون بأننا من أمة	في المجد تأمر من تشاء فيسمع؟!
لا تجزعنَ فإنَّ خلفك أمة	تمشي كمشيك للعلاء وتتبع
إن أخرجوك من المواطن مُكرهاً	فالشعب خلفك هائج لا يهجع
أو غيبوك فإنَّ أمرك حاضراً	أو ثبَّطوك فإن جيشك مُسرِع
فلنملاًنَّ بك البلادَ هَراهِراً	حتى يضيق بها الفضاء الأوسع ^١
ولننهضنَّ إلى الهياج بهمة	شَماءَ يبصرها الجبان فيشجُع
ولنسعرنَّ معامعاً يَصْلونها	ورءوسهم فيها لسيفك رُكَّع

^١ الهزاهز: الفتن والثورات التي تهز الناس وتقلقهم.

ولنرميَنَّهُمْ بمعضلةٍ إذا	تُرْمَى الجبال بمثلها تَتَصَدَّعُ
ونقودها خرساء يُنطقها الردى	فَيَصِلُ صمصامٌ ويصرخ مدفع
يا راحلاً عنا بكيد عدونا	أُبَشِّرُ فَإِنَّكَ عن قريبٍ ترجع

كيف نحن في العراق؟

أيكفينا من الدُولات أنَّا
وأنا بعد ذلك في افتقار
تجوز سيادة الهنديِّ فينا
إذن فالهند أشرف من بلادي
وكم عند الحكومة من رجالٍ
كلابٍ للأجانب هم ولكن
وليس الإنكليز بمنقذينا
متى شفق القويُّ على ضعيفٍ
ولكن نحن في يدهم أسارى
أما والله لو كنا قروداً
تعلّق في الديار لنا البنودُ؟!
إلى ما الأجنبيُّ به وجودُ؟!
وأما ابن البلاد فلا يسود
وأشرف من بني قومي الهنودُ
تراهم سادة وهم العبيد
على أبناء جلدتهم أسود
وإن كتبت لنا منهم عهد
وكيف بعاهد الخِزفانَ سيّدُ؟!
وما كتبوه من عهد قيود
لما رضيتُ قرابتنا القروُدُ

في طريقي إلى حلب

جئت إلى الدير ضحي يوم الأحد
فاعترضتني شرطة ذات رَصْد
فعاقني ذاك من اليوم لغد
سفينة أمسكها ماء جَمَد
وقلت من يَأْسِي وقد قَلَّ الجَلْد:
يمرُّ زحفاً بين أشداق الأسد
لكنك أبقى زمناً من غير حد
لم أدِرِ جدُّ فعلكم أم هو دَد
إذ في عاثوا عيثَ ذئبٍ في نَقْد
أقاد كالقاتل قِيدَ للقود
كأنني سارق مال مُفْتَقْد
ولست ممن سيمَ حقاً فَجَحْد

أقصد منه حلباً فيمن قصد
تطلب تصديق جوازي في الصدد^١
كأنني والغيط في قلبي اتقد
حتى لقد يئستُ من فتح السدد
كأنَّ من يمر من هذا البلد
لولا كرام أدركوني بالمدد
يا صاحب الشرطة ما هذا اللدد؟^٢
فإن أجنادك جاءوا بالفند^٣
تعاورتنِي مِنْهُمْ يَدُ فيد^٤
حتى ثيابي فتشوها والجسد^٥
ما أنا ممن جرَّ جرماً فشرد
كلا ولست جانياً على أحد

^١ الصدد: الطريق.

^٢ اللدد: شدة الخصومة والجدال.

^٣ الدد: اللعب واللهو. والفند: ما يلامون عليه.

^٤ النقْد: ضرب من صغار الغنم، كالمعز.

^٥ القود: القصاص.

لكنَّما الأمرُ لديهم قد فسدُ والحكم قد جارَ عليهم واستبدُ
فالقوم أما حظهم فقد رقدُ عنهم، وأما سعدهم فقد خمدُ
منهم، وأما نحسهم فقد وقدُ وقد أضاعوا مجدهم إلى الأبدُ
وقدُ وقدُ، وقد وقدُ، وقدُ وقدُ

حكومة الانتداب

أنا بالحكومة والسياسة أَعَرَفُ
سَأَقُولُ فيها ما أَقُولُ ولم أَخْفُ
هذي حكومتنا وكلُّ شموخها
غَشَّتْ مظاهرها ومُؤَهَّ وجْهها
وجهان فيها باطنٌ متستر
والباطل المستور فيه تحكم

* * *

عَلِمَ ودستور ومجلس أمةٍ
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها
من يقرأ الدستورَ يعلم أنه
من ينظر العلم المرفرف يَلْقَه
من يأتِ مجلسنا يصدِّق أنه
من يأتِ مُطَرَّدَ الوزارة يُلْفِها

* * *

أفْهَكَذا تَبْقَى الحكومة عندنا
كَثُرَتْ «دوائرها» وقلَّ فعالها
كم ساءنا منها ومن وزرائها
كَلِمًا تَمُوه للورى وتزخرف؟!
كالطبل يكبر وهو خال أجوف
عمل بمنفعة المواطن مُجَحَف

تشكو البلاد سياسةً ماليةً تجتاح أموال البلاد وتُتلف
تجنّي ضرائبها الثقال وإنما في غير منفعة الرعية تُصَرَف
حكمت مشددةً علينا حكمها أما على الدُّخلاء فهي تخفّف
يا قومُ خَلُّوا الفاشِسيَّةَ إنها في السائسين فظاظةً وتعجُرُف
للإنكليزِ مطامعٌ ببلادكم لا تنتهي إلا بأن تتبلّشفوا

* * *

بالله يا وزراءنا ما بالكُم إن نحن جادلناكُم لم تُنصفوا؟
وكأنّ واحدكم لفرط غروره ثملٌ تميل بجانبه القرقف^١
أفتقنعون من الحكومة باسمها ويفوتكم في الأمر أن تتصرفوا؟!
هذي كراسيُّ الوزارة تحتكم كادت لفرط حيائها تتقصّف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كلُّ بسلطته عليكم مشرف
أُيعدُّ فخراً للوزير جلوسه فرحاً على الكرسي وهو مكتف؟

* * *

إن دام هذا في البلاد فإنه بدوامه لسيوفنا مسترعِف^٢
لا بد من يوم يطول عليكمُ فيه الحساب كما يطول الموقف
فهناكُم لم يغن شيئاً عنكمُ لُسُنٌ تقول ولا عيونٌ تذرِف
الشعب في جَزَعٍ فلا تستبعدوا يوماً تثور به الجيوش وتزحف
وإذا دعا داعي البلاد إلى الوغى أتظنُّ أن هناك من يتخلف؟
أيذلُّ قوم ناهضون وعندهم شَرَفٌ يعزز جانبه المُرْهَف^٣
كم من نواصيٍ للعدا سنَجْزُها ولِحَى بأيدي الثائرين ستنتِف
إن لم نضاحك بالسيوف خصومنا فالمجد باكٍ والعُلا تتأفّف

* * *

^١ القرقف: الخمر.

^٢ مسترعِف: مسبب للزعاج وهو سيلان الدم من الأنف ومن السيف.

^٣ المُرْهَف: السيف أو السنان المشحوذ.

زُر ردهة التاريخ إن فناءها
قد كان للعرب الأكارم دولة
عاش الأديب منعماً في ظلها
أيام كان المسلمون من الورى
ثم انقضى عهد العروبة مذ غدا
حتى تقلص بعد من سلطانها
وغدت ممالكها الكبيرة كلها
فبنو العروبة أصبحوا في حالة
والمسلمون بحالة من أجلها

للمجد من أبناء يعرب متحف
من بأسها الدول العظيمة ترجف
والعالم التحرير والمتفلسف
في ظلها لهم المحل الأشرف
عنها الزمان بسعده يتحرف^٤
ظل بأقصى المشرقين مؤرف
لسهام كل دويلة تستهدف
منها العروبة لا أبا لك تأنف
تالله ضج بما حواه المصحف

^٤ يتحرف: ينحرف.

الوزارة المذنبه

دار ذا الدهر مَدَارَهُ
كُلُّ فعل الدهر فعلٌ
أهل بغدادَ أفيقوا
إِنَّ ديكَ الدهر قد با
شأنها شأنٌ عجيب
هي للجاهل عزٌّ
ملك البدو بها الأم
كم لها من هفواتٍ
حببت للوطني الـ
بيع للأطماع فيها
فكأنَّ الحكم والعد
كم وزيرٍ هو كَالْوَزْ
مُقَمَّ لو كان لفظًا
ووزير مُلحق كالذ
ذَنبٌ يستوجب الإخـ

فرأى الناس ازوراره
فيه للحرِّ إثاره
من كرى هذي الغراره^١
ض ببغدادَ وزاره
قصرت عنه العباره
ولذي العلم حقاره
ر على أهل الحضاره
تسلُّب الطود وقاره
حُرٌّ أن يهجر داره
حقكم بيع الخساره
ل بها قِطُّ وفاره
ر على ظهر الوزاره
شخصه كان استعاره
يل في عجز الحماره
للاص والصدق انبتاره^٢

^١ الغرارة: الغفلة وقلة الفطنة للشر.

^٢ انبتاره: بتره وقطعه.

عَذَلًا أَضْرَمْتَ نَارَهُ	قَلَّ لِأَرْبَابِ الْوُزَارِهِ
نَزَقَاتُ مُسْتَطَارِهِ	أَنْتَمُ الْأَصْنَامُ لَوْلَا
وَقُلُوبُ كَحَجَارِهِ؟!	أَحْلُومُ كَفَرَاشٍ
سَرَّ عَلَى كُلِّ دَعَارِهِ؟ ^٣	أَمْ جَيُوبُ زَرْهَا الدَّهْرِ
حَمَسَ لَمْ تَنْشُرْ حَرَارَهُ؟!	أَمْ وَجُوهٌ لَوْ بَدَتْ لِلشَّ
أَمْ مَعَ الْجَبَنِ جَسَارَهُ؟!	أَمَعَ الذَّلَّةُ كِبْرُ
رَرَارٍ فِي الْبَطْشِ مَهَارَهُ؟!	كَيْفَ لَا تَخْشُونَ لِلْأَحَدِ
وَانْقَضُوا هَذَا الْغَرَارَهُ	يَا بَنِي الْأَوْطَانِ هَبُّوا
كَسْرَاجٍ فِي مَنَارِهِ	إِنْ وَجْهَ الْحَقِّ بَادٍ
سَتَ عَلَى الْحَقِّ الْإِغَارَهُ	أَدْرَكُوا الْحَقَّ فَقَدْ شَلَّ
سَقُومٌ وَاسْأَلْ مُسْتَشَارَهُ	لَا تَسْلُ عَنْهُ وَزِيرُ الْ
مَلَمَ مِنْ غَيْرِ إِشَارَهُ	فَوْزِيرُ الْقَوْمِ لَا يَعِ
غَيْرَ كُرْسِيِّ الْوُزَارِهِ	وَهُوَ لَا يَمْلِكُ أَمْرًا
بَلَّغِ الشَّهْرِ سِرَارَهُ ^٤	يَأْخُذُ الرَّاتِبُ إِمَّا
سَدَّ: خَرَابُ أَمِّ عِمَارِهِ	ثُمَّ لَا يَعْرِفُ مِنْ بَعْدِ
لَوْمٌ عَنْ هَذَا الْخُشَارِهِ ^٥	حَدَّثَ النَّاسَ الْ
بَدَمٍ يَغْسِلُ عَارَهُ	فَلَعَلَّ الدَّهْرَ مِنْهُمْ

^٣ الدعارة: الفجور والخيانة.

^٤ السرار: الظلام الذي لا يظهر فيه القمر آخر الشهر.

^٥ الخشارة والخشار: الرديء من كل شيء، وخصَّ اللحياني به رديء المتاع، وفي البيت خلل، لكن هكذا ورد في الأصل.

يوم الفلوجة

أيها الإنجليز لن نتناسى
ذاك بغّي لن يَشْفِيَ الله إلا
هو كَرْب تَأبَى الحميّة أُنّا
هو خطب أبكى العراقيين والشا
بَغِيكُمْ في مساكن الفلُوجه^١
بالمواضي جريحه وشجيجَه
بسوى السيف نبتغي تفريجه
م وركنَ البَنِيَّةِ المحجوجه

* * *

حلها جيشكم يريد انتقامًا
يَوْمَ عاثت ذئاب آثور فيها
فاستهنتم بالمسلمين سفاهاً
وأدرتم فيها على العُزل كَأَسَا
واستبحتم أموالها وقطعتم
أفْهَذَا تَمْدُنُّ وَعِلَاءُ
أم سَكْرْتَم لما غلبتم بحربٍ
وهو مُغَرٍ بالساكنين عُلوجه^٢
عَيْثَة تحمل الشنار سَمِيجَه
واتخذتم من اليهود وليجه^٣
من دماء بالغدر كانت مزيجه
بين أهل الديار كل وشيجه
شعبكم يدعي إليه عروجه؟!
لم تكن في انبعاثها بنضيجه؟

^١ الفلوجة: قرية على الفرات.

^٢ مغرٍ: مسلط محرض. والعلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفار العجم.

^٣ وليجة: بطانة.

قد نتجنا لقوحها عن خداج
هل نسيتم جيشاً لكم مُبذعراً^٥
وهوى بانهازمه حصن أقريـ
سوف ينأى بخزيه وبعار
لا تغرَّنكم شباكُ كبار
لستم اليوم في الممالك إلا
وطن عشت فيه غير سعيد
أتمنى له السعادة لكن
أخصب الله أرضه ولو أني
كل يوم بعزه أتغنى
ما حياة الإنسان بالذل إلا
فثناءً للرافدين وشكراً

فلذاك انتهت بسوء النتيجة^٤
شهدت جنبه سواحل إيجَه؟^٥
طَ وأمسى قذَى على عين فيجَه^٦
عن بلاد تريد منها خُروجه
أصبحت لاصطيادنا منسوجه
جُعلاً تحت صدره دُخروجه^٧
عيش حرٌّ يأبى على الدهر عوجَه
ليس لي فيه ناقة منتوجه^٨
لست أرعى رياضه ومروجه
جاعلاً ذكر عزه أهزوجه
مُرّة عند حسوها ممجوجه
وسلاماً عليك يا «فلُوجه»

^٤ نتج الناقة: ولدها. واللقوح: الحامل. الخداج: نزول المولود قبل استكمال مدة الحمل.

^٥ المبذعر: المتفرق.

^٦ أقريط: كريت.

^٧ الجعل: ذكر الخنافس. والدحروجة: كرة يكورها من خرثه، يدحرجها ويجري وراءها.

^٨ منتوجه: والدّة.

الإنكليز في سياستهم الاستعمارية

بقدر كبير صيغ من معدن الخبيث
سجّالاً من الكذب المموّه والجِنثِ
من المكر بل ما قد يزيد على الثلثِ
وعالجها بالدقّ والدلك والدعث
تزيد على نار الغضا أو على الرّمث^١
بخاراً بأنبيق من السحر والنفت^٢
تقاطر في الأنبيق كالمطر الدث^٣
قتلت طباع التيمّسين بالبحث
وهل يستقيم الصوف في عيثة العث
مظالم سوداً كنّ من أفضع الحرث
بها فتناً كاللّجن يهّمي على الوعث^٤
ويُلقون للأهلين منهنّ بالفَرث^٥

لقد جمع الدهر المكاييد كلها
وصب عليها من بئار صروفه
وأنقع فيها ما يعادل ثلثها
وفتّت أوطالاً من الغدر فوقها
وأوقد ناراً للخديعة تحتها
ففارت ملياً فيه ثم تصعّدت
فصاعَ طباع الإنكليز من الذي
دع اللوم واسمع ما أقول فإنني
كأنّهم والناس عُثٌ وصوفة
فكم حرثوا في أرض مستعمراتهم
وكم أيقظوا والناس في الليل نوّم
وهم يأكلون الزُّبد من مُنتجاتها

^١ الغضا: شجر جزل، ناره قوية. والرّمث: شجر يشبه الغضا لا يطول ولكن ينبط ورقه.

^٢ الأنبيق: جهاز معروف يستعمل في التقطير.

^٣ المطر الدث: الضعيف الخفيف.

^٤ الدجن: الغيم. الوعث: المكان السهل الكثير التراب، تغيب بينه الأقدام.

^٥ الفرث: السرجين ما دام في الكرّش.

فِيَحْظُونَ مِنْهَا بِالنَّفَائِسِ دُونَهُمْ وَيُعْطُونَهُمْ مِنْهَا السَّقِيطَ مِنَ الْخُرْثَى^٦
زِرَ الْهِنْدَ إِنَّ رَمْتَ الْعِيَانِ فَكَمْ تَرَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ هُنَاكَ وَمِنْ شُعْثِ

* * *

يَقُولُونَ: إِنَّا عَامِلُونَ لِسَعْدِكُمْ وَلَمْ يَعْمَلُوا غَيْرَ الْكَوَارِثِ وَالْكَرْثِ^٧
فَكَمْ بَعَثُوا فِي الشَّرْقِ حَرْبًا ذَمِيمَةً تَمَثَّلُ فِي أَهْوَالِهَا سَاعَةُ الْبَعْثِ
وَكَمْ أَرْسَلُوا دَسًّا جَوَاسِيسَ مَكْرِهِمْ عَلَى النَّاسِ يَشْتَدُونَ بِالنَّبَشِ وَالنَّبَثِ
وَهُمْ سَلَبُوا أَرْضَ الْعِرَاقِ سَمِينَهَا وَلَمْ يَتْرَكُوا لِلْقَوْمِ مِنْهَا سِوَى الْغَثِّ
إِذَا مَا رَأَيْتَ الْقَوْمَ فِي فَحٍّ مَكْرِهِمْ رَقَقْتَ لَهُمْ تَبْكِي عَلَى الْقَوْمِ أَوْ تَرْتِي
فَلَا بَدَ فِي الْأَيَّامِ لِلْعَهْدِ مِنْ نَكْثِ رَقَقْتَ لَهُمْ تَبْكِي عَلَى الْقَوْمِ أَوْ تَرْتِي
وَمَا الْحَكْمَ إِلَّا عِنْدَنَا كِمِطْئَةٍ رَمَوْهَا إِلَيْنَا كِي يَرَوْا لَعْبَةَ الطُّثِ^٨

^٦ السقيط: سقط المتاع. والخرثي: أردأ متاع البيت.

^٧ كرثه الأمر كرثاً: اشتد عليه.

^٨ المطئة: لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة عريضة، يدقق أحد رأسها، نحو الفلة.

بين الانتداب والاستقلال

بدست وزير الداخلية مقعدُ
نراك إليها كل يوم تردّد؟!
تحلّ لنا ما شئت منها وتعدّد
وهذا لعمر الله أنكى وأنكد
وندفع فيه الأجر منا وننقّد؟!
على الجانب الغربي قصر مشيد
فزالت ولكن دام منكم ترصّد
ولكن على وجه لنا هو مُعبد
قيودًا بها استقلالنا يتقيد
به ساخر كل امرئ ومندد
يجرد للإرهاب طورًا ويغمّد
على أنه في الحكم لفظ مجرد
إذا لم يكن في حكمه يتفرد؟!
عليه رجالٌ خائنون وأيدوا
فكم أبرقوا غيظًا عليكم وأرعدوا
فيظهر وهو الساخط المتمرد
فخلوا له الأمر الذي يتقلد
يكن لكم عونًا على ما يعدّد

سل الإنكليزيّ الذي لم يزل له
أأنت وزير أم عميد وزارة
فها أنت مُلقاة إليك أمورنا
وتأخذ منا راتبًا كموظف
أنحمل منك اليوم عبء تحكّم
وما شأن ذياك السفير الذي له
وكانت لكم من قبل فينا استثارة
تبدّلتم استقلالنا بانتدابكم
خلقتم لنا من كل عهد ممّوه
إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى
وصار كسيف قاطع في أكفكم
غررتم به الأغرار والله شاهد
وهل يستقل الشعب في حكم نفسه
فما هو إلا المين منكم أعانكم
وما سكت الأحرار عن مخزياتكم
ولا تعجبوا أن يمقت الشعب دأبكم
رويدًا فإن رمت من الشعب وُدّه
وكونوا له عونًا على ما يهّمّه

ديوان معروف الرصافي

وإلا فأنتم ظالمون وإنما أخو الظلم مأخوذ بما يتعمد

بني وطني

تفشت سعايات لكم بالتجسس
على كل تدليس أتى من مُدّلس:
لما كنت تلقى بيننا غير مُدّفس^١
لما كنت تلقى بيننا غير مفلس
فنشري خسيّاً بالثمين المقدّس
شقاء نزيهاً للنعيم المدنّس
على موجش من أمركم غير مؤنس
من العيش إلا فوق عز مؤسس
بغير شروق الشمس لم يتنفس
ولو عشت في العزى بقل مدمس
لجدوى أبتّها رغبة المتلمس^٢
فلمست أبالى بالزمان المعبّس
وأعرف منهم وجهها بالتفرس

بني وطني ماذا أوّمل بعدما
أقول لمن قد لامني في تشدّدي
لو اسودّ وجه المرء من قبح فعله
ولو نال بالإخلاص مُثراً ثراءه
نحاول عزّاً بابتذال نفوسنا
ومن جهلنا استكراهنّا في معاشنا
سأرحل عنكم للذي قد أقامني
أبيت لنفسي أن تحل مكانة
ولو أن هذا الصبح كان انبلاجه
فلا أبتغي بالذل عيشاً مرفهاً
وما أنا كابن العبد إذ عانق الرّدَى
إذا ابتسمت لي عفتي ونزاهتي
أقابل أخلاق الرجال بمثلها

^١ المدفس: الذي اسود وجهه من غير علة.

^٢ ابن العبد: طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي، والمتلمس: جرير بن عبد المسيح شاعر معروف، ولهما قصة في وفادتهما على عمرو بن هند، ومنادمتها أخاه قابوس.

فأغوى لمن يغوى وأقسو لمن قسا
ولست أجازي المعتدي باعتدائه
وما أنا من أهل الدعارة والخنا
ولكنّ لي فيكم يراعاً إذا شدا
وما خالق الأكوان إلا مهندس
تجلّى على أكوانه بصفاته
وأقبسهم نوراً شديداً جلاؤه
والبسهم حمر الغرائز فاغتنوا
وما مقبس عند النهى غير قابس
فأيّان جال الطرف لم ير غيره
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى
ألا إنني للكائنات موحد
وأظهر كالغطريس للمتغطرس
ولكن بصفح القادر المتحمس
ولا من أولي حمل السلاح المسدس
أتاكم بكافٍ من غلاه ومُخرس
وإن جلّ عن تعريفه بالمهندس
وأغلس فيهم كنهه كل مُغلس
فساروا به كالعمي في كل حندس
بحمرتها عن كل ثوب مورّس^٣
ولا لابس عند النهى غير ملبس
إذا كان في الحاظه غير ملبس^٤
حقيقته دغ عنك حدس المحدث
ولو أرغمت كلّ المذاهب معطسي^٥

^٣ حمر الغرائز: كذا بخطه، ولعله يريد الغرائز المعجبة، فإن الحمرة شعار الحسن. والمورس: المصبوغ

بالورس، وهو الزعفران.

^٤ الملبس: من الإبلّاس، وهو الحيرة.

^٥ المعطس: الأنف.

يوم سنغافورة

أطالوا الحرب طاحنة زَبونا
وقد زحفت لهم فيها جيوش
لقد خربوا البلاد ودَوَّخوها
ولم تُرد الشعوب لها انتقادًا
أولاًك هم الجُناة بها علينا
إذا ذكر الورى جشعًا وحرصًا
وما رُزفلت فيها غير جان
أعان على الهياج وقال حيدِي
فما دعواه في الحيوان إلا
كذلك ساسة الأقوام فيما
خداع لا يراه ذووه شيئًا
فعدوا بالشهور لها السنين
تجاوزت الألوف مع المئين
وجُنُّوا في تناحرهم جنونا
فأوقد نارها المترئسونا
أولاًك هم البغاة الطامعونا
فشرشل أكبر المتجشعينا
يزوّر في إطالتها الميونا^١
حياد فاعجب المتكذبين^٢
كدعوى العفّة المتهتكونا
به من أمرهم يتفوهونا
ولا يمسي به أحد مَشينا

* * *

بسِنغافورة اليابانُ شُنُّوا
لهم فيها طوائر صاعقات
على أعدائهم حربًا طحونا
لها قصف تدك به الحصونا

^١ الميون: جمع مين، وهو الكذب.

^٢ الهياج: الحرب والشر. وحيدى حياد: كلمة يقولها الهارب من شيء يخافه.

رواعد تملأ الآفاق رعباً
تزلزلت الحصون بها وكانت
حصون تستخف بكل طود
لقد سكتت مدافعها وجوفاً
على بحر بلجته أقاموا
وقد بثوا البوارج فاسبطرت
تري الحيات فيه قد اشرأبت
وتطفو تارة وتغوص أخرى
وتضرب بالزعانف جانبيها
بحيث يقول من يرنو إليها:

وترسل في تهزمها المنونا
تطاول في مناعتها القرونا
وتستعشي بروعتها العيونا
لجيش حل مرصفها العيونا
لغلق البحر من نار كرينا
تجول به فوارد أو تُبيننا^٣
تردد فوقه نظراً شفوناً^٤
وتبدي من تماقلها فنونا
فتنقلب الظهور بها بطونا
لعل بهن صرعاً أو جنونا

* * *

وبحر الهند أصبح في اضطراب
أُففتح بابه فيكون حراً
ويُمسي الهند عندئذ طليقاً
فبشرى للبلاد إذن وبشرى
فسوف تكف عنهن الليالي

يُرجم في عواقبه الظنونا
لمن يُزجي بلجته السفينا
من الأثر الذي قطع الوتين^٥
لمصر وللعراق بما هونا
مطامع ساسة متحكمينا

* * *

هنالك حفرة الأطماع يُمسي
وتحتدم الحفائظ في البرايا
وتتسع السياسة للتصافي
ويصبح كل تمويه وغش
ويصبح كل خداع كذوب

خداع الإنكليز بها دفيناً
فتضرم فوق مدفنه أتونا
فيستصفي الخدين بها الخدينا
لأنظار البرية مستبينا
رجيماً في سياسته لعينا

^٣ اسبطرت: استطالت. وفوارد: مفردات. وثبين: جماعات.

^٤ الشفون: النظر إلى شيء نظر المعجب منه.

^٥ الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

ويصبح كل شعب مستقلاً	عزيزاً لن يذلّ ولن يهُونا
ويمسي الناس قاطبة سواء	بدين أخوة متدينينا
يُعاون بعضهم بعضاً ويؤوي	قويهم الضعيف المستكينا
تسير بها شرائع عادلات	إلى أوج السعادة مرتقينا
سواء لا يفرقهم لسان	ولا دين له يتعبدونا
فما من سائد أو من مسود	ولا من دائن يُربي الديونا
ويصبح كل مُحترثٍ مُشاعاً	لمن فيه ثَوَا مُتَوَطَّنينا ^٦
وما أهلُ البلاد سوى عيالٍ	على العمل الذي هم يحسنونا

^٦ المحترث والمزدرع: موضع الحرث والزرع. والمشاع: الشائع بين الناس لا يختص به أحد. وثوى بالمكان: أقام وتوطن.

نحن والحالة العالمية

صاح إن الخطوبَ في غليانٍ
جلَّ رب الأنام في كل يوم
خالق الكون ذو الجلال قديم
كلُّ ما ضم ملكه كلماتُ
نسمع اليوم للخطوب أزيزًا
إنني مُبصرٌ تباشير صبح
ليس تلك الدماء في الحرب إلا
إنني أَسْتَشِف من غيرِ الده
سيلوح الداني به وهو قاص
ويكون المُعَزُّ غير مُعَزَّ
وسیغدو الضعیف محترم الحق
والثريا ستعتلي في أمان
یتجلَّى رب السموات والأر

فبماذا يُطرَّق المَلوان؟^١
هو من كبريائه في شان
واحد عندهُ القرون ثواني
وإليه انتهت جميع المعاني
كأزیز القدور في الفوران
مستفیض على ظلام الأماني
شفقًا من ضیائه الأرجواني
مر انقلابًا یَعُمُّ كل مكان
ويلوح القاصي به وهو دان
ويكون المهان غير مُهان
ويُمسي الظلوم في خسران
من عداء العیوق والدُّبران^٢
ض علينا بعدله والحنان

^١ يطرق: أصل الطرق: الإتيان ليلاً، ولم أجد في المعاجم التطريق بهذا المعنى الذي يريده الشاعر.
والمَلوان: الليل والنهار.

^٢ الثريا، والعيوق، والدبران: أسماء نجوم، وكذلك الثور والفرقدان.

فَيَبُوءُ «المستعمرون» بخسر وتضيء البلاد بالعُمران

* * *

معشر العُرب أين أنتم من القو
أنيامٌ والدمر يفتح فيكم
نقض القوم عهدكم قبل هذا
واستهانوا بالوعد إذ أخلفوه
وأقاموا بها قواعد جو
ثم بثُّوا بها العيون يعيثو
ثم ساروا في حكمها سير فُلُك
كل هذا وأنتم مستقلو
قيِّدوكم لنفعهم بعهود
أوثقوكم بها إسارًا وقالوا:
ليس تلك العهود يا قومُ إلا
أفلا تذكرون من أوَّلِكم
يوم ساروا والعز فيهم يماشي
وتعالت راياتهم خافقات
فانهضوا اليوم مستجدين مجداً
إن للمجد في المساعي محلاً

م إذا ما تمَّ انقلاب الزمان؟
من جديديه مقلتي يقظان؟!
واستخفُّوا بحفظه في حواني^٣
واستغلُّوا دفائن الأوطان
لاحتشاد الجنود والطيران
ن فسادًا في سوحها والمباني^٤
هم بها آخذون بالسكان
ن بزعم من عندهم وامتنان
ناطقات من أمركم بلسان
ليس هذا لكم سوى إحسان
كعهود الذئاب للحملان
أنفًا من مَسيسهم بهوان
حزبهم بالمُشطب الهندواني^٥
في جيوش عَنا لها الخافقان
كالذي كان دونه القمَران
عاليًا لا يحلُّه المتواني

* * *

قل لمن رام صدعنا بشقاق
ويك إن الإسلام أوجد فينا
أنت كالوعل ناطح الصَّفوان^٦
وحدة مثل وحدة الرحمن

^٣ الحواني: الضلوع، جمع حانية.

^٤ سوحها: جمع ساحة.

^٥ المشطب: السيف ذي الشطب.

^٦ الصَّفوان: الحجر الشديد الأملس.

هو حبل الإخاء والإيمان	فاعتصمنا منها بحبلٍ وثيق
ة إلا اتَّحادنا في الكيان	ليس معنى توحيدنا الله في الملأ
نحن إنّنا بوحدة الدِّيَّان	فلهذا نعم! لهذا، لهذا
من صروف الدهور والأزمان	وحدة لا يَفُلُّها المتوالي
مرسَل بالكتاب والفرقان	وحدة جاءنا من الله فيها
واحد، عنده القرون ثواني	فهدانا بها إلهٌ قديم
غير سلطان خالق الأكوان	ما نرى سلطة علينا لخلق

الحريات

إلى الحرب

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب
وقبّل غرار السيف واسلّ هوى الكُتُبِ
ولا تغترّر أن قيلَ: عصر تمدن
فإن الذي قالوه من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس
أباحوا جِمى الإسلام بالقتل والنهب؟
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم
ولكن جميعُ الغرب يؤخذُ بالذنب
فإني أرى الطليانَ منهم بمنزل
يعدُّ «وهم يُغرونه» منزلَ الكلب^١
فلولاهم لم يَنقُضِ العهدَ ناقض
ولا ضاع حق في طرابلس الغرب
بلاد غدت في الحرب تندب أهلها
فتبكي وتستبكي بني الترك والعرب

^١ أغرى الكلب بالصيد: أي حضه عليه وأرسله، والمعنى: أن منزلة الأمة الطليانية من سائر أمم الغرب، كمنزلة الكلب من الصياد.

قد اغتالها الطليان وهي بمضجع
من الأمن لم يقضض برعب على الجنب^٢
فما انتبهت إلا لصرخة مدفع
وما نهضت إلا إلى موقف صعب
فأُمسست وأفواه المدافع دونها
تمجُّ عليها النار كالوابل السكب
صواعق من سحب الدخان تدكها
وتنسفها نسفَ الزلازل للهضب
غدت ترتمي فيها عشياً وبُكرةً
فلا يابساً أبقت ولم تبقِ من رطب
وما إن شكا من عضّة الحربِ أهلها
ولكنهم شاكون من غصة الجذب
فما خفقت عند الهياج قلوبهم
ولا أخذت أعصابهم رجفة الرعب
ولكن جرت نكب الرياح بأرضهم
فجرت عليها كلكل الحجج الشهب^٣

* * *

يعزُّ علينا أهل برقة أنكم
تدور عليكم بالدمار رحي الحرب
وأنا إذا ما تستغيثون لم نجد
إليكم على بُعد المسافة من درب

^٢ قوله: «يقضض» يقال: أقضض عليه المضجع يقضض إقضاضاً إذا خشن وتترب، ومعنى البيت أن الطليان قد أخذوا طرابلس الغرب على غرة، فهجموا عليها وهي نائمة في مضجع الأمن.

^٣ قوله: «نكب الرياح»: جمع نكباء، وهي الرياح المائلة عن مهبها، ونكب الرياح عندهم من دواعي الجذب والمحل. والحجج: جمع حجة، وهي السنة. والشهب: جمع شهباء، يقال: سنة شهباء؛ أي مجدبة لا خضرة فيها.

إلى الحرب

وقد عَلم الأعداء أنَّ سيوفنا
تملأ في الأعماد شوقاً إلى الضرب
ولكن هو البحرُ الذي حال بيننا
فلم نستطع زحفاً على الضمَّ القُبَّ^٤
ولولاه فاجأنا العدو بفيلقٍ
يبين ضحىً من هوله مطلع الشهل
فيا بحرُ فاجمُدْ أو فغرْ إن جيشنا
عليك غدا كالبحر يزخر بالعتب
ويا سُحبُ هَلَّا تنزليين فتحملي
إلى الحرب جيشاً ينشر النقع كالسحب
ويا ريحُ قد ضيقنا فهل لك طاقة
بحمل مناينا إلى المعرك الرُحْب
إلى خير أرض داسها شرُّ مَعشر
بأرجلهم قطعن من أرجل جُرب

* * *

أما والعُلا يا أرض بَرقة إننا
لَنَشْرُقُ من جَرَاك بالبارد العذب
نراك على بُعد تسامين ذلة
فيحزننا أن لم نكن منك بالقرب
وما نحن إلا الليث شُدَّت قيوده
وَأُلْقِيَ حياً شبله في فم الذئب
يرى الشبلَ مأكولاً فيزار موثقاً
ويضرب كفيه على الأرض للوثب

^٤ الضمر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم، اللاصق البطن. والقب: جمع أقب، وهو الدقيق الخصر من الخيل.

فلا يستطيع الوثب إلا تمطيًا
وزأراً وإنشَابَ المخالب بالترب
ويا أهلَ بنگازي سلام فقد قضت
صوارُكم حقَّ المواطن في الذَّبِّ
حميتمِ حمى الأوطان بالموت دونها
وذاك بما فيكم لهنَّ من الحب
ومن مُبلغ عنا السنوسيَّ أنه
يمد لهذا الصدع منه يدَ الرَّابِّ
فإننا لنرجو أن يقود إلى الوغى
طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من العدا
وينهض كشافًا لهم غمة الخطب
فإنَّ حشا الإسلام أصبح داميًا
إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسي مدرِّجًا
جنودَ بني عثمان في الجبل الغربي
وكن أنت بين الجند قطبَ رحي الوغى
وهل من رحي إلا تدور على قطب

* * *

ويا مَعشر الطليان قَبَّحتَ مَعشرًا
ولا كنتَ يا شعبَ المخانيث من شعب
تركت وراء البحر مَزحف جيشنا
وأَجَّجت نارًا في طرابُلس الغربِ
أَتَحسب هاتيك الديارَ وقد خلتْ
من الجند تخلو من ضراغمة غلب
فما هي إلا أرض أكرمَ مَعشيرِ
من العُرب لم تنبت سوى البطل الندب

إلى الحرب

سترجع عنها بالفضيحة ناكصًا
وتذكرك الأيام باللعن والسبِّ
مشيتم إلينا مُعجبين بجمعكم
تظنون حرب المسلمين من اللعب
فلما حللتم أرضنا ذقتمُ الردى
بأسياقنا حتى صحوتم من العجب
سنلبسُكم ثوب المهالك ضافيًا
ونحملكم منها على مركب صعب
ونستمطرُ الأهوال حتى نخيَضكم
بسيل دم فوق البسيطة مُنصبً
وما دَعوة «البابا» لكم مستجابة
فقد أغضبت طغواكم غيرة الربِّ
أجل إنكم أغضبتُم الله فاتقوا
وإن رضيت تلك الحكومات في الغرب

* * *

أيّا زعماء الغرب هل من دلالة
لديكم على غير الخديعة والكذب؟
تقولون: إن العصر عصرُ تمدن
أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب؟!
ألم تبصروا القتلى تمجُّ دماءها
على الأرض والجرحى يئنُّون في الحرب؟!
أفي الحق أم في العلم ألا يسوءكم
ويخجلكم شن الإغارة للغصب؟!
وهل أغلفت هذي العلوم قلوبكم
بأغطية قدَّت من الحجر الصلب؟!
كذبتُم فإن العصر عصر مطامعٍ
تقدُّ لها الأوداج بالصارم العَضْب

ديوان معروف الرصافي

فلا تغضبوا الإسلام إن سيوفه
مَواضٍ كما قد كنَّ في سالف الحُقبِ

في طرابلس

على أنه في الحرب آيتنا الكبرى
به وبها نعلو على غيرنا قدرا
فإن لهم في بطش شجعاننا عذرا
من الدهر أفزعنا بنهضتنا الدهرا
غبارا على أعدائنا يكتح الذعرا^١
نلوك به ما بين أضراسنا تمرا
شفار مواضينا خدودهم الصُّعرا؟
وإياهم أسدُ الشرى تطرُدُ الحُمرا؟
نظمنا بها فوق الثرى للعدى شعرا!
ولكن لأرواح بها أزهقت صبيرا

هو النصر معقود برايتنا الحمرا
حليفان من نصر مبین وراية
لئن أدبر «الطليان» عند كفاحنا
فإننا لقوم إن نهضنا لحادث
ندك هضاب الأرض حتى نثيرها
ونأكل مرَّ الموت حتى كأننا
فسلُ جيش «كانيفا» بنا كيف قومتُ
وكيف هزمناهم فولوا كأننا
وكم قد نثرنا بالسيوف جماجما
وما جزعي للحرب يحمى وطيسها

* * *

بها حَكَمَ الطليان أسيافهم عذرا
إلى أن أصاروا كل بيت بها قبرا
فعاد الفضاء الرحب في عينه شبرا

لكِ الله يا قتلى طرابلس التي
أداموا بها قتل النفوس نكاية
ولما أحاط المسلمون بجيشهم

^١ يكتح الذعر: أي يسفيه ويذروه، فيرميه عليهم.

تقهقر يبغي في الديار تحصناً
وأصبح يُنكي أهلها من تغيط
فأوسعهم بالسيف ضرباً رقابهم
وما ضر «كانيفا» اللعين لو أنه
أيحج عنا هارباً بعلوجه
وهل حسبوا قتل النساء شجاعة
لقد شجعوا والموت ليس له يد
يعز على أسيافنا اليوم أنها
ولم تك لولا الحرب تعلق سيوفنا
ومن مبيكات الدهر أو مضحكاته

ففر بها من خشية الموت واستذرى^٢
فيقتلهم صبراً ويرهقهم عسراً
وأنافهم جدعاً وأجوافهم بقراً
تقحم في الهيجاء عسكرنا المجراً!
ويبغي بقتل الأبرياء له فخراً؟
وقد تركوا عند الرجال لهم ثأراً!
ولم يشجعوا والموت يطعنهم شراً
تقارع قوماً قرعهم بالعصا أحرى
رءوساً نرى ملء القحوف بها عهراً^٣
لدى الناس حر لم يكن خصمه حراً

* * *

لئن «أيها القتلى» أريقتم دماؤكم
سنثأر حتى تسأم الحرب ثأرنا
وإني لتغشاني إذا ما ذكرتكم
على أن قرص الشمس عند غروبها
فأبكي تجاه الغرب والبدر لائح
ويا أهل هاتيك الديار تحية
فقد قمتم للحرب دون بلادكم
وثرتم أسوداً في الوغى يعربية
تراها لدى الحرب العوان مشيحة
ولو أن كفي تستطيع تناوشاً
لرتبت منها في السماء قصيدة

فما ذهبت عند العدا بعدكم هذراً
ونقتل عن كل امرئ أنفساً عشراً
لواعج حزن ترتمي في الحشا جمرأ
يذكرني تلك الدماء إذا احمرأ
من الشرق حتى أبكي الشمس والبدرأ
توفيكم الشكر الذي يرأس الشكرأ
تذودون عن أحواضها البغي والنكرأ
غدا كل سيف في براثنها ظفراً
تهمهم حتى تنطق الفتكة البكرأ^٤
فتبلغ في أبعادها الأنجم الزهراً
لكم واتخذت البدر في رأسها طغراً

^٢ استذرى: استتر واختبأ.

^٣ القحوف: جمع قحف، وهو عظم الرأس المجوف.

^٤ مشيحة: أي جادة، أو مقبلة على الحرب، مانعة لما وراء ظهرها. وتهمهم: أي تردد زئيراً في صدورها، يقال: همهم الأسد: إذا سمعت له دويّاً. والفتكة البكر: التي لم تسبق بمثلها.

وخلدتها آيا لكم سَرْمِدِيَّةٌ
يقولون: إن العصرَ عصرَ تمدن
إلى الله أشكو في الورى جاهلية
أُتتْنَا بثوب العلم تمشي تبخترًا
فلا تلتمظ في مدحها متمطًا
لقد مَلَكَ الإفرنج أرض مراكش
ففاجأنا الطليان من بعد مُلكهم
وقالوا: أَلَمْ تَأْتِ الفرنجةُ تونسَا
فخلُّوا لنا ما بين هذي وهذه
فقلنا لهم: إِنَّا أَحَقُّ بِمِلْكِهَا
أهذا هو العصر الذي يدَّعونه

مدائحها تستوعب الكون والدهرا
فما باله أمسى عن الحق مزورًا
يَعُدُّون فيها من تمدنهم عصرا
إلى الخير لكن قد تَأَبَّطَتِ الشرا
فإن أظهرت حُلُوءًا فقد أبطنت مُرًّا
وقد ملكوا من قبلها تونس الخضرا
لكي يسلبونا في طرابلس الأمرا
وهذي جيوش الإنكليز أتت مصرَا
وإلا قسرناكم على تركها قسرا
فقالوا: ولكن زَنَدُ قَوَّتِنَا أورى
فسُحِّقًا له سُحِّقًا ودَفَرًا له دَفَرًا!°

° سَحِّقًا له: أي بعدًا. ودَفَرًا له: أي ننتأ.

أدرنة^١

أدرنة مهلاً فإن الظُّبا سترعى لك العهدَ والموثقا
وداعاً لمغناك زاهى الربا وداعاً ولكن إلى الملتقى

* * *

عزاءً لمسجدك الجامع أفارق محرابه المنبرا؟!
وهل في مُصلاهُ من رакع يجيب المؤذن إن كبراً؟
فيا لسقوطك من فاجع به فجّع الدهرُ أمّ القرى
وقبر النبوة في يثرباً ومثوى ضجيعه مثوى التقى
ومن في البقيع ومن في قبا ومن شهدوا الفتح والخندقا

* * *

رُويداً أدرنة لا تجزعي وإن قد أمضك هذا الأذى
إذا أنت بالسيف لم ترجعي فلا حبذا العيش لا حبذا
ألا أنت «ألزاسنا» فاسمعي ونحن الفرنسيس من بعد ذا
سلام على قُطرِكَ المُجتبى سلام على أفقك المُنتقى
أيُمسي لشرك العدا ملعباً وكان لتوحيدنا مَعبقاً؟

^١ هذه القصيدة قالها الرصافي لما سقطت «أدرنة»، وأخذها البلغار، وذلك في الحروب البلقانية العثمانية.

* * *

لقد حلَّ فيها لواءٌ مُريبٌ	حلولَ الحقارة بين الجلال
فظلَّتْ بأدمعها والنحيب	تنوحُ على نجمها والهلال
أُننسى أدرنة عما قريب؟!	إذن لا بلغنا العُلا والكمال
فسوف على الرغم من أوْرُبَا	نقومُ لها فيلقًا فيلقا
فتبكي هزاهزنا المَغربا	وتضحك أسيافنا المَشرقا ^٢

* * *

أرى الدهر أنهض كل العدا	على حينَ قد قعدَ المسلمون
فكم جرَّعونا كئوس الردى	ونحن على كيدهم صابرون
أيحسنُ يا قومُ أن نقعدا	وقد آن أن ينهض القاعدون؟!
فسيلُ المصائب غَطَّى الزُّبا	وغيم النوائب قد طبقا
وأوشكت الأرض أن تقلبا	وصبح القيامة أن يفلقا

* * *

دع الغربَ يَنعم في باله	وإن لقيَ الشرقُ منه الكروب
ولا تسألنَّه بأفعاله	فعهد التمدُّن عهد كذوب
فنحن اغتررنا بأقواله	ولكننا بعد هذي الحروب
سنأبى عليه أشدَّ الإبا	فإما الفناء وإما البقا
ونركبُ من عزمنا مَركبا	ونرقى وإن صَعِبَ المرتقى

* * *

لقد آن يا قومُ تركُ الونى	وترك الشُّقاق وترك الدِّر ^٢
إلى كم نكابد هذا العنا	ونخبطُ في جهلنا الأسود؟!
وبالعلم من قبلُ نلنا المنى	وفزنا من العيش بالأرغد

^٢ هزاهزنا: أي وقائعا وحروبنا.

^٣ الدد: اللهو واللعب.

أدرنة

ولكنما العلمُ قد غرَّبَا فلا عيش إلا إذا شرَّقَا
فهبُّوا إليه هبوب الصِّبَا عسى أن يسحَّ ويغدو دِقا

الجيش بقائده^١ أو هزيمة «لولا برغاز»

يا مَوطِنًا ما انتضيناها مُهنَّدَةً
ولا ركبنا مَنايانا مُطَهَّمَةً
سَقِيًّا ورعيًّا لروض منك ذي أَنْق!
تالله لم ينكسر في الحرب عسكرنا
وكيف وهو تفوق الطَّيس كثرته
لكنَّ قائده ما كان يَمَانُهُ
حتى لقد نفدت في الحرب عينته
فظل يرُسِف في النيران مُرتبِّغًا
حتى غدا جُلُّه للنار مأكلة
إلا لردع الأعداي عن إهانته
إلا لنكسب عِزًّا من صيانتِه
قد كانت الحربُ تذوي غُصْنَ بانته
من أجل قَلَّتِه أو من جَبانته
وتستعير الرواسي من رزانتِه^٢
ولا يبالي بأمر من مَعانته^٣
بحيث لم يبقَ سهم في كنانته^٤
مستفرغًا كل جُهدٍ من متانته
وما تزحزح شِبرًا عن مكانته

^١ قال الرصافي هذه القصيدة لما انكسر الجيش العثماني في معركة «لولا برغاز»؛ وذلك في الحرب البلقانية العثمانية، وكان قائد الجيش العثماني إذ ذاك ناظم باشا، الذي قتله الاتحاديون في الآستانة.

^٢ الطيس: كل ما في وجه الأرض من التراب والقمام، والكثير من الرمل وغيره، والمراد به هنا مجرد الكثير.

^٣ قوله: «ما كان يمانه»: أي ما كان يقوته، يقال: مأن القوم يمانهم مأنًا: إذا احتمل مئونتهم؛ أي قوتهم. والمعانة: العون كالمعونة.

^٤ قوله: «نفدت عينته»، العينة بالكسر: مادة الحرب، وهي ما تسميه العامة اليوم بالمهمات الحربية.

ولا استكانَ لهول الحرب من فرَقِ
فخاض غَمَرَ المنايا صابراً وأبى
ليس الفرار لجند المسلمين ألا
وكيف يَغلب جيش كان قائدهُ
فالجيش تلتتهم النيران أنفُسَه
أقام في القصف والأجناد طاوية
صَبْحانَ غبقانَ في أقسى مُعسكره
تلقاه من بين ذاك الرهط في مَرَحٍ
لهفي على الجيش جيش المسلمين فقد
بل كان يَفَرِّق من هَول استكانته
على الفرار انغماراً في مهانته
إن الفِرار لَكُفْرٌ في ديانته
يَحْفَه بجيوش من خيانتِه؟!
وقائد الجيش لاه في مجانته
مُعاقراً بهناء بنت حانته
مُحروراً بين رهط من بطانته
كأنه الجأبُ ينزو بين عانته^٥
قضى ولم يقض شيئاً من لبانته

^٥ الجأب: الفحل الغليظ من حمر الوحش. والعانة: القطيع من حمر الوحش.

الوطن والجهاد^١

فانضوا الصوارمَ واحموا الأهل والسكنا
ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا
من يسكن البدو والأرياف والمدنا
به تقيمون دين الله والسُننا
صدق العزائم في تدميرهم جُننا^٢
عارَ الهزيمة حتَّى تلبَّسوا الكفنا
مُتُّم أذلاءَ فيها مِيتةَ الجبنا
في هوشةٍ ذل فيها كل من وهنا^٣
كلَّا وأي حياة للَّذي جَبنا؟!
لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عَدنا

يا قومُ إنَّ العِدا قد هاجموا الوطننا
واستنفروا لعدوِّ الله كلَّ فتى
واستنهبوا من بني الإسلام قاطبة
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن
واستلَّثموا للعدا بالصبر واتخذوا
واستنكفوا في الوغى أن تلبَّسوا أبدًا
إن لم تموتوا كرامًا في مواطنكم
لا عُذر للمسلمين اليومَ إن وهنوا
ولا حياة لهم من بعدُ إن جَبنوا
عار على المسلمين اليوم أنهم

* * *

^١ قال الرصافي هذه القصيدة عند دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة الكبرى يستنهب المسلمون إلى الجهاد في سبيل الذود عن الوطن.

^٢ استلَّثموا: تدرعوا. وقوله: «جننا»: جمع جنة، بالضم، وهي كل ما وقى من سلاح.

^٣ الهوشة: الفتنة، والهياج والاضطراب، وأراد بها الحرب العامة.

قل للحُسَيْنين في مصر: رُويدكما
شايعتما الإنكليز اليومَ عن سَفِه
قد بعتما الدينَ بالدنيا مجازفة
لا تفرحا بالوسامين اللذين هما
قد مثلاً منكما للناس قاطبة
ما ازدان صدراكما شيئاً بحملهما
إن الحمّية لم تنظر بمقلتها
ما كان أغلاهما إذ قد غدت لهما
ستندمان ولا يُجديكما أبداً
هذي جيوش بني التوحيد زاحفة
لترسلن عليكم كل راعدة
حتى تعودَ إلى مصرٍ كرامتها

قد خنتما الله والإسلامَ والوطناً^٤
تالله ما كان هذا منكما حسناً
فكنتما في البرايا شرّاً من غُبنا
طوقا إسارةٍ مصرٍ فيكما اقترنا^٥
عجلاً أضلّ الورى من قبلُ أو وثنا
بل أصبحا في كلا صدريكما درنا
إلى وساميكما إلا بكتْ حزننا
خزائن النيل في أيدي العدا ثمنا
أن تقرعا السن أو أن تقبضا الذقنا
على العدا وعلى من ضل مفتتنا
تهمي الدماء وتمريها ظُباً وقنا
ويطهر النيل من ماءٍ به أجنا

* * *

لا زلتَ يا وطن الإسلام منتصراً
يردُّ عنك يدُ الأعداء خاسرةً
سعديكَ من وطن جلّت مفاخره
تالله إن معاليكَ التي سلفتُ
كم قد أقمّت على الأيام من شرفٍ
إننا نحبك حُباً لا انتهاء له
نفديك منا بأرواح مطهرةٍ
إذا دهتك من الأيام داهية
وإن فُتنت بإحدى المزعجات نرق
فَقَرَّ عيناً وطبَّ نفساً وعشَّ أبداً

بالجيش يزحف من أبنائك الأمانا
ويكشف الغمَّ عن أفقيك والمحنا
عن الزوال فلا تخشى بلى وفنا
تعبي الفصاحة والتبيانَ واللّسنا
لنا وأنبتَ من نبع العلا غصنا
يستغرق الأرض والأكوان والزمننا
أخلصن لله فيك السر والعلنا
فلا رعى الله عينا تألف الوسنا
منا الدماء إلى أن نخمد الفتنا
وفز بما شئت من حمد وطيب ثنا

^٤ يعني بالحسينين حسين كامل ووزيره حسين رشدي.

^٥ يشير إلى الوسامين اللذين أهدتهما الحكومة الإنكليزية إذ ذاك إلى حسين كامل وحسين رشدي.

وربَّ مُستصحبٍ لي قال يخبرني:
 فقلتُ: دُعْ عنكَ هذا، إنه خبرٌ
 إن صحَّ أن العدوَّ اليومَ مقتربٌ
 إن العراقَ لعمرُ الله مَسْبُوعَةٌ
 دون الوصولِ إليه كلُّ مُشْعَلَةٍ
 فإن فيه رجالاً من بني مُضِرٍّ
 قومَ لِقَاحٍ أبوا أن يخضعوا أبداً
 تحمَّلوا كلَّ عبءٍ في حياتهم
 لو أن أمَّاتهم منَّتْ على أحدٍ
 هم المغاوير إن صالوا بملحمةٍ
 بنوا فأعلوا بناءَ المجد فارتفعوا
 فكيف تقعد عن حربِ العدا فئةً

إن العدوَّ إلى أرضِ العراقِ دنا
 سواه يبعثُ في أحشائي الشجنا
 إلى العراقِ فقد أكدى وقد أفنا^٦
 توائبُ الأسدُ فيه من هُنا وهُنا
 شعواء تترك وجهَ الشمسِ مكتمنا^٧
 إذا تحاربُ لا تستشفع الهدنا
 إلى الملوكِ وإن أعطوهم المونا^٨
 إلا الصَّغارَ وإلا الضيمَ والمننا
 منهم بألبانها لم يشربوا اللبننا
 فلا يروُنَ لهم غيرَ المنونِ مُنى
 به على كل من قد شادهُ وبَنى
 أبت سوى العزِ مأوى والعُلا وكُنا؟

^٦ أكدى: أخفق، ولم يظفر بحاجته. وأفن: ضعف رأيه وطاش.

^٧ مشعلة: بصيغة اسم الفاعل: صفة لموصوف محذوف؛ أي غارة مشعلة، وهي الغارة المتفرقة التي تنصب من كل أوب، وكذلك قوله: شعواء؛ أي متفرقة. والمكتمن: المختفي.

^٨ قوم لِقاح: أي لا يدينون للملوك.

رؤياي الصادقة

فاستمعوا لي فقَصَّتي عجبُ
يعقد جفني بنجمها الوَصْبُ^١
كأنما كل كوكب قطب
يقلبني وخزه فأنقلب
مَشِيي دَبِيبٌ ومشيهِ خَبِبُ
تَغَرَّقَ في فيض نوره الشهب
فنمتُ والنومُ جرَّه التعب
يرتجف القلبُ وهو مُرتعِبُ
من ساحل البحر وهو مضطرب
كأنما الجو ملؤه لهب
أهْلَةٌ في إزائها صُلب
مكشوفة لا تَغْمُها الترب
يَرعى نفوسًا كأنها عُشْبُ
يلمع في حرٍّ وجهها الحسب
تحت شعورٍ كأنها الذهب

حياكم الله أيها العربُ
قد بتُّها ليلة مُطوَّلة
أنجمها الزهرُ غيرُ سائِرةٍ
تحسبني في مضاجعي حسك
أمشي إلى النوم وهو منهزم
حتى بدا الفجرُ لي وقد طَفَقَتِ
عندئذٍ خَدَّرَ الأسي عَصْبِي
فطاف بي طائفٌ لروعته
رأيتني قائمًا على نَشَزِ
والأفق محمَّرَ جوانبه
وفي عنان السماء قد طلعت
والأرض قد بعثرت ضرائحها
والموت كالكبش في جوانبه
وبين تلك القبور غانية
لها جبينٌ كأنه قمر

^١ الوصب: المرض والوجع الدائم.

ووجنة باللطم دامية
 قد أذبل الجوعُ ورَدَ وجنتها
 شاخصة الطرف وهي جاثية
 حاسرة الرأس غير ناطقة
 فلحظها فوق رأسها صُعْدُ
 مكتوفة الساعدين منكسر
 قد وتدوا القيد في مُخلخلها
 ترى خدوشاً على مُقلّدها
 وحولها أنفُسُ مُصرّعة
 واحتوشتها كلابٌ مجزرة
 تنهشها تارةً وأونة
 وفوقها الطيرُ وهي حائمة
 بيض المناكير ذات أجنحة
 يقدّمها طائر قواده
 تضطرب الأرض والسماء له
 وقفت أرنو إلى ملامحها
 حتى تعلمت أن سَحَنَتَهَا
 وبينما كنت ممعناً نظري
 إذ هاتفٌ في السماء يهتف بي
 يقول لي: إنها «طرابُلسُ»

وساعدُ بالدماءِ مختضب
 فاصفر وامتصّ ماءَ اللَّغَبِ^٢
 تحملها دون سوقها الركب
 إلا بدمع لسانه ذرب
 ودمعها تحت رجلها صَبَب
 من حَزَنٍ طرفها ومكتئب
 ومدّوه كأنه طُنْبُ^٣
 كأنها في صفيحة شُطب^٤
 يسرح فيها ويمرّح العطب
 مهترشات يهيجها الكلب^٥
 تنبح من حولها وتضطخب
 تبعد من رأسها وتقترب
 خُضر وریش كأنه العُطب^٦
 تلمع كالبرق حين يلتهب
 إذا غدا بالجنّاح يضطرب
 ووجهها بالدموع مُنتقِب
 للعرب الأكرمين تنتسب
 فيها وقلبي كقلبها يجب
 كأنه في الغمام محتجب
 تبكي على أهلها وتنتحب

^٢ اللغب بفتح الحاء: أشد الإعياء.

^٣ قد وتدوا: أي ثبتوا، ويجوز أن يقرأ بتشديد التاء أيضاً.

^٤ الصفيحة: السيف العريض. والشطب: جمع شطبة، كظلمة، وهي طريقة السيف في متنه.

^٥ قوله: «واحتوشتها» أي: أحاطت بها فجعلتها هي في وسطها. والمجزرة: موضع اجتزار الجوز.

ومهترشات: متواثبات متحركات بعضها على بعض.

^٦ العطب، بضم طين، وبضم فسكون: القطن.

وهذه الطير حيث تبصرها	محمد والصحابة النجباء
فتلك رؤياي غير كاذبة	فهل تغيثون أيها العرب؟
يا شيخ روما ومن لرايته	وتاجه يُنتَمي وينتسب
لست ولا قومك اللئام بمن	تُعرف أم لمثلهم وأب
وإنما أنتم بنو زمن	إذا ذكرناه تخجل الحقب
برومة قبل وهي مَبولة	بآلكم الدهر وهو مغترب
فعشتُم في الورى سَواسية	لا حَسبٌ عندكم ولا أدب
ما أوقد الدهر نار مخزية	إلا وأنتم لنارها حطب
أغسل شعري إذا هجوتكم	لأنه من هجائكم جُنُب

أنشودة الحرب

نحن للحرب العوان
لا نَعُدُّ العُرس إلا
يوم نحسو من دم الأع
ما صليل السيف إلا
شَقْنَا الحبَّ لبيض الـ
نشتهي غممة الأب
نحن لا نفخر إلا
شيم ينظر من تحـ
وبها قد شهد النجـ
سلُّ بنا كل زمان
هل بنينا المجد إلا
كم جلونا غُمَّة الهيـ
بسيوفٍ أضحكت في الرُّ
وكماةً ثبتت حيـ
كلُّ رَحْب الباع صعب الـ
رابطُ الجأش وقور النـ
حيث شخص الموت في المأ

ولإدراك الأمانـي
يوم ضرب وطعان
دء لا بنت الدُّنان
عندنا صوت المثنائي
هند لا البيض الحسان
طال لا عزف القيان
بلسانٍ من سنان
ت إليها الفرقدان
م لنا والقمران
سلُّ بنا كل مكان
بالحسام الهُنداوني
جاء ذات المعمان
وع وجه الحدثان
ث تزل القدمان
ملتقى ثبت الجنان
فس جوال العنان
زق بادٍ للعيان

يا علوج الصُّرب والبُل
لم يكن إيعادكم بالـ
إنما الحرب لدينا
فاتركوا الإيعاد يا أبـ
ودعوا الحرب فليس الـ
وتزيُّوا يا مخانـ
إنما أنتم تيوس
سوف تُرْمَوْنَ من العر
وستدُمُونَ بقرع السـ
وتذوقون من المو
حين تلقونَ أسودًا
ذات بأس يترك الصخـ
وزئير تأخذ الأر
وقلوب طبعَتْ من
جهلت في غير ما الرا
إنما نحن كرام
نتفانى في سبيل الذِّ
نشترى الموت بنقد الر
إذ نقيمُ الموتِ معرا
سوف نكسو الحرب ثوبًا
فتكون الأرض منها
قد أظَلَّتْها سماءُ

غفار أولادَ الزواني
حرب غيرَ الهذيان
من تمام الحيوان^١
نساء حمراءِ العجان^٢
حرب من شأن الجبان
يث بأزياء الغواني
أولعتُ بالنزوان
ب بداءِ الـيَرقان
من أطرافِ البنان
ت الزُّوام الأرجواني
طافحاتِ الهيجان
ر قرينَ الذوبان
ض له بالرجفان
حدّة السيف اليماني
ية معنى الخفقان
عزنا غير مُهان
ود عن هذي المغاني
وح في الحرب العوان
جأ إلى أعلى الجنان
لونه أحمرُ قان
وردةً مثل الدّهان^٣
من شواظٍ ودخان

^١ قوله: «من تمام الحيوان»: أي من تمام الحياة.

^٢ قوله: «يا أبناء حمراء العجان»: أي يا أعاجم، يقال: يا ابن حمراء العجان؛ أي يا أعجمي، وهي كلمة

شتم تجري على ألسنة العرب.

^٣ وردة: أي حمراء. والدهان: الأديم الأحمر.

أنشودة الحرب

ترسل الموت عليكم في شآبيبِ الهوان
فيقيم الذل فيكم مُلقياً كل جران^٤

^٤ الجران: من البعير مقدم عنقه، من مذبحه إلى منحره، ومعنى كونه ملقياً كل جران: كونه ثابتاً مقيماً.

الشیطان والطلیان

قالها لمناسبة دخول إيطاليا في الحرب العامة.

رأيت إبليسَ عدوَّ البشرِ
قد لبسَ الوشيَّ على قبحه
وهو يهنِّي حزبه قائلًا:
اليومَ قد طابت لنا لعنة
واليومَ قد هان الخلود الذي
إذ أُمَّة الطليان قد أصبحت
زلَّت إلى العار بها زلة
فهي التي هان بكفرانها
لو ألقى الصخر بمخزاتها
ولو أصاب البحرَ من عارها

يخطب في جمع له قد حضر
وخضَّب الشيبَ وقصَّ الشعرَ
يا مَنْ عصى الله ومن قد كفر
جاءت من الله بحكم القدر
قدَّره الله لنا في سقر
أكبرَ مَنْ خان ومن قد غدر
شنعاء لا تمحي ولا تغتفر
كفران من زاغ وأبدى البطر
لانتفتَّ من فرط الحيا وانفطر
لغار منه ماؤه وانحسر

* * *

نحن الشياطين على أننا
صرنا إلى جنب بني رومة
فلا نبالي اليوم من لامنا
إذ في بني رومة عذر لنا
فهم على الله لنا حجة
وأن يومًا نقضوا عهدهم

جننا من اللؤم بإحدى الكبر
ننفر من نافرنا وافتخر
في رفضنا آدم أو من عذر
يستسلم السمع له والبصر
في أننا أفضل هذا البشر
فيه ليومٌ خزيه مبتكر

فلننخذهِ خَيْرَ عِيدٍ لَنَا نذكر فيه فوزنا والظفر
ولنجعلنهُ يومَ أفراحنا نجني به الأُنس ونقضي الوطر

* * *

ثم انثنى الشيخ أبو مُرة يرقص فيما بين تلك الزمر
حتى إذا أكمل أشواطه رنا إليهم وأحدَّ النظر
ثم دعا من بينهم واحداً مُشوَّه الوجه كثيرَ القدر
وقال: يا خنزَب بادر إلى رُومة وادخلها قبيلَ السحر
واذهب إلى «عمَّانويل» الذي دب البلى في مجده فاندثر
وقل له: إِنَّ أبا مُرَّة أخاك يدعوك إلى المستقر
فإن يقل أين؟ فقل: إنه في دَرَكَةٍ سافلةٍ من سَقر
مقعد خزي كتبوا حوله بأحرفِ النيران: أين المفر؟

المقطّعات

وتشمل بعض قصار القصائد

قصر الحمرا

قَفَّ عَلَى الحمراءِ وَانْدَبَ
وَاسْأَلَ البَنِيانَ يُنْبِئُ
وَيَحْدُثُكَ حَدِيثَ الْـ
بِكَلَامٍ مُحْزَنٍ اللَّهُـ
فَيَقُولُ الْقَلْبُ: آهـ
صَاحٍ لَوْ كَانَ لَذَا الدَّهـ
مَا رَمَى الْعُرْبُ أَبَا الضـ
لَا وَلَا جَرَّ بَغْرِنَا
حَيْثُ هَذَا الْقَصْرُ أَمْسَى
فَازْدَرِ الدَّهْرَ وَسَفَّهُ
وَإِذَا كُنْتَ حَلِيمًا
مُضَرَ الحَمراءِ فِيهِ¹
كَ بِأَنْبَاءِ ذَوِيهِ
مَجْدٍ وَالْعَيْشِ الرَّفِيفِ
جَةً يُبْكِي مِنْ يِعِيهِ
وَتَقُولُ: الْأَذُنُ إِيهِ²
ر حَيَاءً يِقْتَنِيهِ
يَم بِالْخَطْبِ الْكَرِيهِ
طَةً أَذْيَالِ سِنِيهِ
خَالِيًا مِنْ مَبْتَنِيهِ
كَلَّ مَنْ لَا يَزْدَرِيهِ
فَابُكٍ مِنْ دَهْرٍ سَفِيهِ

¹ مضر: مضاف إلى الحمراء، والمراد بالحمراء الذهب.

² إيه: اسم فعل، للاستزادة من حديث أو فعل.

يا ضاربًا بالكمان

يفتَنُّ كل افتنانٍ	يا ضاربًا بالكمانِ
بصوت تلك المثاني ^١	سحرت سمعي وعقلي
حوى بديع المعاني	ضربت لحنًا بديعًا
إذ سرّني وشجاني	فكان شيئًا عجيبًا

^١ المثاني: جمع مثنى، وهو الوتر الثاني في العود.

يا دهر

أُطَلَّتْ يا دهرُ نحسي
فقد تضاءل صبري
إذا تعشَّقتُ هندا
وإن تعشقتُ دعدا
أما تعوِّدتُ إلا
إني أريد عدوي
وجُد عليَّ بوصلٍ
كلا، فإنَّ مقالي
بل أنت أحقر عندي
إني وإن كنت أشقى
رَبَّأتُ عنك بذيَّمي
إذ لست أنت بكفئي
لو كنت يا دهر حُرًّا
لما ارتضيتك عبداً
وكيف أرضاك عبداً

متى تجود بسعدي؟
كما تعاظم وجدي
منحُتني وصلَ دعد
منحُتني وصلَ هندٍ
بأن تجود بضدَّ
فهايتَ بعضَ أوْدِي
فقد رضيتُ بصدَّ
هزل وليس بجد
من أن تجود وتجدي
بأوجه منك رُبِدٍ¹
كما ربَّأت بحمدي²
ولست أنت بنَدِّي
وجئتُ تخدم عندي
ولا خُوَيْدِمَ عبدٍ
وأنت أوغد وَغْدٍ!³

¹ ربد: جمع أريد وهو الذي تغير من الغضب.

² ربَّأت: ترفعت عنك.

الحقائق الملقنة

لَقِنْتُ فِي عَصْرِ الشَّبَابِ حَقَائِقًا فِي الدِّينِ تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَفْهَامُ
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُ الشَّبَابِ وَطِيشُهُ فَإِذَا الْحَقَائِقُ كُلُّهَا أَوْهَامُ

الخطوة الأولى

قدم السيد عادل جبر إلى الرصافي تصويرًا شمسيًا به صورة ابنه الصغير، لأول عهده بالمشي، وطلب إليه أن يكتب عليه شيئًا من الشعر، فكتب الأبيات الآتية:

يا عَمْرُكَ الله من وليدٍ يسرُّه اللعب بالنُّغَيْر¹
لا زلتَ في طالع سعيدٍ فدَى لك البدرُ من قَمِير

* * *

لم تره مُقلتايَ إلا أحسست في النفس بانتعاش
في العين أم في الفؤاد أحلى مرَّاه مُذ قام وهو ماش!

* * *

مشى على الأرض بارتعاش ثم حبا واضعَ اليدين
إنْ لم يزلَ لَيِّنَ المُشاش أفديه بالروح من غصين²

* * *

ويُسَك داود من شُبيل لوالد منجب هزبر!³

¹ النُّغَيْر بصيغة التصغير: البلبل الصغير أو فرخ العصفور.

² المشاش: جمع المشاشة؛ وهي رأس العظم اللين.

³ ويسك: كلمة ترحم وتعجب مثل ويحك.

ديوان معروف الرصافي

بدربك انجاب كلُّ ليل عن أبك العادل بن جبر

وجه نعيم

أَسْبَغَ اللَّهُ نَعِيمَ الْـ	حَسَنَ فِي وَجْهِ نَعِيمِ
قَمَرٍ أَغْنَى عَنِ الْإِشْـ	رَاقٍ فِي لَيْلٍ بِهِيمِ
عَلَّمَ النَّاسَ صَحِيحَ الْـ	حُبِّ بِالطَّرْفِ السَّقِيمِ
يَرْجِعُ السَّحَرُ بَعِينِـ	هِ إِلَى عَهْدِ الْكَلِيمِ

المغربي

مما كتبه تحت صورة شمسية له أهداها إلى العالم النحرير والكاتب الشهير، الشيخ
عبد القادر المغربي.

تُذَكِّرُهُ مِنِّي صِدَاقَةٌ صَادِقِ	إِلَى الْمَغْرِبِيِّ الْحَبْرَ أَهْدَيْتُ صُورَتِي
وَرُبَّ خِيَالٍ مُؤَذِّنٍ بِالْحَقَائِقِ	وَتَوْذَنَهُ بِالْوَدِّ وَهِيَ خِيَالَةٌ
بِمَا أَوْضَحْتَ أَقْلَامَهُ مِنْ دَقَائِقِ	وَإِنْ لِعَبْدِ الْقَادِرِ الْفَضْلُ كُلُّهُ
كَمَا زَانَهَا مِنْهُ بِحَسَنِ الْخَلَائِقِ	فَتَى الْعِلْمِ زَانَتُهُ الْعُلُومُ بِنُورِهَا

صفا لك

ومما كتبه تحت صورة فتوغرافية أيضًا، أهداها إلى الأديب الكبير إسعاف النشاشيبي المقدسي، قوله:

صمِيمٌ ما لصحته اعتلالٌ	صَفا لك فيَّ يا إسعاف وُدٌ
يمثِّلُ صدقَه لك ذا المِثال	فخُذْ تمثالَ خِلٍّ ذي وِداد
يدلُّ على حقيقته الخيال	خيال حقيقَة ولربَّ شيء
إذا مَذقت مودتها الرجال ^١	ولست مما ذِقا في الودِّ خُلِّي
ويُحمد في فضائله المقال	ومثلك من تجادله القوافي

^١ مذك: خلط.

إليك عادل

ومما كتبه أيضًا تحت صورة شمسية أهداها إلى صديقه الفاضل عادل جبر المقدسي، قوله:

إليك عادلَ جبرِ رَسَمَ ذي مِقَّةٍ	من أصدقائك حَيَّادَ عن الفَنَدِ¹
لو تدرك الشمس في القلب من شغف	لصورتُ لك ودًّا جَلَّ في خلدي
لكنها خُلقت عن ذاك عاجزة	فصورتُ لك مني ظاهر الجسد
فأقبله تذكرةً في الدهر باقية	بقدر حبيكَ حتى آخر الأبد
فأنت أكرم من صادقته خلقًا	وأبعد الناس عن غِلٍّ وعن حسدٍ

¹ المقة: المحبة. والفند: الكفر بالنعمة والكذب.

الكتاب

واستعار وهو في القدس كتابًا من إسعاف النشاشيبي، ثم أعاده وقد كتب عليه هذين البيتين:

آل النشاشيب إن الله أسعفكم	على التقدم للعليا بإسعاف
ذاك الذي أشرفت بالعلمِ همته	على سماء المعالي أي إشراف

من هذا؟

مُخْلِصٌ مُنْكَشَفٌ إِخْلَاصُهُ
وَأَمِينٌ قَدْ جَرَتْ أَطْمَاعُهُ
لَوْ دَرَّتْ كُلُّ خِيَانَاتِ الْوَرَى
تَرْكَبُ الْفَحْشَ رُجُولِيَّتُهُ
عَنْ رِيَاءٍ فِيهِ تَخْفِيهِ الْأَنَاءُ
بَسِيُولِ الْغَشِّ فِي وَادِي الْخِيَانَةِ
بِالَّذِي فِيهِ تَسَمَّتْ بِالْأَمَانَةِ
بِعِنَانَيْنِ: نُعُوظٌ وَعِنَانُهُ

من مطبخ الدستور

معربة عن التركية بتصرف، للشاعر التركي توفيق فکرت.

كلوا يا أيها السادة	كما تنكره العادة
كلوا من مطبخ الدستور	رأكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعا	ءحتى تنفدوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس	فإن الناس مُنقاده
كلوا لا تخشوا الدهر	فأمُ الدهر قوَّاده

الوزارة عندنا

إن الوزارة — لا أبا لك — عندنا
لا يرتديه سوى امرئٍ أضحى له
ثوبٌ يفصلُ في معامل لندنا
طبعًا وداؤُ الإنكليز وديَدنا

عبد اللطيف باشا المنديل

عبدُ اللطيف بفضلِه جعل الوري
ورث المكارم عن أبيه وجدّه
في الوجه منه مَلامحُ عربية
في البصرة الفيحاء مُذْ لَبَّيْتَه
فطريده فيها أذلُّ مُطرَد
حُرُّ الضمير مؤيّد بفطانة
إن قال حقًا قاله بصراحة
أسرى مكارم أسرة المنديل
فبنى أثيلَ المجد فوق أثيل
يدعو توسُّمها إلى التبجيل
طُنْبَيْن من بأسٍ ومن تنوِيل
ونزِيلُهُ فيها أعزُّ نزيل
يرمي برأي في الأمور أصيل
لم يخشَ لومة لائم وعذول

إلى السباعي

وقال وهو في دمشق جواباً عن كتاب أتا به ابن سليم السباعي الدمشقي من أبيه،
يتضمن أبياتاً من الوزن والروي:

كتابُ أخٍ لعهد أخيه راعٍ
وكم حُبٌّ تولَّد من سَماعٍ
كريمٍ سَجِيَّةٍ وطويلِ بَاعٍ
على ما فيه من خُلُقِ الشجاعِ
كذاك تكون أشبال السباعي
بعثتَ به لمُغتربٍ مُضاعٍ
ونفْسُ كربتي وشفَى صداعي
وإن أعطيت مملكةَ اليراعِ
على ما فيك من كرمِ الطباعِ
قريرَ العينِ مشكورِ المساعي

إلى الرجل الكريم إلى السباعي
فتى أحببته قبل التلاقي
ولكني رأيت له سليلاً
ويُحسب من دماثته جباناً
فقلت وقد رأيت به إباءً
فشكراً يا سليم على تنظيمٍ
فأنسَ غربتي وأسأ جروحي
وما أنا للثناء بمستحقٍ
ولكنُ حسنُ ظنك بي دليلُ
فدمتُ بحسن سعيك للمعالي

عفو بعد نفي

أنشدها في عمر صالح أحد أصدقائه في القدس، وذلك عند قدوم عمر من عكا بعد أن نفي إليها سياسة.

أحرزت يا عمرُ المفاخر كلَّها	فالبسُ من العلياء ما تختارُ
أما البلادُ فقد حَمِيتَ زِمَارها	لَمَّا أضاعَ ذِمَارها الأُشْرار
ولقد رَعِيتَ عهودها فتَنَوَّقلت	في الناس عن رعايتك الأخبار
فإذا جرى ذكر الحميَّة بعد ذا	أثنت عليك موطنٌ وديار
ولئن نَفَوَكَ فَإِنَّ نَفِيكَ لم يكن	عارًا عَلَيْكَ وأين منك العار؟!
بل قد نفوك لأنَّ أُبَيَّتَ هوانهم	والنفي من دار الهوان فخار
هاجت لمنفأك الحفائِظُ فاغتدت	كالبحر هاج بلجُّه تيارُ
شرفٌ لِعَكَّةَ أن رأت بك ماجدًا	بعلاه تفخر حِمير وِنِزار
فالقدس حاسدة عليك ربوَعها	والمسجد الأقصى عليك يغار
ولقد عفوا وهم الجُناة وإن عفا	عنك المسيء فعفوه استغفار
ندموا فُسِّمَتِ الندامة عندهم	عفوًا وذلك منهم استكبارُ
أهلاً بمقدَمك الذي بسروره	سِيءَ اللئامُ وسُرَّتِ الأحرار

التراموي في الآستانة سنة ١٩٠٩

مَرَّ الترام ففَقِيلَ: اركب، فقللت لهم:
أما ترى وضعافُ الخيل تسحبُه
يحكي السُّلحفاة في عَرْض الطريق وقد
ترى به أوجُه الرُّكَّاب عابسة
في جانبيه وفي أعلاه قد كَتَبُوا
«قد يدرك المتأنِّي بعضَ حاجته
نَلَّ امرؤُ كان مَرَكوبًا له الكسلُ
كأنه جَبَلٌ في الأرض ينتقلُ
أَمَسْتُ بها في التَّأَنِّي يُضرب المثلُ
من فوقها ضجر من تحتها مَلَلُ
بيتًا تمثِّل في إنشاده الأولُ
وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ»

لقيتها في الطريق

لقيتها في الطريق عابرة
أعجبها منظرني وأعجبني
فصار قلبي بالحب يأمرني
وحين مرّت والشوق يُسكرني
لَفْتُ جِدي أرى أَتَنظُرني
فقلت، والشوق فيّ ملتهبُ:

يَهْصِرُ من قَدْها تَبَخُّرُها
بالحسَنِ عند اللقاء منظرها
وقلبها بالغرام يأمرها
بخمرة تارة ويُسكرها
والتفتت لي ترى أأنظرها
إن عَذرتني فسوف أعذرها

الدين والوطن

لا يَخْذَعُنْكَ هِتَافُ الْقَوْمِ بِالْوَطَنِ
أَحْبُولَةُ الدِّينِ رَغَّتْ مِنْ تَقَادِمِهَا
فَمَا لَهُمْ غَيْرَ صَيْدِ الْمَالِ مِنْ غَرَضٍ
لَمْ يَقْصِدُوا الْخَيْرَ بَلْ يَسْتَذِرْعُونَ بِهِ
فَإِنْ تَهَادَنَ قَوْمٌ فَاَنْتَظِرْ شَغْبًا
فَالْقَوْمُ فِي السَّرِّ غَيْرُ الْقَوْمِ فِي الْعَلَنِ
فَاعْتَاظَ عَنْهَا الْوَرَى أَحْبُولَةُ الْوَطَنِ^١
فِي الْيَوْمِ وَالْغَدِ وَالْمَاضِي مِنَ الزَّمَنِ
رَمِيًّا إِلَى الشَّرِّ أَوْ قَصْدًا إِلَى الْفِتَنِ
إِذْ لَيْسَ هَدَنْتَهُمْ إِلَى عَلَى دُخَنِ

^١ رُك: ضعف ورق.

الحياة والأداة

وَطَّنْ حَيَاتِكَ لِلْمَكَارِهِ وَارْتَقِبْ كَدَرَ الْمَوَارِدِ إِنْ صَفَا لَكَ مَشْرَبُ
كُلَّ الْأَمَاكِنِ لِلأَداةِ مَظْنَةَ حَتَّى السَّمَاءُ تَدِبُ فِيهَا الْعَقْرَبُ

يا أيها المفتي

قالها لما أفتى بكفره بعض من يدّعي العلم في بغداد؛ وذلك لإنشاده قصيدة «في مسرح التمثيل» أنكر فيها تشديد القوم على النساء في الحجاب:

يا أيها المفتي بتكفيرنا	مهلاً فقد جئت بأمر نكير
بأيّ جهل فيك مستأصل	علمت يا جاهل ما في الضمير
وذاك أمرٌ ليس تنتاشه	إلا يد الله العليم القدير ^١
لو كنت ذا مجد لأصلتكَ من	هجائنا، الأيام نار السعير
بل أنت وَغْدٌ لا تبالي الهجا	وهكذا كل لئيم حقيِر
وإنما تغتاز من هجونا	بقدر ما تغتاز منه الحمير

^١ انتاشه: جذبه واستخرجه.

في معرض الشكر

لقد جرّبت أصدق أصدقائي
فتّى أما نداء فصوبُ مزن
به آل اللبابيديّ باهوا
أشدُّ من الخضمّ يداه مدّا
نقيّ العارضين له جبينُ
سديد الرأي طلق الفكر حرّ
كريم ما اقترحت عليه إلا
أيا مَنْ شدّ في بيروت أزري
سأبلغ فيك غاية كل شكر

فلم أر قط أصدق من صلاح
وأما خلقه فشذا الأقاحي^١
كما باهى بهم هو في السماح
وأقذف منه بالدُرر الصباح
أغرّ كأنه فلق الصباح^٢
طلوب للعلا سهل النجاح
وقد غلبت فواضله اقتراحي
وأنس غُربتي وشفا جراحي
وإن قصّرت نحوك بامتداحي

^١ الصوب: المطر. والمزن: السحاب الممطر.

^٢ العارضان: صفحتا الخد.

عند لعبة البيلارد

وفي الألعاب لم ترَ قط عيني
تجول بمستطيل الشكل عالٍ
فبيضاوانٍ تندفعانٍ جريًا
ينال الضرب إحداها فتجري
فتنبعث الثلاثُ مُدحرجاتٍ
يُدحرجهنَّ أغلِمة ظُرافٍ
بأيديهم عِصِيٌّ مُشرعاتُ
فكان إذا انحنى للضرب منهم
وربَّه ضربةٍ لَمَّا تَثْنَى
وكانت توبة لي عن مُجونٍ
فلستُ وقد تجددَ لي غرامُ

كمثل اللعب بالأُكر الثلاثِ
لطيف صُنْعُهُ حسنِ الأثاثِ
إلى حمراءَ بادية اللُّهاثِ
لضرب الآخرين بلا لَبَاثِ^١
وقد حصل اصطدام بانبعث
نسيْتُ بهم مغازلة الإناثِ
مهيأة لضرب واحتثاثِ
غلام هاج شوقي وهو جاثِ
ليضربها تثنَى بانحناثِ
فعادت من هواه إلى انتكاثِ
أبالي لوم ألسِنَةٍ رِثاثِ

^١ اللبّاث، بفتح اللام: اللبث والمكث.

السينما الوطني

قالها لما أنشئ السينما الوطني ببغداد.

لو جعلنا كل شيء وطنيا
ولعشنا اليوم في أوطاننا
ولأضحى نابهاً خاملنا
يا بني بغداد هل من يقظة
إن بغداد قضت واجبها
سينما أظهر للرائين من
ولقد صوّرَ في رُقعته
ولقد قرَّبَ للأنظار من
يبهج الناظر فيه أنه
يا بني بغداد لا عذر لكم

لقطفنا ثمر المجد جنياً
مستقلين بها عيشاً رَحِيّاً
ولأمسى كل ذي فقر غنياً
لأُمور تكسب القوم رُقيّاً
مذ أرتُكم سنامها الوطنيّاً
صور الآداب ما كان خفياً
عبرَ الأيام تصويراً جليّاً
خطط البلدان ما كان قصياً
يُقرأ المكتوب فيه عربياً
إن أتيتم بعد هذا الأجنبيّاً

عند نشر المعاهدة

قيدُ يَعْضُ بأرجلِ الآمالِ
لكن مموّهة بالاستقلالِ
كالعهد بين الشاة والرئبال^١
بتودُّ حملًا من الأحمال؟!
فاستوثقوا منهنّ بالأغفال
وضعوا بها قُفلاً على الأغلال
حَلَّت عليهم لعنة الأجيال
أفيأمنون تقلّب الأحوال؟!

نشروا المعاهدة التي في طيِّها
قد أبلعوننا حَبَّة استعبادنا
والعهد بين الإنكليز وبيننا
من ذا رأى ذنْبَ الذئاب مصافحًا
لكنَّهم خافوا انفكاك قيودنا
كتبوا لنا تلك العهود وإنما
شَلَّت أكف مَوْقعِيعِها إنهم
هَبْ أنهم أَمِنُوا انفكاك قيودنا

^١ الرئبال: الأسد أو الذئب.

وزراء المعارف عندنا

ويَحِ المعارف لا يَستوزرونَ لها
فأَيَّ حرمَةٍ علمٍ هم قد انتهكوا
هَبَّهم قد احتقرونا في مواطننا
يا قوم ما بالكم لا تغضبون له
تالله قد أنزلونا شر منزلة
إلا الذين لوْزِرَ الجهل قد وزروا
بذا وأَيَّ ذمامٍ للعلم خَفروا!
سياسة فعلامَ العلم يحتقر؟!
أليس فيكم فتى للعلم ينتصر؟!
لا الزنج ترضى بها منهم ولا النُّورُ

قيصر معلوف

في آل معلوف الكرام خلأئقُ
ولهم مآثر في البلاد جليلة
يأبى الزمان دوالَ دولة مجدهم
رجل رأيت به الفضائل تعتلي
وصحبت في بيروت منه مهذبًا
صغرت به عندي الكرام لأنه
إنني لأشكره على إفضاله
أما حليلته الفتاة فإنّها
ما أحسن الحُسنين إذ جُمعا بها:

غرّ يضيء بها الزمان الأكدرُ
أيدي المطاولِ عن علاها تقصر
ما دام فيهم ذو المكارم قيصر
والمجدَ ينمو والمعالي تكثر
ما إن تصور مثله المتصورُ
في كل مكرمة أجل وأكبر
والحر للحر المهذب يشكر
بدر بأفاق الجمال منورُ
نفس مهذبة ووجه أزهر!

إلى أمين كاملة

وكتب له أمين كاملة أحد أدباء بيروت فأجابه:

حي الأمين الذي طابت مغارسه	في منبت النبع لا في منبت الغرب ^١
مشهورة في رُبا لبنان غُرته	من آل كاملة صُيَّابة العرب ^٢
قد جاء بالشعر يطريني فقلت له:	شكرًا لفضلك إذ أحسنت ظنك بي
أوسعتني منك ترحيبًا وتكرمة	لَمَّا حططت لديكم رُحْل مغترب
وتلك شيمة من كانت خلائقه	مصوغة من صميم المجد والحسب
قل للألى يقصدون اليوم تخطئتي	مستغربين إلى لبنان منتسبي
من مَتَّ منكم إلى قوم بنسبته	فقد مَتَّ إلى لبنان بالأدب
ونسبة العلم والآداب لَحمتها	أقوى لمنتسب من لَحمة النسب
أليس لبنان بالآداب مشتهرًا	من العلوم وقول الشعر والخُطب؟
فإن نزلت بوايدٍ منه منتجعًا	فقد نزلت بوايدٍ ممرعٍ خصب

^١ النبع: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر ضعيف.

^٢ صيابة العرب: خيارهم.

إلى عبد الوهاب النائب

أنشد حضرة العلامة عبد الوهاب أفندي النائب في بعض مجالسه ببغداد البيت الآتي ولم يكن الرصافي حاضراً:

إن فاخرت بلدةً يوماً بشاعرها فإن شاعرنا في الشرق «معروفٌ»

فبلغ ذلك الرصافي، فكتب إليه الأبيات الآتية:

قل لعبد الوهاب النائب العلاً	مة الحَبَر مُنْجِب النجباءِ
إن أكن شاعراً فمثلك من يُد	عى ببغداد أعلم العلماءِ
أَيُّ فضل للشعر لولا علوم	قَوِّمَتْ من قناتِهِ العوجاء؟!
إن بين الشعر المقول وبين الـ	علم بَوْنًا كأَرْضنا والسماءِ
ما ادَّعى الشعر عالم قط لكن	يدَّعي العلم أشعرُ الشعراءِ

إلى أولي الأمر

وقال يخاطب رجال الحكومة ببغداد سنة ١٩٣٧:

يا مُبعدِيّ بظلم عن مناصبكم	وقاطعين إلى ما أبتغي طُرقي
علمتُ كل خفيٍّ من ضمائرکم	وما علمت الذي ترضون من خلق
ماذا يوافقکم من شأنِ صاحبکم	حتى يكون لديکم حائز السبق؟
إن كان عقلُ فإني عاقلُ فطنُ	أو كان حمق فعندي أحمق الحمق
فجرُّوني تفوزوا عند تجربتي	بما تريدون من طيشٍ ومن نزق
وإن أبيتم سوى مَنْ عِرضه دَنَسٌ	فلمست مَعکم على شيءٍ بمتفق
لا أبعد الله غيري عن مناصبکم	إني بتدنيسِ عرضي غير مرتزق

المصور البارِع

إن فنَّ التصوير قد صار فيه
حمل الشمس للأَنام بكفٍّ
وأَتى يُبدع البدائع للنَّا
لم يفته من صورة المرء حتى
فتراها كأنها ذات فكر
وترى عند حزنها ذات حزن
لك يا أسعد الفخار ولا زلـ
أسعدُ بارِعًا بغير نظير
وبأخرى صناعةَ التصوير
س بفنٍّ من الرسوم خطير
ما بها من علائم التفكير
هي عنه تهَمُّ بالتعبير
وترى في السرور ذات سرور
ت جديرًا بالفخر جدَّ جدير

الأغنياء والفقراء

أرى أغنياء الناس كالْعُمي لم يَرَوْا شقاء بني غَبراء من كل بائس^١
كأنَّ الغنى والفقْر نور وحنْدُس ولم يَر من في النور من في الحنادس^٢

^١ الغبراء: الأرض، وبنوها الناس.

^٢ الحندس: الظلام الشديد.

الجهل فضاح

ما أَقْبَحَ الجهل! يُبدي عيبَ صاحبه
كذلك الثُّوم لم يشممه آكله
لِلناظرين وعن عينيهِ يخفيه
والناس تَشْتُمُ نَتْنَ الرِّيح من فيه

حمام الوزارة

ألا بلُّغوا عني الوزير مقالَةً له بينه لو كان يخجل توبيخُ
أراك بحمَّامِ الوزارة نُورَةً وأما جَنابُ المستشار فزِرنِيخُ

رخص المناصب

نحن قومٌ من الدراويش نَغْنَى
رُخِصَت عندنا المناصب حتى
عندنا عن مدارس بِتَكْيَّه
قد شَرَوْها بِسَبْجَةٍ وبلْحِيَه

الناس والملوك

عجبت للناس في الدنيا فحالتهم مع الملوك صريح العقل يَجِدُهَا
إن الملوك لكالأصنام ماثلة الناس تنحتها والناس تعبدُها

منزلة المعلم في المجتمع الإنساني

إذا كان جهلُ الناس مَدعاةً غيَّهم
فلو قيل: من يستنهض القوم للعلا
معلمُ أبناء البلاد طبيبهم
وما هو إلا كوكبٌ في سمائهم
فلا تبخسنَّ حقَّ المعلم إنه
فإن له منك الحجا وهو جوهر
ألا إنما تعلِّمنا الناس واجبٌ
وما أخذ الله العهود على الوري

فليس سوى التَّعليم للرشد سُلَّم
إذا ساء محياهم؟ لقلت: المعلم
يداوي سقام الجهل والجهل مسقم
به يهتدي الساري إلى المجد منهم
عظيم كحق الوالدين وأعظم
وللوالدين العظمُ واللحم والدم^١
وإنَّ على الجهَّال أن يتعلموا
بأن يعملوا حتى قضى أن يُعلموا

^١ الحجا: العقل.

أم سري

زار الرصافي صديقه السكاكيني في القدس فارتجل عنده هذين البيتين يخاطب بهما
قرينته السيدة سلطنة:

أطاعك منه ما عصى الناس أجمعاً	أُمَّ سَرِيَّ أَنْتَ سُلْطَانَةُ الْبَهَا
سوى أن كلَّ الحسن فيه تجمّعاً	ولم يرَ نقصاً في مُحْيَاك ناظري

الحزب الحر العراقي

لما نفي بعض أعضاء الحزب الوطني وحزب النهضة، وسدت نوادي هذين الحزبين، قال الرصافي يخاطب الحزب الحر المعتدل:

قولوا لحزب تسمى الحرَّ معتدلاً:	هل أنت من بعد نفي القوم معتدلٌ؟!
وهل لما حلَّ بالحزبين باكية	عيناك أم أنت مسرورٌ به جدلٌ؟
تالله ما أنت حرٌّ في مطالبة	وإنما أنت للحكام مُعتمِلٌ ^١
قد احتملت من التاريخ لعنته	لله دُرُّك ماذا أنت محتملٌ؟!

^١ معتمِل: مصطنع.

قال ذو الحزب

وبلغ الرصافي أن رئيس الحزب الحر قال إذ سمع بهذه الأبيات: «نحن لا نبالي بمثل هذه الأقوال الفارغة»، فقال الرصافي:

قال ذو الحزب إذ أتاه مقالتي:	نحن لسنا بما يقال نبالي
صادق في الذي ادّعاه وأنّي	يألم المَيّتُ من جروح النضال؟!
إنما تجزع الكرام من الذمّ	وتخشى الأمجاد لذع المقال

المسلم المصلح

قالها في صديقه الشيخ عبد القادر المغربي، أحد أركان المجمع العلمي بدمشق، وأنفذها إليه من رحلة.

للمغربيّ بأرض الشام منزلة	ممتازة في نوادي العلم والأدب
المسلم المصلح الهادي بفكرته	إلى الحقيقة أهل الشك والريب
قد غاص في لجج الأديان مجتهداً	فاستخرج الدرّ لم يعباً بمخشلب ^١
وجال جولة حبرٍ في منابقتها	فاستخلص النبع حيّاداً عن الغرب
لو سار كلُّ بني الإسلام سيرته	لما شكوا في حياةٍ سوءٍ منقلب
أو جال كل أولي الأديان جولته	لما تكوّن باسم الدين من شغب
إنّي لأمدحه بالحقّ عن ثقة	والمدح بالحق غير المدح بالكذب

^١ المخشلب والمخشلب، بفتح الميم: كلمة عراقية نبطية، وهي اسم لما يشبه الدر من حجارة البحر، يعمل منه خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ، وهو أردؤه وأقله قيمة.

نجل عبد اللطيف

كتب عبد اللطيف باشا المنديل إلى صديقه جناب المستر «منك» مدير الكمارك في بغداد، كتابًا وصف به له حالة ابنه الصغير، وأنه بلغ من العمر أن صار يشير بيده، ويتكلم بكلام لا يفهمه إلا هو، فطلب المدير المشار إليه إلى الرصافي أن يقول على لسانه أبياتًا في المعنى، فقال:

نجلُ عبد اللطيف وهو نجيبٌ	كيف لا يُظهر النجابة طفلًا؟!
إن يكن غيرَ واضح القول لفظًا	فكلام النجيب يُفهم عقلا
كلما قال أو أشار فمعنى	قوله أنه علاءٌ سيَعلى
إن آل المنديل قوم كرام	قد زَكُوا في الأنام فرعًا وأصلا
نجلُ آل المنديل غيرُ عجيب	أن يكون النجيبُ طفلًا وكهلا
أيها النجل عشُّ لتجديد مجدٍ	قد بَنَتْه لك الأوائل قبلا

عبد الوهاب النائب

عَلَيَّ لَرَبِّنَا الْوَهَابُ أَنِّي
وَذَاكَ إِذَا يَعَامِلُنَا بِلُطْفٍ
لِيُرْشِدَنَا إِلَى سَبِيلِ الْمَعَالِي
هُوَ الْحَبْرُ الَّذِي وَجَدَتْ مُنَاهَا
تَرَدَّى الْمَجْدُ مِنْ أَدَبٍ وَعِلْمٍ
يَوَدُّكَ فِي الرِّخَاءِ وَدَاةٍ حَرٍ
أَطَالَ بَقَاءَهُ الرَّحْمَنُ فِينَا
أَوَّاصِلَ شُكْرِهِ وَأَدِيمَ حَمْدِهِ
فِيَشْفِي «النَّائِبَ» الْمَفْضَالَ عَبْدَهُ
فَنَقْصِدُ فِي ابْتِغَاءِ الْمَجْدِ قَصْدَهُ
بِغَاةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ عِنْدَهُ
وَطَرَّزَ بِالْمَعَالِي الْغَرَّ بُرْدَهُ^١
وَلَا يَنْسَاكَ إِنْ دَهَمَتْكَ شِدَّةُ
وَأَكْثَرَ فَضْلَهُ وَأَدَامَ سَعْدَهُ

^١ تردى المجد: اتخذته رداء.

إلى أمير الكمنجة

أُصدّق النابغين في الفن لهجه
تملأ الأنفس انتعاشاً وبهجه
تغرق الروح من سرور بلجه
فلك الفن بالغاً منه أوجه
مُوضح للأنام منه المحجّة^١
يَقْتَفِي إثره وَيَنْهَج نهجه
تار إلا ألقى على القوم رجه
ر يمجون موجة بعد موجة
أيّنا مال ضارباً أو توجه
راكزاً فوق هضبة المجد رُجه^٢
من كمال تعود الناس مزجه
سادة الفن في بلاد الفرنجه
حامل الصولجان وهو الكمنجه
لم تزنّها بدائع الفن سمجه

صاح قم بي إلى أمير الكمنجه
قم بنا نستمع إلى نغماتٍ
ولحون كالصبح إن هي فاضت
ذاك سامي الشّوّا الذي قد سما في
هو في فنه الرفيع إمامٌ
كل من سار في طريق الأغاني
ما أمرّ الأنامل الخمس بالأو
نغمة منه تجعل القوم كالبحر
ويميلون باتّجاهٍ إليه
بطل الفن هزّ رمح ابتداع
وبكأس الفخار أسقي صرّفاً
فلتفاخر بلاد يعرّب فيه
يا أميراً في الفن صار مليكاً
شهد الله أن كلّ حياة

^١ المحجة: جادة الطريق؛ أي وسطه.

^٢ الزج: الحديدية التي في أسفل الرمح، وفي الكلام استعارة لا تخفى.

إلى محمد الرضا

شعراً ذكرت به زماناً قد مضى
فيه ورحت عن «الفرزدق» معرضاً
أخذت تقيم من القريض مُقوضاً
ولدى القراع هي الحسام المنتضى
حسد الرضيّ بها أخوه المرتضى
صوتُ الرُّعود لها دويٌّ في الفضا
صوت الحمام ينوح في وادي الغضا
فشبيهه برق لاح أو نجم أضا
وبها رأيت مُذهَّباً ومفضضاً
للوّد مني بالقريض تعرضاً
يُدني أحبته ويُقصي المبعضا
إلا وزادت بالقريض تفيُّضاً
فيها الثناء وهكذا عين الرُّضا

إنني لأشكر من محمّد الرضا
شعراً غدوت على «جرير» فاخراً
قد دبّجته يراعة لمحمد
هي في التفنن ريشة لمصور
لو كان في كف «الرضي» نظيرها
وكأنما يومُ الفخار هديرها
وكأنما يومُ الرثاء صريرها
أما ذكاء ابن الخطيب «محمد»
وافت جواهره على يد «جوهر»
يا أيها الرجل الذي بكتابه
إنني لأشكر منك خللاً فاضلاً
وقريحة ما زدت في استنباطها
ولقد نظرت إليّ منك بنظرة

فخامة الرئيس ووسام الرافدين

أنشدت في الحفلة التي أقيمت في البلاط الملوكي، لمناسبة ما أنعم به جلالة الملك على فخامة رئيس الوزراء من وسام الرافدين من الدرجة الأولى، وذلك يوم ٢٦ آذار ١٩٣٣.

تَه يا وسامَ الرافدين بصدْرِ من	هو في العُلا للرافدين وسام
نوري السعيد أبو صباح من به	سعدَ العراقُ فتغره بسام
قد أنعم الملك المطاع به لكي	يزدانَ فيه وزيرُه الضرغام
يا حبذا ذاك الوزيرُ وحبذا الـ	ملك المطاع وحبذا الإنعام
زَهي الوسام بصدْره فكأنه	تاجُ المليك يحفه الإعظام
صدر إذا الخطب اذْلَهُم تَلألأت	فيه السجايا الغر والأحلام
وإذا تنهَّدت الصدور لحادث	بدت الشجاعة منه والإقدام
ليس التفاخر بالوسام يهْمُه	ولوَّ أنَّه افتخرت به الأقوام
بل همُّه أن تستقل حكومة	ويتم في أمر البلاد نظام
فعلى البلاد من الرئيس تحية	وعلى الرئيس تحية وسلام

في بيروت

في مجمع كوكب الشرق

ومجمع جامع ضاع العناء به
تلاطم الموج فيه وهو من لغط
فظلت أسمع بالعينين فيه وقد
كلّا تراه على عزف القيان غدا
فللمعارك بين القوم فرقعة
كان الغناء كرايي حين أعلنه
ضياع شعري في قومي وأوطاني
حتى أصمّ عن الألحان آذاني
يُغني عن الأذن طرف للفتى راني
بالنرد يلعب مشغولاً مع الثاني
كالملح يُحرّق مذروراً بنييران
وسامعوه كقومي عند إعلاني

نهاد قرّة الأعين

إلى حضرة الفاضل نور الدين بيهم

كان مذ قال واهبُ الأولاد	لنهاد كُنْ
فاستمرت بحمدها المٌزواد	تنطق الألسن
لاح بدرًا له بأفق النادي	طلعة تحسن
أولد النور منه للوفاد	بهجة الأعين
نهر بيروت منه بالميلاد	فاخر الأردن
هو في آل بيهم الأمجاد	نبعة الأغصن
كان عيدًا لهم من الأعياد	في مدى الأزمن
إن تاريخه «حياة نهاد	قرّة الأعين»

ذات الشعر الأبيض

ومليحة أوصافها
بيضاء أمّا شعرها
قد لاح يضرب للبيا
كشعاع أنوار النجو
يمتد فوق جبينها
فكأن غرة وجهها
أو قرص شمس قد تجلّل
تدعو القلوب إلى التصابي
فيلون أنوار الشباب
ض وذا من العجب العجاب
م إذا تلاً باضطراب
كضياء منقضّ الشهاب
بدر تكلل بالسحاب
بالرقيق من الضباب

رقة قولي

وغرت رقتي في القول قومًا
وما علموا بأن رقيق قولي
وما موج البحار يكون إلا
فعادوني وكنت لهم صديقًا
يكون لدى التماحك منجنيقًا
لكون الماء سَيالًا رقيقًا

جو بيروت

جو بيروت في الشتاء دفيء
فإذا ما تواتر الغيث فيه
وعلى القرب من مغانيه جوُّ
يجعل الجسم في ارتجاف فيمسي
وكذا الحسن في الأماكن بالأضـ
مانعٌ من نوازل الأسقام
خلتني في مغاسل الحمام
ثغره من ثلوجه في ابتسام
فيه نطق الفصيح كالتمتتام
سدا تبدو أوصافه للأنام

على مقابر الشهداء

حيّ هذه القبور إن كنت حيّاً
إنما الميت كل من لا يحيي
واحترامُ الأموات حننٌ وإن كا
لا تقل هذه الرجام قبورُ
إنما هذه القبور ترينا
عاملاً بالفضيلة الغراء
باحترام مقابر الشهداء
نوا بعباداً فكيف بالقرباء؟!
بل تماثيل نجدة وإباء
كيف حبُّ الأوطان في الأحياء

منيرة^١

هل سمعتم «منيرة» مذ أفاضت
مذ أقرَّت برقصها كل عين
رقصها يُرَقِّص القلوبَ على أن
هي إن أقبلت بثنيةٍ عَطْفٍ
وهي إن أدبرت بهزّةٍ رَدْفٍ
خلق الله صوتها العذب كيما
وبراها ممشوقةً القدَّ كيما
بنت فنَّ غنَّت لنا فسقَّتْنا
سحرتني مذ أقبلت تتثنَّى

من بديع الغناء في كل فنٍّ
واسترقت بصوتها كل أذن
غناها عن المزامير يغني
أقبلت بالمهْفَهف المطمئن
أدبرت بالمرجرج المُرْجَجْن
يعرف الناس كيف حُسن التّغني
يعرف الناس كيف حُسن التّثني
من أفانين لحنها بنت دَنّ
فكأنني مذ أقبلت لستُ منِّي

^١ هي مغنية عراقية.

يطلب جلنار

وظبي جاء يطلب جلنارا
وقد ملك الخلائق ملك أسر
بقد أخجل السمر اعتدالاً
فقلت: وما الكليم سوى فؤادي
فديتك كيف تطلب جلناراً
يحاكي لونَ وجنته احمراراً
وأوثقَ في قلوبهم الإسارا
وطرفَ أوجَل البيض اقتدارا
وقد آنستُ في خديه نارا؟
وفي خديكَ أبصرَ جلنارا؟

اسمعي لي كلاما

اسمعي لي قبل الرحيل كلاما
هاك صبري خذيه تذكرةً لي
لست ممن يرجو الحياة إذا فا
لك يا ظبية الصريمة طرفُ
حُبِّ ماء الحياة منك بثغرٍ
شغل الكاتبين وصفك حتى
كلما زاد عاذلي فيك عدلاً
أفأحظى بزُورَةٍ منك تشفي
ربَّ ليل بالوصل كان ضياءً
قد شربتُ السهاد فيه مُداماً
ما لقلبي إذا ذكرتكَ يهفو
إن شكوت الهوى تلعثمتُ حتى

ودعيني أموت فيك غراما
وامنحي جسمي الضنى والسقاما
رق أحبابه ويخشى الحماما
شدَّ ما أوسع القلوب غراما!^١
طائرُ القلب حول سُمطيه حاما^٢
لا دُويًّا أبَقُوا ولا أقلاما
زدت في حسنك البديع هياما
صدع قلبي ولو تكون مناما؟
ونهار بالهجر كان ظلاما
وتخذتُ النجوم فيه ندامى
ولعيني تُذري الدموع سجاما؟!
خلتني في تكلمي متما

^١ الصريمة: قطعة ضخمة من الرمل تنقطع عن سائر الرمال.

^٢ السمط: العقد.

وقال في عود انكسر

قلبي عليك حليفُ الوجد يا عودُ
كنت افتديتك لو يُفدى الذي حكمت
فكم بدت نغماتُ منك مُطربةُ
تُعيد يا عود بالأوتار إن نطقت
كأنَّ أرواحنا عند استماعك من
فكيف نالتك أيدي الدهر كاسرة
كم شَنَّفْتُ أذني منك الأغاريدُ!
فيه المقادير أن يلقاه تنكيد
هُزَّت بها طربًا حتى الجلاميد
مَيَّتَ المَسرة حيًّا وهو ملحود
لطف لهنَّ عن الأجساد تجريد
وأنت في الدهر بالآذان معبود؟!

ضاق الخناق

أقول لهم وقد جدَّ الفراقُ:
رحلتم بالبدور وما رجمتم
فقلبي فوق رؤوسكم مُطار
أقال الله من قودٍ لحاظًا
وأبقى أعينًا للغيدِ سودًا
متى يصحو الفؤاد وقد أدبرت
وليس الناس إلا من تصاب
مررنا بالمنازل مُوحشات
كأن لم تُصِني فيها كعاب
فُعجت على الطلول بها مُكبًّا
كأنني بين أطلال المغانِي
حديد بارد في اللوم قلبي

رويدكم فقد ضاق الخناقُ
مَشوقًا لا يبوح له اشتياق
ودمعي تحت أرجلكم مُراق
دماءُ العاشقين بها تُراق¹
ولو نُسيَتْ بها البيض الرقاق²
عليه من الهوى كأسٌ يهاق
وإلا من يَشوق ومن يُشاق
لِهوج الرامسات بها اختراق³
ولم يُضرب بساحتها رواق
أسائلها وقد ذهب الرفاق
أسيرٌ عَصَّ ساعده الوثاق
فليس له إذا طُرق انطراق

¹ القود: إعطاء الدية.

² البيض الرقاق: كناية عن السيوف.

³ الرياح الرامسات: التي تأتي بالتراب، فتدفن الأشياء تحته.

وصف البدر عند الإفرج

كأن البدرَ صحنٌ من لُجَيْنٍ بدا فَجَلًا برونقه الهموما
به ارتقت الملائك للأعالي وراحت فيه تلتقط النجوما

إلى أم كلثوم

أمة وحدها بهذا الزمان
فما أن للفن ربُّ ثانٍ
عَمَّ كل الأمصار والبلدان
بافتتان لها وأُيِّ افتتان
لأ صريحاً بصوتها الفتان
ولون الوصال والهجران
وتريك المحب عند التذاني
وتريك الحبيب عند اقتران
من خلال الأنغام والألحان
ظاهرات في صوتها للعيان
بلحون مطابقات المعاني
فيه لحن المسرور والجدلان
بلحون تدعو إلى الأحزان
وبلحن كأساً من الأشجان
تتغنى به بلا ترجمان
ناطقات لنا بغير لسان
كيف فعل الغناء في الإنسان
فيه للسامعين حسن بيان

أم كلثوم في فنون الأغاني
هي في الشرق وحدها ربة الفن
ذاع من صوتها لها اليوم صيتٌ
ما تغنّت إلا وقد سحرتنا
في الأغاني تمثل الحب تمثيـ
يتجلّى في لحنها مشهد الحب
فتريك المحبّ عند التناثي
وتريك الحبيب عند افتراق
كل هذا في صوتها يتجلّى
صفحات من الغرام تراها
تنشد الشعر في الغناء فتأتي
فإذا أنشدت عن الوصل أبدت
وإذا أنشدت عن الهجر جاءت
كم سقنتنا كأس السرور بلحنٍ
تفهم الروح منطق الحب مما
فكأن الأنغام في الصوت منها
قد سمعنا غناءها فعرّفنا
حسن صوت يزيّنه حسن لحنٍ

تترك السامعين في هيجان	نبراتٌ في صوتها مشجيات
نعبد الحسن منه بالآذان	تسترقُّ القلوب منا بصوت
دب فينا دبيب بنت الحان	كل لحن إذا سمعناه منها
رًا وطورًا في خفة النشوان	في وقار الحليم تجعلنا طو
ونرى لذة لنا في التفاني	نتفانى في الاستماع إليها
فكأنًا في حالة الطيران	وترانا نهتزُّ حين تغني
طربًا — جرّدت من الأبدان	وكأن الأرواح — إذ تتعالى
حين تشدو ونحن في خطران	هي في مرتقى الأغاريد تعلو
بغرامٍ من صوتها روحاني	يشعر المرء حين يصغي إليها
من فنون الغناء بنت دنان	بنت فنٍّ غنّت لنا فسقتنا
هكذا فلتكن على الفنّان	هكذا فلتكن يدُ الفن عليا

أيتها الكعاب

فتنتِ الملائك قبل البشرُ وهامت بك الشمسُ قبل القمر
وسرَّ بك السمع قبل البصرُ وغنَّى بك الشعر قبل الوتر
فأنت بحسبكِ بنت العبرُ
ترفُ لِمراك رُوحُ الغرام ويهوى طلوَعك بدرُ التمام
ليطلعُ مثلك في الاحتشام ويَرَقِبُ خَطرَةَ هذا القوام
لكيما يَهَبُ نسيم السحر
تميلُ بقَدِّك خمُرُ الدلالِ فيضحكُ في مَيله الاعتدال
وفيه ارتقى الحسنُ عرش الجلال ومنه العقولُ غدت في عقال
وكم قد نهاها وكم قد أَمَر
إذا الوجه منك بدا للعيان له سَجَدَ العشقُ يَرجو الأمان
ويخجلُ من نوره النُّيران وَيَعْنُو له جبروت الزمان
ويخضع حتى القضا والقدر
بك الحُسنُ ألبسُ ثوبَ الكمال فأنتِ الحقيقة وَهُوَ الخيال
وأنتِ مَليكة ملك الجمال ولو صُوروك بلوح المِثال
لكنك مَليكة كلِّ الصور
يروح الشتاء وتصحو السَّما ويأتي الربيع بما نَمَنَّا
فيطلعُ فوق الثرى أنجُما ويبتسم الزهر بعد النما
فأنت ابتسامة ذاك الزَّهرُ

فطرُفك بالفَترُ كم قد روى نشيدَ غرامٍ يَهْدُ القَوَى^١
وما أنت شاعرة في الهوى ولكنما الشعر فيك انطوى
فأية حسنك إحدى الكُبر
لسانك يسحرُ في ظرفه وجفنك يفتن في ضعفه
وقدك يخطر في لطفه فيطنب ردفك في وصفه
ويوجزه خُصرك المختصرُ
سقتك الكعابة صَفَوَ الشبابُ وغطى محيّاك منها نقاب^٢
فأنت إذا قمت للإنسياب تبخترت في خَفَرٍ والكعاب
تضيء كعابتها بالخَفَر

^١ الفتر: السكون والضعف.

^٢ الكعابة: بروز ثدي الفتاة.

الشيخ المرائي

سَوِّدَ الله منك يا شيخ وجهًا غَشَّ حتى باللحية السوداء
لو نتفنا من شَعرها وغزلنا لنسجنا خمسين ثوب رياء

جاهل متكبر

وشامخ الأنف ما ينفك مكتسباً ثوب التكبر في بُحبوحة النادي
قد لازم الصمتَ عيًّا في مجالسه كأنما هو من نواب بغدادِ

الطفل الملتحي

معارفُ بغدادَ قد جاءها مديراً من الطيش في مسرحِ
حمار ولكنّه ناطق وطفل ولكنّه ملتحي
فيا أيها العلم عنها ارتحلْ ويا أيها الجهل فيها اسلحْ^١

^١ سلح: تغوط وتبرز.

فاسقٌ مُراءٍ أو جاهلٌ يدعي العلم

ولكن من الشولِ الطوالِب للْفحل^١
عطاء الذي تزكو الورى فيه بالْبخل
فبالْبَهت كم كفرت من مسلم قلبي
تْهاون بالله الذي جلَّ عن مثلي
وكذَّبت فيما تدعي سيد الرُّسل
بل الجهل أيضًا بل وجهُك بالْجهل
بمنزلة الظلم الصريح من العدل
ومثلك من يهذي وينطق بالْبطل^٢
وكشَّر فيه الأصل عن أربع عُصْل^٣
عليك القسِيُّ المُلس يا جعبة النبل^٤
أضلُّ كإضلال الخوار من العجل
تحتَم لكن يا مخنث، بالْنعل

أيوسف ما إن أنت من فَحَلِ هَجْمَةٍ
لئن كنت تُنْمِي للعطاء فإنه
وإن كنت قد كفَّرتني بجهالة
وإنك في تكفيرك الناسَ كافرٌ
رويدك قد كفَّرت يا وعدٌ مؤمنًا
وأنت امرؤ لم تجهل العلم وحده
وأنت من الإسلام في كل حالة
نطقتَ ببطل القول تهذي ممخرقًا
ألست الذي أعطى اللئام كرامة
وكم قرطسَت فيك الرماة ووُتَّرت
فيا علج أقصرُ عن نهيقك إنه
أنزَّه عنك السيف في قتلك الذي

^١ الهجمة: ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة من الإبل. والشول: النوق التي رفعت أذيالها طلبًا للفحل.

^٢ مخرق: كذب.

^٣ العصل: الأنياب الصلبة المعوجة.

^٤ قرطس: أصاب الهدف.

الأرض

كأني بهذي الأرضِ قد حانَ حَينُها فطاحت بأبعاد الفضاءِ شظايا
ونادت بأصواتِ الفناءِ فجأجُها وناحت على أطوارِها هَملايا

أيها المشنوق

وقال فيمن شنق في الآستانة من أول الثورة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس ١٩٢٥:

يا ساكنًا وهو مشنوق على عمِدٍ
كم فيك يا أيها المصلوب من عِيرٍ
إذ قمت تطلب شيئًا أنت جاهله
طالبت بالشرع حتى قد قتلت به
ولو أجبتَ إلى ما أنت طالبه
يا ظالم الشعبِ مظلومًا بفعلته
قد قمتَ للشر لا للشرع منتصبًا
فاشكر عُلوَّك إذ يعلو به وطنٌ
يا مُفسدًا قام تحت الدين مستترًا
انظر إلى ذلك المصلوب متعظًا
وآية الله في التنزيل قائلة

لأنت أبلغ من نادى ومن خطبا
للناس حيرن من أُملى ومن كتبنا
طوعًا لمن خان أو سمعًا لمن كذبنا
كذاك من جهل الشيء الذي طلبنا
لأصبح الشرع يدعو الويل والحربا
عليك أم منك يبكي الشعب منتحبا
حتى علوت به في الجو منتصبا
قد كدت تُورده من فعلك العطبنا
ليجعل الأمر في البلدان مضطربا
فإنما قتله في الشرع قد وجبا
من كان يفسد في أوطانه صلبا

بين اليأس والرجاء

ترى مُقلتي ما ليس تملكه يدي
أرى بابَ رزقي من بعيد مُفتَّحًا
وأيأس أحيانًا وأرجو فلم أكن
وما زلت أسعى مُنفض الكفِّ مُحَوِّجًا
فآتيه ولأجأ فألفيه مُرتجًا
لأملك من شيء سوى اليأس والرجا

جواب عن كتاب

إِنَّ قَلْبِي عَنْ حُبِّكُمْ مَا تَخَلَّى
طردت مهجتي السلو فوَلَّى
وكفى شاهداً بدمعي عَدُلاً
وهو كالشمس في العيان تجلَّى
أنت سالٍ عن حُبِّهم؟ قلت: كلا
قد تلاشى في حبكم واضمحلاً؟!
نمة فيكم وعهداً وإلاً¹
فائزاً من قِداحها بالمعلَى
وهلال من السعادة هلاً
فيه آيات فضلك الجَمُّ تُتلى
قلت: أهلاً بما أتيت وسهلاً
قال: لولا فراقهم، قلت: لولا

قَسَمًا بالإله عزَّ وجلَّ
لا ولا عن هواك لي من سُلوٍ
أنكر العاذلون ثابتَ حُبِّي
ما عسى أن يضرَّ إنكار شيءٍ
عذلوني فما سمعت فقالوا:
كيف يسلو عن حبكم ذو فؤاد
لم يزل في الوداد يرقُب قلبي
أيها الممتطي مُتون المعالي
نسماّت من المسرة هَبَّت
يوم وافى إليّ منك كتابٌ
قيل لي: هاك ما يزيدك شوقاً
قال: نلت المنى، فقلت: جميعاً

الغنيُّ غنيُّ النفس

لا تشكُّ للناس يوماً عُسرَةَ الحال
وجانب اليأس واسلك للرجا طُرُقًا
واركب على صَهوات الجدِّ مغترَّبًا
واطلب على عِزَّة بيضِ الأنوق ولا
لم يبقَ غيرُ الذي غُلَّت أنامله
كم قد غدوتُ على الأيام منتدبًا
أفعالهم دون أن يُغري الرجاء بها
من كل هيِّ ابن بَيٍّ لا ثباتَ له
كم بات ذو الحمق خلواً في مضاجعه
هذا يَميس بأبرارٍ مُفَوَّفة

وإن أدامتُك في همٍّ وبَلْبال
فالدهر ما بين إدبار وإقبال
فيما تحاول ذا حل وترحال
تطلب لَعْمُرك أن تحظى بمفضل
إمَّا بأغلال شُحٍّ أو بإقلال
قومًا أضعت بهم شعري وآمالي
لكنَّ أقوالهم أقوال أقيال^١
جَعَدَ اليدين قنولٍ غير مِفعال^٢
وبات ذو العقل فيها كاسف البال
وذا يخيظ شظايا طمره البالي^٣

^١ الأقيال: جمع قيل، وهو لقب للملك الصغير دون الملك الأعظم في بلاد اليمن.

^٢ رجل هيِّ ابن بَيٍّ: أي مجهول لا يعرف هو ولا أبوه.

^٣ ماس: مشى في اختيال. مفوفة: منقوشة بنقوش بيض. الطمر: الثوب البالي.

الشوق

شوقي إليك قريبٌ لا يَنائيَني
يا راحلاً وفؤادي في حقيبتِه
ترَكْتَنِي في شجونٍ للورى مثلاً
أَقفو الملاحَ لكي أسلو هواك بهم

والصبر عنك بعيد لا يدانيَني
رهناً لديه ولكن غير مضمون
يميتني الوجد والأشواق تحييني
فيرجُ الحسن منهم فيك يغريني^١

^١ أَقفو: اتَّبِع.

شكر على صنيع

شكرًا لفضل ممجّد
فاق الأماجد وامتطى
إنني اختبرتُ بني الزما
وسبرتُ غورهمُ لدى الـ
وبكفّ تجربتي لهم
فوحقّ من أرجوه في
ما إن رأيت بهم فتّى
المرتقي في المَكْرُما
يا ذا الإخاءِ المستقر
جاءَ الكتابُ إليّ منـ
فإليك يا «شكري» على
أهدي إليه نظيم شعري
بالعز صهوة كلّ فخر
ن جميعهم في كل أمر
حالّين من عسر ويسر
قلّبتهم بطنًا لظهر
دفع الخطوب وكل ضر
حسن السريرة مثل «شكري»
ت إلى المقام المشمّر
وذا الوفاء المستمر
ك به شفيت غليل صدري
هذا الصنيع عظيم شكري

لمن الديار؟

لمن الديار يُلْحَنَ في الصَّحاحِ
عَبَثَتْ بها أيدي البلى فترَكْنَها
ولقد وقفتُ بها المطيَّ مسائلاً
أَقْتافُ آثاراً لهن دوارساً
لما تبيَّنتُ المعالم هُمَداً
فسقاك مرتكز الغمائم صُوبه
حيَّ الديار وإن تحمَّلَ أهلُها
عهدي بها والعيش أخضر ناعمٌ
مَغْنَى أنيقاً للحسان وروضةً
كم قد لثمتُ بها المراشف آخذاً
ولكم لهوتٌ من الحسان بغادةً
لِعَبَتَ بهنَّ روامس الأرواح^١
في العين أخفى من دريس نصاح^٢
شجراتٍ واديها وهنَّ ضواح^٣
كانت إليها غُدوتي ورواحي
هَطَلت مدامع طُرْفِي السَفَاح
غدقاً بكل عَشِيَّة وصباح^٤
عنها وأمست مُوَحِّشات بطاح
والشملُ تجمعه يد الأفراح
نبتت بكل عرارةٍ وأقاحي
بهضيم خَصِرٍ جال تحت وشاح
لمياء ترشِفني شمول الراح^٥

١ الصحاح: المستوي الأجرد من الأرض. والروامس: التي تأتي بالتراب فتدفن فيه ما تقابله. والأرواح: الرياح.

٢ الدريس: البالي. والنصاح: ما يخالط به الثوب من خيط ونحوه.

٣ الضواحي: البارزات للشمس.

٤ المرتكز: المقيم الثابت. والصوب: المطر. والغدق: الكثير.

٥ اللمياء: السوداء الشفة، وهي محبة لدى العرب. والشمول: الباردة.

هل عائدُ زمنٍ أتيت مع المها ما شئت من لعب به ومِزاح
قد بتُّ فيه ضجيع كل غريرة رُوِدَ الشباب من الخرادِ رِداح^٦
أيام تحضرُ بي بمضمارِ الصِّبا فرسُ الشبيبةِ وهي ذاتِ جماح

* * *

ركضوا بميدان التحاسدِ خيلهم وسبّوا من الأعراض غيرَ مُباح
لبسوا النفاقَ لهم دُرُوعًا واعتدوا يتطاعنون من الخنا برماح
أضحوا كماء وشايةٍ وسعاية ومن الضغائن هم سُكاةُ سلاح^٧
كالجاهلية غيرَ أنَّ مغارَهم في نهبِ كل خطيئة وجناح
إصلاحُهم أعياء العقول لأنهم خلقت مفاسدهم لغير صلاح
من كل مرتكب الشنيع ولم يكد يثنيه عنه إذا لحاه اللاحي
أهدى بطُرقِ المخزيات من القطا وأضلَّ ممن آمنوا بسجاح^٨

^٦ الرُّود: الشابة الحسنة، والخراد: الأبقار. والرداح: التامة الخلق.

^٧ الكماء جمع كمي، وهو البطل الشجاع يلبس الدروع. والشكاة بضم الشين: جمع شاك؛ أي شاكِي السلاح، وهو من الشوكة والحدة.

^٨ القطا: نوع من الطير اشتهر عند العرب بمعرفته الطريق. وسجاح: هي ممن تنبئوا كذبًا بعد وفاة الرسول ﷺ.

ليالي الأنس

ذكرتُ ولستُ في الذكرى بناس
بناذٍ تزدهيك به انتظاماً
به اجتمعت غطارفة كرامٍ
يطوف عليهم رشاً رخيماً
براح فيك تبتعث ارتياحاً
يشب لمزجها بالماء وقد
تميت هموم شاربها سروراً
وصاح وجه الندماء كأساً
وغالى في الإباء فمارسوه
فقال، وقد مشت فيه ودبت
لعمرك إن في الصهباء معنى

ليالي بتهنّ مبيت حاس
مقابله الأسرّة بالكراسي
أبوا شيم الخالف والشماس^١
يُغازل مُقلتيه فمُ النعاس^٢
وتنسف طود همك وهو راسي
تكاد تهم منه إلى اقتباس
فتدفنهنّ في حُفر التناسي
إليه فقال: لست لها بحاس
فلان أبيه بعد المراس
دبيب الماء في ورق الغراس^٣
دقيقاً ليس يُعرف بالقياس

^١ الغطارفة: جمع غطريف؛ وهو السيد الكريم. والشماس: المخالفة والعناد.

^٢ الرشأ: ولد الظبي. والرخيم: الرقيق.

^٣ الغراس: النبات مغروساً في الأرض.

الشمس

كأن الشمسَ باخرةٌ مخور تجدُّ السيرَ في بحر الفضاء
ستغرق بعد حينٍ باصطدامٍ يمزق جرمها أو بانطفاء

رئيس الدائنية

الشيخ محمد أبو عبيوب الدائني

الدهرُ بيّن في كتابِ شهادةٍ
أنَّ السّماحةَ والشّجاعةَ والعُلا
شهم تولع بالعطاء بنانه
أسد نمته لآل قيس في العُلا
ورث المكارم عن أبيه ولم يزل
ما زال يُوقد كل يوم في الورى
يهدي جموع المدلجين لسيبه
خلقت من الحسب الصميم أكفه
حمدت وقائعه السيوف بكفه
إن شئ فوق ظهورهنّ إغارة
يلقى الفوارس والسكينة درعه
فخر الكرام على المكارم والندى

بالنور فوق جبينه مكتوب
جمعت لعمرى في أبي عبيوب
مثل الرياح تولعت بهبوب
آباء مجد ليس بالمكذوب
يسمو بصارم عزمه المرهوب
نارين: نار قرى ونار حروب
في الليل ضوء لهيبها المشبوب^١
لعنان سابقة وكشف كرب
والخيل كل مطهم يعبوب
ترك العدو بلوعة المحروب^٢
ويخوض غمر الموت غير هبوب
قامت دعائم بيته المضروب

^١ المدلج: السائر الليل كله أو آخره.

^٢ المحروب: المصاب بالشدة.

للجيش في الغزوات بالمغلوب	للجود مغلوباً تراه ولم يكن
عند الصباح وعند كل غروب	يتفقد الأضياف ملء دياره
في القوم أكبر سيّد معصوب ^٣	كالعبد يخضع للضيوف وإنه
فغدت تعيش بماله الموهوب	عمّ الأرامل واليتامى سيبه
لسرور محزون وجبر قلوب	خلق الكريم ابن الكرام محمد
كان الكريم المعجز الأسلوب	تالله لو كان الكرام بلاغة

^٣ معصوب: متوج.

راقم وما أدراك ما راقم!

أَقَمَّ في الأرض صرْحًا من ضياءِ
وبعد فجسَّم العرفانَ شخصًا
وفي يسراه ضَعُ لوح المعالي
وأجلسه على الكرسي يمحو
وقفَّ وارفع إليه الطرفَ وانظر
بحيث يمسُّ كرسي السماءِ
تردَّى المجد فضفاض الرداءِ
وفي يمناه ضَعُ قلم الذكاءِ
ويُثبت ما يشاء من العلاءِ
فذلك راقمٌ رَبِّ الدعاءِ

* * *

ألا يا كعبة الفضلاءِ يا من
أهمُّ بأن أحيط بهنَّ وصفًا
وأقدمُ أن أتمَّ غلاك مدحًا
وما وقى الثناءَ عليك مُثْنٍ
وما اتَّقدت ذُكاءُ بما يداني
ولو كانت أشعتها تحاكي
بفكرك دوحة العرفان تنمو
وأقسم لو تكون من الدراري
ولولا الصبح يطلع كل يوم
فضائله عظمى بلا انتهاء
ومن لي بالإحاطة بالفضاء
فيرجعني غلاك إلى الوراء
لأنك فوق توفية الثناء
ذكاءك يا إمام الأذكياء^١
شعاعك ما انكسرن من الهواء
كذا الأدواح تنمو بالضياء
لكنت الشمس في كبد السماء
لقلت: الصبح أنت بلا وراء

^١ ذكاء الشمس.

نقش على الماء

كأنَّا على كيس المنون نعيش
لِطامًا وهاتيك القبور خدوش
على الماء من ريح الحياة نقوش
تهدُّ حصونٌ أو تثلُّ عروش
وللموت سهمٌ لا يكاد يَطيش
من العمر كفاً لا تكاد تنوش
جراحات يأس ما لهنَّ أروش^١
حنانك من ظفر الخطوب خموش
نجيف بأدواء الحياة مَريش^٢
وإن عويل الصارخين نَشيش^٣
له مِرْجَل بالحادثات يَجيش
فتزحف منا للحروب جيوش
تساوت مُهود عنده ونُعوش

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده
وما زال وجه الأرض يوسعه الردى
كأنَّ انقلاب الأرض ماء كأننا
لحا الله دنيا كل يوم بأهلها
ترُوحُ سهام العيش فيها طوائشاً
نمدُّ إلى قطف المنى وهي جمّة
ونرجو ومن سيف الردى في رجائنا
وأجملُ بوجه العيش لو لم يكن به
دهانا لرامي الموت سهم مُقرطس
لعمرك إن الدهر تغلي خطوبه
وما الدهرُ إلا للخلائق منضج
كأن جيوش الموت رافقةً بنا
ومن نظر الدنيا بعين اعتباره

^١ الأروش: جمع أرش؛ دية الجراحة.

^٢ المقرطس: المسد للهدف. النجف: السهم العريض النصل. المريش: ذو الريش.

^٣ النشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.

هوة الموت

كأنَّ حياتنا جبل مُطِل
مشيناً فوقه عُمياً فطلَّت
كأنَّ فضاء هذا الكون بحرٌ
ونحنُ لدى تموجها كأنَّا
تبيَّنُ تارةً وتغيَّبُ أخرى
على مهواتِهِ وهي المَمَاتُ
تَهاوَى نحو هُوَتِهِ المشاة
تموَّجٌ فيه هذي الكائنات
فواقع ظاهرات خافيات
فشأنها التفَرُّقُ والشَّتَاتُ

رقت بوصف جمالك ...

ورأتكِ فافتتنت بك العذالُ
حتى كأنكِ للجمال جمال
كيما تراك وغضُّهن محال
للوجد مخترقُ بها ومجالُ
لما رأوكِ وفي العقول خبال
من نور وجهكِ نورهنَّ مُذال
بين النواظر وللقلوب جدال
بجمالِ يوسف تُضرب الأمثال
شوقًا إليك مع النساء رجال
كسرًا وتجهِدُ خَصَرَكَ الأكفال
يرنو فتَرْهَبُ فتكه الأبطالُ

رَقَّتْ بوصفِ جمالكِ الأقوال
وَهَبَ الإله بكِ الجمالَ تَجْمُلًا
كل العيون إذا برزتِ شواخص
وإذا الخَلِيُّ رآكَ عاد بمهجة
كم قد سَفَرَتِ ففي القلوب تولهُ
فَرَموكِ بالأبصار وهي كليلَةٌ
ربطوا الأكفَّ على ضلوع تحتها
لو كنت في أيام يوسف لم تكن
ولقَطَّعت دون الأكف قلوبها
كم قد يجور على جفونكِ سَقْمُها
عجبًا لطرْفكِ وهو أضعف ما أرى

قامت تميس

رقصًا على نغمات المقول الحاكي
لاهٍ وراحت وكل طرفه باك
مليكة الحسن هل عطف على الشاكي؟
ما أحسن الورد؟ قلت: الورد خذاك
تهوى؟ فقلت لها: إياك إياك
يهواك إي وجلال الحسن يهواك
ينفك في هتك عبّاد ونُساك
من بات سهران مشغولاً بذكراك
أسباب دنيائي مع أسباب دنياك!
واخيرتي بين فتان وفتاك!
لما أراك وهل يشفيه إمساكي
ما راقني قط من شيء كمراك
كالكهرباء التي تجري بأسلاك

قامت تميس بأعطافٍ وأوراق
حوراء جاءت وكل في مسرته
شكوت من خصرها ضعفاً وقلت لها:
فاستضحكت وهي تجني الورد قائلة:
وقلت: أهوى، فقالت بالدلال: ومن
واستحلفتني على قلبي فقلت لها:
سحر بعينيك يستهوي القلوب وما
يا ربة الحسن هلاً تعطفين على
ما أطيب العيش في الدنيا لو اتصلت
الحسن يفتن والألحاظ فاتكة
تهفو بقلبي أشواقي فأمسكه
إنني وعندي بكنه الحسن معرفة
أمسى غرامك يجري في عروق دمي

المكتب

تصوّرُ حدائقَ في بهجة
ترقرقُ فيها مياه العلومِ
وهبَّ عليها نسيمُ الفنونِ
فأضحت وأرض كمالاتها
وأُمسَتْ وإنَّ ثمارَ العلاءِ
وطار الفخار بأرجائها
فللمجد وجه طليقٌ بها
غذاء النفوس وطبُّ العقولِ
فتلك إذا ما صورتها
تروق وفي نضرة تعجبُ
جداولَ تجري ولا تنضب
يروح ويغدو بها يلعب
بنبتِ الحقائق تعشوشب
لأشجارِ عرفانها تُنسب
بلايلُ تغريدها مطرب
وحفظُ الجسوم بها يطلب
وحفظُ الجسوم بها يطلب
جليًّا لعمري هي المكتبُ

أقبلت في غلائل

تَريشُ إلى قلبي سهامَ المعاطبِ^١
وقد لاح لي منها حُلِيُّ الترائبِ^٢
وعين مَهَاةٍ وائتلاق الكواكب
ينادونها في الحسن بنت العجائب
فأسفرَ صبح الحسن من كل جانبٍ
نهار مُحيّاها بليل الذوائب
تفوق الدُمي في حسن ذاك التناسب
قلوبُ أسودٍ مدميات الكتائب
لنا بين هاتيك الظباء السوارب
ولا همت يوماً في الحسان الكواعب
ووجدٍ وتَهِيَامٍ وهمٌّ مواظب
وما الشوق إلا حاضرٌ غير غائبٍ

سيوفٍ لحاظٍ أم قسيٍّ حواجبٍ
ورُبَّ كعابٍ أقبلت في غلائل
لها جيدٌ ظبي واعتدالٌ وشيجة
ولا عيبَ فيها غيرَ أن أولي الهوى
نَضَتْ عن محياها النقابَ عَشِيَّة
ومذ نشرَتْ سودَ الذوائبِ أولجت
تناسبَ فيها الحسن حتى رأيتها
مُفْتَرَّةَ الأجفان تُدْمِي بلحظها
فلم أنسها والله يوم تعرّضت
وما كنت أدري ما الصبابة قبلها
فأصبحت فيها ذا غرامٍ ولوعة
وما الصبر إلا غائبٌ غير حاضر

^١ راش السهم: عمل له ريشًا.

^٢ الترائب: وهي جمع تريبة؛ أعلى الصدر حيث يوجد العقد.

كل امرئ وصديقه

يُصَانُ لَدَيْهِ الْمَالُ وَالْدِينَ وَالْعِرْضُ
كَمَا عَنْ شَتُونَ الْقَلْبِ قَدْ أَنْبَأَ النَّبِضُ
وإِلَّا فِذَاكَ الْحَبُّ آخِرُهُ بُغْضُ
ثَلَاثًا عَسَى ذَلِكَ الْفِعْلُ يَنْقُضُ
فَرَفُضُ الَّذِي دَامَتْ إِسَاءَتُهُ فَرُضُ
عَلَى جُرْفٍ هَاوٍ يَوْسَسُ يَنْقُضُ
فَلَا يَكُ مِنْهَا خُلْبًا ذَلِكَ الْوَمُضُ

تَحَرَّ إِذَا صَادَقْتَ مَنْ وَدَّهَ مَحْضُ
فَكُلُّ خَلِيلٍ مَنْبِئٍ عَنْ خَلِيلِهِ
وَبِالْصَّدَقِ عَامِلٌ مَنْ تَحَبَّ مِنَ الْوَرَى
وَسَامِحٌ صَدِيقًا قَدْ أَسَاءَ بِفَعْلِهِ
وَبَعْدَ ثَلَاثٍ دَعَا غَيْرَ مَسَامِحِ
وَقَوَّ أَسَاسَ الْوَدِّ بِالصَّدَقِ فَالَّذِي
وَإِنْ وَمَضَتْ لِلْخَلِّ مِنْكَ سَحَابَةٌ

النفس الأمارّة

نهيتك عن هواك فما انتهيت
فيا نفسي عن الشهوات كُفّي
وما أمارّة بالسوء يوماً
إذا ما حلّبة الحسنات جاءت
فإن أسدى الإله عليك عفواً
ولكن قد فعلت كما اشتهيت
فأنت عليك يا نفسي جنيّت
سعت في المنكرات كما سعيت
رأيتك أنت صاحبة السكيت^١
وإلا يا فجار فقد هويت

^١ السكيت: آخر خيل الحلبة.

الأنس في غير موقعه كدر

وصاحبٍ قد دعانا أن نُلِمَّ بِهِ
في ليلةٍ كان فيها الحرُّ متقدِّماً
وكان ذلك في دارٍ يَضِيقُ بها
كأنها مَفْحَصٌ تأوي القطاةُ له
فما عَهدت طَروباً قبل زورَتِها
ومطربات الأغاني وهي واقعة
مستأنسين بضرب العود والوترِ
ترمي جَهَنَّمُ الأجسام بالشرِ
صدرُ الأغاريد من ضيقٍ ومن صغرِ
أو جُرَّ ضَبٌّ بأرض صُلْبَةِ الحجرِ
تلقاه في نغمات العود في ضَجَرِ
في غير موقعها ضرب من الكدرِ

^١ مفحص القطاة: بيتها، والقطاة: نوع من الطيور يشبه الحمام.

الدمع والنار

وحتامَ نار البين في القلب تُلَهَّبُ؟!
ودمع له في عارضِيّ تَصَبُّبُ
سوى دمعهُ فهو الدواء المجرب
عليّ به يومٌ شديد عَصَبُصَبُ^١
محيًا له كل المحاسن تُنْسَبُ!
وشمس الضحى في ضوئه تتحجَّبُ
وأنت كما شاء الجمال محبب
نسيمٌ وأبكي كلما لاح كوكب
ويعزبُ عني الصبر أيا ن تغرب
به صرف دهرٍ لم يزل يتقلب
صفا فيه من وقع الشوائب مشرب
رأى الغدرَ من أصدقاءها يتحلَّبُ

إلى كم تصبُّ الدمع عيني وتسكُبُ
أبيت ولي وجدٌ يُشَبُّ ضرامهُ
وهل لِمَشُوقِ خانهُ الصبر عنكمُ
ألا إنَّ يومًا جَرَدَ البينُ سيفهُ
فيا ليت شعري هل أفوز برؤيتي
وعينيك لا أسلوكِ أو يصبح السها
فإنني كما شاء الهوى بك مُغرَمُ
أجنُّ إلى رؤياكمُ كلَّما سرى
وأذكركم للشمس عند طلوعها
لقد بان صبري يوم بينك إذ قضى
تبصَّرَ خليلي في الزمان فهل ترى
ومنَ نظر الدنيا وجربَ أهلها

^١ عصبصب: شديد.

البصرة

إياك والبصرة المُننى توطُنُها
لا تعجبَنَّك بالأشجار خُضرتها
ما إن أقام صحيح في مساكنها
ماء زعاقٌ وجوٌ قاتم وهوى
انظر تجد كلَّ أهلِها كأنهم
صفر الوجوه قد امتصَّت دماءهم الـ
فلا تَمُرَّ فيها غير مَظطعٍ^١
حسنًا فما هي إلا خضرة الدَّمِنِ
إلا وسافر عنه صحة البدنِ
نَتَنٌ وشدةٌ حرٌّ غير مُؤْتَمَنٍ
من السَّقام استحقوا الدَّرَج في الكفنِ
حَمَّى وقد حرمتهم لذة الوَسَنِ

* * *

يَلقى النزيلَ بوجه قُدَّ من حجر
أفيك يا غمرُ يلقى الشعر مأمُله؟!
ما لي أراك على الكرسيِّ منتفحًا
لولا العبوسةُ لم يُفَرِّق من الوثنِ
يا خيبة الشعر بل يا ضيعة اللسنِ!
إن كان فيك احتباس الريح فاحتقنِ؟

^١ المظطعن: المسافر.

الحرفى فى أغسطس

قد كاد بالحرِّ هذا اليوم يصهرنا إذ قد بدا فيه للرمضاء تسعير
كأنما الشمس جاعت فَهْي من سَغِبٍ تُشَوِّى الجسوم لها والأرض تنُّور

البرد في كانون

لله يومٌ جاء يَلْسَعُ بَرْدُهُ فكأنَّ ذرَّاتِ الهواءِ عَقَارِبُ
لم تَلَقَ شيئاً فيه ليس بجامِدٍ إلا احتمالَ البردِ فيه فذَائِبُ

معلقة وقد قالها ارتجالاً

انظرُ إلى تلك المعلقة التي
قطعُ من البلور مُحدقة بها
فكأنها بدر تلاًل في الدجى
بل قد يُمثلُّها الخيالُ كأنها

سترتُ ظلامَ الليلِ بالأضواءِ
يحكين شكلَ أصابعِ الحساءِ
وكأنهنَّ كواكبُ الجوزاءِ
قمرٌ أحيط بهالةٍ بيضاءِ

قد يطفح اللؤم

يَنسَى الحياءَ فيغدُو يدَّعي الكرما
رأى الضلالَ هُدًى واستسَمَن الورما
إن لم يكُ السيفُ يعلو منهم القمما
حي ادَّعتُ وهي أذنا ب لها الشمما
أو عُدتَّ الطيرُ ما كانت ولا رخما
في الخلقِ بونٌ فذا أرضٌ وذاك سما
والقين يَطبع منه السيفُ والجَلما^١

قد يَطفحُ اللؤمُ حتى إنَّ صاحبه
إن الجَهالة إن كانت قدَى بصيرٍ
ما لِلغواةِ ارعواءٌ عن غوايتهم
كم من أراذلٍ أَطغَتْها سَفاهَتُها
إن عُدتَّ الوحش ما كانت ولا بقراً
والناسُ كالناس في خَلقٍ وبينهم
مثلُ الحديد وما امتازت حقيقتهُ

^١ القين: الحداد. والجلم: المقص.

اللؤم يهجو بعضهم

اللؤمُ داءٌ في النفوس عيَاءُ
لو كان في الدَّاءِ كُلُّ عيوبه
ولو أنَّ في كَرَّةِ الهواءِ طباعه
أَلْقَتْ عليه يدُ الزمانِ مخازيأَ
وجهُ أقام الدهرُ فيه من الخنا
يا ماشياً يختال في غلوائه
هَبْ غفلةَ الجهلاء عنك طويلة
لم يَشْفِ منه سوى الحمام دواءُ
بل بَعْضهن لَأَنْتَنَ الدَّاءُ^١
فسدت فمات بِنَتْنِها الأحياءُ
منها تلوح بوجهه الفحشاء
سِمةٌ فعاد وليس فيه حَياء
«أَطْرَقَ كرى» ما هذه الخيلاء؟!
أَفَلَيْسَ تعلم خَزِيكَ العقلاء؟!

^١ الدَّاءُ: البحر.

تَجَنَّبْ

تَجَنَّبْ من سَقِيمِ الرَّأْيِ قُرْبًا
ولا تَرْضَ الصَّدِيقَ لِحُسْنِ خَلْقٍ
وذي سَفَهٍ أَكْبَّ على المَخَازِي
تَرْوِجَ الْمُخْزِيَّاتُ لَدَيْهِ حَتَّى
أَطَافَ بَغْيُهُ وَأَبَاحَ شَتْمِي
وَأَغْرَاهُ الضَّلَالُ فَكَانَ مِنِّي
فَمَتَّ فِي نَارِ غَيْظِكَ مَسْتَشِيطًا
سَأْضَرَمُ فِيكَ يَا لُكْعُ الْأَهَاجِي
تَجَمَّعَتِ المَخَازِي فِيكَ حَتَّى
ولا تَغْتَرَّ بِالْبَدَنِ الصَّحِيحِ
إِذَا مَا كَانَ ذَا خُلُقٍ قَبِيحِ
وَمَا قَبْلَ النَّصِيحَةِ مِنْ نَصِيحِ
تَبَاعَ إِلَيْهِ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَكَانَ الشَّتْمُ أَجْدَرَ بِالمُبِيحِ
كَمَا كَانَ الْيَهُودُ مِنَ الْمَسِيحِ
فَلَسْتُ مِنَ الْهَجَاءِ بِمُسْتَرِيحِ
كَنِيرَانِ تَشَبُّ تَجَاهَ رِيحٍ^١
يُعِدُّ الْهَجْوُ فِيكَ مِنَ الْمَدِيحِ

^١ اللكع: اللثيم.

في المسرح

بدت في مسرح رَحْبِ البلاط
فجالت من ضفائرها بتاج
ولا أنسى تورّد وجنتيها
فقلنا وهي تخطر في وقار
وقد سجدت لها الأنظار لَمَّا
وكبرنا المهيمَن حين راحت
سقت أعصابنا خدرًا وطارت
مشّت مشي الحمامة فوق سلك
وبارت فوقه خفقان قلبي
فخلناها وقد خلبت نهانا

بقضبان مُشَبَّكَة مُحَاطٍ
وماست غير ضافية الرياط^١
وقد برزت تميم على البساط
ملك الحُسن يخطر في البلاط
أرتنا الحُسن يرقل في القباطي^٢
تصوّل على الضياعم بالسيّاط
مرفرفة بأجنحة النّشاط
تهوّل عليه أن تخطو الخواطي
بحاليّ ارتفاع وانحطاط
تعلمنا الجوّاز على الصراط

^١ الرياط: جمع رِيطة، وهي الملاة إذا كانت قطعة واحدة ونسجًا واحدًا.

^٢ القباطي: جمع قبطية بالضم، وهي ثياب من الكتان، ومنسوبة لقبط مصر.

شكر ووداع

وإن لم تطق شكرًا فلا كنت من شعرِ
بمعناك نور الشمس يُشرق والبدر
بها مثلما حام الفراش على الزهر
برأس عمودٍ خذه من غرة الفجر
عليّ فنبّ يا شعر عنّي في الشكر
وربّك لم أحسب سواهن من عمري
غفرت الذنوب الماضية من الدهر
عليّ ففي بيروت كم لك من عذر
بكل كبير النفس ذي خلق حر
ومن سروات القوم في أنجم زهر^١
مُفارقكم لا عن صدودٍ ولا هجر
إليكم لأشواقًا أحرّ من الجمر
كفتك الملوك المستبدين بالأمر
وأنكر في يوم النوى حكمة الصبر
توارثتموها عن جُود لكم غر

أعرنّي لسانًا أيها الشعر للشكر
وجئني بنور الشمس والبدر كي أرى
وحُمّ حول أزهار الرياض تطيَّبًا
وقُمّ في مقام الشكر وانشر لواءه
فإن لبيروتِ حقوقًا جليّة
فإنني ببيروتٍ أقمتُ لياليًا
وقضّيتُ أيامًا إذا ما ذكرتها
لئن تكّ في بغداد يا دهر مذنّبًا
قرأت بها درسَ المكارم مُعجبًا
فكنت بها من باذخ العزّ في الذرا
وداعًا وداعًا أيها القوم إنني
لئن أزفَ الترحال عنكم فإن بي
أودّعكم والشوق بالصبر فاتك
أحبكم قلبي اعترافًا بفضلكم
ولا غرو أن أكرمتُم الضيفَ شيمّة

^١ سروات القوم: سادتهم.

أَلَسْتُمْ مِنَ الْعُرْبِ الْأَكْلَى طَارَ صَيْتُهُمْ	إِلَى حَيْثُ يَبْقَى تَحْتَهُ طَائِرُ النَّسْرِ
أَعَارِيْبُ نَهَّاضُونَ فِي طَلَبِ الْعُلَا	غَطَارِيْفُ سَبَّاقُونَ فِي حَلْبَةِ الْفَخْرِ
سَأَذْكُرْكُمْ ذَكَرَ الْمَحَبِّ حَبِيبَهُ	وَأَشْكُرْكُمْ شَكَرَ الْجَدُوبِ نَدَى الْقَطْرِ
فَلَا تَحْرِمُونِي مِنْ رِضَاكُمْ فَإِنِّي	إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ مَا حَيِّتُ لَذُو فَقْرٍ

إلى إيناس الوزير

إيناس إنَّ مزاياك التي عظمت
أخالُ بيتيَ لمَّا جئتَ زائرَه
آنستني بخصالٍ فيك طيبة
كم أوحشتني الليالي في تصرُّفها
أدامك الله يا إيناسُ تذكرة
قد كان يأسو جروحًا فيَّ دامية

صارت بها تضرب الأمثال في الناس
كأنَّ وجهك فيه نور نبراس
بحسنها أنعشت فكري وإحساسي
فزال إيحاشُها عني «بإيناس»
لوالدٍ فات فضلًا كل مقياس
واليوم عندي جروحٌ ما لها آس

في مآدبة آل لطف الله

مما أنشد ارتجالاً في المآدب التي أقيمت للوفد العراقي بمصر سنة ١٩٣٦.

في آل لطف الله لطفٌ ساحرٌ في الخلق والأنظار والأفواه
لله درُّهم لرفعة قدرهم فلذا تسمُّوا آل لطف الله

في مآدبة عبد الرحمن عزام بحلوان

المجد والفضل منشوران في علم	على بيوت بناها آل عَزَامِ
لما حللنا ضيوفاً في مَرابعهم	نلنا بها كل إعزاز وإكرام
فسوف نشكرهم شكراً نخطُّ به	لمجدهم سطر إجلال وإعظام

في مآدبة نظلة الحكيم

نحن ضيوف لذات مجدٍ لها طباع مهذبات
والمحسن في خلقها المَعْلَى مؤتَلٍ خالص صميمٍ
أرقُّ من خطرة النسيم كالحسن في وجهها الوسيم

الكرخي ومن كذب في منعه

تعيش بها عيش حر سعيد
لها في الأناشيد مرمى بعيد
وبالمبكيات التي لا تبديد
لها قَدْ عنا كل خصم عنيد
فمن ذا زهير ومن ذا لبيد؟!
مدحت بها كل شهم مجيد!
صفعت بها كل غاوا بليد!
ويُثني عليك بما لا مزيد
يببتون منك بغيظ شديد
يريدون للشعر ما لا يريد
لدى الناس عادوا بغيظ جديد
بعمر جديد وعيش رغيد

أَعْبُودُ إِنْكَ ذُو فَطْنَةٍ
قريحة شعرك فياضة
أُتيت من الشعر بالمضحكات
فأعربت للناس عن قدرة
تقدمت فيها على السابقين
فكم لك في المدح أنشودة
وكم لك في الهجو أعجوبة
يباهي بك الكرخُ أبناءه
ولكنَّ حسادك الخاسرين
أشاعوا نعيك من غيظهم
ولما تبين إخفاقهم
فعش وادعاً رغم أنافهم

من خواطر الماضي

ونزّهت نفسي فيه أن أتكذبا
مع الزمن الغاوي إذا ما تقلبا
أبيت لرأيي أن يكون مذبذبا
أرود العلا فيها وطورا مغربا
بهم كنت في شتى المواطن مُعجبا
ككرد عليّ في الرجال مُهذباً
بآدابه منذ الشبيبة والصبا
يؤانسني بالمتع الغضّ مُطربا
بمقتبس من نوره ما تحجبا
لمجمعها أمسى الرئيس المرتبا
سواك إليها يا محمد مُعربا

تعودت إنشادي القريض المهدبا
ومن أجل حبي للحقيقة لم أكن
ومن أجل جهدي في استقامة منطقي
وسافرت في البلدان طورا مشرقا
وصاحبت من عربٍ وعجمٍ أفاضلا
فلم أر في عربٍ وعجمٍ لقيتهم
هو العالم الحبر الذي كنت مغرما
فقد كان في مصرٍ صريرُ يراعه
وكم كنت في الآداب والعلم كاشفا
إلى أن أنار الشام بالعلم عندما
إذا معجمات العلم عيّت فلا نرى

صورة

زهرة قد بدت من الأكمام
وتراءت فيها الحقيقة حسناً
إن تجريدها من الثوب يحكي
هي كانت قبل التجرد منه
إن قدس الأقداس يغضب من أن
وأشد الكفر الذي هو رجس
ضلة جاهلية أنكرتها

* * *

انظر الصورة التي انتزعتها
تلق فيها الجمال يضحك ضحكاً
وترى نفسك الكئيبة منها
أنت منها في نشوة المتحسّي
منظر يترك الجوانح مناً
«ويرد الوجوه مستبشرات
«يبهج النفس إذ يحرك منها

* * *

خلعت ثوبها وأغضت حياء
فأرتنا خلعة في احتشام

جلست جلسة الحيّ وأبدت	بالتعريّ بداعة في الوسام
ما أُحيلَى إغضاءً جعلتها	كغريق في لجة الأحلام
يتعامى عنها الحياء حياء	ليراها بحيلة المتعامي
لسقوط الرداء عن منكبيها	نَهَضَ الفنُّ قائمًا باحترام
«وغدا الحب راقصًا بابتهاج	وجرى الشعر شاديًا بانسجام»

* * *

«إن هذا الجمال شيءٌ عجيب	حيرة في العقول والأفهام»
«بين ألوانه وبين قلوب النا	س جذب ذو حرقة واحتدام»
«وهو في الحب صادق الأمر والنهـ	ي مطاع في النقض والإبرام»
«إن يشأ فالصغار غير صغار	وعظام الرجال غير عظام»
«هو نور يضيء في أوجه الحب	ويهدي إلى طريق الغرام»

عصاي الفتية

قد أتتني من «مظهر» لي هديه
حلية ذات صنعة عبقرية
مُعرب عن مودة أخويه
فلذا صيغ رأسها رأس حيه
بعدما كنت ماشياً كالحنيه
موثق بالوشائج الأدبيه
لكريم من أسرة حميريه

أنا شيخ وذي عصاي فتية
صاغة «الصابئين» قد ألبسوها
وشعاراً من «مظهر» بكلام
هي تحكي عصا «ابن عمران» قدراً
فسأمشي بها قوياً سويّاً
وستبقى الذكرى بها لإخاء
ألبستني كرامة بإخائي

النشيد الوطني

نحن خَوَّاضو غمار الموت كشافو المحنْ
ما لنا غير اكتساء العز أو لُبْس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياءِ الوطن
هل سِوَى الأرواح للأوطان في الدنيا ثمنْ؟!
يا ضَلالاً لِلأُلَى لم يكونوا له الفِدَى
إن نُمْتُ نحن فلتعش ولتحيا أوطاننا

إلى عبد الستار القرغولي

هاك عبد الستار حَقَّكْ إني
غير أني ذهلت عنه وصدقي
لست من منكرين ثابت حَقَّكْ
في ادعائي هذا مقيس بصدقك
عاشق شعرك البليغ كعشقك
إن تكن قد عشقت شعري فإني

دمعة على قبر الزهاوي

أيها الفيلسوف قد عشت مضمناً
ما حياة العظیم إلا خلودٌ
سوف یبقى بین الوری لك ذکرٌ
أنت فردٌ فی الفضل حياً ومیتاً
سوف أبکی علیك شجواً وإنی
مثل میتٍ وصرت بالموت حياً
بعد موت یكون للجسم طياً
ناطق بالبقاء لم یخش شیاً
حزت فی الحالّین ذكراً علیاً
كنت أبکیك فی الحیاة شجياً

في مدرسة الإمام الأعظم

مما كتب إلى العلامة الشيخ سعيد النقشبندی مهنتاً له بتعيينه مدرساً في مدرسة الإمام الأعظم أبو حنيفة:

قد ازدهى للعلم تدريسُ
واتّضحت معالم العلم لا
بِعالم الآفاق من ربه
سعيد الذي له السعد قد
العالم العيلم من لم تزل
يولج أهل الفضل في قصده
ويطرده الجهل به مثلما
فلا تسل عدّ معاليه إذ
وقل لمن حاول تعدادها:
يحصي الحصى عدّاً ولكنها
القذم الخطريف لا شك في
يبسم إن جئت ولكنه
وليس للقانص علماً سوى

وزال عن طلّابه البوسُ
يوجد رسم منه مدرّس
له على كيوان تأسيس
طأطأ رأساً وهو مرموس
تُحدي إليه النجب العيس
ويعقب الإدلاج تغليس
يطرد بسم الله إبليس
تضايقت عنها القراطيس
عقلك في جهلك مظموس
لها عن الإحصاء تقديس
رؤيته للكرب تنفيس^١
ذو هيبة تحذرهما الشوس
محفله الحافل ناموس

^١ القذم: السيد المعطاء الكريم.

كم أذعن الخصم له طائعا	وانقاد للإيمان قسيس
كم واصل في العلم قال له:	أنت رئيس وهو مرءوس
وليس للبرهان في حاجة	إن ضياء الشمس محسوس
أنت سليمان العلا والنهي	أصف والآداب بلقيس
أنت لا غيرك في خطة الـ	علم لداء الجهل نقريس
ونور أقمار سماء العلا	من شمس عرفانك معكوس
وإن يكن لللفظ درّا فلا	نَعجبُ إذ صدرك قاموس
لو لم يكن مدحك في الشعر لا	يزدان تشطير وتخمس
ومذ حوى مدحك شعري له	بالعقد ذي الترصيع تجنيس
قلت وفي روضة إنشاده	روح التهاني لك مغروس
أرّخ ودام لسعيد لدى	إماننا النعمان تدريس

شكر ومدح

وكتب إلى حسين فوزي النائب بعد تناوله الكتاب الذي استعاره منه:

تشكُّراً لفضلك المستطابُ
أنك غيث نائل ذو انسكاب
فيك بحال عنفوان الشباب
شمس علا ما حجت في ضباب
شكراً لإرسالك ذاك الكتاب
كما تسلُّ مرهفًا في قراب
وأنت نُبتٌ عن هموم السحاب
قد هديت بعلمه للصواب
أماط بالفطنة عنها الحجاب
بفكره الثاقب مثل الشهاب
حيث أتاها بالعجيب العجاب
وأوتي الحكم وفصل الخطاب
برأيه الصائب إلا أصاب
كالصارم المشحوذ منه الذباب
إنك فرع أصل ذاك المهاب
وقد زكى العنصر منكم وطاب
من شرف المحتد إلا الذناب

أهدي إليك يا عظيم الجنا ب
فيا حسين صحَّ عند الورى
قد جمع الله جميع الندى
فأنت في أفق سماء العلا
وإنني أشكر طول المدى
جردتني عن ثوب فقري له
ناب أبوك عن علوم الهدى
علامة العصر جميع الورى
فكم وكم معضلة أعجزت
وكم جلا غامض علم لنا
قد بهر الناس بعرفانه
وفاق في الآراء أهل النهى
لم يقطع الأمر لنا حاكمًا
فهو لعمر الله في قطعه
فكيف لا أمدحك اليوم إذ
وأنتم أمجاد هذا الورى
وأنتم الرأس وما غيركم

ومنكم الفضل وأنتم له	وما سواكم فيه إلا سراب
والله ذو الفضل من المجد قد	ألبسكم في الناس أبهى نقاب
فأشهد الله وكل الوري	أني إلى أحسابكم ذو انتساب

القدوم المبارك

وكتب للعلامة الشيخ سعيد النقشبندی عند عوده من سامراء إلى بغداد للتدريس بمدرسة الإمام الأعظم:

ألا قد سرُّ طالبُ كل علم	ومن بذل النفائس في طلابه
صبيحة شرَّف الزورا سعيد	بمقدمه المبارك من غيابه
وتدريس العلوم لطالبيها	لدى النعمان عاد إلى جنابه
هو البحر الخضمُّ بغير حدٍّ	فرائد كل علم في عبابه
فقلت: بمعرض التاريخ بشرى	وأمر الدرس عاد إلى نصابه

إلى حسين النائب

وكتب إلى حسين فوزي النائب يستعير منه كتابًا:

سؤال الورى الوهَّاب يا ابن الأماجدِ	رفعت أكفِّي نحو فضلك سائلًا
وحقك لم أمدد لغيرك ساعدي	ومن قبل هذا يا ابن أعلم عصرنا
بديوان شعر ابن الحسين فساعد	فقد عرضت لي يا حسين لُبانةً
فلي فيه يا ذا الفضل بعض المقاصد	وجُد لي به بعض الزمان إعارَةً
لكل بني الغبراء يا ذا المحامد	ولا زلت مأوى للعفاة ومرجعًا

إلى الدكتور زكي مبارك

إذا أطرى الأنام فتى أديباً
وعلم لا أشبهه ببحر
لقيت به أخوا أدبٍ وعلم
زكا نفساً فقيل له: زكيُّ
يمجُّ يراعه في الطرس ليلاً
أقام «بنثره الفني» جسراً
جلا بذكائه سدف المعاني
وخاض عباب بحرٍ من بيانٍ
إذا قرع المنابرَ يوم حفلٍ
أصاخوا نحوه وقد اشرأبوا
إذا افتخرت به مصرٌ وتاهت

فَلابُنْ مباركٍ أدبٌ غزيرُ
فقد نضبت بجانبه البحور
له شبه وليس له نظير
وبورك فالمبارك منه خير
يشق دجاءُ صبحٍ مستنير
لمن في الفن أعجزه العبور
كأن ذكاءه للفهم نور
تحوم عليه من بدع نسور
رأيت الناس من فرح تمور
أكفهمُ تصفق أو تشير
فكل بني العراق به فخور

تخليد العظماء

قالوا: نخلد ذكره بحديقةٍ ونضيفها في التسميات إلى اسمه هذا لعمر الله جهل تضحك الـ إن الحقائق لا تخلد باسمها ما نفع تسمية الأماكن باسم من من فاته غُرُّ المساعي فإنه إنَّ المعالي ما لهنَّ مآثر هل تُذكرُ الأشجار من بعد البلى والذكريات إذا أتت بشهوها من سار في دنياه سيرة مصلح من عاش في خطط البلاد مؤثرًا غنَّاء فيها تنبت الأزهار حتى يكون له بها تذكار عقلاء منه وتهزأ الأحرار من لا تخلد ذكره الآثار خَلَّتِ الضمائر منه والأفكار بعد الممات بغيرها الإنشار مثل الليالي ما بها أقمار إلا بما انتضدت بها الأثمار! حسن السماع وأُحْمِدَ التكرار لهجت بخالد ذكره الأمصار أحيته بعد مماته الآثار

بين الرصافي والشيخ الراوي

أرسل المرحوم الشيخ إبراهيم الراوي قصيدة إلى المرحوم الرصافي، من جملتها البيت الآتي:

وأشعر أهل العصر عندي بلا مرا جميل الزهاوي والرُّصافي المقدم

فنظم الرصافي القصيدة التالية وأرسلها إلى الشيخ الراوي:

للسيد الراوي إبراهيم	فضل أظل الخافقين عميما
ومناقب لهج الرواة بذكرها	وبها استحق من الورى تعظيما
شيخ إذا جالسته في مجلس	جالست منه مرشداً وحكيما
وإذا نظرت لشخصه متأملاً	أحسست فيك لشخصه تعظيما
داوى قلوب ملازميه بهديه	فأصح منها ما رآه سقيما
يا أيها الشيخ الذي قد أدرك الـ	مجد المؤثر حادثاً وقديما
أرسلت مألكةً إليّ كريمة	ضمّنتها الدرّ النضيد نظيما
أحسنْتَ ظنك بي وحسن الظن من	تلقاء مثلك يوجب التقديما
شكراً على شعرٍ إليّ بعثته	فشفيت من قلبي الكلوم كلوما
شيم الكرام ورثتها من هاشم	تركت فخار مفاخرِك هشيما
أدنى احترامك أن تخصص بالعلا	وأقل مدحك أن تُعدَّ كريما

إلى الشيخ قاسم القيسي

تذكرت عهدًا في الصبا مرَّ كالْحُلْمِ
بفكري ودمعي جاهد النفس والجسم
وأنتابه للرشف من منهل العلم
شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
فتثقف منها كلَّ ما اعوج من سهم
بلقياه عني غمة الغرم والغنم
يكن فائزًا بالعلم والأدب الجم
وما شاء في التقرير من صادق الحكم
من العلم طودًا فوق أطواده الشم
ورأيتُ سديد لا يحوم على الوهم
رماها بسهم من فطانتَه مصمي
فبورك في الآباء من والد شهم
فجاء ابنه قرمًا تولد من قرم
ينيف بها رأيًا على ثاقب النجم
سقاك السحاب الجون بالوابل السُّجْمِ

إذا قاسم القيسي مرَّ بخاطري
تذكرته إذ كنت للعلم طالبًا
فقد كنت أحيانًا أزور فنائه
وكم زرتَه في جامع الفضل راجيًا
إذا زرتَه يومًا نثلت كنانتي
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلت
هو العالم الحبر الذي من يُلذُّ به
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا
بقية أعلام مضوا وكفى به
له نظر في غامض العلم شامل
إذا ما نحا في العلم قتلَ عويصةٍ
نماه أبوه الشيخ أحمد للعلا
فقد كان فردًا كابنه في ذكائه
وكان بتقسيم المواريث عالمًا
فيا رمسه هنا بالذي أنتَ رامسُ

تقريظ كتاب القيسي

هذا كتابٌ قد تبدّأ جامعا
كشفت فوائده وهنّ فرائدُ
أبدت بدائعہ براعة قاسم
بحر تلاطم بالفنون وبدره
هذا لعمر أبي سحاب علومه
حكماً تبين للنحاة التابعا
عن وجه غانية المرام براقعا
من راح في طرق المعارف بارعا
لا زال في برج السعادة طالعا
قد سح للطلاب غيثاً نافعا

الرصافي يحيي وفد مصر الشقيقة

أتى من مصر طُلُعَتْهَا بُنُ حَرْبٍ فأهلاً بالمدلل كل صعب^١
وأهلاً بالذي ادَّخَرْتَهُ مِصْرُ لدفع مُلِمَةٍ ولقرع خطب

* * *

هو الرجل الذي في مصر قامت له همم تنفّس كل كرب
تعهد بالمساعي الغر مصرًا فبدل جذب تربتها بخصب
أحبّ بلاده فسمعت منها له شكر الحبيبة للمحب

* * *

لقد شاهدت مبتهَجًا بعيني له في مصر آثارًا كبارا
ففي «الكبرى» له متحركات تخلد في البلاد له الفخارا^٢
معامل مارست غزلًا ونسجًا فأغنت في صناعتها الديارا
وفي الإسكندرية باخرات له في البحر تبتدر السفارا
وأما بنك مصر فذاك أمر به قد جل «طلعت» أن يبارى

^١ زار العراق سنة ١٩٣٦ وفد مصري يرؤسه المرحوم طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر وشركاته العديدة التي عادت على مصر بنتائج طيبة ما زالت تذكر فتشكر.

^٢ يريد بالكبرى: «المحلة الكبرى»، وهي مدينة مزدهمة بالمعامل ويعود الفضل في تصنيعها إلى المرحوم طلعت حرب باشا.

* * *

إذا ما مصر في المال استقلت فلا تخشى التأخر في السياسة^٣
فإن المال أكبر ما يرجى به نيل السيادة والرئاسه
إذا ما الشعب كان أسير فقر فما تجدي السياسة والحماسه
أصبح في سياسته طليقاً أسيرٌ أوجب الفقرُ احتباسه؟

* * *

رجال النيل حُييتم رجالاً بما للعرب فيكم من سمات
بكم طرب الفرات وقال جهراً لوادي النيل: إنك من لداتي
كلانا جاريان على سهولٍ بأبناء العروبة أهلات
كلانا في الإخاء لنا مواضٍ ضمنَّ لنا النجاح بكل آت
وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات^٤

* * *

لقد زرناكم قبلاً فكناً على نشر التجلة والكرامه^٥
فمن بيت يمدُّ به سماطٌ ومن وجه تضيء به ابتسامه
وما هذا لعمر الحق منكم ببدع بل لكم فيه استقامه
وما زرناكم لكبير ملك ولكن للأخوة والشهامه
ألا فلتحي مصرُ فنحن نرجو لكم فيها السعادة والسلامه

* * *

وكم في مصرَ من بطل سواكم يسير بها على خطوات سعد^٦
وكم راقٍ بها في جو علم فيستهدي لأنجمه ويهدي

^٣ يشير إلى أن الاستقلال الاقتصادي هو أهم من الاستقلال السياسي.

^٤ يريد بسيدة اللغات: العربية.

^٥ يشير إلى زيارته مصر ممثلاً العراق في آذار سنة ١٩٣٦ وإلى الحفاوة التي لقيها.

^٦ زعيم مصر سعد زغلول مؤسس حزب الوفد وباعث النهضة السياسية.

وكم ساعٍ لها بخطا ابن حربٍ ليسعدها بما يَقْنِي ويجدي
ولكنَّ ابنَ حربٍ في دجاها كبدر الأفق حلَّ ببرز سعد
فكيف تكون مصرٌ في أسار وفيها اليوم من يحمي ويفدي؟!

